

G U Y S O R M A N

غي سورمان

أبناء رفاعة الطهطاوي

مسلمون وحداثيّون

ترجمة : مرام المصري

أنباء رفاعة الطهطاوي - مسلمون وحداثيون

غي سورمان

ترجمة

مرام المصري

مقدمة

إسلامان

نيويورك: ألاَ يعودُ اختيارُ هدفِ تفجيرات 11 سبتمبر 2 0 0 1 إلى سنة 1 9 4 8؟ في هذه السنة، توجَّه السيد قُطْب، وهو مُدَرِّسٌ مِنْ أَصلٍ مصريّ، إلى نيويورك من أجل مُتَابَعَة دراساته، وستساهم إقامته، خلال سنتين، في قلب نظرَتِهِ إلى العالَم. إنّ الحالة عاديةٌ، فنيويورك تُزعِجُ وتحفّز العقول، وتُكَهْرِب المُقاوِلين والكُتَّاب والفنانين. ولكنّ قطب لم يستخلص من إقامته الأمريكية الدروس التي يُحضِرُها معه المسافر العاديّ. وهكذا وكما كتب في مذكراته التي سَطَّرَهَا في السجن، فقد تنبّأ بأن نيويورك أصبحت العاصمة السياسية والاقتصادية والثقافية للحضارة الغربية. لقد جاءه الاقتناع بأنّ هذه المدينة صنعتْ لنفسها هويّة العَالَم المستقبلي. فامتلأ حقدا على كل ما رآه واستشعَرَهُ. وعلى كلٍّ، فإنّ نيويورك بدتْ له كنفيٍ للإسلام، من خلال الفردانية ضدّ التضامن الجماعاتي، تحرير المرأة ضدّ إبقائهن في منازلهنّ، المادية ضدّ الإيمان بما وراء الطبيعة. وخلال إقامته الأمريكية تعرّض قطب لبعض مَظَاهِرِ العنصرية التي عارضها بكونيّة الإسلام وشمولية.

فلا شيء، في نظر قطب يمكن أن يتفوق على إيمانه الخاصّ، فنيويورك ينبغي أن تختفي في نوع من القيامة، هذا ما كَتَبَه في مؤلَّفاته، حين عودته إلى مصر. الإسلامُ وحدهُ لا يزال قادرا على إنقاذ البشرية، المُهَدَّدَة من طرف الانحطاط الأخلاقي الذي تمثله وتُجَسّده أمريكا؛ إنّ هذا الخلاص، يَحُثّ قطب الجيل الجديد من المسلمين المنخرطين في حرب مقدسة جديدة، على الالتجاء إلى العنف.

إنّ قطب الذي نفّذ فيه النظام الناصري أمرَ القتل في سنة 1 9 6 6 بالقاهرة، بسبب اعتداء مُفتَرَض على أمن الدولة، هو مُؤَسِّس التمامية الإسلامية المعاصرة. إنّ كتاباته تلهم الأفعال التي نَصِفُها، في الغرب، بالإرهابية، ولكن أتباعَهُ، ومن بينهم بن لادن، مفروضٌ فيهم أن يُنقِذُوا البشرية، وهو إنقاذ عبر الإسلام الذي يتمّ تقديمُه بمثابةِ ديانة كونية، وليس فقط ديانة المسلمين.

إنّ التمامية الإسلامية هي إذاً إيديولوجية حديثةٌ، بسبب ولادتها منْ علاقةٍ صراعيّة مع الحداثة الغربية. وهي كذلك بسبب استخدامها لوسائل العلوم الغربية ووسائل الاتصال كما أسلحتها التدميرية. وهي أيضاً كذلك بسبب ادّعائها أنها تقود إلى حداثة أخرى ترفُضُ أخلاقيات الغرب في الوقت الذي تلتجئ فيه إلى اختراعاته التقنية. إنها مفارقة شبه-حداثة متناقضة تُطَعِّمُ حضارة إسلامية على العلوم الغربية في الوقت الذي ترفض فيه المسعى النقديّ الذي يؤسس هذه العلوم. وأخيراً فإنّ التمامية الإسلامية تتغذّى من فَشَل المحاولات التي بدأت في بداية القرن التاسع عشر في البلدان الإسلامية، من أجل اللحاق بالغرب ومُصالَحَة الإسلام بالحداثة، إن كان ممكنا.

إنّ التمامية، وهو مسعى يائس، مُؤلِمٌ للغرب، وهومؤلمٌ، كذلك، بالنسبة للمسلمين. إنّ تطبيقاتها العملية في إيران والسودان وأفغانستان لم تُنتِجْ، لحدّ الآن، أيَّ نموذج حامل لمستقبل حديثٍ وإسلامي في الآن نفسه، لا بالنسبة لشعوبها ولا لباقي العالَم. فهل من المُبَكِّر إصدارُ الحكم؟ هذه هي حجة التماميين. فكما حدث، في الماضي، بالنسبة لشيوعيي الاتحاد السوفياتي، فإنّ فشلَ

تجربتهم لا يكفي في نظرهم لتدمير شرعية وُعُودِهِم. فإذا كانت الإسلاموية قد فشلت في السودان، فلأنّ البلد، في نظرهم، فقيرٌ وهو ضحيّةٌ لحرب أهلية. وإذا لم تنجح في إيران، فلأنّ إيران شيعيّة ومن الضروري أن تكون سنيّة. إنّ الإسلاموية الراديكالية تشْتَغِلُ مثل كلّ الأيديولوجيات المُنْزَلَة، فهذه لا تَقْبَل أي نقد عقلاني. ومثلما في حالة الشيوعية، فوحده الفشلُ الواضح والمستمرّ هو الذي يستطيع البرهنة على الخطأ؛ إنّ ثمنَ التجريب الكبير جدا على فئران تجارب بشرية كبيرٌ.

ومن حسن الحظّ فإنّ البحث عن توافق بين الإسلام والحداثة لا يقود، حصريا، إلى التمامية وإلى العنف. إنّ البحث عن الإسلام الحديث، الذي يبدو يائساً وافتدائيا لدى قطب، تمّ تدشينه، قبل قرن، على يد مُفكّر مصري آخر، ليس على نمط تدميري، ولكن على نمط مَرِح وإيجابي؛ إنّ هذا الرائد هو رفاعة الطهطاوي

إنّ هذا الطالب الشاب في العلوم الدينية في القاهرة، رفاعة، تمّ إرسالهُ في سنّ الخامسة والعشرين إلى باريس من قِبَل باشا مصر، بصحبة خمسة وعشرين أميرا شابا؛ كانت مهمّتُهُم تتمثل في اكتشاف أسرار تفوق الغرب التقني والعلمي، كما استطاع المصريون معاينة هذا إبّان حملة بونابارت، قبل سنوات. وفي نهاية إقامته، من سنة 1826 إلى 1831، استنتج رفاعة بأن التوليف ما بين الإسلام والتقدم ممكنٌ، وأنه لا شيء-أو نزرٌ قليل- في القرآن يمكن أن يعترض على تحديث العالَم الإسلامي. إنّ عَمَلَهُ اللاحق، حينما كان رَجُلَ دولة، سينفِّذُ محاولة التوليف، هذه، من خلال إدخال اكتشافات الغرب إلى العالم العربي-الإسلامي، دون التخلّي عن حرفية الوحي القرآني وروحه.

ومن حينها سيُعتَبَر رفاعة في مجموع العالم الإسلامي كَمُؤسس لما سنُسمّيه بـالنهضة العربية؛ هذه النهضة سيتجاوز تأثيرُهَا، لدى المسلمين، محيط العالَم العربي، إذا أخذنا بعين الاعتبار كون مصر كانت، ولفترة طويلة، تعتبر صورة التنوير بفضل سؤدد ورفعة ثيولوجييها (علماء الدين)، وفنونها وثقافتها وتقدمها التقني.

إنّ هذه النهضة بدتْ وكأنها نجحتْ. لقد أَوْشَكَتْ أن تقودَ العالَم العربي-الإسلامي نحو الحداثة والديموقراطية إلى حدود سنة 1950؛ ولكن تحرير الاقتصاد المتدرج وعمليات التنمية الاقتصادية للمجتمعات الإسلامية توقفتْ حينها بفظاظة. وفي كل مكان، تقريبا، استولى العسكريون على السلطة. فتبنوا القومية ثم الاشتراكية كأيديولوجيا. ولحدّ الآن لم يستفق العالَم الإسلامي، أبداً، من هذه الضربة. ومنذ هذه القطيعة ساد الاستبدادُ والفقر، وهما مرتبطان بشكل وثيق. يبدو لنا أن هذا الانعطاف في التاريخ المعاصر يُضيءُ حالة المجتمعات الإسلامية، بشكل أفضل من كل الاعتبارات عن القرآن وتأويلاته. بطبيعة الحال توجد بعض الاستثناءات التي سَلِمتْ من فشل هذا المرور نحو الحداثة، ولكنها نادرةٌ جدا، وتتموقَعُ في ضواحي المجتمعات الإسلامية-وهو مجموع عن قصد-، كما في الكويت، أو بعيداً في ماليزيا. من هذا الفشل انبثقت شعبية قطب الثورية، ما الفائدة إذاً من جلب الحداثة الغربية، إذا كان الثمن هو خسرانُ الروح، من دون اللحاق بالغرب؟

هل يمكن القول بأنّ الفكر الإصلاحي لدى رفاعة قد مات؟ لا، أبداً. في كل المجتمعات الإسلامية، يقوم مُفكّرون، يفتخرون به بشكل دائم، ويجهدون أنفسهُم على البحث عن توليفة بين الإسلام والتقدم. إنّ أبناء رفاعة، هؤلاء- هذا التعبير ليس من عندي، وإنما هُمْ مَنْ اخترعه- ينتمون إلى حركات سياسية ودينية مختلفة؛ البعض منهم قريبون من الماركسية، والبعض ليبيراليون، وآخرون

محافظون. كما يوجد أيضاً إسلاميون لا ينادون بالعنف، والذين يحترمون رفاعة لأنه لم يَخُنْ إيمانَهُ أبداً، إذ يكتب رفاعة: معتقدات الباريسيين مثيرةٌ للاشمئزاز(رفاعة يخلط بين باريس والغرب) لأنها تضع الحكماءَ وعلماء الفيزياء فوق مرتبة الأنبياء؛ إنها تنفي العناية الإلهية كما تنفي ما وراء الطبيعة.

إنّ رحلتنا عند المسلمين ستكون إذاً تحت رعاية رفاعة؛ فشرَفُهُ الفكريّ يقودنا. وستكون رحلة بين أحضان المسلمين وليس الإسلام، لأننا نقترح، كمبدأ، مع الفيلسوف الجزائريّ محمد أركون، أن الإسلام هو مجموع تجارب كل المسلمين منذ بداية تاريخهم، بما فيها علاقاتهم مع غير المسلمين. وعقب باحث فرنسيّ متخصص في الإسلام، مكسيم رودنسون، سنُشير إلى أنّ المسلمين يمتلكون تاريخا وجغرافيا، وبأنه لا يكفي قراءة القرآن-الذي ترجمه أستاذي المأسوف عليه جاك بيرك- كي نفهم هذا.

خلال هذه المسيرة، سنقوم بالتمييز ما بين المسلمين والإسلامويين أي ما بين الوَرَع المَعِيش من جانب وما بين النضال السياسيّ من الجانب الآخر. إننا لن نصبغ صفات شيطانية على أيّ طرف. لأننا نعرف بأنّ التطرف يوجد في كل مكان وبأن الأيديولوجيات الأوروبية في القرن العشرين قدّمتْ للبشرية من التدمير أكثر ما سيولّدُهُ الإرهابُ القادم، دون شكّ. أضيف إلى هذا أنّ الإرهابَ يمكن أن يكون إسلامويا، ولكنْ لا يُمكنُ أن يكونَهُ بالضرورة؛ فبعض الإسلامويين ليسوا عنيفين، والعديد من الإرهابيين ليسوا إسلامويين على الإطلاق! هكذا فإنّ الاستشهاديين الفلسطينيين، لِنُذَكِّر أن طرقَهُم استخدمها الفوضويون الروس، واليابانيون والتامول في سيريلانكا. وأمّا بالنسبة لمليار وأكثر من المسلمين، الذين نَتَقَاسَمُ معهم هذه الأرض وهذا الزمن، فهم في غالبيتهم يبحثون، كما نحن، عن سلام من أجلهم ومن أجل أبنائهم، وعن حياة أفضل وأكثر حرية.

ولكن معظمهم يعيش تحت القمع والفقر؛ إنهم يُحِسّون أيضاً بشعور من أنّ الآخَرِين هم الذين يثبتون القوانين والقواعد، فكيف يمكنهم ألاّ يعانوا؟ يوجد في أوروبا كثيرٌ من أعداء العولمة الذين يخشون أن يفقدوا جزءًا من هوياتهم. فما الذي سيقولونه لو كانوا يعيشون محرومين من كلّ شيء في القاهرة أو في كراتشي؟ بدون شكّ، مثل كثير من المسلمين ومثل كثير من الإسلامويين، كانت ستُرَاودُهُم بعض أشكال العصيان.

إذا فمن المفهوم أنّ المجتمعات الإسلامية مترددةٌ بين قطب ورفاعة، التخلي عن الحداثة من أجل إنقاذ الهوية، أو رسم طريق وَسَط- إذا كانت موجودةً- بين الوحي الإلهي والمغامرة العلمية والديموقراطية؟

إننا لا نَعرف المجتمعات الإسلامية بشكل جيد، بالرغم من أنها جاراتنا، ونتقدم بِحَذَر، ونَحْرِص على أن نَتَعَلَّم دون أن نوزّعَ كثيراً من الدروس. سنقوم برحلة رفاعة بشكل عكسي، فهو أبحر من القاهرة إلى باريس؛ ونحن سنطيرُ من باريس إلى القاهرة، ثم إلى ما هو أبعد منها، حتى حدود العالم الإسلامي. لقد عاد رفاعة إلى مصر مُحَمَّلاً بما سمّاه تخليص الإبريز في أخبار باريز وكذلك العلوم الغربية، من دون أن يصحب معه ما يَعتَبِرُه الشوائب الماديّة. ونحن بدورنا، وكما فعل هو، سنكون منقّبين عن الذهب. وخلافا للعديد من المؤلَّفات العلمية حول الموضوع، فإنّ هذا المبحث لن يَدرُسَ الثيولوجيا ولا القرآن، ولا الإسلام في حدّ ذاته، ولكن المسلمين والأفراد المتفرّدين والمتميزين حيث يعيشون، سواء بين أحضاننا أو في بلدانهم. إن سرعة الرحلة لا تجعل المشروع

سهلا. لقد كان رفاعة في زمنه يستطيع أن يشعر بأنه موجود في الغرب. أمّا في زمننا فالمسلمون مُوزَّعون في أربعة وخمسين بلدا، حيث الإسلام يشكل الأغلبية، ينضاف إليهم المسلمون الذي يشكلون أقليات هامّة كما هي حالة فرنسا. ولا يوجد بلدٌ واحدٌ يُجَسِّد، وحده، الإسلام ولا المسلمين. كثيرٌ من التبايُنات تفرق بينهم، والتبايُن ما بين السنة والشيعة هو الأكثر أهمية، ولكن توجد تباينات أخرى تتعلّق بالمدارس والتقاليد والطقوس وأخرى تتعلق خصوصا بالإسلام في حدّ ذاته. يقول محمد أركون: إنّ الإسلام في جوهره بروتِستانتيّ، فتعددية المسلمين لانهائيةٌ لأنّ كل واحد منهم مُؤَهَّلٌ لاختيار سبيله، وخلق حركته الفكرية. ولكنّ هدَفَنَا ليس هو الوُصول إلى الشمولية، وسنحاول قبل كلّ شيء توضيح تَفَرُّدَ المجموعات الكبرى، أي الإسلام العربي، التركي، الإيراني، الهندي وإسلام جاوة.

ما بين المسلمين وما بين الملاحظين الغربيين تنتصبُ، أخيراً، عقبة أكثر أهمية من الجغرافيا، وهو التفرد الذي لا يمكن اختزالُهُ للإسلام الذي هو في آنٍ واحدٍ دينٌ وأديولوجيا وحضارة وإيمان. غير أنّ معظم المحللين الغربيين، وبوجه خاص، علماء الاجتماع وعلماء السياسة، يختزلون الإسلام إلى طقوس أو إلى سياسة. وبعدها، فإننا نُخاطِر دون توقف باختزال إيمان المسلمين تارةً إلى وضع اجتماعي وتارة أخرى إلى وَهْم عقلي. كل شيء في علاقاتنا مع العالم الإسلامي يحدث كما لو أنّنا، نحن الذين لا نؤمن بالتعالي، لا نستطيع أن نَتَقَبَّل أن الآخر يُؤمن وبأن ما نسميه أسطورة يمكن أن يكون إحدى الحقائق. إنّ امبراطورية العقل، عندنا، تحول دون رؤيتنا لديمومة الوحي(الديني) لدى الآخَر. إنّ هذا الحائط لا يمكن اجتيازُهُ دون شكّ؛ فلْنَعْرِفْ، على الأقلّ، أنه موجودٌ.

الفصل الأول

إنسانيّ ومؤمن

بعد اثنين وثلاثين يوماً من مغادرته الإسكندرية، في 51 أيار عام 6 2 8 1، لمح رفاعة مرفأ مرسيليا· كان هذا العبورُ للبحر الأبيض المتوسط، بالنسبة للإمام الشابّ، الذي لم يعرف ما هو أبعد من نهر النّيل، شَاقّاً· بمجرّد نزوله من السفينة، تمّ اقتياد بطلنا المُعَمَّم، والذي لا يتحدّث كلمة فرنسية واحدة، إلى منزل يوجد خارج المدينة، مُخَصَّصٍ للمسافرين للحَجْر الصحيّ· اعتبرَ المكانَ مُريحاً، ولكنه كان مُجْبَراً على الجلوس إلى طاولة لتناول طعامه، وليس على الأرض مُبَاشَرَةً، وقَد أصابه كلُّ هذا بالدهشة· في تقريره، الذي كَتَبه عن هذا السفر بعد خمس سنوات، تسَاءَل، طويلاً، حول ما إذا كان الحَجْر الصحيّ يتماشى أم لا مع القرآن· لم يَحْسِمِ الأمرَ، مكتفياً بِسَرد حُجَج متناقضة لِرَجُلي دين مَغَارِبِيّيْن، أحدهما يرى أن الحجر الصحيّ حرامٌ لأنه يُخَلِّصُ المسلمَ من تعيين سابِق؛ ويرى الثاني أن صونَ الصحة أمرٌ قرآني· هكذا كان دَيْدَنُ رفاعة في مُطابَقَة تجربته الشخصية مع التعاليم المُلتَبِسة في معظم الأحيان لدكاترة الإسلام·

ولد رفاعة في طهطا، في مصر العليا، في عائلة متواضعة· وقد كانت هذه المدينة الهامّة، اليومَ، بلدة على شاطئ النيل· منذ الكُتَّاب لاَحَظَ المُدرِّسُ علامات النَّبَاهة والذكاء الفائِقَين لدى تلميذه القادم من طهطا (الطهطاوي)· فقام إمام الجامع بإرساله إلى القاهرة، حيث سيصبح طالِباً في جامعة الأزهر الشهيرة· حَفِظ فيها القرآنَ وتَفاسيرَهُ، وكذلك قواعد النحو والمنطق، التي تساعد على الاقتراب من حقيقة النصّ المُنزل، كلمة الله· هذا التحصيل الجامعيّ كان لا يزال مُطابِقاً للتعليم في جامعاتنا في القرون الوسطى· في سنة 5 2 8 1 تمّت ترقية رفاعة إلى مَرْتَبَة شيخ(دُكتور في القانون)·

في هذه الفترة، كان عدد سكان مصر لا يتجاوز خمسة ملايين؛ ويبلغ سكان القاهرة وحدهَا، اليومَ، ثلاثة أضعاف· فهل يتعلّق الأمرُ، دائماً، بنفس البلد، مصر؟ الأمر ليس أكيداً، فالديموغرافيا أحدثتْ تغييراً عميقا لدى الشعوب، وقطعتْ مجرى تاريخهم· يبحثُ المُسافر، في معظم الأحيان، عمّا فُقِدَ، بِحُجّة خادِعة بدعوى أنّ الأَمَاكِنَ ثابتةٌ؛ ولكنّ الشعوب لا ينطَبِق عليها نفسُ الأمر· الديموغرافيا تستَطيعُ التسبّبَ في تحوّلات كما لو أنّ الإقرار، اليومَ، بصحَّةِ المَناظِر الوديعة التي رسَمَها فيفان دينون، الذي رَافَقَ بونابرت، أو غوستاف فلوبير، في مستودع الحاجيات بالقاهرة، تقضي بِألاّ نرى شيئاً على الإطلاق· القاهرة ليست أقلّ إغراءً، ولكن يتوَجّب عِشقُ الصخب فيها، وكذلك الحشود، والإعجاب بقدرة المصريين على التأقلم بذكاء، مع هذه الفوضى الكبيرة·

مَنْ أيقظ مصر؟

كانت مصر في زمن رفاعة ستَظَلّ، دون شكّ، ولاية نائمة في حضن الإمبراطورية العثمانية لو لم يَقُم بونابرت، في سنة 1 7 8 9، بإيقاظها. كانت حَمْلَته على مصر عابرةً، ولكنها ذكّرت المصريين بأمجادهم القديمة والوثنية التي حَرِص الإسلام، دائما، على إخفائها. بعد هزيمة الحملة الفرنسية والأرستقراطية المملوكية القديمة التي كانت تَحكُم البلد، استولى ضابطٌ تُركيّ، محمد علي، على السلطة؛ سيحكم على مصر خلال أربعين سنة، وسيكشف عن كونه مُستَبِدّا مُتنوّرا. على خطى وآثار بونابرت، سيبدأ محمد علي في تحويل مصر الجامدة إلى أُمَّةٍ حديثة ومسلمة في آنٍ واحد، وهو طموحٌ لا سابِقَ له سيُساهِم في استباق الإصلاحات التي عرفتها الإمبراطورية العثمانية. ولكنْ هل كانت مصر نائمةً، كما يعتقد العلماءُ المستشرقون في أوروبا، أم أنّ الفِكرةَ القائلة بولادة نهضةٍ عربيةٍ من الالتقاء مع الغرب، في حدّ ذاتها، هي من اختراعهم؟

إنّ تاريخَ العالَم العربي الحديث، سواء كَتبه الأوروبيون أم المصريون، فقد تمّ تحديدُ بدايته، منذ زمن بعيد، في سنة 1 7 9 8؛ ولكنّ هذا التأويل عرف، حديثاً، تطوراً تحت تأثير نقد الاستشراق، وهي مُحاكَمَة قام بها مُؤرّخون أوروبيون لبعضهم البعض. في الواقع، كان لمصر وجودٌ قبل وصول الفرنسيين؛ لم تكن كُلُّ الأفكار مُجَمَّدة حتّى مجيء بونابرت، فارس أحلام، لإيقاظها. كما أنّ رِجَال الدّين المُسلِمين لم ينتَظِروه كيْ ينتقلوا من مَرْكز ثيولوجيا إلى آخَر. صحيحٌ أنهم كانوا مُتحصّنين ومُعتَكِفين في العالَم الإسلاميّ، في إسطانبول أو دمشق في معظم الأحيان، ولم يكونوا يُكَرّسون وقتَهُم إلاّ للدراسات التقليدية؛ هذه الدراسات التي تَضُمُّ إلى جانب ما تضمّه الطبَّ وعِلْمَ الفَلَك أيضاً. كَثيرٌ من المُتعلّمين ومن المُثّقفين استنتجوا، وعلى إيقاع الرَّحَلات، عِدّة تنوّعات، حتى وإن كانت تقتصر على تأويل القرآن أو ممارسة الطبّ، وهي ممارسةٌ مُقارَنَةٌ سَتُهيِّىءُ، فيما بعدُ، العقولَ النيّرةَ لمواجهة العلوم الغربية.

وإذا كان بونابرت لم يُغَيّرْ، وحده، المصريين، فإنّ استعراض الغرب غيَّر، بالتأكيد، رؤيتهم للعالَم؛ فقد شاهدوا في صفوفهم الأولى عَرْضَ قُوّات لا مثيلَ لَها، قُوّات فرنسا وبريطانيا العظمى وهي في حالة حرب. وبقدر إعجابِهم بقوة الجيوش، فإنّ المصريين أُعْجِبُوا أيضاً بِمَوكب العلماء الحاملين لكلّ مَعَارِفِ زمنهم. استنتج محمد عليّ من هذا أن الغربيين لا بُدّ وأنهم يمتلكون بعض الأسرار الكبيرة التي تسمح لهم بالسيطرة على الطبيعة وبتوسيع هيمنتهم؛ فَقَرَّ رأيُهُ على الاستيلاء عليها من خلال بعثه إرسالية: إننا نتحدّثُ اليوم عن تَجَسُّس صناعيّ في هذه اللحظة سيَدْخُل رفاعة التاريخ الكبير.

توكفيل شرقيّ

بعث الباشا محمد عليّ بعثة من أمراء شباب، اعترافاً بهيبة فرنسا، أرض السلاح والعلوم والقوانين. أمَرَهُم أن يعودوا مُحَمَّلين بِتِبْر ذَهَبِ المعارف الخالية من شوائب المسيحية المخالفة للإسلام الذي يَظَلُّ تَفَوُّقُهُ غيرَ مشكوكٍ فيه. هكذا كانت تعليماته. وكي لا يَخْلُد الأمراءُ للَّهْوِ والتسلية فقد عهد بهم الباشا إلى إمامٍ شابٍّ موهوب، وهو رفاعة. وقد تفوّق عليهم جميعا.

بمجرد وُصول رفاعة إلى باريس، استَطاع المستشرقون الذين كانوا يُهيْمِنون على الجامعة الفرنسية، من أمثال جومارد، رفيق بونابرت في مصر، وسيلفستر دو ساسي، مُؤسّس مدرسة اللغات الشرقية، مُعَايَنَته. تعلمّ اللغة الفرنسية بطريقة أفضل من رِفاقِه، وركّز فِكْرَه على دراسة العلوم، وترجمَ المؤلَّفات العلمية الأساسية في ذلك الوقت إلى اللغة العربية. إنّ ذكاءَهُ العالي وأناقته الطبيعية، بالإضافة إلى تذوقه لِكُلّ ما هُوَ دخيلٌ، فَتح له، بالطبع، أبواب كلّ الأكاديميات والصالونات. إننا نعرف هذا من رفاعه نفسِهِ، إذ إنه سيكتبُ مذكراته الوصفيّة عن فرنسا لأجل الباشا كي تُساهِم في تحديث مصر. ومن خلال مُقارَنَتِه منهجه بمنهج المنقّبين عن الذهب، نُزُولاً عند رغبة محمد عليّ، سمّى كتابَهُ تخليص الإبريز في أخبار باريز؛ وقد كان أوَّلَ كِتَابٍ يصف المجتمعَ الغربي يُنشَر في العالَم الإسلاميّ على الإطلاق.

لم يُتَرْجَم كِتابُ تخليص الإبريز في أخبار باريز إلى اللغة الفرنسية إلاّ سنة 1957، مِن قِبَل جامعيّ قبطي مصريّ، أنور لوقا ولكنّ شُهرَة الكِتَاب كانت، ومنذ البدء، كبيرةً؛ فمنذ سنة 1833 قدمّت الجرائد الفرنسية تغطيات عنه، ولكنها كانت أحياناً حافلةً بالمعاني الخاطئة. وبعد خمسين سنة، كَتَبَ إرنست رينان، الذي كان ضالعاً في اللغات السامية، واعتماداً على انتقادات الصحافيين الذين لم يكونوا يتحدّثون اللغة العربية، بخصوص رفاعة، أنّ كِتَابَهُ يُبيّنُ عدمَ تَوافُقِ الإسلام والعِلم. يقول مُختَتِماً رأيَه في سنة 1833: إنّ المُسلِمَ له حقدٌ على العلم بينما يُوضّحُ رفاعة نقيضَ هذا تماماً؛ ولكنّ رينان كان قد اخترع مفهوم صراع الحضارات قَبْل قرن من نجاح تعبيره المُعاصِر؛ لقد تَجَاوَزْنَا قرناً من الأحكام المُسْبَقَةَ ما بين الإسلام والغرب.

إنّ كتاب تخليص الإبريز في أخبار باريز، مثله مثل شخصية مُؤلِّفِهِ، يستحضر مُراقبا وراصدا آخَر للحداثة، غَادَرَ فرنسا في نفس الفترة نحو الجمهورية الناشئة في الولايات المتحدة الأمريكية، والبَاحِث، هوَ الآخَر عن المستقبل. كان توكفيل ورفاعة من نفس العمر، وكانا يمتلكان فُضولاً متشابِها، ويتقاسمان نفس المَخَاوِف الدينية؛ كان تَقَصّيهما مُتماثِلاً. استقصى توكفيل، في أمريكا، دُرُوبَ الديموقراطية مُتَسَائِلاً عن تَوَافُقِهَا مع قناعاتِهِ الليبرالية؛ أما رفاعة فقد رَصَدَ الحداثةَ آمِلاً في أن لا تُضايِقَ أو تُقْلِقَ إيمانَهُ. وإذا تابَعْنَا المُوازنة بين مُراقِبَيْنَا سوف نُلاحِظُ بأنّ توكفيل يشعر بالقلق من الصدمة القادمة بين مذهب المُساوَاة الأمريكيّ والليبرالية الفرنسية، بينما يَتَسَاءَلُ رفاعة عن كيفية المصالَحَة ما بين الحريّة على الطريقة الفرنسية وما بين العدالة التي يرى أنَّهَا عِماد العالَم الإسلاميّ. وهي قاعدةٌ تيولوجية(دينية) لم تَكُن وَاقِعاً اجتماعياً لا في زمن رفاعة ولا في زمنا نحنُ...

في بحثه عن تواؤمٍ بين الحداثة والإسلام، لا يَعْرِضُ رفاعة تَجْديدَهُ الذي يرفعه إلى الباشا إلاّ مُعتَمِداً استشهاداتٍ قرآنيةً. كان رفاعة مُسلما جيدا، بكل تأكيد، ولكنه كان حَذِراً، فقد كان يعرف حق المعرفة أنّ أيَّ مشروعِ إصلاحٍ لا يمكن إدخاله إلى مصر بدون موافقة المرجعيات الدينية في الأزهر، وبأنّ الإصلاحات التي تَصْدِم كثيراً عاداتِ شعبِهِ محكومٌ عليها بالفشل.

بعد عودته النهائية إلى القاهرة، وَاصَلَ رفاعة عَمَلَهُ التحديثيّ من خلال الكتابة والعمل العمومي، في خدمة الباشا، ولم يَحِدْ أبدا عن هذه الطريق، فقد كان مسلماً وحداثيّا ، كان وَرِعاً وعالِماً. وقد أَنْكَرَ رفاعة، وإلى آخِرِ رمق من حياته، كلَّ تناقُضٍ بين القرآن والتقنيات التي هي أَسَاسُ التفوق الماديّ -وليس الروحانيّ- للغرب؛ إنّ نجاحَ إصلاحات رفاعة يرتَكِز على احترام معتقدات مُعاصِرِيهِ. لقد تصرّفَ على عكس ما تصرّف به أنصارُ التَقَدُّم العنيف، من أمثال كمال أتاتورك في تركيا ورضا بهلوي شاه إيران أو بورقيبة في تونس، الذين تجاهلوا، في القرن الذي تلاه، المعتقدات الدينية للمسلمين، وتسبّبُوا في إغضاب شُعُوبِهِم.

لقد ذهب رفاعة بعيداً في احترام الإسلام، إلى حدّ ممارسة رِقابة ذاتية على نفسه حينَ تستدعي الضرورةُ ذلك. لقد أدرك في باريس بأنّ الأرضَ، وعلى عكس ما يَرِدُ في القرآن، تَدُورُ حول الشّمس، وليس العَكسُ. ولم يفعل القرآن، مثله مثل الكنيسة في القرون الوسطى، سوى استعادة علم الفلك المغلوط لبطليميوس في هذه الحالة الخاصّة، فضَّلَ رفاعة ألاّ يتحدث عن هذا. ولحسن حظّه فقد كان يَجهلُ نظريةَ داروين عن التطور، والتي هي أكثر تناقُضاً مع القرآن، والتي تَظَلُّ، إلى يومنا هذا، مرفوضةً في الجامعات الإسلامية(وهي مرفوضة، أيضا، في بعض المَدارِس الأمريكية!). فهل كان يُمارِسُ الشكّ؟ لا نَعرِفُ، ففي الإسلام لا يجوزُ إظهار الشكّ أمام الجمهور، لا في زمننا ولا في زمن رفاعة أَلَيْس هذا التجنّبُ للنقد الذاتي هو الذي يتسبّب في انعدام الوَصْل الدائم بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي؟ في كثير من الأحيان، وسنَعود لاَحِقاً لهذا الموضوع.

اعْتُبِرَ رفاعة، ومنذ ملحمته الفرنسية، كَرَائِد رمزي لكلّ المثقفين المصريين التجديديين والتقدميين، الحريصين على المحافظة على التفرّد الثقافي لمصر. فمن نجيب محفوظ إلى طه حسين أو جمال الغيطاني في القرن العشرين، فإنّ معظم المثقفين يعتبرون أنفسَهُم أبناء رفاعة إنّ تقليد الرحلة التعليمية التي بدأها في الغرب، ستستمرّ خلال ستة أجيال؛ وستعرف توقفا بسبب العاصفة المعادية للإمبريالية التي ستجتاح العالمَ العربي في سنوات الخمسينات.

في المدرسة الفرنسية

لنعد إلى كتاب رفاعة، ليس من أجل وضع كلامنا محلّ قراءته، ولكننا نُنقِّبُ من أجل رصد والتقاط انشغالاتِهِ الأساسية. فهي تظلُّ، بشكلٍ غريب، مُشابِهة لانشغالات المصريين المُعاصِرين؛ من خلال قراءته، يبدو أنّ التاريخَ يتلعثم أو أنه لا ينجح في الانطلاق.

الملاحظة الأولى التي استرعت انتباه رفاعة هي استتباب الأمن في فرنسا، حيث النظام تلقائيٌّ ومرئيٌّ في كل مكان. دَوَّنَ في إحدى مقاهي مرسيليا أنّ كل فرد في المقهى له وظيفةٌ محدَّدَةٌ؛ فأمينةُ الصندوق مسؤولة عن الصندوق، وصاحب المقهى يعطي الأوامر، والنادلون يقومون بالخدمة، والطلبات تَصِل إلى الزبناء في أوقات معقولة وبثمن مُتَّفَق عليه. إنّ عقلانية الفرنسيين في كل المناسبات لم تتوقف عن إدهاش رفاعة خلال إقامته. وفي هذا المقهى بمارسيليا سيكتشف فعالية هذا التوزيعَ، الذي أطلق عليه اقتصاديو تلك المرحلة تقسيم العمل، فهو أساسيٌّ للإنتاجية في الغرب. يلتجئ رفاعة إلى هذه الحادثة الصغيرة كي يُطلِعَ قُرّاءً مصريين كانوا يترددون على مَقَاهٍ كان من الصعب أن تَتِمَّ خدمتُهُم فيها؛ وها بعد قرنين من الزمن، كُلُّ شيءٍ في فنادق القاهرة يحدثُ كما لو أنَّ الدرسَ المستقى من تلك الأشياء لم يَنَلْ آذاناً صاغية. فَهَلْ هُو فشلٌ لِرفاعة ولِخَلَفِهِ؟

الملاحظة الثانية لرفاعة، وهي مكرورة، لأنّ الموضوعَ كان يَشْغَلُ، بِوُضوح، هذا الرجل الشابّ الوَرِعَ والعفيف البالغ من العمر الخامسة والعشرين سنة، بِقَدر ما كان يشغل مصر، وهو مكانةُ النِّساء في المجتمع الفرنسي. ولم تكن النساءُ حاضرات فقط في الفضاء العمومي، بل وكنّ يظهرن، في نظر الإمام عارياتٍ تقريبا. إن غياب الحجاب على الرأس ما كان ليصدمه، لأنه كان يعتقد أن القرآن لم يحرمه؛ وحين عاد إلى مصر لم ينصح به. أما الأذرع العارية والصُدور الموهوبة، فقد كانت تضايقه، ولكنه لم يُصْدِرْ ردّا مُنافقا، فقد وَجَد الكثير من السحر لدى النساء الفرنسيات. فقد كان اهتمامه ينصب على شيء آخر، هل هنّ عفيفات؟ بعد ست سنوات من إقامته في باريس، استنتج رفاعة، ودون أن يكشف لنا طريقتَهُ ومنهجه في البحث، بأن الفرنسيات لسن لا أقل ولا أكثر عفة من المسلمات، وبأن طريقة اللباس لا دخل لها في الموضوع. لقد اعتبر أن النساءَ عفيفاتٌ في البرجوازية وفي الطبقات المتوسطة؛ أما لدى الأرستقراطيين فإنّ الأمر أقلّ خفة شيئا ما، حيث أن الأزواج لا يُبدون أدنى غيرة. وهو أمر أثار دهشته. وأخيراً، فيما يخصّ قاع المجتمع في باريس فقد بدا لرفاعة أنّها من الأماكن التي لا يُنصَحُ بزيارتها كما هو حال مثيلتها في القاهرة. وما عدا هذا التصنّع للوقار المتغيّر لدى النساء الفرنسيات، فقد كان مُعجبا لكونهنّ متعلمات، بل إنه، وكما كَتب، كان معجباً ببحثهنّ عن المعرفة.

فيما يخص مقاهي ونساء باريس، فالأمر، هنا، لا يتعلّق إلاّ بإشارات ومستملحات ثانوية إذا لم تستبق العمل اللاحق لرفاعة حين سيصبح المهندس الكبير لمصر الحديثة، وباني أهراماتها المعاصرة، أي الإدارة والجامعة والصحافة.

بفضل نصائح رفاعة ستتبنى الإدارة المصرية الجديدة اللغةَ الفرنسيةَ، التي اعتبرها أكثر دقة من اللغتين التركية والعربية بعد أن استنتج الدور الكبير للصحافة في فرنسا، قام بتأسيس أول جريدة مصرية، من أجل تهيئة العُقول من أجل التجديد، وهي الجريدة الرسمية؛ وهو من خلال ابتكاره

للصحافة، ابتكر قرّاءً جددا بجانب قراء القرآن، بداية لنخبة علمانية ولأنتلجنسيا مصرية، الأولى في العالم العربي. ولكن محمد علي كان يريد قبل كل شيء امتلاك المدافع والمصانع؛ وفي الخطابات التي كان يبعث بها إلى رفاعة، كان الباشا يَحمِل بِعُنف على أفراد البعثة، التي كان يعتبرها، في هذا الميدان، غير نشطة بما فيه الكفاية. فكان رفاعة، الذي كان يخاطب الباشا في مراسلاته بـسيد الفضائل، يحاول إقناعه بأنه من الأفضل المعرفةُ المسبقةُ للعلوم والتقنيات كي يستطيع تحديث مصر بعدئذ، ثم صناعة واستخدام المدافع.

وحسب رفاعة فكلّ شيء موجودٌ في الكتب، ويكفي ترجمتها. فَشَرَعَ في عمل جَبَّار في ترجمة أهمّ الآثار العلمية الفرنسية إلى اللغة العربية، بما فيها كتب مُوجَزَة وموسوعات الجغرافيا والفيزياء وعلم الفلك. ولكنه لم يتصدَّ لترجمة الفلسفة. وحين عودته إلى القاهرة افتتح أول مدرسة لدراسة اللغات الأجنبية، بطريقة تسمح لهُ توسيعَ حقل الترجمات. وطوال حياته المهنية في الإدارة، اختارَ، بنفسه، الأعمال القابلة للترجمة حَسَب فائدتها ومنفعتها لتحديث البلد.

أول إنسانويّ من الشرق

كان رفاعة يتطلع إلى أن يَتَقَاسَم كل الرجال أخلاقاً مُشتَرَكة نابعة من طبيعتهم وليس فقط من الوحي النبويّ، وهي مُبَاعَدَة ثيولوجي كبير سيتسبّبُ في حملة طويلة من قبل علماء الأزهر ضدّ عقليتها الإصلاحية. ولكن بَدَلاً من الانخراط في طريق نقديّ، فإنّ خُصومَهُ اختاروا طريق التحريم، فقد اتُّهِمَ رفاعة من قِبَل رجال الدين بأنه تَنَاوَل لحمَ الخنزير وعَاشر مومسات في باريس. وفي نظر المُحافِظين الذين كانوا مُعاصِرينَ لرفاعة- الذين كانوا يرون أنفسَهُم أُصوليين، أي قريبين من المصادر الأولى-، فإنّ كلَّ امرأة غربية لا يمكن أن تكون إلاّ مُومِساً. وهي طريقةٌ لإقصاء المفكرين الليبراليين، لم تعرف تطوراً كبيراً منذ هذه المرحلة، فبدلاً من النّقاش ظلّ الافتراء والنميمةُ في الصحافة الإسلامية المعاصرة، كما في عِظات المبشرين والدعاة المتطرفين، الحُجة المفضّلة. يَرُدّ عليهم رفاعة بأنّ الإسلام ليس، بالضرورة، المصدرَ الوحيد للخير، وبأنه يوجد أُناسٌ من الغرب يمكن للمسلم أن يتعامل معهم تعامل الندّ للندّ؛ يذكر أسماء مستشرقين فرنسيين. وكان يُجابِهُ العلماء المحافظين في الأزهر، والذين سيُنغّصون عليه حياتَهُ، دائما بالحديث النبوي الذي يُخاطب المسلمين قائلا: أطلبوا العلم ولو في الصين

إنّ التناقض المركزيّ بين رفاعة والأصوليين يرتكز على مكانة المرأة في أرض الإسلام، وهو خطّ كَسْر لم يتطور قط. وكان رفاعة، وخلافا لهؤلاء، يعامل النساء بشكل مُساو لتعامله مع الرجال؛ وهو بنفسه حين اختار زوجته من بين الطبقة الأرستقراطية، تَعَهَّد في وثيقة الزواج بألاّ يتزوج عليها. لم يكن ثمة شيء يُرغمه على تخلّيه عن التزوج بنساء أخريات، ولكنه كان يرى أنه لا شيء في القرآن ولا في التفاسير ما يخالفه؛ فلا يحقّ للمسلم أن يتزوج أكثر من أربعة نساء، ولكن بشرط أن يكون قادرا على العدل بينهنّ، كما يشترط القرآن، وهو ما يعتبر مستحيلا. رفاعة يَستَشْهِدُ بالآية وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضهم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا، من سورة النساء التي تنهى عن تغيير الزّوجات. وقد كشف رفاعة عن كونه رَائدا لتحرير المرأة، دون أي تعارض مع القرآن، وإنّما بفضل المعرفة التي كان يمتلكها والتي تعتبر أرقى من المعرفة التي بحوزة الأصوليين.

بفضل تكوينه الدينيّ كان رفاعة في وضع يُمَكِّنُهُ، بشكل كبير، من التمييز بين الوحي الإلهي والتقاليد المحليّة. أليسَ هو من تَدِين له مصر تأسيس أولى المدارس العمومية للفتيات. لقد كَتَبَ أنّ تَمَدْرُس الفتيات ضروريٌّ كي يُصبِحْن زوجاتٍ صالحاتٍ وأُمَّهَاتٍ صالحاتٍ، تماما كما يَأْمُرُ القُرآنُ. وإذا كان صاحِبُنا التّحديثيُّ يتقدّمُ خلف التقاليد، فليس لأنه يفعل هذا لِسَبَبٍ تكتيكيّ وإنّما عن اقتناع، وهذا ما يؤَكِّدُه ما نعرفه عنه بِفَضْل مُعاصِرِيهِ المصريين والفرنسيين. يرى رفاعة أنّه لا يوجدٍ شيءٌ، في الإسلام، يُكَذِّب ما جاء في كتابه تخليص الإبريز في أخبار باريز، وبصفة خاصّة ما يَتَعلَّقُ بِتَحسين أوضاع النساء المُسلِمَات. في كتابه الأخير، الذي نُشِر سنة 1870 بناءً على طلب من الباشا إسماعيل ليتمّ استخدامُه أساساً للتعليم في مصر- نوع من تعليم دينيّ وطنيّ، دليل في خدمة الأولاد والبنات- يُلِحُّ رفاعة على المساواة بين الجنسين في التعليم وفي الزواج.

ولكن ليس علينا أن نصبغ الكمال المثاليّ على بطلنا، فإصلاحاتُه لا تعود بالمنفعة إلاّ على المسلمين، فقد كان يحتقر أقباط مصر· وبالرغم من ليبراليته فقد ظلَّ ابن عصره؛ كان رفاعة شيئاً ما عنصريّاً، كما كان الأمرُ عليه في باريس·

وَاجَه رفاعة الأزهر على أرضيّة أخرى حسّاسة من خلال تمجيد تراث مصر التاريخيّ· وبالنسبة لعلماء مصر المُحافِظين فإنّ مَرحلةَ الجاهلية لم يكن لها أدنى أهميّة· وهو موقفٌ ثابتٌ لدى كل علماء الدين المسلمين في العالم العربي· أمّا رفاعة، فقد كان على النقيض يَعْتَبِرُ أنّ الماضي الفرعوني يَستَحِقّ أن يُصانَ· فاحتجَّ على ميل الباشا الغريب في منح مَسَلاَّت إلى كلّ مُلوك أوروبا عربونا على الصداقة؛ وكان رفاعة أوَّلَ منْ طَالَب بأن يتِمَّ التوقف عن ترك الكنوز الوثنيّة للأوروبيين، وأَصَرَّ شخصيّاً على تسلُّم كلّ الأشياء التي يتمّ اكتشافُها· وهو قرارٌ رَسَمَ مُسَبَّقاً مَعَالِمَ تأسيس متحف القاهرة فيما بعد، والذي أسّسته مارييت سنة 1858· وأبعد من اهتمامه الملحوظ بالتراث، كان رفاعة يرسُمُ هنا الخُطوط الأولى لِمَا ستكون عليه القومية العربيّة لاَحِقاً·

من خلال إدراجه الجديد للتاريخ والجغرافيا في أرض الإسلام، يُحْدِثُ رفاعة قطيعةً مع القاعدتين السياسيتين اللتين تهيمنان على الفكر العربيّ الإسلاميّ، وهُمَا مبدأُ أُمّة مُؤمِنين بِلاَ حُدود، بالإضَافة إلى العصر الذهبيّ في المدينة المنورة في عصر النبيّ كَنَموذَجٍ لا يمكن التفوُّق عليه· وهو من خلال إعادة ماضٍ مُتَفَرّد للمصريين، فقد فتَحَ أمامهم مستقبلا باعتبارهم أُمَّة ما قبل إسلامية· صحيح أنها أمة مسلمة، ولكنها ليست حصراً إسلامية· حين بدأت الدول تتشكّلُ، في القرن العشرين، في المغرب العربي وفي الشرق الأدنى، فإن كل الحكومات أعادت الاعتبار للماضي غير الإسلاميّ للأمكنة -قرطاج في تونس، بابل في العراق····-، وهذه هي القاعدة الوحيدة لتأسيس مستقبل وطني·

نصر ملتبس

كان الباشا يُسايِر رفاعة حين يتعلّق الأمرُ بإنشاء الإدارة والمدارس، ولكنه لم يَكُن يُعير رفاعة سمعا حين كان هذا الأخيرُ يقترح تطوير المؤسسات السياسية انطلاقا من تقديره وتقييمه للثورة الفرنسية. فثورة 1830 التي عايَشَهَا في باريس، كان لها وَقْعٌ كبيرٌ عليه. فقام رفاعة بوصف أدقّ تفاصيلِهَا على طريقة توكفيل مستعيداً في مُذكراته ثورة 1848. ولكنّ ثورة 1830، وعلى نقيض 1848، كانت سلميّةً نسبيّاً. يُسَجّل رفاعة أنّ شارل العاشر لم يَلتَزِمْ بتعهّداتِهِ، وخصوصا تعهداته المتعلّقة بحرية الصحافة. فقد أصرّ البرلمان على ضرورة رحيله، وكانت الجماهيرُ موافقةً على هذا الإصرار. فانسحب الملكُ من دون تردّد. خَلَفَه لويس-فيليب من دون إراقة دماء. تعَهَّد لويس-فيليب باحترام الميثاق الجديد، فتمّ تنصيبُهُ مَلِكاً على عموم الشعب الفرنسي. ويرى رفاعة أنّ كلّ الفرنسيين كانوا مُقِرِّينَ بأن بلدهم يحتاج إلى ملك وبأنّه غيرُ مؤَهَّلٍ للجمهورية. كان رفاعة مُفْتَتِناً بهذا النموذج الفرنسي الذي كان في منتصف الطريق ما بين استبدادية متنورة وملكيّة دستورية، وكان يرى فيها عَقْدا جيدا يمكن تطبيقه على مصر، ما بين النُّخَب المحلية والباشا ذي الجذور التركية.

في تعليقاته على دستور 1830 يلاحظ رفاعة أن المفهوم الفرنسي للحرية يتوافق مع المفهوم الإسلاميّ للعدل. ولكنّ العدل الإسلامي، وخِلافا للمساواة الأوروبيّة أمام القانون، ليس حقّا للمسلم؛ إنه ينبثق من إرادة الحاكم الطيبة، المُجْبَر من القرآن على أن يكون عادِلاً. رفاعة، الذي لم يَكُن ثوريا، كان يعتبر أنّ المسلمين لا يتوجب عليهم أن يُطالِبُوا بشيء، ولكنْ عليهم أن يستقبلوا، عن طواعية، مؤسسات دستورية جديدة إذا ما مَنَحَهَا الباشا لمصر. على الرغم من كون المحاججة الإسلامية صحيحةً، فمحمد عليّ رفض فكرة الدستور، وفضَّلَ البقاء حاكما مطلقا. وهو قرارٌ ما زالت آثارهُ ماثلةً إلى يومنا هذا، فمنذ تلك الفترة ما زالت تظهر في العقل المصريّ مصطلحات من قبيل التحديث والتغريب والتسلّطيّة وكأنها مرتبطة ببعضها بعضا. إذا كان المُستبِدُّ غيرَ متنوِّرٍ، فإن تحديث البلد يتوقف. نستنتجُ من هذا أنّ من هذا الاستبداد انبثقتْ صعوبات التحديث التي تعاني منها مصر منذ قرنين. أَلَيْسَ الاستبدادُ، هنا، أكثرَ عرقلةً من الإسلام؟

لقد كان مشروع رفاعة لمصر يتضمن كلّ هذه الأشياء: إرساء دولة، حقّ التعليم للجميع، العلوم، التقنية، اللغات الأجنبية، تحرير المرأة، الصحافة، تاريخ مقبول في كليته وتنوعه. ولم يوجد أيّ مُقْتَرَح إلاّ وارتكز على نص قرآني. ومع رحيل محمد عليّ سنة 1848، جاء خَلَفُهُ الباشا عبّاس، فانحاز إلى أطروحات المُحافظين. ونُفِى رفاعة إلى الخرطوم حيث قضى خمس سنوات في التدريس في مدرسة ابتدائيّة. ومن أجل قتل الوقت، انصرف رفاعة إلى ترجمة كِتَاب تيليماك Télemaque لِفينيلون Fénelon والذي كان بدوره قد ألّف هذا الكِتَاب للاحتجاج على الحكم المطلق لـلويس الرابع عشر، وهو ما جرَّ عليه المنفى في أسقفيّة كامبري Cambrai...

وقد أرسى رفاعة، على الرغم منه، تقليداً جديداً ما زَالَ مستمرّاً في أرض الإسلام، يتجلّى في قَمْع المُثّقفين منذ سنة 1952، فالديكتاتوريات العسكريّة لم تتوقف عن إرسال أبناء رفاعة إلى المنفى أو إلى السجن، فكل مثقف جريء، في مصر المعاصرة، تبدو بضع سنوات في السجن نوعا من

مرور لا بُدَّ منه، سواء كان ماركسيا أو قوميا أو إسلامويّا أو ليبراليّا· التفكيرُ الحُرُّ لا يمكن أن يُطاق لا من قِبَل المُستَبِدِّين ولا من قِبَل الإسلامويين المُتطرّفين· في زمن رفاعة كان هؤلاء الأخيرون يكتفون بممارسة التحريم· وأما اليوم فإنّهم يعتمدون على قُضاةٍ متواطِئِين من أجل قمع المُثّقفين العلمانيين، إذا لم يلتجئوا، بكل بساطة، إلى الاغتيال·

كان رفاعة ينتمي إلى زَمنٍ أكثر هدوءًا· وحين ماتَ الباشا عباس، في سنة 1854، سيعود رفاعة إلى القاهرة مُنتَصِراً، وبعد رحيله، سنة 1874، سيظلّ تفكيرُهُ يُضيءُ الترقّي المصريّ إلى حدود القطيعة الكبرى التي حدثت في سنوات الخمسينات· هذا الرقيّ الذي دَحَضَه الأيديولوجيون القوميون والاشتراكيون والإسلامويون الذين عابوا عليه كونه ليس يساريا وكونَهُ مُنقادا للغرب· وسيساهم فشلُ الأيديولوجيات، أخيراً، في سنوات الثمانينات في بعث رفاعة وفي إيقاظ أبنائه

رفاعة أو التوليف

هل استطاع رفاعة، منذ سنوات 0 5 8 1، أن يَجْتَازَ التناقضات بين الإسلام والحداثة؟ وهل عثر على التوليف الذي يبحثُ عنه، ولا يزالُ، العالَمُ العربيّ إزاء التحدّي الذي يُشَكِّلُه الغربُ؟ ولكن إذا كان رفاعة قد عثر على الطريق السويّ، فما هو السِرُّ الذي جعل معظمَ العرب والمسلمين مُستمرّين، وبعد فترة طويلة من رحيله، في البحث عن معادلة سبق لها أن برهنت على صحتها؟ لماذا كتب طه حسين، عميد الأدب العربي، وهو المفكر الليبراليّ والتقدميّ والعلمانيّ، في سنة 0 6 9 1 في كتابه الأخير أنه يتوجّبُ كشفُ لُغْز الهيمنة التكنولوجية للغرب في هذا البحث عن حداثة مفقودة، ما زال الليبراليون على شاكلة رفاعة والاشتراكيون والإسلامويون يَتَخَاصَمُون دائما من أجل العثور على المفتاح. وإذا لم يكتشفوا هذا المفتاح لا في رفاعة ولا في القرآن، فأي غطاء يحجبه؟

تَحَدَّثْنا فيما سبق عن الاستبداد. ونسمع في غالب الأحيان أنه يعود إلى مصر الفراعنة. ولكن الحاكِم المُستَبِدّ لم يقم بشرعنة نفسه كعَامِلٍ للحداثة إلاّ منذ التحالف بين الباشا ورفاعة، وليس تحت حكم رمسيس الثاني. فَمصر لم تتقدَّمْ، بِاسْم الحداثة، نحو الرأسمالية والاشتراكية والقومية والليبرالية إلاّ حَسَبَ إرادة ميول الحاكم. إنّ مصر، وعلى غِرَار العالم العربي الذي يستلهمها في غالب الأحيان- مُتَرَجْرِجَة، منذ سنوات الخمسينات، من نموذج إلى آخَر، دون أن تستعير أبداً طريقا نحو التطور والنموّ. وغدا شعبها مُستكيناً. إن نزعَتَهُ القَدَرِيّة تنبثق من استراتيجيّة البَقَاء لدى فلاّحي نهر النيل المُعَرَّضين لإصلاحات مُتَقَطِّعة، أكثر مما تنبثق من ثقافة مصريّة ثابتة. إنّ النُّخَبَ الاقتصاديّة لا تتصرف بشكل مختلف، فمن أجل تجنيب مصالحها من هذه الهجمات في الحداثة، فإنها تحمي نفسَها من خلال مشاركة أقلّ. وعلى أيّ فالحاكِمُ لا يُطالِبُها أكثر. المثقفون؟ إذا أرادوا أن يحافظوا على بقائهم في ظِلّ حكامهم، فإنهم لا يُعبّرون عن أفكارهم إلاّ بحذر شديد، ما بين دولةٍ هي في غالب الأحيان من يُشَغِّلُهُم ورجال الدين الذي يمارسون الرقابة عليهم، ما بين الأزهر والباشا في زمن رفاعة، ما بين الإسلامويين والرئيس في أيامنا هذه.

هل يمكن مُمارسةُ النقد في أرض الإسلام؟

بالإضافة إلى انضمامه إلى الاستبدادية المتنورة، أَلَمْ يَرتكِبْ رفاعة هفوة ثانية ما زالت تثقل على كاهل مصر، والتي ما كان يستطيع، بدون شكّ، أن يتجنَّبَها؟ هذه الهفوة ناتجة عن التعريف نفسه بمهمته. فلنتذكَّر أنّ الباشا كان مقتنعا من أن الغربيين بحوزتهم أسرار تقنية يجهلها المسلمون. فكان يتصور أنّه يكفي ترجمة هذه الأسرار لِغَرْسِهَا في مصر. لم يستطع رفاعة أن ينقذه من هذا الخطأ. فلا الباشا ولا رفاعة تَسَاءَلا عن المسلك-التاريخي، الدينيّ، السياسيّ-الضروريّ الذي قاد إلى هذا التفوق التقني؛ ففي العالَم الذهنيّ لرفاعة وللباشا لا يمكن أن نتَوَجَّهَ إلى التقنية عبر طريق أخرى ما دام أنّ تفوق الإسلام يتموقَعُ فوق كلّ نقاش. من الأكيد أنّه من المسموح به في التقاليد الإسلامية ممارسة حرية إصدار الحُكْم، ولكن في إطار القرآن، الذي هو مصدرُ كلّ معرفة؛ ومن الأفضل عدم مساءلة طابعه المُنَزَّل إذا ما أَرَدْنَا تجَنُّبَ التكفير وكذلك تجنب الشريعة التي تعاقب عليه بالحدّ الأقصى.

العقل النقدي، في العالَم الإسلامي، محاطٌ بِجدارٍ لا يوجد في التقاليد الغربية. والدولةُ وقوانينُها في أرض الإسلام تنبع من القرآن، وخِلافاً لما يُوجد في العالَم الغربي الذي انوجدت فيه القوانين والدولة قبل الأناجيل. إن هذه الثنائية التاريخية والثيولوجية في الغرب المسيحيّ أتاحت ظهور نقد خارجي للدين، بينما يجعل مبدأ الوحدة القرآنية هذا النقدَ كافراً في أرض الإسلام. إن النقد في الغرب وقبل أن يصبح نِظاماً مستقلاًّ، ابتدأ عبر كونه قطيعة مع الدين؛ أما في الشرق، فالإسلام عبر وضعه في مقام فوق النقد، فمن أين سيبدأ النقد مَسارَهُ؟ وفي غياب مثقفين أحرار، من أين سيمرّ؟

إنّ وجود علاقة مباشرة بين المؤسسات المسيحيّة والعقل العلمي الغربي من الصعب تصوُّرُها بل ومن الصعب التعبير عنها من وجهة نظر مسلمة. العلوم الإسلامية تسمح بالتعليق على الوحي وبتأويله بطرق متعددة، ولكن الحديثَ عن طبيعة غير إلهية للقرآن أو أن الله غيرُ موجود أو التساؤل عما إذا كان العالَمُ يمكن أن يوجد من غير إله، هي صياغاتٌ ما زالت مستبعدَةً في الإسلام في وقتنا الراهن. إنّ سرَّ الغرب الذي يبحث عنه رفاعة لا يتعلّق بالترجمة؛ إنه مرتبطٌ بالشكّ. وهو ما عبّر عنه، بوضوح، مُفكِّرٌ آخَر من مفكري الحداثة في الإسلام، جمال الدين الأفغاني، وهو فارسي شيعيّ عاش في نهاية القرن التاسع عشر في القاهرة وباريس؛ في سنة 1880 كتب أنّ غزو البلدان الإسلامية من قِبَل الغربيين ميتافيزيقيٌّ ولكن بالنسبة للمسلمين الذي يُمارِسون الشَكَّ- وبطبيعة الحال يوجد بعض منهم-، فإنّ الشكَّ النقديَّ أو القلقَ الميتافيزيقيّ، اللَّذَيْن يَظَلاَّن من المسائل الخاصّة، لا يستطيعان أن يَقُودا إلى التجديد الجماعي؛ إن التفكير النقديَّ القابع في داخليّة النفس لا يعثر على طريق داخل المجتمع.

إنّ هذا الابتعاد عن النقد في المجتمعات الإسلامية، وبشكل خاص في مصر، يترك آثاراً ظاهرة في التعليم. والتعليمُ في نظر غالبية المصريين هو حفظ القرآن عن ظهر قَلْب. وإذا كان رفاعة هو المؤسس لحقّ الجميع في التعليم، فإن تعميم التعليم بدا له أكثرَ أهمية من البيداغوجيا. غير أنّ ما يُدهِشُ في مصر، بعد مرور قرن ونصف، هو طبيعةُ هذا التعليم، أكثر من تعميمه. المدَارِسُ

المصرية تشتغل بنفس نموذج السّلطة الأستاذيّة كما هو الشأن بالمدارس القرآنية؛ وهي مدارس تعتمد على الحفظ كما هو حال المدارس القرآنية. والحفظ هنا يغلب على التفكير الشخصيّ؛ والعقل النقدي هو الغائب الأكبر في أغلب الأحيان.

القرآن والاستبداد: الجامعات العمومية المصرية هي الأخرى تم تأسيسُهَا على نفس مبدأ سلطويّ يَحْرِم الطالِبَ من التشكيك في أستاذه، بله طرح الأسئلة. وبغضّ النَّظَر عن وجود استثناءات نادرة، فالجامعاتُ لا تُساهِم لا في النقاش ولا في النقد، وهو ما يُرْبِكُ التدريس العلمي بشكل خاصّ. هذا الأخير لا يمنح أي مكان لا لتاريخ العلوم ولا لِعِلم المعرفة(الإبيستمولوجيا)؛ الأشياء الحاضرة الوحيدة هي نتائجُ البحث، على إيقاع ثُنائي: هذا صحيح، هذا خطأ. ولا يتمّ أبداً شرحُ أن الحقيقة تَنْتُج عن التلمُّس، وبأنها، أي الحقيقة، مُؤَقَّتَةٌ وبالتالي يمكن التشكيكُ فيها من قِبَل نظريات لاَحِقَة. إن مُدَرّسي العلوم ، وهُمْ في كثير من الأحيان جامعيّون وَرِعُون، يُصِرُّون على التَّطَابُق الكامل بين هذه الحقائق العلمية والقرآن؛ وحينما ينبثق تَنَاقُضٌ ما، كما هو الحال في البيولوجيا، فهم يذهبون للبحث في هوامش المعرفة عن بعض نظريّات الخَلْق التي تَتَنَاسَبُ مع القرآن. إنّ هذه البيداغوجيا غير العلمية للعلم توضح، ربما، الظاهرة المدهشة التي يمثلها المهندس الإسلامي، فهذا الشخص الذي تمّ تدريسه وفق المنهج الثنائي، والمُولَعُ بالتقنيات الغربية ولكنه دوغمائيّ في نفس الآن، أصبح إحدى الصُوَر الرمزية للإسلامويّة المعاصرة.

القليلُ من الإصلاحيين، في العالم العربي الإسلامي، يتساءلون حول هذه العلاقة بين التأخر الاقتصاديّ والبيداغوجيا. فمحمد شرفي، وزير التعليم التونسي في سنوات الثمانينات، وأحد المثقفين العرب القلائل، رأى أنّ البيداغوجيا هي التي سَتُحَدِّدُ المستقبل العربي. صحيح أن تونس هي إحدى الدول الإسلامية القليلة التي تُرَسِّخ في المدرسة العقلَ النقديَّ، سواء تعلّق الأمرُ بتلقين القرآن أم بالعلوم الحديثة. وهو تقليدٌ يعود إلى إصلاحات الوزير الأوّل خير الدين في سنة 1875؛ لقد فَهِمَ هذا الأخيرُ بأنه إذا لم يتمّ تدريسُ القرآن بطريقة حديثة، فإنه لن يكون مكان لأيّ إصلاح. بعد أن فشل في تحديث جامعة الزيتونة، أنشأ بجوارها مدرسة الصديقي، على طريقة التدريس النقدي والعلمي الذي كان موجودا في أوروبا. ستصبح مدرسة الصديقي أوّلَ منبت للنُّخَب التحديثية بينما ظلت الزيتونة مثل الأزهر في القاهرة، معقل الفكر التقليديّ. والجمهورية التونسيّة مَدِينَةٌ، دونما شكّ، في تحرُّر المرأة الملحوظ وإلى تقدمها الاقتصاديّ، إلى التعليم في الصديقي

السرّ الذي جاء رفاعة إلى باريس من أجل البحث عنه، لا يوجد تحديدا في المكان الذي تصور أنه سيجده فيه؛ لم يَكُن يَكفيه فقط ترجمَةُ بعض المُؤَلَّفَات، بِقَدر ما كان يتوَجّبُ عليه أن يَقومَ من جديد بإعادة المسعى الذي قاده إلى هذا. وكما يقول أحد أبنائه البعيدين، الفيلسوف المصريّ حسن حنفي، فإنّ رفاعة لم يقم بتأسيس الاستغراب، أي دراسة الغرب، والتي هي مقابل للاستشراق، الذي يُسيءُ، في نظره، بشكل دائم للمسلمين. ومن خلال التَحصّن خلف التقاليد، فإن رفاعة حَكَم على مصر بالتمثّل والمحاكاة. وهنا مثالٌ نقتبسه من التاريخ الاقتصادي:

في سنة 1835 قرَّرَ الباشا خلق صناعة النسيج في مصر؛ فاستورد من بريطانيا العظمى الآلات الأكثر فعالية التي كانت متوفرة في السوق لنَسج القطن. كانت مصر حينها تُنتِجُ أفضل قطن خامّ في العالَم، وبالتالي فقد كان بدا أن الإجراء الصناعي الذي اتَّبَعَه محمد علي كانت له قاعدة رصينة. السنوات الأولى تُوِّجَتْ بالنجاح، ثم تعطّلتْ بعدها الآلاتُ؛ فقد كانت مقاومةُ هذه الآلات لِمناخ مصر سيئةً كما أنها لم تَخْضَعْ لأعمال صيانة. وقد حمّل الباشا البريطانيين مسؤولية

هذا الفشل اللاّذع. كان أكثرَ إراحةً اختلاقُ فرضيّةِ مؤامرةٍ من التساؤل عن قابلية مسعىً تَجَاهَلَ تكوين المهندسين ورؤساء أوراش كفيلين بِتَعَهُّد الحقل الصّناعيّ. في مواجهته للحداثة في الغرب، لم يَقُم الباشا إلاّ بالتقليد، خاضِعاً لمسعى اقتصاديّ مُوازٍ للمحاكاة الثقافية لدى رفاعة.

إنّ سوء الفهم هذا، وبعيداً عن أن ينْقَشِعَ في العالم العربي، سيتَضَاعَفُ في القرن التالي، وإلى حدود أيامنا هذه ما زلنا نجد سهولة في إلقاء مسؤولية فَشَل الصناعة المصرية على عاتق الإمبريالية الغربية بدلاً من توجيهها صوب الإهمال المحليّ.

سيادة سلطة الملالي

بماذا يمكن تفسير ازدهار نظرية المؤامرة في المجتمعات الإسلامية، التي تعزو دائما فشلَهَا إلى الآخَر، سواء كان صهيونيا أم تَمَامِيّا أم إمبرياليا؟ إنّ غيابا كهذا لِحِسّ النقد الذاتي كما للنقد يمكن أن نُرْجِعَهُ، دون شكّ، للإسلام، ولكن ينبغي، أيضاً، أن نأخذ بالحسبان الظروف الاجتماعية وألاّ نَقَعَ في حتمية ثقافية تبسيطيّة. وهكذا فالقرآنُ لم يُفْلت من النقد إلاّ منذ الفترة التي قرّرتْ فيها السلطة السياسيّةُ ذلك. وقد توجَّبَ الأمرُ انتظارَ أربعة قرون بعد وفاة النبي محمد، أي سنة 1017، حتى نرى خليفة بغداد، القادر، يصدر أمراً يقول بأن القرآنَ غيرُ مخلوق، أي أن الله أنزله على محمد، ولكنه، أيضاً، قديم قِدَم الله؛ إن هذا القرار الذي وضعَ حدّاً لأربعة قرون من الجدال بين الثيولوجيين(علماء الدين) خَنَقَ التفكير الفلسفي في العالَم السنّيّ. يقوم جاك بيرك بتسمية هذه الحقبة بسلطة المَلالِي، أو ديكتاتورية المَلالي، الذين كان عِبْئُهم أثقَلَ على المسلمين من ديكتاتورية القرآن. وهكذا قام رجال الدين بتنظيمِ جهلِ المؤمنين، مُصَادِرِينَ تأويل النصوص واشتراع القوانين في مكان جماعة المسلمين. منذ ظهور ديكتاتورية هؤلاء العلماء، فإن القرآنَ لا يقول شيئا عدا ما يُقَوِّلُهُ له هؤلاء، والشريعة ليست إلاّ ما يقولونه عنها، وهكذا يجد المُسلمون أنفُسَهُم محرومين من إسلامهم من قبل أعضاء أجهزة المسجد.

منذ ذلك الحين، لم يتطور التفكير الحديث إلاّ في الغرب، ومن دون مساهمة من قِبَل الفلاسفة المسلمين. وهي مأساةٌ مستمرة جعلتْ، إلى حدود يومنا، من الشرح والتأويل البسيط مادة تعليميةً خطيرة، فقد صدرت في القاهرة سنة 1996 إدانةٌ قضائية على جامعيّ مرموق لأنه كتب في مجلة علمية أن القرآن كان مؤرَّخاً وبأنّ الوسائل اللسانية تسمح لنا بإضاءة الموضوع. فاضطرّ نصر أبو زيد إلى مغادرة بلده، بعد أن تَمَّ تطليقُه من زوجته، بدعوى ارتداده عن الإسلام.

منذ سنوات الخمسينات انضافَ ظهورُ القومية، إلى سيادة سلطة الملالي، التي ساهمت في مضاعفة تجفيف الحقل النقدي، فقد أصبح النقدُ خيانةً. هل يستطيع مثقف مصري أن يتحدث عن المسؤولية العربية في الصراع الفلسطيني؟ خيانة! فهناك خطرٌ من أن يتمّ نشرُ هذا الخبر في الغرب، وحتى هذا النشر نفسُهُ يُقوي من شعور المسلمين بأنهم ضحايا مؤامرة خارجية. لا يتبقى أمام المصريين غير السّخرية تجاه الأقوياء، هذه السخرية التي يستخدمونها إلى أبعد حدّ، ولكنها لا تقود، بالضرورة، إلى تغييرات في المجتمع.

وأكثر تفاهة من هذا، هو أنّ السببَ الأخيرَ الذي يفسّر كون الكثيرين يتردّدون في ممارسة النقد، يبقى هو العنفُ. وكي نبقى في مصر، وهي مجتمع متمدِّنٌ نسبياً، يجب أن نتذكر أنه في سنة 1994، تمّ طعنُ نجيب محفوظ المِصريُّ الحائز على جائزة نوبل للآداب، من طرف متعصّب إسلاميّ عاب على الكاتب علمانيته الزائدة. المثقف الليبرالي المصري فرج فودة تم اغتياله في سنة 1992 لأنّه ذكَّرَ بأنّ العصر الذهبيّ الذي يودّ الإسلاميون أن يقودوا العالَم العربي إليه، لم يكن سوى متوالية من اغتيالات، وبالفعل فإنّ ثلاثة من بين الخلفاء الأربعة الأوائل الذي خلفوا النبي محمد تم اغتيالُهُمْ. وفي العراق، كما في سوريا وفي إيران حيث تَعُجُّ السجونُ بالمنشقّين، فإنّ شرطَ المثقفين أسوأ من الحالة المصرية. إنّ المبالغة في البحث عن مفتاح كلّ سلوكات المُسلمين في

الإسلام، تجعلنا ننسى الظروف التي يعيش فيها المسلمون، هو خطأ في الرؤية نحرص ألا نسقط فيه حينما نقوم بالتعليق على مجتمعاتنا الأوروبية. هكذا حتى رفاعة نفسه الذي كان إصلاحيا ولكنْ بِحَذَر، لم يحصل على اعتراف من طرف المسلمين وحدهم؛ صحيحٌ أنه كان مُسلما، ولكنه كان ابْنَ عصره، بالإضافة إلى أشياء أخرى. نفس الشيء ينطبق على وَرَثَتِه المعاصرين.

الغرب يخون رفاعة خمس مرات

في خليج الإسكندريّة، وفي مقابل البحر المتوسط، تمّ تدشينُ مكتبة جديدة، في سنة 2 0 0 2، في نفس المكان الذي كان Ptolémée Sôter قد جمّع فيه كل معارف العالَم قبل خمسة وعشرين قرنا. هذه المكتبة التي تمّ تدميرُها في البداية من طرف رهبان مسيحيين في سنة 1 9 3 ، بسبب من معارضتهم للاحتفاظ بالذاكرة القديمة والوثنية. التماميون في هذه الحقبة لم يكونوا متطرفين إسلاميين.

هذه المكتبة المعاصرة الكبيرة تمثل مستقبلا يأمل به العالَم العربي. وبجانب المكتوب، تحتوي المكتبةُ على شكل جديد من التعبير الذي يمثله الويب web، فكلّ المَوَاقِع موجودة ودعاماتها الرقمية منذ إنشائها تمت أَرْشَفَتُهَا. شيئان رمزيان يستقبلان كل زائر، وهما ديميتريوس دي فالير Démétrios de Phalère أول مدير للمكتبة، ورفاعة وجهٌ ملتحٍ ومُعَمَّمٌ، مصنوعٌ من نقش أصليّ يعود إلى سنوات دراسة رفاعة الباريسية. إن حضوره في الإسكندرية علامة على عودته بعد طول غياب.

منذ ستين سنة، طوى النّسيانُ رفاعة، كما كان حالُ توكفيل في فرنسا، ولِنَفس الأسباب. فكلاهما كشف عن اعتدال في عزّ الأيديولوجيات. لقد تمّ حجب توكفيل من طرف الماركسية وتنويعاتها، كما حُجِبَ رفاعة من طرف القومية العربية والتطرف الدينيّ والاشتراكية العربيّة. هذه الأيديولوجيات ساهمت في إفناء البورجوازية والأحزاب السياسية والحياة الثقافية والحريات في مصر وفي العالَم العربي، وتركتْ وراءَهَا أنقاضاً على المستويات الفكرية والسياسية والأخلاقية؛ إننا نبحث عَبَثاً عن نَجَاحٍ نضعه لفائدة سِتّين سنة من العواصف التي بلغتْ الأوج مع ناصر

على هذه الأنقاض ينبعث رفاعة إيجابيا وحَذِراً، وعلى الرغم من ضعفه، فهو يجسِّدُ الرغبة في تحقيق تحالف بين الإسلام والتطور. إنه ليس مُرادِفاً للنّجاح، ولكنه يظل نقطة الإنطلاق لكل بحث. ويبدو لي أنّ نجاحَه الممكن سيكون في قسمه الأكبر من إملاء تَصَرُّف الغربيين.

إنّ تاريخ رفاعة بقدر ما يعطينا معلوماتٍ عن الغرب، بقدر ما يعطينا معلومات عن المسلمين. في السنة الأولى من صدمة الإسلام والغرب، كان الغرب يتمثل في باريس، عاصمة الأنوار والحرية والعلوم. ولقد كان من المنطقيّ أن نبحث فيها عن المعارف والحداثة دون إهلاك النفس؛ فالغرب في تلك الفترة لم يكن مُهدِّداً. رغبة المعرفة لدى العلماء الأوروبيين كانت أصيلةً، ولم تَكُن بأية حالٍ مُتَنَازِلَةً. إذا كان استعمار العالم العربي قد بدأ في الجزائر، في الفترة التي كان رفاعة يتواجد فيها في باريس، فإنه لم يكن، بأية حال من الأحوال، مشروعاً لإفناء الحضارات الإسلامية؛ وعلى أيّ فإن رفاعة لا يتحدّث عنها قَطّ. إن الإمبريالية لن تصبح نظاماً، ولن يصبح الغربُ، باعتباره غرباً، تهديدا شامِلاً للهوية الإسلامية، إلاّ في نهاية القرن التاسع عشر. منذ هذه الفترة غيّرَت هذه الإمبرياليةُ، بصفة جذرية، وَجْهَ الغرب كما تُحسّ وتَشْعُر به المجتمعات الإسلامية، من المغرب إلى جزر لاسوند عَقِبَ هذا التحوّل الذي عرفه الغربُ، أَحَسَّ أتباعُ رفاعة الذين كانوا يرصدون ويراقبون المعرفة في الغرب، بأنهم تعرضوا لأوّل خيانة.

وسيتعرّضون لخيانة ثانية في سنوات الخمسينات، حين رفض الفرنسيون تفكيك استقلال الجزائر والسويس. الخيانة الثالثة-التي يحسّ بها العربُ، على الأقل، كخيانة- حدثت بعد حرب 1967، حين منح الغربيون دعمَهُم الكامل لإسرائيل بدل أن يمنحوه للفلسطينيين. أما الخيانة الرابعة فحدثت بعد تفجيرات 11 سبتمبر ضد نيويورك وواشنطن، حيث تمّ تحميلُ الإسلام في حدّ ذاته المسؤوليةَ بدل إدانة مجموعة من الإرهابيين. من الأكيد أن المسؤولين الأمريكيين والأوروبيين يُميّزون بين المتعصبين الإسلاميين وبين المسلمين، ولكنّ خطاباتهم لا وزن لها إذا ما قُورِنَتْ بالفيضان الإعلاميّ المعادي للإسلام والدعوة إلى صراع الحضارات نظرية وهمية تنفي أية صبغة فردية عند المسلمين، وتختزلهم إلى جمهور متّسق ومُنتَظِم ذات حدود دمويّة، كما كتب صمويل هونتجتون في كتابه صدام الحضارات فلنتخيّلْ، لِلَحظة واحدة، أنّ المسلمين يعتبرون منظمة إيتا الباسكية، وعصابة بادر ماينهوف والعمل المباشر أو الجيش الجمهوري الإيرلندي يُمثّلون الغرب الحقيقي؛ إن التعميم يبدو في نظرنا عبثيّاً، ولكنّ وسائل إعلامنا تمارسه في معظم الأحيان حين تتحدث عن المسلمين.

ما زال الغرب مثار إعجاب من المسلمين أو مثار خشية بسبب فعاليته، ولكنّ تفوُّقَهُ الأخلاقي، المثلوم بسبب التاريخ الاستعماريّ، يغوصُ في خيانته الخامسة، وهي الدعمُ الصريح الذي تقدمه الحكومات الأمريكية والأوروبية لكلّ مستبدٍّ يحمي مصالحَ الغرب وأمنَهُ ضد الإرهاب.

إذا لم يقم أحدٌ في الغرب بأخذ هذه الخيانات الخمس بالحسبان، كما يتمّ الإحساس بها من طرف المسلمين، وكذلك مشاعر الغضب الذي أثَارَتْه بينهم، فإن فكر رفاعة، المُتسَاهِل مع الغرب والمحترم للإسلام، ستَحُلُّ مَحَلَّهُ أيديولوجيات متطرفة؛ المجتمعات الإسلامية ستسقط في أحضان التعصّب. بينما سنسقط، نحن في الغرب، في غياب الأمن الذي ينتج عن هذا التطرف.

الفصل الثاني

من كتاب رفاعة

حرب الخمسمائة سنة

لقد تضاعفت ساكنة مصر عشرين مرة ما بين قرن رفاعة وقرننا نحن. وادي النيل يخضع لوطأة العدد. ولم تَعُد الزراعةُ قادرةً على إعاشة الناس؛ فَغَادَر الأبناءُ إلى دول الخليج أو يبحثون عن حظّ في القاهرة. في هذه الظروف غَادَرَ جمال قريَتَه شبانة القناطير Chebin el-Kanatir في منطقة الدّلتا لِوُلُوج جامعة الأزهر. تعلم فيها معظم اللغات السامية؛ وما دام أنّ تدريس اللغة العبرية والأمهرية قد اختفى من الجامعة المصرية، فإنه أنهى دراساته عن اللغات الشرقية في باريس.

بعد عشر سنوات سيعود جمال من باريس إلى شبانة القناطر لم يتعرف عليها. فقد تحوّلت القريةُ إلى كتلة مختلطة يسودُها الفوضى من بنيان غير مكتمل، مُشرِفٍ على بارابولات لدى الأثرياء الجُدد العائدين من دول الخليج؛ وقد تركت الحميرُ مكانها، في الشوارع، لِعَرقلة سيارات أُصْلِحَت على عجل. وأكثر من هذا التغيير الذي طال المشهد، فإنّ التغيّر طالَ أيضا العادات والعلاقات التي كانت تربط بين الطوائف الدينية.

مُقْتَلَعُو الجذور

حينما كان جمال طفلا، فإنّ المسيحيين والمسلمين وإن لم يكونوا يعيشون في وئام، فإنهم على الأقلّ كانوا يعيشون في حسن الجوار؛ فكان رجال الدين من الطائفتين يلتقون، وكان كلاهما يحتفل بأعياد الطرف الآخر. وكان شائعا أن ترى مسلما يستشير راهبا قبطيا، أو يبتهل مسيحي إلى قديس مسلم كي يحقق له بعضَ الأمنيات الماديّة؛ منذ ألف سنة أو أكثر والطائفتان تتعايشان معاً، وتَشَرَّبَ كلُّ طرف من معتقدات الطرف الآخَر. إنّ عبادة القِدّيسين، التي هي محظورةٌ في الإسلام، من حيث المبدأ، أصبحتْ ممارسةً مألوفةً؛ وأمّا عبادةُ الأموات، التي لا تنتمي لا للمسيحية ولا للإسلام، أصبحتْ مُحتَرَمة من قِبَل الجميع، على أنها إرثٌ شائعٌ من مصر الفراعنة.

جمال، الذي فَاتَتْهُ مراسيم جنازة أُمّه، عاد إلى شبانة القناطر لأداء طقوس الموت. فالصلاة في المسجد، حسب التقاليد، تكون متبوعة بجولة عائلية في المقبرة. ولكنّ جمال تَفَاجَأَ لدى خروجه من المسجد، بمجموعة من الشّباب المجهولين، مُلتَحِين ولاَبِسِين أثواباً بيضاءَ، يُحاوِلون سدّ الطريق أمامه. وكانت ثمّة نساء مُحَجَّبَات بالأسْوَد-وهو لباسٌ غريبٌ في شبانة القناطر مثله مثل لباس الرجال- يُسانِدْنَ حركَةَ أزواجهنَّ وإخوانهنَّ. وكانوا يصيحون ويزعقون أن الإسلام يُحَرّمُ الذهاب إلى المقبرة بعد الخروج من المسجد، كما يُحَرِّم، بصفة أكبر، تَنَاوُلَ الطعام فيها. كيف استطاع جمال أن يُواجِهَ قوانين الإسلام؟ في هذا اليوم، اكتشف جمال أنّ الوهابيّة، هذا التطرُّفَ السعودي، قد اجتاحَ شبانة القناطر

بالإضافة إلى المال الهامّ المُوفَّر على صعيد مصر، فهؤلاء المسلمون الجدد أحضروا إسلاماً متشدِّداً وحَرْفِيّا يَعتَبِرُهُ السعوديون وحدهُ الأصيلَ. بسبب كونهم مقطوعين عن العادات المحلية-إمّا لأنهم غادروا المنطقة منذ سنوات عديدة، أو لأنهم استقروا في هذه القرية بِمَحض الصُّدْفَة- فإنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن التقاليد. كانوا لا يعرفون شيئا عن قبور القدّيسين، ولا الأناشيد والرقصات التي كانت تُرَافِقُ، فيما مضى، الزّياحات والمطافات المسيحية والإسلامية. لقد تمّ تَعيِيرُهُم بإسلامهم الفلاحيّ في وادي النيل، خلال فترة المنفى، من قبل مُشَغِّلِيهِم السعوديين، الذين أقنعوهُمْ بأنّ الله إذا كان قد منح النفط للسعودية فليسَ عبثاً، بل تعويضا عن الإسلام الصحيح الذي يُمارِسُونَهُ. وَهَا هُمْ أبناء النيل عند عودتهم إلى مصر، مُتَشَيِّعِين لإسلام الصحراء ضدّ إسلام النهر، أصبحوا أتباعَ رجوعٍ إلى النصّ المُقَدَّس وتأويله الحَرْفِي، مُعادِينَ لكلّ تسوية مع العادات والتقاليد. هل نَتَحَدَّثُ عن إسلامٍ أساسيّ ضِدّ مُسلمين وُجودِيّين؟ من الثابت أنّ المسلمين يُجَذِّرُون ويُطَهِّرون دينَهُم حينما يهجرون قواعدهم الجغرافية، فنحن نستنتجُ هذا في كُلِّ المجتمعات الإسلامية. إنّ أشباه المُتعلّمين الذين كانوا ينشرون الإيمان السعوديَّ كانوا يجهلون أن محمد عليّ حاول، في سنة 1818، استئصال الوهابية من الجزيرة العربية. على أيّ، ففي تلك الفترة عبَّر رفاعة عن حزنه لأنّ الباشا لم يُحالِفْه النجاحُ، وهو تعليقٌ يجعل رفاعة، إلى حدّ أيامنا، شخصية غير شعبية في شبه الجزيرة العربية. لقد كان إسلامُ الصحراء في شبانة القناطر يحتفل بأخذه الثأر.

يبقى الأقباط، هؤلاء المصريون الأصليون الذين عرفوا كيف يقاومون الإسلام. فَحَسَبَ مُسلِمِي شبانةالقناطر الجدد، يتوجب احترامهم، كما يدعو إلى ذلك القرآن، ولكن لا يتوجب تطوير علاقات

وأواصر اجتماعية معهم: فالتَّسَاهُلُ مع وُجُودِهِم على أرض إسلامية هو في حدّ ذاته شيءٌ كبيرٌ· إنهم، بلا شكّ، يجهلون أنّ أجْدَادَهُم كانوا كلهم أقباطا· هؤلاء الأصوليون يجهلون أيضاً أن جمال كان من رجال الدين في الأزهر· حين استفسرهم عن الآية، والسورة، والتفسير الذي يعتمدونه في تحريمهم زيارة المقابر، ظلّوا مندهشين· لم يكونوا يعرفون شيئاً، باستثناء بعض التحريمات الأساسية التي تعلموها في الجزيرة العربية· في ذلك اليوم انتصر جمال على ما كان يُسَمّيه بالغزو الوهابّي ولكنه إذا كان قد فاز في الجولة الأولى ضدّ المتطرفين الإسلاميين، فإنه سيفقد الجولة الثانية ضد الأقباط الجدد·

لقد تفاجَأَ جمال من رفض الأقباط مُقَاسَمَتَهُ الطعامَ حول قبر أُمّه· فَهُمْ، أيضاً، تَغَيّروا في عشر سنوات· فعلى شاكلة الوهابيين، عرف الأقباط تجذرا· فقام جيلٌ جديد من المؤمنين والرهبان الأقباط بإرساء أُصولِيّة قبطية؛ وفي شبانة القناطر كما في باقي مصر، ضاعفوا من أيام الصوم والزّياحات العمومية· وأما المشاجراتُ بين الطائفتين فقد أصبحتْ عاديةً·

عاد جمال إلى القاهرة، تَارِكاً خلفه عَالَماً منقرضا· لقد كان، بدون شكّ، يُصبِغُ المِثَالَ الكماليّ على الماضي· إن التعايش بين الأقباط والمسلمين لم يكن أبدا خالياً من المشاجرات· ولم يكن الإسلامُ المصريُّ أَبَداً بمعزل عن حمية وحماس إسلاميّ غير مُسْتَوْرَد، ولكن متجذّر· فلنستمع إلى جمال، الذي يُضيءُ لنا الطريق، ولكن لِنَحْذَرْ من مَيْلِهِ، الخاصّ والجدير بالتقدميين، إلى سحر وفتن التاريخ القديم وإلى نَسْب التطرف إلى تأثيرات خارجية فالإسلاموية، في الحالة التي نحن بصدد وصفها، من الأكيد أنه يَتِمُّ تنشيطها وتحريكُها من الخارج؛ ولكن انبثاقَهَا في بعض الأماكن في مصر، الذي لا يَدِين في شيء إلى السعوديين، هو مسألة بيئِيَّةٌ، بشكل كامل·

اللاعبات

في القاهرة، وخلافا لشبانة القناطر فإنّ علمانيا كجمال، يمكنه أن يَمُرَّ من غير أن يلتَفِتَ إليه أحَدٌ. أمّا بالنسبة للنساء، فالأمرُ صعبٌ جدا بسبب انتشار الحجاب. قبل عشرين سنة، كان الناس يلتفتون، في شوارع المدن الكبرى، لدى مرور نساء مُحجَّبَات، كما لو الأمرَ يتَعلق بانحراف أو زَيَغاَن تاريخي. والآن انقلبت الأُمور إلى نقيضها، فالنساء غير المُحجَّبَات، وهنّ في انخفاض، يُثِرْنَ الفُضُول. ما زلن تتملكهُنَّ الجرأةُ؟ ولكنّ ما يعنيه الحِجابُ يظلُّ موضوعاً لكثير من الجدل: فهل يتعلّق الأمرُ بِنُكوص أم بتأكيد هويّة غير غربيّة دون أن نكون بالضرورة رِجْعيين؟ لا شيء أصعب من تأويل هذه العودة إلى الحجاب.

إنّ الحَمَلات الأولى العمومية ضدّ الحجاب تعود إلى نهاية القرن التاسع عشر، وكانت بإيحاءٍ من البريطانيين. فهل كان البريطانيون الذين كانوا يحكمون مصر يحرصون على حرية النساء المصريات؟ لقد كان طموحهم، بالأحرى، يصبو إلى تسهيل عمل المُبَشِّرِين لإعادة مصر إلى حضن المسيحية.

إنّ هذا التذكير التاريخي يدعونا إلى الحَذَر؛ فَهَلْ تُساهِم المُعَارَضَة للحجاب، والتي تعتبر تلقائية لدى معظم الغربيين، إلى الدفاع عن العلمانية؟ في الصراع النسواني؟ إلى التفضُّل لدى المسلمين؟ فَلْنُجِبْ على هذا السؤال الحميمي، قبل أن نضع أنفسنا في موضع المُحَرِّرِين.

وكيف لا نندهِش، قبل كل شيء، من التنوع اللانهائيّ للحجاب المصريّ؟ فهو من كل الألوان، ومن كلّ الأشكال: من الحجاب الأسود على الطريقة السعودية، والذي لا يَدَعُ أمام المرأة سوى النظر، إلى الشال أو التلفيعة القروية التي تَتَسَاقَط على الكَتِفَيْن والشال الذي يُزَيِّن وجوه الفتيات الصغيرات، إن التصنيف يظلّ مُعَقَّداً. كيف يمكن تأويل بعض اللِّفَاعَات التي لا تخفى حَمُولَتُها الإيروسيّة الظاهرة، والتي تُبَاعُ في حوانيت الموضة والتي تمّ تَصميمُهَا كي تَتَعَارَض مع فستان يتناسب مع الجسد أو سراويل جينز ضيقة جدا؟ هل المتجر، الذي يحمل علامة فلاش، والمُوَجَّه للنساء المُحَجَّبَات، صحيحٌ من الناحية الإسلامية؟ الحِجابُ يتيح، أيضاً، للنساء الشابّات الخروجَ إلى الأماكن العامة دون معارضة من آبائهنّ ودون أية مضايقة، ففي المواصلات العامة بالقاهرة، لا يتمّ التحرّش بالنساء المحجبات. ويمكن للحجاب أن يكون ضمن استراتيجية زواجية، فباقترابها من كلّ الرجال، ودون أن تثير الشكوك، تُوَسِّعُ المرأة الشابّة المحجَّبَة من خيارات زوجها القادم. هل يعني تعميمُ الحجاب، لدى الطالبات الجامعيات، أنهنّ أصبحنَ ذوات ميول إسلاموية؟ هنّ مُحافِظات ولكن متفتّحَات على العالَم، وربما يُعَبِّرْن عن تعلقهنّ بهوية ثقافية. بدون هذه العقلية الانفتاحية، أي حاجة يُكابِدْن من أجل تعلّمها؟ علينا ألاّ ننسى النساء اللواتي يشكل الحجاب، بالنسبة لهنّ، نُكوصاً مخيفا ومشؤوما.

إنّ المصريات يستخدمن الحِجَابَ من أجل مجموعة من المَوَاقِفِ تَقُودُنا من الورع والتقوى المعلن إلى التقوى المتكلِّفة، من الإعلان الديني إلى تأكيد هوية غير غربية، إلى الإثارة الصافية. ولكن فلنتذكر أننا، في أوروبا أيضا، منذ فترة قريبة، كان من المحظور فيها خروج المرأة من غير قبّعتها، كانت بعض النساء يستعملن البرقع الصغير.

وأخيراً، لم تَتِمَّ البرهنة على أنّ ارتداء الحجاب في الأماكن العامة يُغَيِّر من التصرفات الخاصّة، والتي تقترب، في مصر، وخصوصا في الأوساط الشعبية، من الجنسيّة الغربيّة أكثر مما تقترب من التحشُّم الإسلامي.

إذا يصبح من الصعب جدّا أن نستنتج، انطلاقا من ارتداء الحجاب، أنّ مصر في طريق الأسلمة أو إعادة الأسلمة. إننا، ربما، نَشهَدُ، فقط، تَوَاصُلَ تنافسات قديمة بين عدة أشكال مُحافِظَة في الإسلام؛ وبدون شك، إننا، في الغرب، أصبحنا أكثرَ اهتماما.

السواعد الغليظة

هي عاصمة العالم، وحديقة الكون، ومكان تجمع الأمم وحُشود من الناس، وهي كذلك مكان مُقَدَّس، ومقرّ الخلافة. قُصور لا تُحْصى تستيقظ فيها؛ مثل النجوم المضيئة يلمع فيها العلماء. إن مَنْ لم يَرَ القاهرة لا يستطيع أبداً أن يَقِيس درجة قوة ومجد الإسلام. هكذا كتب المؤرخ ابن خلدون في سنة 1382. بونابرت، كان بمستطاعه، منذ قرنين، ودون أن يضغط على خياله، أن يَعْثُر على آثار من هذا المديح؛ نفس الشيء ينطبق على غوستاف فلوبير، بعد جيل من بونابرت، بل كلّ رحّالة إلى حدود سنوات الخمسينات. ولكن إلى أين ذهبت القاهرةُ، اليومَ؟ لقد اختَفت، مدفونةً تحت الزّفت، البناءات الهمجية والفوضوية، وَوَابل السيارات، واكتظاظ السكان، والفوضى الحضرية، البشاعة، والفقر! كل هذا بالرغم من براعة الشّعب الذي يُكافح من أجل بقائه. وأين مرّ النيل؟ إنه بين طريقين سَيَّارَيْن. أهرامات المزابل تتنافس مع أهرامات الجيزة، التي تعاني، بدورها، من كونها ابْتُلِعَت من طرف ضَوَاحٍ متكاثرة. لقد كان ابن خلدون، وهذا صحيح، أوَّلَ مُنَظِّر للانحطاط الحتمي للحضارات.

في امبابة، وهو حيّ من أحياء القاهرة الفقيرة، والذي يقطنه مهاجرون جُدُد ومُوظَّفون متواضعون، يَخْضَعُ الملتحون والنساءُ المُحَجَّبَات للمراقبة. وقد كانت امبابة في سنوات التسعينات، وقبل أن يُعِيدَ رِجَال الأمن فتحها، شبه جمهورية إسلامية مقطوعة عن باقي القاهرة. ولكن هل هؤلاء الإسلاميون المتطرفون هم أنفسهم الموجودون في شبانة القناطر؟ إنّ الزعيم الإسلاميّ، في القرية، هو عامل عائد من الخليج، وبحوزته ثروةٌ، وهو يبحث عن شهرة اجتماعية، أي يصبو إلى أن يصبح من وجهاء القوم. أمّا الزعماءُ، في امبابة، فهم من أصحاب السواعد القوية من الحيّ، والذي فرضوا نظاما وعدالة معجَّلَة وجزئيّة، في غياب الخدمات العمومية والشرطة في عين المكان. وحين يقترفون بعض الأعمال التي يتخللها عنفٌ، يقومون بتبريرها من خلال استعراض معرفة تقريبيّة بالقرآن. إنّ قراءَتَهم للقرآن يُغَلِّبونَهَا بالقوة. إنّ الحجاب المفروض على نساء امبابة هو، هنا، علامةٌ على الامتثال لقانون القائد في عدم التعاون مع الشرطة. إنّ هؤلاء الإسلاميين ذوي الهيئة الجديدة يتبنون، عن طواعية، ألقابا مستعارة من الثقافة التلفزية الكونية؛ فنجدهم يلقبون إبراهيم كونغ فو، حسن كاراطي. هذا الأخير هو تائِبٌ شهيرٌ دفَّعَ وسائلَ الإعلام الغربية ثمنَ لقاءاته معها. إنّ أسْلَمَة الأحياء الشعبية ليس هو نقيضٌ للعولمة. بل يبدو مادّة ثانوية. فحسن كاراطي، يقول في نفس الآن إنه مُعارِضٌ للغرب الذي يُهدّد المسلمين، ولكنه يتطلَّعُ إلى عاداته (خصوصا، الجنسية منها) وإلى مواده الاستهلاكية؛ وعلى شاشة هاتفه النقّال، كتب: الإسلامُ هو الحلّ

السّكانُ يَقْبَلُون هذه القيادات الإسلامية لأنها تُقَدِّم من الخدمات أكثر مِمَّا تُسيء؛ إنهم يتقنون فنَّ ممارسة الضّغوط على بيروقراطيي الدولة من أجل الحُصول على الكهرباء والماء الشروب ومستوصف. في هذه الاستراتيجية الهادفة إلى الحصول على أراض حضرية وإلى التحكم في العقول، تتصادم فصائل من الإسلاميين؛ فَنُدْرةُ المصادر تؤجج صراع الأجيال، هنا. فالجيل الشابّ يُهاجِم التنظيمات التقليدية والقريبة من الطبقات الوسطى، وعلى وجه الخصوص، الإخوان المسلمين.

المتصوفة

تستحق جمعية الإخوان المسلمين، المؤسسين التاريخيين للإسلاموية الحديثة، اهتماماً خاصا. فمنذ 1928، عاش الإخوان المسلمون فترات مختلفة من السماح لهم بممارسة أنشطتهم وكذلك السجن ثم شيء من غضّ الطرف عنهم؛ إن مَصيرَهُم يختلف باختلاف مِزَاج المستبد ودَرَجَة العنف التي يتم نسبها، عن حقّ أم من دون دليل، للإخوان. وبسبب من كونها عَصيّة عن المُراقِبين الخارجيّين، فإنه لا يمكن أن نحكُمَ على الجمعية إلاّ من خلال أعمالها الاجتماعية؛ فهذه الأعمال تُعَوّضُ، في الأحياء الشعبية، انحسار الدولة وغيابها. وإذا ما حدثتْ تظاهُرَةٌ عمومية وكبيرة، تَقوم الشرطةُ بتحميل الجمعية مسؤوليتها. فهي تبدو الوحيدة القادرة على تحريك وتعبئة الجماهير بطريقة شبه عسكرية. ولكنّ هذه التهمة مصدَرُها النظام المصريٌّ الذي يعتبر هو نفسه عسكريا. ويُقالُ إنه في حالة تنظيم انتخابات، فإنّ الإخوان المسلمين سيَحْصُلُون على الأغلبية. وفي الحقيقة، فلا أحد يعرف شيئا، لأنّه لا توجد أية حكومة مستعدة للمجازفة بهذا.

كيف يمكن الالتقاءُ بِمُمَثِّلِي منظمة محظورة؟ لقد نجحتُ في هذا، حينما علمتُ أن الإخوان المسلمين يجتمعون تحت أسماء مستعارة وبأنهم لا يكشفون مواقعهم. والذين استطعتُ الالتقاء بهم، كانوا في معظمهم من أصحاب المهن الحرة، وكان أغلبهم من المُسِنِّين؛ ومن الواضح أنّ الحكومة تؤمن بِوُجود عتبات بيولوجية للنشاط السياسي لهؤلاء المصريين ذوي التربية الجيدة. لم أتغذّ بكثير من الأوهام حول تمثيليةٍ لِمُحَاوَرِيَّ، ولا عن حميمية لقاءاتنا. ففي القاهرة، التي تَتَوَزَّعُ مختلفُ قِوَى الأمن في مَقَاسِمِهَا، من المستحيل الولوج، دون أن يُلاَحِظَكَ أَحَدٌ، إلى إحدى بناياتها حيث يجتمع الإخوان المسلمون، والمفروض أنهم لا يوجدون بها. احتفَظْتُ من هذه اللقاءات والمقابلات بمناخ عام أكثَرَ مما احتفظتُ بِجَوهرٍ خطابٍ مُتَّفَقٍ عليه: فالهواء الذي نستنشقه معاً كان كما لو أنه مُشَرَّبٌ بالورع. وكانت كلُّ كلمة كما لو أنها مثقلة بالإيمان.

يوجد البعض ممن لا يقاسمون هذا التحليل ويعتبرون أنّ الجمعيةَ ما هي إلاّ منظمة سياسيّة تأسست على نموذج الفاشية الإيطالية. إنّ تأثير هذه الحقبة لا يمكن نفيُها. فمبادئُ المُؤسِّس، حسن البنّا -عمل، طاعة، صمت- تشبه، في الواقع، أَوَامِرَ موسوليني إلى أتباعه -الإيمان، الطاعة، القتال ولكنه انطلاقا من هذه المصادفة التاريخية، فمن العبث الاستنتاج، بعد ستين سنة، بأن الإخوان المسلمين فاشيّون، وهو ما نسمعه بشكل متكرر في أوروبا؛ إنّ القمعَ والإسلامَ جَعَلا منهم شيئا آخَرَ. إنّ الإخوان الذين تَعَرَّفْتُ عليهم خَرَجُوا للتّوّ من السجون أو بَدَا أَنَّهُم مُسْتَعِدّون للعودة إليها. وقد ذكر كل واحد منهم عدد السنين التي قضاها في السجن، كما لو أن الأمر تعلّق بِحَدَث طبيعيّ، نقطة مُرُور ضروريّ في حياة الأخ المسلم. لقد كانوا، جميعاً، مقتَنِعِين بأنّ العَالَم لا يمكنه أن يَعِيش من دون دين، وبأنّ هذا الدين، بالضرورة، هو الإسلامُ، الصالح لكلّ الحضارات. ومن أجل نَشْرِ هذا الخطاب، بَدَوْا لي مستَعِدّين لكلّ شيء، وهذا الكُلُّ شيء يجمع ضمن ما يجمع الاستشهاد، المشاركة في السلطة أو الاكتفاء بالتَّبْشير الدينيّ.

لقد حَاوَل الإخوان المسلمون إقناعي باعتناق الدين الإسلامي، من خلال تفسيرهم لي باستحالة الاستمرار في الإلحاد وفي الماديّة وفي النزوع الفردي. وقالوا لي إنني حتماً كائنٌ تعيسٌ، فالإسلام

لا يمكنه إلاّ أن يَمْنَحني ما أريده، أو ما أفترض أنني أبحثُ عنه. شَرَحَ لي مُحَاوَريَّ بأن الإسلام يُمَثِّلُ حَسَنَتَيْن مزدوجَتَيْن لكونه دينا بسيطا- خمسة أركان فقط- ولكونه قَابِلاً لأن يُمَارَس في كلّ ثقافة، من حيث بساطته ومرونته، وهما حُجَّتَان لم تنجحا في إقناعي. لم يُلِحُّوا، ولكن هذه العُرُوض البسيطة والمُتَقَشِّفَة أقنعتْ ملايين الناس في بِقَاع العالَم. وفيما عدا هذا، فأنا لَمْ أُحاوِلْ التَّشَاجُر مع هؤلاء الرجال الذين بَدَوْا لي مُلتهِبِين بِحُمّى المؤمنين الأوائل، مثلما عرفت المسيحية الرومانية أو الأرثوذكسية قديماً. لقد كانوا مقتنعين، جميعا، بأنّ أسلمَةَ العالَم تتطَلَّبُ عهودا أو قُرونا، ولكنها آتية لا ريب فيها.

الوُجَهاء

بعيدا عن امبابة، وفي شمال القاهرة، في حيّ هيليوبوليس حيث تُحاول البورجوازية أن تُحافِظ على شذرات من آداب السلوك، يَسْكُنُ فهمي هويدي، وهو من هؤلاء الإسلاميين. هو واحد من أكثرهم شهرة، ويكتب، باستمرار، في جريدة الأهرام، وهو ما يفْتَرِضُ موافقة الحكومة، صاحبة الجريدة والرقيبة عليها؛ هذه الحكومة تقوم، عبر لعبة يُفترض أنها بارعة، بمحاربة التطرّف الإسلاميّ والسماح له بالتعبير عن نفسه تحت شكلٍ مُتَحَضِّر. وفي غياب حريات وسائل الإعلام والنقاش الديموقراطي، فإن معرفَتَنَا المُباشِرَة عن الإسلاموية تَمُرّ عبر دُعاتِهِ الذين تغضّ الدولة الطرف عنهم. بِاسْمِ مَنْ يقومون بالتعبير، حقيقةً؟ بكل تأكيد ليس باسم الشعب المصري؛ أَشُكّ في هذا الشعب الغارق في الصمت، أن يكون متفرِّجاً ساخِرا على هذا الجدال بين الإسلامويين والغربيين.

إذاً فـهويدي صحفي من الطراز الرفيع-زوجته ليست محجَّبَة- يَعيش على بُعْد سنوات ضوئية من حسن كاراطي أو من مُهاجِرِي شبانة القناطر. مقالاته تُوَضّح إسلامويّة مُتَعِيَّةً واستهلاكيّة من النوع الذي تَتَبَاهَى به البورجوازيةُ الكبرى المُغْتَنِيَة وكبار ضبّاط الجيش المصري؛ هذه النخبة الجديدة تعرف كيف تُزاوِج بين وَرَعِهَا وبين ماركات التَّرَف الفرنسيّ. الثقافة المصرية غدتْ مزيجاً من الغرب الماديّ والشرق الروحاني، بشكل مُبْهَم. يقول هويدي إنّ الإسلاموية يجب أن يُنْظَر إليها كدفاع عن الهوية العربية الإسلامية المتعرّضة لاعتداء من طرف الهيمنة الغربية، إنها المرحلة الأخيرة على طريق تفكيك الاستعمار. إنّ تصريحَ هذا الوجيه بأنه ضحية الاستعمار مدعاةٌ للحيرة؛ ولكن يتوجبّ علينا أن نَقْبَلَ أنَّ الشعور بالاستعمار، بله مواصلة العيش تحت نيره، مُسْتَبْطَنٌ بدرجات مختلفة، من الأكيد أنّه أكثرُ حدّة لدى المثقفين المحتكين بالغرب من عموم الشعب، الأكثر تقليدية.

العنف؟ يؤكد هويدي أنه من خاصيّات الإسلاموية. فالمسلمون، في جوهَرِهِم، مُعتدلون، إلاّ حين يُعتَدَى عليهم. إنّ الحركات الإسلاموية لم تلتجئ إلى العنف إلاّ بعد أن تعرّضتْ لمذابح من قبل أنظمة ديكتاتورية: ناصر، السادات، مبارك. إنّ إسلامويا عنيفا لا يمكن أن يكون سوى إسلامي معتدل تعرّض لتعذيب الشرطة؛ والعنف لا يمكن أن يكون سوى شكل خارجي للإسلاموية، ولا يكشف أبداً عن طبيعته العميقة

هل استطاع هويدي أن يؤثّر عَلَيَّ؟ بسبب التقائي بالعديد من المثقفين الإسلامويين، لمستُ، دائما، تأدُّبَهُم العالي، حينما كانوا في المعارضة أو تحت المراقبة؛ ولكن البعض ممن عرفتُهُمْ فاتِنِين ومثيرين للفتنة في الضَرّاَء، مثل حسن الترابي في السودان، كشفوا عن كونهم أناسا لا يعرفون الرحمة بمجرد وصولهم إلى السلطة.

مع ذلك فإن التاريخ لا يُخطّئُ هويدي فالقمع الذي تعرَّضَ له الإسلاميون، والذي ابتدأ في سنوات الخمسينات، سَبَقَ لُجُوءَهم إلى العنف. ويختتم هويدي بالقول بأنه كي ننتهي من العنف، بغضّ النظر عن مصدره، سواء كان الشرطة أم الإسلاميون، فإنه يكفي إرساءُ الديموقراطية في مصر.

هؤلاء الإسلاميون يثيرون الكثير من الإحراج، أليسوا هُمْ مَنْ يُنادي بإجراء انتخابات حرّة، يرفضها النظامُ، ويخشاها الغربُ؟ وكي يُوغِل هويدي في تحدّيه، لا يَستعير من مدينة الرسول

وإنما من الغرب المذموم· إنّ الإسلاموية، في نظره، تجميعٌ معاصر للشرق والغرب تكونُ الغَلَبَة فيه، بشكل مؤكد، للتفرّد على الأصالة، أكثر مما هو عودةٌ إلى الأصول·

إنّ الإسلاميين المصريين لا يطالبون إلاّ بحقّ التّناوب، ولكن من أجل ماذا؟ في كل مكان، في الشرق الأوسط كما في المغرب العربي، لا يتوفرون على برنامج، ويَرَوْن أنهم ليسوا في حاجة إليه، فطُمُوحُهُم هو إعادة بناء الإنسان المسلم انطلاقاً من المُسَلَّمَة التي تقول بأن مجتمعاً مُشَكَّلاً من أفراد يتمتعون بهذه القيمة هو مجتمعٌ جيّدٌ· إذا ما أخضعنا الإسلاميين لأسئلة حول تفاصيل ملموسة، فإنهم سيعترضون بأنّ القمعَ لا يترك لهم الفرصة للعمل حول مواضيع مبتذلة·

لاَحِظُوا، مع ذلك، أنهم حين يتخذون موقفاً حول الاقتصاد، فإسلاميو مصر ينقسمون إلى اتّجَاهَيْن متعارِضَيْن؛ الأول يطالب بِحُضور أكبر للدولة؛ والثاني يطالب بحضور أقلّ· إسلاميو الضواحي، من نوع إسلاميي امبابة، يُلِحّون أكثر على الخدمات العمومية؛ وهم قريبون من الاشتراكية العربية، حينما كانت الدولةُ تمنحُ الخبزَ والشُّغْل والسَّكَن· وعلى النقيض منهم فالإسلاميون الذين يَجِدُون أنفُسَهُمْ في مقالات هويدي يرون أن الدولةَ ليست هي الحلُّ، ولكنها المشكلةُ· فَالشَّعبُ تقيٌّ وَوَرِعٌ، حَسَبَ هويدي، والبيروقراطيون مُتَغَرّبون بِشَكل كبير، ومن هنا فإنّ إعادة الأسلمة تمرّ عبر مزيد من المجتمع المدني والقليل من الدولة· إنّ هؤلاء الإسلاميين الذين يُلِحّون على دور أقلّ للدولة في الاقتصاد يَعْتَبِرون أن عمليات الخوصصة، والعودة إلى المِلْكِيّة الخاصّة تُقَرّب مصر من المثال الأعلى القرآني؛ إنهم ليبراليون جُدُدٌ، ويُذَكِّرون بأن (النبي)محمد كان تاجرا·

ولكن القرآن يدور وينقلب حسب مشيئة الريح؛ في سنوات الستينات، كان الإسلاميون اشتراكيين باسم القرآن، وكان هؤلاء يُشَدِّدون على العدالة· إنّ النصّ الديني يُطْوَى، في الحقيقة، حسب مصالح الطبقة، فالمزيدُ من تدخل الدولة باسم القرآن بالنسبة للإسلاميين الاجتماعيين، وتَدَخُّل أقلّ للدولة باسم القرآن بالنسبة للإسلاميين الليبراليين· وبعيدا عن توحيد مجتمع المؤمنين، فإنّ الإسلاموية تلعب على وتر انقساماتهم السوسيولوجية والاقتصادية· وعلى كلّ حال، فليست هذه أول مرة في تاريخ الإسلاموية يخضع فيها تأويل القرآن لاعتبارات مادية أكثر مما هي دينية: ففي القرن الثامن عشر، وأثناء الثورة الوهابية في نجد والحجاز، قام التماميون بتحريم السجائر ولكنهم قاموا باستثناء القهوة· باسم القرآن؟ فالقهوة كانت تُنْتَج في اليمن، وهي منطقة تأثير وهابية، بينما يأتي التبغ من سوريا، التي كانت تحت سلطة خصومهم الأتراك·

علينا، مع كل هذا، ألاّ نخْتَزِلَ الإسلاموية إلى حتمية اجتماعية واقتصادية؛ فهي عوامل تتَدَخَّلُ، ولكنها لا تفسّر كلَّ شيء·

البحث عن مشكلة

يُفَضّل الشُرّاح والمعلقون على الإسلاموية في الغرب الأسباب المادية والموضوعية والقابلة للقياس. إن هذا البحث عن الأسباب يَتَوَزّع عبر ثلاث تيارات مُهيْمِنَة. بالنسبة للتيار الأول، وهو يمثل الأغلبية في العالَم الجامعي الأنجلو-ساكسوني، فالإسلامي هو شابّ حاملٍ لشهادات علمية وهو عاطل عن العمل، وفي تمرد ضدّ إهمال حكومته. التيار الثّاني، وهو مُمَثَّل بشكل جيد في فرنسا، ويعطي الأهمية للديموغرافيا: فالإسلامي يبلغ العشرين من عمره ويمتلك معرفة، وهو في تمرد ضدّ الأكبر سنّا والأقلّ ثقافة منه، ولكنهم يمتلكون السلطة والوظائف. التيار الثالث ينطلق من التحليل النفسي: فالإسلامي شخص مكبوتٌ بسبب استعراضات الممتلكات المادية ونساء غربيات، لا يعرفهنّ إلاّ من خلال التلفزيون والإشهار، أو يراهنّ في شوارع القاهرة الباذخة. إنّ الإسلاموية تعبيرٌ عن هذا الكبت. الإسلام يَصلُحُ في إعطاء معنى لِتَمَرُّدِه ولإرادته في الحصول على خيرات هذا العالَم. في هذا الارتباك يلعب تحريرُ المرأة دوراً مُحَدّدا، دون شكّ.

إن الحركات التمامية، في مجموع العالَم الإسلامي، يُهيْمِن عليها، فعليا، الرّجالُ؛ إنّ المُناضِلات موجودات، ولكنهنّ يُشكِّلْن استثناء. لا يمكن أن ننفي أنّ نشاطاتهنّ الإسلامية هي انتقامٌ من الرَّجُل الذي يَسْتَخْدِمُ الدينَ من أجل إرساء وفرض سلطته على نساء، قريبات أو بعيدات، يستعصين عليه. ومن هنا نعرف أنّ إعادةَ فرْضِ الحجاب على النّساء رمزٌ للصراع الإسلامي. إنّ هذه الفرضيّة يبدو أنها تلقى سَنَداً من بعض الحركات التمامية(1) غير الإسلامية، من مثل الطائفيات والقوميات المتطرفة التي تنشط في أوروبا. إنّ هذه الحركات يمتطيها، دائما، ذُكُورٌ مُعادون للحداثة التي تُحَرّرُ النساء؛ فكلهم طهرانيون. إنّ الإسلاموية، يمكن تأويلُها، عند اللزوم، كترجمة محليةٍ لِرَدِّ فِعلٍ كونيّ لِذُكُورٍ زَعزَعَتْهُم النّساءُ.

إنّ هذه التفسيرات المُهيْمِنَة تتفق كلها في حكم مسبق مشترك في الغرب، وهو أنّها تنفي كون الإسلاموية شُعورا دينيا أصيلا. وفي كل الحالات التي يطرحها علماء الإسلام، فالإسلامُ يُظهِر حزْماً من الخارج، ويبدو إسلامويا بمحض الصدفة. ومن دون شكّ، فقد أصبح صعبا علينا، منذ نُزوع غَرْبِنَا شبه المُلْحِد، أن نفهم شرقاً مؤمناً في كلّيته تقريباً. فهنا، مات اللهُ؛ أما هناك، فهو في صحة جيدة. إنّ النظرةَ التي نُلقيها على مجتمعات ظلّتْ تقليدويّة وتقيّة، وفي الغالب صوفيّة، مغشوشةٌ بِسَبَب نظّاراتِنَا العقلانية جدا. ومن أجل فهم الإسلاموية، إذا كان هذا ممكنا، فإنه يتوجب ألاّ نُفَضّلَ تفسيراً واحدا. في مواجَهَة التعقيد، فإننا نَجِدُ أنفسَنَا أمام إغواءِ عزلِ عاملٍ كامنٍ بَدَل عامل آخَر متعالٍ، مفتاح، من أفضل المفاتيح في هذه الدنيا، يفتح كُلَّ الأبواب. ومن الراجح أنّ الإسلاموية تتطبَّعُ بِطَبْع كل التفسيرات المُعلَنَة هنا وأخرى لا نعرفها بشكل جيد.

وأخيراً، فالغربيون في تحاليلهم عن الإسلاموية يقللون من تأثيرهم الخاصّ. في ردّة الفعل ضدّ الغرب، يكشف كثيرٌ من الإسلاميين عن خوف حقيقيّ مِنّا، خوف من فقدان هويتهم، خوف حقيقيّ من اعتداء عسكريّ من قبل الولايات المتحدة أو من إسرائيل. في مصر، يخاف بعضُ المسلمين من حملات تبشيرية مسيحيّة تأتي لفرض الدّين المسيحي. إنّ ما نسميه، نحن، بِتَخَيُّل، يعيشُه

المسلمون كواقع. إنّ هذه التخيُّلات والأوهام حقيقيةٌ، لأنّ الأساطيرَ هي أشياءُ حقيقيةٌ تَفْرِضُ تَصَرُّفَات.

الصحيح إسلاميا

هل من البسيطِ التمييز بين الإسلام والإسلاموية؟ هذا ما يمكن أن يكون عليه التقاسُمُ الضروريُّ، الصورة المَفروضَةُ، والتي يُرَادُ لها أن تُعْتَمَدَ في الشرق كما في الغرب: أي أن الإسلامَ صحيحٌ، والإسلاموية غير صحيحة. إن هذا التمييز بين إسلامٍ وإسلامويةٍ يفترض وُجُودَ إسلامٍ جيّد وَرِعٍ وسلميّ، في مواجهة إسلاموية سياسيّة وعنيفة. ولكنْ هلِ الحدودُ واضحةٌ ومُستَقِرّةٌ؟ هل يُدرِك المسلمون، مثلما يُدرِكُ الغربيون، الفرقَ بين الإسلام والإسلاموية والتمامية والأصوليّة؟ إنّ النَّظر يختلف، في الحقيقة، حسب المكان الذي نَتَوَاجَدُ فيه، إنْ في الدّاخِل أم في الخارج، والقاموس يزيد من تعقيد الموقف. إننا حين نُميِّزُ ما بين الإسلام كَدِينٍ، والإسلامويّة كاستخدام سياسيّ للإسلام، فنحن نُلَبِّسُ المجتمعات المسلمة ثنائية غربية وحديثة؛ فَمَا كُلُّ المسلمين يفهمون هذا التمييز الذي نقوم بِفَرْضِهِ عليهم.

إنّ الحدودَ ما بين الإسلاموية والتمامية ليستْ أكثرَ وُضوحاً. فالتماميةُ تعني، من حيث المبدأ، الانحرافات التوتاليتاريّة للإسلاموية أو لأيّة أيديولوجية زمنية أو دينية. إن هذه التمامية نُسمّيها أُصُوليّةً حِينَ تَدَّعِي أنها تعتَمِد على مَصَادِرَ كتابيّة لا يمكن دحضُهَا؛ فلا التماميةُ ولا الأصوليةُ علامات خاصّة بالإسلام؛ لأنَّ مُصْطَلَحَ الأصوليّة ظهر، في البدء، عند المسيحيين.

يبقى معيارُ الإلتجاء إلى العنف: أليسَ هو الذي يُتيحُ الفصلَ بين الإسلام والإسلاموية من جهة والتمامية من جهة أخرى؟

حينما يكون الإسلامُ مُهدَّداً، فإن العنفَ يُقَرِّرُهُ القرآنُ. ولكن متى كان الإسلامُ مُهَدَّداً، ومن يستطيع التصريحَ بهذا؟ إنّ ما يُسَمّيه الآخَرُ عُنْفا يمكن أن يظهر، من وجهة نَظَر منْ يُمارِسُه وكأنه دفاعٌ شرعيٌّ. إنّ العنف الذي يستبدّ بِمُسلمٍ، كما بإسلاميّ- ولكن أيضاً بِيَهوديّ أو بِهِندوسيّ - أَلاَ تفرضُهُ، في معظم الأحيان، ظروفٌ خاصّة، وليست له علاقةٌ جوهريّةٌ بالإسلام ولا بالإسلاموية؟ فلْنَقُلْ، بِحَذَرٍ، إنّه لا توجد حُدودٌ مغلقةٌ بين الإسلام كتقوى وَوَرَع، والإسلاموية كَعَمل على المجتمع والتمامية كعُنف، إنّ هذه الكلمات الثلاث تُشَكِّلُ، بالأَحْرى، سديما(أو حالة غامضة) حيث ننتَقِلُ، شيئا فشيئا، من حالة إلى أخرى حسَبَ إرادة مصائر فردية أو جماعية.

يبقى الإرهاب: يبدو أنه مثله مثل الإسلام يتطبَّع بِطَبْع عنف سياسيّ مُشتَرَك بين أيديولوجيات مُعاصِرَة، من قبيل الألوية الحمراء في إيطاليا، وبادر ماينهوف والفارك في كولومبيا، وإيتا الباسكية في أوروبا. فهل علينا أن نبحث عن القواسم المشتركة، ما بين إرهابيٍّ باسكيّ ومحارب كولومبيّ، وواحد من أتباع القاعدة، للعنف، وللالتزام الأيديولوجي، أَوْ تفضيل المرجعيّة الإثنية أو الدينية؟ إنّ التساؤُلَ يلتحق بِالجَدَل الذي يجعل النازية والستالينية تَتَعَارَضَان، أو، على العكس، يَمْزِجُ بينهما في نفس الصِّنْف التوتاليتاري الواحد.

هل الإسلاموية تُشَكِّلُ الأغلبية؟

هذه الإسلاموية ذات الوجوه المتعدِّدَة، هل هي في تطور أم في نكوص؟ وكيف يمكن التمييز بين تطوّر حقيقيّ وقابليّة الرؤية الوحيدة لهذا التطوّر؟ إن الغربيين يكتشفون ما يسمونه بالتمامية الإسلاموية كما لو أنَّ هذه الأخيرةَ لم تُوجَدْ مِن قَبْلُ؛ إنّ المجتمعات المسلمة، في الواقع، كانت دائماً تجتازُها حركاتٌ افتدائيّة وتطهيريّة. لم يكن الخبَرُ يَصِلُنا أو أنه لم يكن يَهُمُّنَا قطّ. إنه يحتَلُّ، اليومَ، شاشاتنا كما شَاشَاتِهِمْ. إنّ حَداثة وسائل الاتصالات تُقَوّي الظاهرةَ التمامية، وتُبالِغُ في صداها في الداخل وفي الرُّعب الذي تنشره في الخارج. هذه الرؤية الجديدة أليستْ علامةً دالّة على الإسلاموية الراديكالية أكثر مما تدُلُّ على تأثيرها الواقعيّ؟

تُجيبُ مِئاتٌ من الكتب، في الغرب، عن هذه التساؤلات، وأصبح الأمر صناعةً تحاول الإحاطة والإلمام بالتيارات الإسلاموية. تيارات لا حصر لها، تُخْلَق وتختفي كلَّ يوم؛ بعض هذه التيارات، التي يسود الانطباع بأنّه يمكن وضعُها في تعريف من قبيل إسلاموية اجتماعية غير عنفية، تَكْشِف، فجأة، عن كونها تمامية سياسية عنيفة جدا. إنّ مُقارَبَة موضوعية تبدو صعبةً.

بينما نرى أنّ كل ارتعاشة للمجتمع في الغرب، يتمّ تقشيرُها وتفكيكُهَا وتحديد كَمِّهَا، فإن مُقارَبَة المجتمعات المسلمة يتمّ وفق منظور ثقافويّ أكثر منه تحليليّ، كما لو أنّ هذه المجتمعات تشتغل، أساساً، بِطُرُق مختلفة عن المجتمعات الغربية أو الأسيوية. إنّ هذه المُقارَبة يُريدُها الإسلامويون، الذين يقتاتون من هذا الاختلاف. ويعزّز هذه المقاربة بعض المختصين الغربيين بالإسلام الذين يَحْمُون تخصُّصَاتِهِمْ. إنّ من مزايا المُقَارَبَة الثقافوية هو كونها بسيطة: تأملية أكثر ما هي ملموسة، وهي تتفادى صعوبةَ التحقيق الحقيقيّ. إنّ كثيراً من علماء الاجتماع ومن الاقتصاديين ومن الديموغرافيين الذين يُمارسون عملَهُمْ في عين المكان يتحدثون عن تحفُّظَات مجهولة في العالَم الغربي، بله المجتمعات البدائية. إنّ المواطن المسلمَ حَذِرٌ؛ فَهُوَ يرى في المُحَقِّق عميلاً أجنبيّاً أو للسلطة القائمة؛ إن مفاهيم العيّنة وتحديدَ الكميّة تصبح مستحيلةً. حينها يعلن الباحث عن تخليه عن البحث، أو أنّه يَتَحَصّنُ في مونوغرافيات. إنّ الدراسات المُقارَنَة المُكَرَّسَة للإسلاموية ما زالت نادرةً؛ لأنها تفترض الانتصار على تَحَفُّظَات الرعايا المسلمين وتحفظات البيروقراطية، ليس في بلدٍ وَاحِدٍ فقط بل في عديد من الدول. وهو ما يقود في معظم الأحيان إلى تَقْديرات تأخذ مكان المعرفة.

علينا أن نُشير إلى إحدى الاستثناءات وهو عَالِمُ الاجتماع رياض حَسَن، وهو باحِثٌ من أصل باكستانيّ يُدَرِّس في أستراليا، حَاوَلَ أن يَتَجَاوَزَ مرحلةَ الانطباعات الذاتية من أجل تحديد كَمِّ التأثيرات. انطلاقاً من دِرَاسة علميّة أُجْرِيَتْ على عينة تمثل طبقات متوسطة مصريّة، أَبْرَزَ درجَةَ الحَّذَر الذي تُبديه تجاه العلماء وتجاه أئمة المساجد، بنسبة 09 في المائة. وفي المقابل، لا يَثِقُ إلاّ الرُّبُع من هذه الطبقة الاجتماعية، في الأحزاب السياسيّة وفي مؤسسات الدولة. أما الجيش فيوجد في وضعية وَسَط، فلم يُعَبِّر سوى النِّصفُ عن ثقتهم فيه. إذا فالمصريون، في غالبيتهم، شعبٌ وَرِعٌ ويتطلّع إلى النظام الذي يُمَثِّله الجيشُ. ولكن ثقَتَهُم في العلماء، هل سَتَصْمُدُ أمام تحّول هؤلاء إلى

حزب سياسيّ؟ إن الثقة الممنوحة للإسلامويين حين لا يكونون في السلطة ستنحسر بدون شكّ، ولكِنْ إلى متى؟

في مصر، يُقَدّر علماء السياسة أنه في حالة إجراء انتخابات حرة، فالأحزاب الإسلاموية المحظورة ستحصل على غالبية الأصوات؛ بينما يُراهِن آخَرُون على نسبة 51 في المائة، وهي النتيجة المتحققة في بلدان إسلامية حيث سُمِحَ لهذه الأحزاب بالتقدم إلى الانتخابات، مثل الأردن الكويت والمغرب وباكستان. من المُرَجَّح أن النتيجَةَ تعتمد على ظروف الانتخابات، فلو أُجْرِيَت الانتخابات، حالاً، فإنّ الإسلامويين سيفوزون بها، من غير شك، على برنامج واحد ينبني على رفض الطغيان والفساد. ولكنّ الانتخابات ستكون مختلفةً بعد عدة سنوات من حرية وسائل الإعلام ومن التجارب، مثلا في نهاية الانتخابات البلدية، يكون الإسلامويون قد أعطوا البرهان على قُدُرَاتِهِم. إنّ مُقاربة براغماتية، في الوضع الرّاهن للأشياء، تبقى نظريةً،لأنّ الإسلامويين وحدَهُم من ينادي بانتخابات في مصر. السلطة السياسيّة لا تريد سماعها، والعسكريون لا يعتقدون بجدواها، وأما بالنسبة للأحزاب غير الإسلاموية، فإنها تنادي بـالدَّمَقْرَطَة بدل الانتخابات.

لا يبدو أن الإسلامويين قريبون من الاستيلاء على السلطة عبر القوة أكثر مما يستطيعونه عبر الانتخابات. فزعماؤهم موجودون في السجون، وكذا مُناضِلُوهُمْ. وتقنيات القمع معقدّةٌ جدا في مصر بحيث إن النِّظَام يستطيع أن يُحَافِظَ على بقائه، لفترة طويلة، بالرغم من فقدانه للشرعية. وهي مُلاحَظَةٌ تنطبق على كلّ الديكتاتوريات العربية-الإسلاميّة، إذ لا يمكننا أن نُطَبِّقَ على هذه الأنظمة المنطقَ الغربيَّ الذي يقود، بالضرورة، إلى فقدان الشعبية وعدم استقرار وإلى الانقلابات؛ إنّ أنظمة لا تحظى بالشعبية يُمكِنُها، على العكس، أن تدوم طويلاً، وتحديداً لأنها ليست ديموقراطية.

هل يجب الاكتفاء بهذا الوضع الراهن؟ أَلاَ تُساهِمُ سلطةٌ قويّةٌ في حِمَاية مصر وجيرانها والغرب، من انبثاق سلطة إسلاموية تكون، على الأرجح، مُعادِيَةً للغرب؟ على قاعدة هذه البرهنة التي تبدو واقعيّةً، فإن الحكومات الغربية تمنحُ، كل سنة، إلى النظام المصري مساعدة من عدة ملايير من الدولارات، وبدونها كان النظامُ سَيَهْوِي. ولكنْ ألاَ يُبالِغ النظامُ المصريُّ في التهويل من العنف الإسلامويّ من أجل الحصول على دعم جوهريّ ودائم من الغرب؟ يوجد عنفٌ إسلامويٌّ مرتبطٌ، بشكلٍ جوهريّ، بهذه الحركة، وسيكون من الساذج التشكيكُ فيه. إنّ غيابَ حرية التعبير، إذا ما أضفْنَاهُ إلى غياب تنمية اقتصادية، يُشَكِّلُ أيضا طريقةَ قمع يوميّ سرعان ما تنتهي بِشَرْعَنَة العنف. ودون اختزال الإغواء الإسلامويّ إلى حتميّة اقتصادية وسياسيّة، فإنه من الواضح أنّ الديكتاتوريةَ والفقرَ يمنحان الإسلامويين تُرْبَةً خصبة. ولكنْ ليس الاقتصاد أو الوضع السياسيّ، فقط، مَنْ يقود مِنَ الإسلام إلى الإسلاموية؛ الحكاية قديمة.

حرب السبعمائة سنة

منذ القرن الثالث عشر، على الأقلّ، وكي نظَلَّ في العالَم السُنّي، تَميّز المسلمون بِمَوْقِفَين اثنين مختلفين إزاء الخالق؛ هذا التمييز لا يستنفد الموضوع وإنما يُضيئُهُ.

في التقليد الأول، يُطيعُ المسلمُ ربَّهُ، ويَخْضَع له. هذه الطاعة يمكن أن تكون تلقائيةً أو إكراها: ضرورة سياسية أو تقاليدية اجتماعية؛ ويمكنها أن تَمُرَّ عبر وَسِيطٍ، راهب أو مُشَرِّع قانون.

التقليد الآخَر يتعَلَّق بالاتصال مع الله أكثر ما يتعلّق بالطاعة؛ ويمكن للاتصال أن يَتِمَّ دون واسطة أو عبر شفيع. وهذا الأخير لا يمكنه أن يكون مُشَرّعا للقانون وإنّما هو شيخ في الممارسات التلقينية. هذا الشيخ يمكنه أن يخون ثقة أتباعه مثلما يستطيعُ مُشَرِّعُ قانون أن يخون أو لا يخون المؤمنين. إن تعبير التصَوُّف يصف هذا الموقف الباطنيّ. إن الزّاوية هي الترجمةُ الاجتماعية والسياسيّة.

إن أُصُولَ هذا البحث عن التواصل غامضةٌ؛ يُرَجّعُها بعضُ المُدافعين عن الدين إلى زمن محمد، مُلاحِظِينَ أنّ النبيَّ نفسَهُ كان يُمارِسُ تمارين باطنية.ولكن خصوم التصوُّف والزوايا يعتقدون أنّ هذه المُمَارَسَات تعود إلى التقاء المسلمين مع النُسّاك(الزّهاد)، مسيحيين في الشرق الأوسط، هندوسيين أو بوذيين في الهند. وإذا كان التَصوّفُ يُثيرُ إعجاب الغربيين، فلأنه ليس بعيداً عن الصوفيّة المسيحيّة ولأنه يَتَوَافَقُ، عن طواعية، مع الثقافات الأكثر تنَوُّعاً في صيغةٍ من توفيقية وتلفيقية تَتَلاَءَمُ مع الشمانية (عبادة الطبيعة في آسيا) مع جاوا كما تتلاَءَمُ مع مذهب حيوِيَّة المادّة في أفريقيا. فضلا عن هذا كلّه، فالمتصوِّفَةُ يُنْشِدون ويرقصون، بينما يبدو الأمرُ لنا صَارِماً، في مدرسة الخضوع، التي تأسست على مبدأ الاحترام المُشدَّد والملزم للنصوص أو لِمَنْ يتحَكَّمُون في تأويلها.

إنّ مدرسة الخضوع، حين لا تَتَوَرَّطُ في أية ممارسة غير تلك التي حدَّدَتْها النصوصُ، فإنه يمكن أن نَصِفَهَا بالأُصُوليّة. في هذه السلسلة يتمّ تجنيدُ الإسلامويين الذين يرفضون كُلَّ سلطة سياسيّة لا تُطَبِّقُ الشريعةَ. وبينما يَتَأَقْلم المتصوِّفَةُ مع كل سلطة، شرط اعتراضها على الفوضى، فإن التيار الأُصُولِيَّ لا يستبْعِدُ واجِبَ التمرّد.

إنّ أوَّل مؤلِّفٍ شرَّعَ التمرد، هو ابن تيمية، أحد كبار الفلاسفة المسلمين، ومعاصر لابن خلدون، ناقد العقل الأرسطوطاليسي؛ ولكنه، وبعيدا عن عمله الفلسفيّ، يَظَلُّ رائد تقليد إسلامي راديكالي مستمرّ منذ عصره. لقد عاش في بغداد، وشَهِدَ سُقُوطَ خلافة العباسيين في سنة 1 2 5 8، ووُصول الدولة المغولية. أَلَمْ تكن هذه الدولة مسلمةً؟ إنّ هؤلاء المغول، حسب ابن تيمية، ليسوا مسلمين إلاّ في الظّاهر، ولكنهم يُواصِلون اتّبَاعَ قوانين أجدادهم بدلا من الشريعة: إنهم أشباه مُعتَنِقِي الإسلام! يرى ابن تيمية أنهم مرتدّون، وهو ما يقتضي من كلّ مسلم العملُ على قلبهم. إنّ هذه الفتوى دشّنتْ ثورة ثيولوجيّة وسياسيّة، فلا توجد حركة إسلامية تماميّة إلاّ وتنطلِقُ من هذه الفتوى، حَسَب سلسلة تربط ابن تيمية بـمحمد ابن عبد الوهّاب في نجد، بالأُصوليين المصريين المعارضين لـرفاعة، السيد قطب، الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الجزائر، وأخيراً أسامة بن لادن. ويعود، أيضا، إلى ابن تيمية تحريمُ ممارسات موروثة، في نظره، عن المسيحيّة، مثل الاحتفال

بولادة النبيّ وعبادة القدّيسين؛ وما زالت هذه الطقوسُ، وإلى حدّ أيامنا هذه، تُقَسِّم المسلمين إلى فريقين.

إنّ التنافس بين هذين الإسلامين، إسلام الخضوع وإسلام التواصل، يفسِّرُ الصراع الرمزيّ في شبانة القناطر، واغتيال السادات من قبل أتباع ابن تيمية، والهجوم على مسجد الله الحرام في مكة سنة 1979، الهادف إلى قلب الدولة السعوديّة المُتَّهَمَة بخيانة الإسلام، وانتهاءً بالتفجيرات التي حَرَّضَ عليها ابن لادن. هذا التنافُس يُفَسِّرُ أيضاً الجدل حول معنى الجهاد؛ فبالنسبة للطرف الأول، الجهاد يعني جهاد النفس من أجل بلوغ الطهر واستئصال الشرّ؛ بينما ورثة ابن تيمية، يرون أن الجهادَ يستوجبُ استئصالَ أعداء الإسلام، ابتداءً من المسلمين المُتَظَاهِرين، الذين هم في الواقع ليسوا سوى مُرتَدّين.

إنّ هذه الجينيالوجيا الموجزة، بدون شكّ، ستعْبُر القرون بكثير من الخفّة؛ وهي بتفضيلها للاستمرارية التاريخية، تقوم بالإنتقاص من قيمة إسهام كلِّ عصر في إعادة تعريق وتحديد الإسلاموية الراديكالية. هكذا لأَحَظْنَا أن الإخوان المسلمين كانوا متأثرين بالفاشية، التي كانت مُعاصِرَةً لنشأتهم. كما يمكننا أن نُخَمِّن وجود تأثيرات لينينية على قطب، من حيث إلحاحه على دولة ذات كتلة واحدة يقودها حزبٌ إسلامَوِيٌّ، ومناداته باستخدام كلّ الوسائل بما فيها العنف، من أجل الوصول إلى تحقيق أهدافه، ويتحدث عن الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي بقدر تحدّثه عن القرآن. ويبدو أن النموذج اللينينيّ أرَّقَ مُؤسِّساً آخَرَ للإسلاموية الرديكالية المعاصرة، وهو الصحافيّ مولانا مودودي، فقد أسس في سنة 1950، بباكستان، حزب الجماعة الإسلامية، مفترضا أنه بصدد تشكيل الطليعة الثورية للإسلام وسوف نرى في إيران كيف أن الثورة البلشفية أثَّرَتْ على الطرق الإسلاموية حسب زَعْم الإمام الخميني. كل هذه الحركات، إذا كانت تسْتَنْسِخُ نماذِجَ توتاليتارية معاصرة، فإنه يُنْظَرُ إليها، بالرغم من ذلك، على أنها ليست تاريخية، وهذا، فيما يبدو لنا، هو ما يُضِيءُ تصرُّفَاتِهَا بشكل أفضل.

وأخيراً، يبدو أن الإسلامويين، اليومَ، قد استعادوا النشاطَ بسبب ظروفٍ متشابهة مع الظروف التي عرفها ابن تيمية فهذا الأخير أصدر ردّة فعل، في آنٍ واحد، ضدّ سلطة داخلية اعتبرها سيّئةً وضدّ عدوان خارجيّ، وهو عدوانُ أقلياتٍ مسيحيّة في سوريا وفي مصر. إنّ هذا التوتر المزدوج يوجد أيضا في بداية نشأة الإخوان المسلمين، ففي سنة 1928، جاء ردّ فعل حسن البنّا، مؤسس التنظيم، ضدّ اعتداء داخلي، وهو إلغاء دولة الخلافة من قبل كمال أتاتورك، وضدّ اعتداء خارجيّ، وهو الصهيونية.

إنّ هذه الإسلاموية السياسيّة التي تبدو لنا جديدة جدا، هي أيضاً، وعلى المشهد العالمي، مُواصلةُ صراع قديم جدا يَهُمُّ ويُؤَثِّر على المسلمين قبل كلّ شيء. وفي هذا الصراع، يَكْشِفُ الغربُ، بالتأكيد، عن كونه صاعقا قويّا، ولكنه لا يُشَكِّل، في شيء، رهانَ الصراع. إنّ ما ندعوهم بـالإسلامويين يريدون فتح وإعادة فتح امبراطوريتهم أمام مسلمين آخرين، أكثر مما يريدون فتْحَ الغرب، وهو طُمُوح يعرفون أنه بعيدُ المنال.

الفصل الثالث

ليبيراليّ ومُسلِمٌ

سعد الدين إبراهيم محظوظٌ، فبعدَ ستة أشهر، فقط، من السجن، استعادَ حريته. نحن في شهر حزيران 2001. في سجنه في طرّة، بجنوب القاهرة، استَفَادَ من مُعامَلة تفضيلية نسبياً، وهو العزل التامّ. طرة هو اصطياف مُخَصَّصٌ لأعداء النظام المصريّ، وهو مَا لاَ يجعل منه مَحَلَّ إقامة نموذجية. هذا السوسيولوجي المُعْتَرَف به في مصر وفي الولايات المتحدة، البالغ من العمر الخامسة والستّين، أُصِيبَ بِنَوْعٍ من مرضٍ عَصَبيّ، وهو عائقٌ نِهَائيٌّ، على الأرْجَح. ولكنّي بعد أن التقيتُ به بعد أيامٍ من إطلاق سراحه، بدا لي جسَدُهُ مُتَأَثِّراً أكثر مما تأثَّرَ عقلُهُ وسُخريّته المَقْرُوحَان. لقد أَقَرَّ أنّ المثقف المصري الذي لا يخرج من السجن، لم يُكْمِل مشواره. إنّ عدم زيارة سُجُون مصر، يجعل المُثَقَّفَ مشكوكاً فيه بالخنوع للنظام، وأسوأ من هذا، بأنه عديم الأهمية من وجهة نظر ثقافية.

ستة أشهر من عُزلَة في زنزانة شكّلت، بِشَكلٍ واضحٍ، عقوبةً لا تُطَاقُ؛ ولكنّ البَّديل الآخر يقضي بِتَقَّاسُم صالَة عامة ومِرْحاض واحد، مع ثلاثمائة سجين سياسي آخَرين.

إنّنا نَعرفُ، بشكلٍ سيّيء، أوضاعَ السجون المصريّة. لقد حَاوَلَ الروائيّ المصريّ صنع الله إبراهيم، في روايته شرف، المرتكزة على تجربته الشخصية في زمن ناصر وكذلك على محكيات مَسَاجين قدامى، أن يُعيدَ تَشكيلَ عالم السجن، الذي يُذَكّرُ بـبيت الأموات كما يَصِفُه دستويفسكي يشرحُ سعد الدين إبراهيم كيف أن سجن طرة يُمكِنُ أن يُنظَر إليه كتمثيل مُقَعَّر للمجتمع المصريّ؛ إننا نَجِدُ فيه كُلَّ من يرغب في قلب النظام، أو تحديدا، كُلَّ من يخشى النّظامُ من مُعارَضَتِهِمْ.

من بين خمسمائة سجين يضمهم سجن طرة، فإنّ ثلاثمائة ينتمون إلى صنف الإسلامويين. وهم، عُموماً، لم يرتكبوا أيّة جريمة، ولكن تمّ إيقافُهُم لأنّ لِحَاهُمْ طويلة ولأنّ جلابيّاتهم قصيرة، وهو ما يَفْتَرِضُ أنهم متعاطفون معهم. وهو ما لا يُنْكِرونَهُ، عموماً. إنّ هؤلاء الإسلامويين، سُجَناء الرأي، يُعامَلُون بشكل أسوأ من قطيع الحيوانات، ويظلّون في السجن ما بين عشر سنوات وإثنتي عشرة سنة، ثمّ يستعيدون حريتهُمْ بعد وَهَنٍ جسديّ ونفسيّ. ولا يُعيدُ لهم النظامُ حياتَهُم المدنيّة، إلاّ بعد تحطيمِهِمْ؛ ولقد بدا لي من خلال التقائي بإسلامويين خارجين من السجن، بأنهم أكثر تحمُّسا مِن ذي قبل.

في سجن طرة يقبع صنفٌ ثان من السجناء السياسين، يُقدّمهُم صنع الله إبراهيم على أنهم كانوا من مُوَظَّفِي النظام القائم، وفَقَدُوا حُظْوَتَهم. إنّ فترة بقائهم بالسجن ستكون أقلَّ، وسيُعامَلون من قبل حُرّاس السجن بوحشية أقلّ. إنها حيطةٌ حكيمةٌ، فمن يدري أنه بعد عدة ثورات من داخل المؤسسة، سيستطيع هذا الموظَّفُ السامي المُتَّهَم بالإخلال بأمانة الوظيفة، العودة إلى السلطة.

يبقى صنفٌ أخيرٌ، وهو قليلٌ من ناحية العدد، وعموماً مفصولٌ عن الصنفين الآخَرَيْن، ليس لأنه يُشَكِّل خطراً، ولكنْ لأنّ النِّظامَ لا يدري كيف يتعامَلُ مع قضيته، وهم المثقفون المنادون بالديموقراطية و/أو يُدِينون فسادَ النظام. سعد إبراهيم ينتمي إلى هذا النوع من المُعارِضين المُزْعِجين لكلّ ديكتاتورية لا يقرّ رأيُها لا على الاستماع إليهم ولا قتلهم. ومن البدهيّ أنّ هذه لم

تَكُنْ، أبداً، التهمة الرسمية الرئيسيّة، ففي القانون، وهو مفهومٌ لا يمكن أن نجد أكثر مُرونَة منه في مصر، تمّ اتّهام إبراهيم بتلقّي أموالٍ، دون إذنٍ، من صندوق الاتحاد الأوروبي موجَّهَة لتمويل أبحاثه. ولترجيح الكفّة، وحسب عنصر الاتهام، فإنّ إبراهيم أصدر تصريحات فظّة عن مصر، قمينةٌ بالإساءة إلى رئيس الدولة وإلى الأمن الوطني، وهو نوعٌ من جريمة الاعتداء على الجلالة مُسَجَّل في القانون الجِنائيّ. وفي الحقيقة، فإنّ إبراهيم، وهو شخصٌ فصيح ومفوّه، يمكن أن يكون قد تحدَّثَ في محادثات عمومية، أنّ مبارك تدغدغه فكرة نقل السلطة إلى ابنه، كما نجح الرئيس السوري الراحل في ذلك. ومن الراجح، أيضا، أنّ الرئيس لمصريّ مُتَضَايِقٌ من دراسات معهد ابن خلدون، الذي يُديرُهُ إبراهيم، عن وضع الأقباط في مصر وحول التلاعبات الانتخابية. ستة أشهر سجنا من أجل إشاعات؟ كانت العقوبة ستكون تافهةً، في المقياس المصريّ، لو لم يَسْتَفِدْ سعد إبراهيم من دعم مساندة دولية في الولايات المتحدة والدول الاسكندنافية؛ إنّ وَزْنَ التّوقيعات نَجَحَ في إلآنَة القضاة الذين اعتبروا أن اعتقاله غيرُ قانونيّ. بدون هذا الدّعم، كان إبراهيم سيقبعُ عشر سنوات في زنزانة أو يختفي دون أن يترك أثراً؛ هذا هو المصيرُ المشتَرَك المُخَصَّص للمجهولين والتابعين.

ولكن في سنة 2 0 0 2، أُثِيرَتْ قضيةُ سعد الدين إبراهيم من جديد، فقد حكمت عليه محكمة الاستئناف بسبع سنوات سجنا. عبر حركة لا سابق لها أدانت الولاياتُ المتحدة الخيانة المصرية وألغت ملايير الدولارات من المساعدات المالية لنظام مبارك، بالرغم من كونه من زبنائها. هكذا أصبحت قضية إبراهيم رمز تحوّل سياسيّ للولايات المتحدة إزاء الاستبداد والطغيان في أرض الإسلام؛ وأبعد من هذه الحالة الفريدة لِسَجين الرأي، فإن الكونغرس في الولايات المتحدة والرئيس بوش أَوْضَحَا بأنّ الدعمَ اللامشروط من الغرب للدول الاستبدادية ليس الوسيلة الفضلى لتحقيق رفاهية الشعوب العربية، واجتذاب تعاطفها ولا للكفاح ضدّ عنف الأصوليين. هكذا أبرز المسؤولون الأمريكيون، وبدعمٍ من بعض كبار الصحافيين الليبراليين، أن مصير إبراهيم، الذي كان إلى حدّ الآن عاديا، لا يتوجب أن يكون مُركّبة حتميّة في العالم العربي-الإسلاميّ.

من الأكيد أننا لا نستطيع، عبر مرسوم، حتى وإن أَمْلَتْهُ الولايات المتحدة، إحلال الديموقراطية والتنمية محلّ الديكتاتورية والفقر. ليس من المحظور التقارب معها، وليس من المحظور كذلك على الغربيين، حُلَفَاء المُسْتَبِدّين العرب، أن يميلوا نحو هذا الاتجاه. وإذا كان هذا التطبيق ليس بسيطاً، فإنه ليس مستحيلا. فلا شيء، في الإسلام، يُعارِضُه. فالقرآنُ لا يفرض ويحدّد أيّ نظام سياسي على وجه الخصوص. وخلال تاريخ المسلمين الطويل، وُجِدَ بعض العلماء الذين شَرْعَنُوا الاستبداد والملكية أو النظام الجمهوري. بعض العلماء الإسلامويين يرون أن الديموقراطية مُخالِفَةٌ للقرآن بقدرِ ما تَتَنَاقَضُ سيادةُ الشعب مع سيادة الله. ولكنّ الإمام الخميني أرسى جمهورية، وَصَفَهَا، هو بنفسه، بأنَّهَا إسلامية. وفي إيران، لا يوجد إسلامويّ واحد ينتقد شرعية الانتخابات العامة لاختيار نواب البرلمان والرئيس.

وإذا كان من مبدأ مشترَك بين كلّ المجتمعات المسلمة، وفي كلّ الحِقَب، فإنه سيُعَبّر عن نفسه بشكل مُقَعَّر، وهو أنَّ القرآن يَشْجُبُ الفوضى. إننا نستعيد قولة غوته المأثورة: ظُلْمٌ أفضلُ من فوضى، التي يمكن أن تبدعها براعة عالمٍ إسلاميّ. إنّ الإسلام لا يُحَدِّدُ الأنظمة السياسية، أكثرَ ممّا تفعل الأناجيلُ؛ وقد خضعتْ أُمَمٌ كاثوليكيّةٌ لِطُغاة إلى حدود نصف القرن العشرين، ولكن لا يوجد أحدٌ قادرٌ على رسم خطّ مستقيم يصل بين الأناجيل وديكتاتورية فرانكو، وديكتاتورية الضباط

الإغريق أو ديكتاتورية بينوشي إذاً، فَهَلِ أصبحت الثقافة العربية مُحدِّدَة؟ توجد نظريّة، تُدْعى البَطرِكِيّة، لا تعزو الاستبداد الذي يجتاح العالم العربي-الإسلامي إلى الإسلام بل إلى الثقافة العربية· هذه الأخيرة ذات أساس قَبَليّ، ومبنيّة على علاقة تسلّطيّة بين الأب وابنه؛ والمدينةُ ليستْ سوى قبيلة كبرى تُنتِجُ، على نطاق واسع، ميكرو-استبدادية عائليّة· ولكنّ كثيرا من الدول العربيّة عرفت تعددية سياسية، مثل مصر قبل 1952؛ الكويت بلد عربيٌّ وتعدديّ؛ إيران ليست بلدا عربيا ولا تَعَدُّدِيّا، ولكنه بلد مسلمٌ· الحتمية الثقافيّة تبدو وكأنها عقلنة لاَحِقَة لوضعيات مُثَبَّتَة، وليس كتفسير لها· ومن الأفضل الاقتصارُ على التاريخ، فكما أن الديموقراطيّة في الغرب لم تَنْبَثِقْ من الأناجيل ولكن من تطوّر المجتمعات الغربية، فإن القرآن أو القبليّة العربية يُحَدِّدَان المؤسسات السياسية بشكل أقلّ مِمَّا يَفْعَلُ تاريخ المسلمين نفسه· وهُوَ ما سنُحاوِل أن نوضِّحهُ عبر المثال المصريّ·

في مصر، الديموقراطية الضائعة

تنتمي مصر إلى هذا الصّنف المنتشر في العالم العربي-الإسلاميّ من الأنظمة ذات 99 في المائة ضدّ كل احتمال، فإنّ زعماء الدول يتمّ انتخابُهم بنسبة 99 في المائة من المُقترعين، بِمُعدَّل 99 من المشاركة المُعْلَنَة في الانتخابات؛ ولكنّ الواقعَ في مصر هو أن نسبة المُقَاطَعَة تقارب 09 في المائة. في سنة 1 0 0 2 نجح الرئيس التونسي بن علي في تجَاوُز سقف 99 في المائة؛ بعض مكاتب الاقتراع منحته 0 0 1 في المائة من الأصوات المُعَبَّر عنها! التلفزيون، الذي يشاهده كل المصريين، خاضعٌ للرّقابة، والصحافة المكتوبة، حتى وإن كانت تمنح بعض الفضاءات الخاضعة للمراقَبَة للتعبير الحرّ، تُقرَأُ بشكل قليل؛ ليس من المُفَاجِئ أن تنتَقِلَ النقاشات من البرلمان صوب المساجد.

مصر الخالدة، هل هي وريثةُ الفراعنة والباشوات؟ ليس حقيقةً، لأن البلد حكمته، خلال النصف الأول من القرن العشرين، ملكيّةٌ برلمانية. في سنوات العشرينات، كانت بعض الانتخابات حُرّة بشكل مُطلق، وكان حزبٌ سياسيّ حقيقيّ، الوفد، هو من قاد النضال ضدّ المستعمِرين البريطانيين. من دون شكّ أن البرلمان كان يُهيمِن عليه كبار الملاّك العقاريين أكثر مما يهيمن عليه فَلاّحو النّيل؛ ولكن ما هي الديموقراطية البرلمانية التي لم تكن في بدايتها بورجوازيّةً؟ إن الديكتاتورية المعاصرة في مصر هي نتيجةٌ لانقلاب 2 5 9 1 أكثر ما هي وريثة للتاريخ الطويل. لقد قام ضباط تلك الفترة بإيقاف الدمقرطة من أجل استبدالها باشتراكية دولة افْتُرِضَ أنها جديرةٌ بتحديث البلد، وبإبعاد الأجانب الذين يُديرون الاقتصاد، وبمقاومة إسرائيل. حينها ساند الرأي العام ما بدا وكأنه إعادة امتلاك الوطن من قِبَل سكانه الشرعيين.

كانت تلك الحقبة معادية للامبريالية. وكانت عيون الضباط مصوَّبة نحو الاتحاد السوفياتي. كانت درجة تكوينهم ضعيفة، فكان كل ديبلوم في نظرهم مثيرا للريبة. فقام ناصر بنفي وسجن وعزل القضاة والمحامين والفنانين وعلماء الدين؛ منذ هذه الفترة بدأت السجون تَسْتَقبِل سجناء سياسيين بنفس استقبالها لمساجين الحقّ العامّ. كانت الفترة أيضا فترة نزوع قوميّ، فاضطرّ الأجانب لمغادرة البلد، متسبّبين في حرمانه من خبرائه ومن مثقفيه، ومن مُقاوِليه. وهكذا تمّ إفناء مائتي سنة من الحضارة الكوسموبوليتية في الاسكندرية والقاهرة؛ ومن ثمّ لم تَقُم لمصر قائمة.

إنّ سيناريو تصفية النُّخَب تمّ تكراره، بطريقة مشابهة، في بلدان عربية أخرى من المنطقة، وهي سوريا والعراق واليمن. ومن حينها لم يُغادِر الضباط، في كل منطقة الشرق الأوسط، السلطة. وبالرغم من أنهم فشلوا في كل الميادين، في طموحاتهم الاقتصادية كما على المستوى الدولي، فإنّ إتقانَهُم لوسائل القمع أَتَاحَ لهم البقاء في السلطة.

إنّ الادّعاء باسم الإسلام أو باسم قدريّة ثقافية بأنّ الديموقراطية ليست صالحة لمصر، يُعَادِل، إذاً نسيانَ تاريخها الحديث. فقد كانت مصر، بالتأكيد، على طريق الدَّمَقْرَطة. وفي سنواتها الديموقراطية، والتي كانت ما تزال فيها كوسموبوليتية، فإن حياتها الثقافية كانت الأثرى، وكانت تنميَتُها الاقتصاديةُ تَعِدُ بالكثير. وكي نظلَّ في الإنتاج الفنّي، فنحن نستنتج، بشيء من الحنين، أن مصر تنشُر، اليوم، أربعمائة كتاب سنويا-بما فيها كتب الأطفال- بينما ينشر جارُها الصغير،

إسرائيل، أربعة آلاف كتاب. الرقابة سائدةٌ، والبيروقراطية على طريقة جورج أورويل تحتكر نشر وتوزيع الكتب، وهو ما يجعلها غير موجودة في المكتبات، بما فيها كتب مؤلِّفِين شهِيرِين. إنّ هذه الرقابة هي أكثر حدة في ميدان السينما والتلفزيون. وتبرئةً لذمّة الديكتاتوريين، فَلْنَعْتَرِف أنهم غيرُ واعين بهذه الكارثة الثقافية. في غضون سنة 2002، وخلال الاحتفال بمرور خمسين سنة على الانقلاب العسكريّ، أعلن الرئيس مبارك بأنّ هذه الثورة كانت تتويجاً لمجد مصر الشعبُ يمتلك ذاكرة أكثر صحة، فالموضة في القاهرة كانت للثياب وللأغاني في سنوات الخمسينات، في زمن الملكية الليبيرالية.

هل إنّ إعادة بناء الديموقراطية بعد تدميرها هي طريقٌ طويل؟ إنّ تجربة أوروبا الوسطى تبين بأنّ ردّ الفعل الديموقراطيّ يجتاز الأجيال؛ فذاكرة الأحزاب يتمّ تناقُلُها والناخبون يعيدون إنتاج ثوابت عائلية. الحزب الوطني في مصر، الوفد، والذي يحتفظ في زمننا ببعض المقاعد النيابية المسموح بها من طرف الدولة، يمكنه، ربما، أن يستعيد دوره المحوريّ. تقليدياً هو حزب أبناء رفاعة، حزب الليبيراليين والوطنيين والمحترمين لِدِيَانَتَيْ مصر، الإسلام والمسيحية.

الديموقراطية الممكنة

هل ما زال يوجد ليبيراليون على طريقة رفاعة في مصر؟ يَتَّفِقُ المُسْتَبِدُّ والإسلامويّون على نفي كلّ تمثيليّة لهم، وكِلاهُما يؤكد عدمَ وُجُود وسط(سياسيّ)· ولكنّ هذا التحالفَ الموضوعيّ بين متطرفين لا يُفسّر المجتمعَ المصريّ، ذَا التَّقاليد المعتدلة والذي يشمئزُّ من أنواع التطرّف· إنّ ليبيراليي حزب الوفد لهم امتياز على خصومهم بقدرتهم على تقديم حلول ملموسة أثبتتْ نجاعتَهَا في أمكنة أخرى، وهي التعددية السياسيّة والحرية الاقتصادية· فهل هذا قابلٌ للإدراك؟

يقترح الوفد عودة تدريجية إلى الديموقراطية في ثلاث سنوات، وهو الزمن الضروريّ لتحرير وسائل الإعلام (الميديا)، ووضع قوائم انتخابيّة أَصِيلَة، والسماح بِتَشكيل أحزاب وبإيجاد مُرَشَّحين· قبل إجراء انتخابات وطنية، يتوجب إجراء انتخابات محلية ومهنيّة، امتحانات اختباريّة مُوَجَّهَة لجعل الشعب يتأقلم مع ميكانيكا الديموقراطية ومنح الأحزاب فرصة البرهنة (أو لا) على كَفَاءَتها في الحكم· إذا تمَّ اتّباعُ هذه المُقَارَبَة التجريبيّة، فإنه يمكن المُراهَنَة على أنّ الأحزاب الإسلاموية لن تكون لها الأغلبية· لا يجب التقليلُ من قدرة الحزب الحاكم على تحوله الديموقراطي، على طريقة الأحزاب الشيوعية في العالَم الشيوعيّ· ولكن هل تمتلك الأحزاب الإسلاموية الحقّ في المساهمة في هذا التحوّل؟

يرى حزب الوفد أنه في إطار جمهورية لائكية، فإنّ كلّ حزب دينيّ يجب استثناؤه من السباق؛ ولكنّ هذا الموقف يمكن أن يُؤَيِّدَ الإسلامويةَ خارج المؤسسات· فَلْنَنْضَمَّ، بالأحرى، إلى جمعيات الدفاع عن حقوق الإنسان المصريّة، التي توافق على مشاركة الأحزاب المُسْلِمَة، وبشكل أخصّ، الإخوان المسلمين· فجمعيّتُهُم، المتجذّرة منذ خمسة وسبعين سنة لدى الشعب المصريّ، لَنْ تختفي بضربة ساحر، ولا بدون الديموقراطية ولا بوجودها· بَدَلَ دفعهم إلى الإنزواء في السريّة، التي تدفع إلى العنف، فمن الأفضل السماحُ لهذه الأحزاب التي تستوحي الدّين كما توجد في تركيا وفي الكويت والمغرب أو في الأردن، بشرط احترامها للدستور الجمهوريّ· وهو مبدأ علماني مفهومٌ، بشكل كافٍ، في هذه الأُمَّة المتعددة الديانات كي لا يَجِدَ نفْسَه مُهَدَّداً في حالة حصول الأحزاب الإسلاموية على الأغلبية·

ولكن أليس هذا الرّهان المتمثل في إدماج الإسلامويين في الحياة السياسية محفوفٌ بالمَخَاطِر، الاعتقاد بأنه يمكن أن توجد ديموقراطية إسلاموية كما توجد أحزاب ديموقراطية-مسيحيّة في الغرب؟

هَلْ يَجِبُ التَّحَاوُرُ مع الإسلامويين؟

في مجموع المجتمعات الإسلامية، يُشَكِّلُ الإسلامويون، بالتأكيد، أقليّات، ولكنها أقليات ناطقة ومتحرّكة. ومن اللاَّمُفَكَّر فيه تجاهُلُهم كما أنّه من الصعب التفكير في استئصالهم، لأنّ المَوْقِدَ من غير الممكن إطفاؤه، فكلُّ إسلامويّ يتعرّض للإبعاد أو للسجن أو للقتل، يتم تعويضُهُ، على وجه السرعة، بِمُرَشَّحين للتعبير أو للاستشهاد. إنّ التمييز بين إسلامويين جيّدين وغير عنيفين وإسلامويين عنيفين هو أيضا مسألةٌ صعبةٌ، كما أشرنا إلى ذلك، لأنّ الحدود بين البعض والبعض الآخَر مَسَاميّةٌ. فَبَدَل البحث في سبيل تنقية هذه التمييزات عديمة الفائدة، فإنه من اللائق التساؤل عن مُلاَءَمَة الحوار مع الإسلامويين دُفعةً واحدة.

وحسب فرضية متشائمة، فهؤلاء الإسلامويون ليس لهم من طموح إلاّ الاستيلاءُ، عبر كل الوسائل، على الدولة، وفرض الشريعة وتحريم كل تداول على السلطة، بعد تحقيق هذا النصر السياسيّ. إنّ هذا السيناريو الأحادي الاتجاه هو الذي يُمْلِي مواقف الحكومات المسلمة والغربيين. إنه يُشَرِّع القمع. إنّ سابقة الفاشية في سنوات الثلاثينات، والتي كثيراً ما يتمُّ استحضارُهَا، يَمِيلُ، في الواقع، إلى عدمِ منحِ فضاءِ حريّةٍ لأعداءِ الحرية.

ولكن يوجد تأويل آخَر للفعل الإسلامويّ يقود إلى الحوار بدل القمع. يمكن الاعتقاد بأن الإسلامويين يُعَبّرون عن محاولة كونية لدى المسلمين ترمي إلى الدخول في الحداثة مع الحفاظ على الحضارة الإسلامية العزيزة على قلوب العدد الأكبر. ومن أجل دعم هذه الفرضية الثانية، فإننا سنلاحظ بأنَّ الإسلامويين يتموقعون، بشكل دائم، في ملتقى العالَمَيْن التقليدي والحديث، فالمهندس الإسلامويّ تلقى تكوينا غربيا لا يتوصل إلى مصالحته مع تَقَالِيدِهِ. إنّ هذا المهندس الإسلامويّ يُجَسِّد التوتر والرغبة والمعاناة الحقيقية، بله العنف الممكن لدى كلّ مسلم. فالردّ عليه، فقط، من خلال القمع يَصْدُر عن تحليل سياسيّ للإسلاموية كَحِزْبٍ، بينما هو يُعَبِّر عن انتقال ثقافيّ من المفروض أن تقود إلى حلّ تركيبي وتوليفي على طريق رفاعة

أتّفقُ بأن هذه المُقَارَبَة للإسلاموية التي تدعو للحوار من السَّهل جدّا تَبَنّيها إذا ما كنا في الرفاهية الباريسية أكثر مما إذا كنا في عين المكان. ففي القاهرة، ومنذ تفجيرات 11 سبتمبر 2001، تَقَلَّصَ عددُ المُثَقَّفين المُؤيِّدين للديموقراطية، فكثيرٌ منهم يُفَضِّلُ نظاما بوليسيّاً ذا أخطار مُلازِمَة على استيلاء الإسلامويين على السلطة. وكما يقول الكاتب التقدّمي جمال الغيطاني، الذي كان، خلال فترة طويلة، مُعارِضا للديكتاتورية والذي انتهى به الأمرُ إلى التأقلم معها: كان من الممكن أن أكون عراقيا أو ليبيّا، ولكن الأمر كان سيكون أكثر سوءاً. إنه عزاءٌ، حقيقة!

الحكومات والرأي العام في الغرب ليسوا مستعدّين لسماع خطاب يوجد ما بين الواقعية والاستسلام. فالتفجيراتُ التي عزّزت الخلط ما بين الإسلام والإسلاموية والتمامية تُشَكِّلُ، بالنسبة للمُستَبِدّين، حظّا غير منتظر، فلا أحد، الآن، يجرؤ على تذكيرهم باحترام حقوق الإنسان. ولكنّ ضحايا هذا التواطؤ غير المنتظر بين مثقفين تقدميين وطُغاة محليين وحكومات غربية هي الشعوبُ المقهورة والخاضعة للتفقير؛ فهذه الشعوب هي التي أصبحت رهينة لإسلامويين نَشِطِين وللشرطة،

ولموظّفين فاسدين ومرتشين وللفقر. لن نترُكَ أنفسنا سجيني مآزق يمكن أن تكشف عن كونها مصطنعة: فالإسلاموية الطالبانية ليست البديل الوحيد للاستبداد البوليسيّ!

الحجّة الجزائريّة

إن مصر ليست هي أفغانستان ولا إيران ولا السودان. إنّ هذه الدول السالفة الذكر والمُخيفة لا تسمح بالتنبّؤ بأن المصريين سيسقطون في أحضان ديكتاتورية تمامية لو تمّ منحُهُم أدنى حرية سياسيّة. إنّ أشكال الإسلاموية تُحدِّدُها الثقافة الخاصة لِكُلّ أُمَّة أكثر مما تُحَدِّدها مُؤَامَرَةٌ إسلاموية كونية. الإسلام في مصر ذو تقليد معتدل، وليس من النمط الأفغانيّ، وهو ليس منعزلا، فالأقباط الذين يشكلون أكثر من أقليّة، يُجَسّدون، كما المسلمين، مصر الخالدة والمتعوِّدة على التعايش بين المعتقدات. ولو كان الإسلامويون المصريون يساهمون في القرارات العمومية، فإنّ ثقافَتَهُم الوطنية كانت ستقود إلى نتيجة مختلفة عن النتيجة التي تَوَصَّل إليها الإسلامُ الأفغاني أو الإسلام الإيرانيّ؛ لأنّ العيش في السريّة هو الذي يقود إلى الراديكالية. ويبدو لنا، إذا ما نظرنا من أوروبا، بأنّ مشارَكَة الإسلامويين في الحياة السياسيّة يضمن، بطريقة أفضل، أمنَ ورفاهية المصريين من القمع البوليسي بدون منظور ولا أفق.

ولكنّ هذه الرؤية المتفائلة، يُواجِهُهَا المسؤولون المصريون وعدد من الحكومات الأوروبيّة بالاعتراض الجزائريّ، إنه العذر الأخير! إنهم يقولون لنا بأنه لو كانت ثمة انتخابات حُرّة فإنّ الإسلامويين كانوا سَيَصِلون إلى السلطة في كل العالم العربي، كما أوشكت الجبهة الإسلامية للإنقاذ FIS أن تفعل في الجزائر سنة 1991. ولكن الجبهة الإسلامية للإنقاذ، لم تحصل، في الحقيقة، إلاّ على فوز نسبيّ، مستفيدةً قبل كلّ شيء من الفوضى ومن فساد خصومها الذين لم يقوموا بحملة انتخابية. وسنلاحظ أيضا مُفَارَقَة الخشية من فوز الإسلامويين بعد ثلاثين سنة من قمع كان يفترض أن يقضي عليهم، فهل العنفُ أصبح عَديمَ الفعالية؟ وأخيراً، وأخذا بعين الاعتبار بأن مصر ليست هي الجزائر، فإنّ الفوز الانتخابيّ للجبهة الإسلامية للإنقاذ يُتَرْجِمُ رفضاً لديكتاتورية جبهة التحرير الوطني أكثر مما يدلّ على رغبة في الإسلاموية. لقد ظهر العنف الإسلامويّ بعد مُصَادَرَة فوز الجبهة الإسلامية، وليس قبله. ومنذ هذا الإقصاء، فالحربُ الأهلية لم تتوقف. هل كانت الجبهة الإسلامية في السلطة سَتَتَسَبَّبُ في عنف أقلّ؟ إن السابقة الجزائرية يتم استخدامها من قبل المُستَبِدّين لغاية واحدة وهي تبرير استبدادهم الأبديّ؛ إننا لا نستطيع مؤاخذتها، ولكن كون الحكومات الغربية تترك نفسها عُرضَةً للاستخدام، فهذا مدعاةٌ للذهول.

بمجرد ما أن نبعد الحجة الجزائرية، يبدو لنا بأن التعددية السياسيّة، من خلال إدراج الإسلامويين، ستكون أيضاً لصالح العالَم الغربي. لأنّه صمّام أمان لنا من أن نتعامل مع مُسْتَبِدّين لا يمتلكون شعبية في بلادهم؛ إنّ انعدام الشعبية هذه تَرْتَدُّ على كل الغربيين إلى درجةٍ نَستَهِين بها. إذا عدنا إلى دراسة رياض حسن، التي سبق لنا أن ذكرناها، فإن 08 في المائة من المصريين المنتَمِين إلى الطبقات المتوسطة يعتبرون أن حكومة الولايات المتحدة لا تعادي الإسلامويين بل تُعَادي الإسلام. هذه النسبة تَصِل إلى 25 في المائة فيما يخصّ فرنسا. طبعاً، إنّ المصريين لا يحبّوننا! أَلَيْسَ بِسبب الدعم الغربي لإسرائيل؟ نعم في جانب منه، ولكنّ القضية الفلسطينية لا تُفَسّر وحدها لماذا 58 في المائة من الطبقة الوسطى في باكستان، البعيدة جدا عن فلسطين، تَرى أنّ الولايات المتحدة مُعادِيةٌ للإسلام. لماذا يُنْظَرُ إلى الغرب، في كل المجتمعات الإسلامية على أنه مُعَادٍ للإسلام؟ لأنّه هو الغَرْبُ، ولكن، أيضا، لأنه فَقَدَ تَعَاطُف الشعوب، ومن بينها، المجموعات الاجتماعية الأكثر تنويراً.

إنّ خَوْفَنَا من الإسلامويّة، الذي أخذ مكان التحليل، يَخْدُمُ الإسلامويين· بعيدا عن آمِالهِم المجنونة؛
إنّ الغربَ بِدَعْمِهِ للمُسْتَبِدّين، يَضَلُّ المستقبل·

لا تنمية من دون ديموقراطية

بمجرد الابتعاد عن العالم العربي الإسلاميّ، فإن الغربيين مقتنعون من أنّ الديموقراطيةَ مبدأٌ كونيّ وفعّالٌ. فَلِمَاذا لا تَكُونُه أيضا في العالم العربي-الإسلامي؟ كثيرٌ من الغربيين، تُحَرِّكُهُم عنصرية لاَشُعوريّة، دون شكّ، يعتبرون أنّ الاستبدادَ هو الأكثرُ مُلاَءَمَةً للثقافة السياسية العربية-الإسلامية؛ وهو ما لا يُثْبِتُه التاريخُ، واستَنْتَجْنَا بأنه من السَّهْل إثبات العكس. بالإضافة إلى أنها تحمل الحرية والمزيد من الأمن، فإنّ حجة إضافية تُدَافِعُ عن الدَّمَقْرَطَة، وهي أنّها الشرط الأول للتنمية الاقتصادية. هذا ما يستدعي بعض الإيضاحات التي تُناسِب، بعيدا عن الحالة المصرية، كلّ البلدان التي توجد في نفس الوضعية.

توجد مصر، منذ ثلاثين سنة، في تَعَطُّل في ما يخصّ النموّ والتّشغيل، وهو ما يُوَلِّدُ بطالة جماهيرية، وهو حظٌّ غيرُ مُنْتَظَر من طَرَف الإسلامويين. إنّ هذه البطالةَ تُزَوِّدُهُمْ بعاطلين عن العمل ضروريين لحملاتهم المُضطَرِبَة، إنَّهَا تُغَذِّي حَفيظة واستياء حملة شهادات بدون عمل، ومناخا عاما من عدم الاستقرار بين السُكَّان. لِنُذَكِّرْ بأنّ كُلَّ الثورات، في التاريخ، أَثَارَهَا حَمَلَةُ شهادات بِلاَ وَرَثَة.

من أجل امتصاص هذه البطالة، علما بأنّ نقطةً واحدةً في معدّل النُمُوّ في مصر تخلق مائةَ ألف وظيفة عمل، ينبغي أن يَصِلَ مُعدّلُ النموّ 7 في المائة سنويا؛ وهكذا سيتمّ امتصاصُ قسمٍ من العاطلين عن العمل والزيادة السكانية. هذه النسبة المئويّة، التي يمكن أن نُقارِنَها بِنِسَب دُوَّل أسيوية في لحظة إقلاعها، لا يمكن تحقيقها مع النِّظَام الحاليّ. إنّ النظام الاقتصاديّ في مصر، هو في الواقع، على صورة النّظام السياسيّ، فقد قامت الحكومةُ بإزلاج كلّ شيء. مثلما يَحْدُثُ في السياسة، فإنّ المستبدّ يترك بعض المَقَاعِد للمُعَارَضَة كي لا تَتَجَذَّرَ، ويَمْنَحُ بعض الأسواق للزبناء؛ إنّ هؤلاء الزبناء المُعتَمِدين على أَفْضَال الحَاكِمين لا يُشَكِّلُون بورجوازية مستقِلّة وجريئة. كما أنّ عمليات الخوصصة النادرة ورُخَص الاستيراد يتم استخدامُهَا، قبل كلّ شيء، لِمُكَافَأَة الوفاء السياسيّ، ومن النادر استخدامُها لتنمية المقاولات. إنّ القِطاعَ العام يَظَلّ المُشَغِّل الأول في البلد؛ والمُرَتَّبَات الهزيلةُ تُضْفِي عليه وضعية اجتماعية بَدَلَ الحدّ الأدنى الضروري. ومن خلال اجتذاب مصادر البلد المالية، فإنّ هذا القطاع العامّ الوافر والعاجز يُجَمِّد استثمارات القطاع الخاصّ.
وحسب نموذج كلاسيكي في الأنظمة المُتَسلّطة وما بعد-اشتراكية، فإنّ الرأسمالية المصرية الهزيلة هي رأسمالية الأوغاد والأصدقاء، فالفعاليّة فيها أقلّ انتشاراً من البحث عن إثراء سريع. وعلى أي فلا يوجد في مصر أكثرُ من ثلاث أو أربع مجموعات صناعية ذات أهمية عالمية، ولا يوجد أي مَصْرِف وطني يُراعِي المنطق الاقتصاديّ بدل الأوامر السياسية.

ليبيرالية مرغوبة

إنّ الطريق الوحيد لامتصاص البطالة ولخلق وظائف شغل بِرَوَاتِب معقولة، يمرّ عبر تصنيع البلد؛ فلا الزراعة ولا السياحة قادرتان وحدهما على إيجاد ما يقرب مليون وظيفة شغل إضافية في السنة. ولكن هذا التصنيع يستدعي حشد رؤوس أموال أجنبية، لأنّ الادخار الداخلي غير كافٍ. ولكي يتمّ استثمار رؤوس الأموال في مصر، فمن اللائق أن يُصبِحَ المشهدُ السياسيّ ممكناً تقديرُهُ كما يجب أن يسودَهُ حدٌّ أدنى من دولة القانون، وهو ما لا تستطيع أيّة دولة ديكتاتورية منغلقة أن تضمنَهُ. إنه من دون دمقرطة للمؤسسات السياسية، فإنّ القليل من المُستَثْمِرِين سيَجرؤُون على الاستقرار، خلال فترة طويلة، في مصر، ولن تنطلق الصناعة، وسَيَتَجَمَّد الشغل. وعلى العكس، فإن المؤسسات الديموقراطية، الضامنة الوحيدة لاستقرار القوانين، سَتُبَيِّنُ بأن مصر أصبحتْ جذّابةً وبأن اليد العاملة مُؤَهَّلَة، وبأن السوق الداخلية كافية لدعم تنمية صناعية سيتمّ تصدير الزّائد منها. إنّ نموذج التنمية الكلاسيكيّ هذا يفترضُ أنّ المجموعة الاجتماعية، المدنية والعسكرية، ذات الامتيازات الاستثنائية والتي تَتَحَكَّمُ في المُقاوَلات العمومية تترُكَ مكانها لِمُديرين حقيقيين؛ ويفترض أنّ القانون سيُحْتَرَمُ في مصر كي يَضْمَن فيها الملكية ورؤوس الأموال؛ ويستدعي أن يُفَسَّرَ للشعب بفضل تحرير وسائل الإعلام وتحرير النقاش.

في مصر التي عَجَنَتْها اشتراكية الدولة وأوهام الإسلامويين، يبدو من الصعب فرضُ ليبيرالية وعولمة للإقتصاد من فوق. إنّ هذه المصطلحات لها وقعٌ سيّىءٌ لدى المصريين لأنّ السادات استخدمها بشكل مفرط؛ ففي سنوات السبعينات، وباسم الانفتاح، سمح السادات بالاستيراد وقام بخوصصة لفائدة بورجوازية دولة جديدة، ولكن من دون أي فائدة للأُمَّة. إنّ كل ما يأتي من فوق أو من الخارج - بما فيها الليبيرالية- تَتَسَبَّب في حَذَرِ الشعب، الذي تَعِبَ من كونه اسْتُخْدِمَ كفئران تجارب منذ قرنين من الزمن. كلّ الأيديولوجيات، في مصر، تمّ تطبيقُها من فوق أو تمّ استيرادُهَا دون تفسير ودون استمرارية، من قبيل الاستبداد المتنوّر والليبيرالية البورجوازية والقومية والتعدّدية الحزبية والديكتاتورية العسكرية والحزب الواحد والعروبة والاشتراكية والتحالف مع الشرق والتحالف مع الغرب والتأميم والخوصصة والحمائية والتبادل الحرّ... ومِن أجل المستقبل فإنّ تحرير الاقتصاد والعولمة، الطريقان الوحيدان للتنمية في الوقت الراهن، لا يمكن إلاّ أن يَنْبُعَا من انضمام شعبيّ ومن نقاش عمومي واسع. وبما أن المصريين لا يطالبون بالديموقراطيّة في حدّ ذاتها، ولكن يطالبون برغد العيش قبل كلّ شيء، فإنه ينبغي أن يُفَسَّر لهم بأن انسحاب الدولة غير الفعّالَة يستدعي ظهورَ مُقَاوِلين يُحقّقون النموّ.

إنّ الدَّمَقْرَطَة شرطٌ أولي لتغيير النموذج الاقتصاديّ، الذي يعتبر هو بدوره شرطا ضروريا وأوليا لنموّ قويّ. إنّ هذا النموّ سيولّدُ طبقة بورجوازيةً وطبقات وسطى ستُشَكِّلُ قاعدة الديموقراطية، وسَتَجُرُّ مصر في الدائرة الصالحة لتحرير الاقتصادي والسياسي، على غرار أُمَمٍ أخرى في طور التقدم من نوع تركيا، مثلا.

والمفارقة أنّ الإسلامويين هم أقربُ انتماء إلى هذا الحلّ الليبيراليّ من الديكتاتوريات المُعَلَّقة بامتيازاتها الدولتيّة، ألاَ يُطالبون، في آنٍ واحد، بانتخابات حرة وبالخوصصة؟ هل من منطلق

انتهازيّ؟ ربّما، ولكننا يمكن أن نتخيل وجود البعض منهم ممّن يتمنى حقيقةَ إزاحة الفقر.

نستنتج من هذا أنّ الإسلاموية قابلة للذوبان، على الفور، في الديموقراطية أو التنمية؛ وبالرغم من أنها تتجذّر في ظروف محلية، فإنّ هذه الأيديولوجيا تخضع، أيضا، لأسباب مستَقِلة عن الجغرافيا والاقتصاد، من قبيل البحث عن الهوية والحاجة إلى التعالي، والتديُّن، وإرادة مقاومة الغرب. هذه المكوّنات للشخصية ليست فقط بنية فوقيّة يُحدِّدُها الاقتصاد؛ إنها تخضع لإيقاعها الخاصّ. مثلما أنّ النقل الثقافي لا تحدده فقط الظروف الاجتماعية: يكتب بليز باسكال Blaise Pascal إنّ المسلمَ حتى إذا تَحَرَّرَ من حبال الاحتياج، فإنه يظل، مثلنا جميعا، سَجين حبال الخيال

في ماليزيا، استمرار المخيال الإسلامي...

لنتَأمَّل البلد الإسلامي الأكثر بُعداً عن مصر من ناحية الجغرافيا، ومن ناحية أشكال الإسلام التي تُمَارَس فيه، ومن ناحية الشفافية النسبيّة للّعبة السياسية ومن ناحية إزدهار اقتصاديّ لا يمكن نكرانه. دولة ماليزيا تلبّي هذه المعايير. من الأكيد أن سكان ماليزيا، ليسوا كلهم مسلمين، فهم يشكلون ما يزيد عن نصف السكان. البقية هُم صينيون كونفوشيوسيون عموما. ويوجد، أيضا، صينيون مسلمون وسُكَّان محليون أرواحيّون ومسيحيون. ولكن الماليزيين المسلمين يهيمنون على الحياة السياسية وعلى الإدارة، ولهم تمثيلية جيدة في الميدان الاقتصادي. وماليزيا هي البلد الوحيد الذي تُقَدِّم فيه الأبناك الإسلامية وشركات التأمين الإسلامية خدمات حقيقيّة تحتَرِم الشريعة، وتُحَرّم الرّبا ولا تستثمر إلاّ في المقاولات المقبولة إسلاميا، مُحَرِّمَة القِمَار والخمور. إنّ كثرة المَسَاجد الحديثة، والتي كثيرا ما يكون فيها كثيرٌ من البذخ، وتعميم ارتداء الحجاب لدى الشابات، ورِفْعَة الجامعات الإسلامية حيث يتمّ تدريسُ علوم الدين فيها جنبا إلى جنب مع العلوم الحديثة، لا تثير الشبهات في تحول ماليزيا، أكثر فأكثر، إلى بلد مسلم. إنّ الدكتور مهاتير، رئيس الحكومة منذ سنة 1979، يُذَكِّر، بكل سرور، بأن ماليزيا بلدٌ إسلاميّ، وهو ما يعني في تفكيره، بأنه بلدٌ مسلمٌ، كفاية، وليس من داعٍ للذهاب أكثر. غير أنه توجد حركة رأي متصاعدة تُطالِبُ بدولة إسلامية، وليس فقط بدولة من أجل المسلمين. والاختلاف يتجلى في تطبيق الشريعة كقانون الدولة نفسها. إنّ ماليزيا، التي يرى فيها الغربُ نجاحاً والتي تعتبر في المجتمعات الإسلامية نموذجاً لمصالحة الإسلام والحداثة، تكشف عن أنها، هي بدورها، ضحية للإغراء من الإسلاموية الراديكالية. وهو ما يَقْلِبُ التحليل العامّ للإسلاموية كتمردّ عاديّ للفقراء ضد الاستبداد والتخلّف. وعلى ضوء هذه الحالة الماليزية، يبدو أنّ إغواء الإسلاموية الراديكاليّة ليس قابلاً للذوبان، بسهولة، في التنمية وفي دمقرطة المجتمعات الإسلامية. إنّ الإسلاموية تَتَقَدَّم، باستقلالية، عن الظروف المحلية، حتى وإن كانتْ في تطور ماديّ. من غير شكّ أنّ الإسلاموية تستجيبُ لإغراء كونيّ مزدوج، بعيد عن المادية، وهو ميلٌ للعقل الإنساني عموما وليس ميلا من الإسلام على وجه الخصوص، وهما الإغراءات الهوياتية والإغراءات التوتاليتارية.

الإغراءُ الأوّل يُجَسّده، في ماليزيا، فيلسوف تتجاوز شهرتُهُ كوالا لامبور، وهو سيد محمد نجيب العطّاس. وهو يُديرُ معهد الحضارة الإسلامية الذي يتمتع بإمكانيات مهمة. إنّ هذا المفهوم للحضارة الإسلامية يتركني ممتلئا بالشكّ؛ فإذا كانت هذه الحضارةُ موجودةً في الماضي، في القرن الثاني عشر، حين تَشَكَّلَ من إسبانيا إلى الهند مجموعٌ رائع مُتَجَانِس مُرَكَّبٌ من الإسلام ومن الإرث الهيليني واليهودي والمسيحيّ، ومن فارس، فهل يُمكِنُنَا القول إنها ما زالت موجودةً؟ يبدو

لي أنها مُعَطّلَةٌ في ثغرة ما بين مَاضٍ أصْبغَ عليه المِثَالُ الكماليُّ ومستقبلٍ كُمونيٍّ. ولكنّ سيّد العطّاس يُؤكِّد لي بأنني على خطأ.

محاوري يمتلكُ مظهراً مَهِيباً يعززه التقدم في العُمُر والأعمال المنشورة وكذلك السلطة الفكرية. إنه لا يُخْفِي طموحَهُ، الذي تُشَاطِرُهُ إياه النخبة الماليزية، وهو إعطاء بعض الدروس للعالم الإسلامي، بما فيهم العربُ. إنّ معهده الموجود في بناية ذات طراز أندلسيّ، يعطي الانطباع بأننا نتواجد في فاس أو في غرناطة. ولمّا عبّرتُ عن دهشتي للعطّاس، كان رَدُّهُ أنني أُولِي كثيرا من الأهمية للعلامات الخارجية، وهو ما يعتبر من خاصية الحضارة الغربية؛ الحضارة الإسلامية مبنية على اللاّمحسوس، على دخيلة النّفس وعلى العالَم اللامرئيّ.

بَدَلَ حضارة إسلامية، ألاَ يمكن أن نعترف بأنّ المسلمين يَضَعون الدين الإسلامي في شَرَاكَة مع ثقافتهم المحلية والعربية أو الماليزية؟

كنتُ مخطئا في تطبيق معايير خاصّة بالتفكير الغربي على الإسلام. أضاف العطّاس: للأسف، كثيرٌ من المسلمين يُصْدِرون رَدَّ فِعْل كما تفعل، لأنّ عُقولَهُم خاضعة لاستعمار الغرب، إنهم يفكرون في الإسلام مثل الغربيين. إنّ القبول، مثلاً، بوجود تراتبيّة أو حتى تمييز بين العقل والوحي يتطَبَّع بطَبْع الفساد الغربيّ. يُؤَكِّدُ لي العطّاس أنّ الوحيَ هو نمط معرفة لا يحتاج إلى برهنة، وهكذا إذا سُئِلَ مُسْلِمٌ من غَربيٍّ عن أصالة الوحي الإلهي، فعليه ألاّ يُجيبَ. إنّ التفكيرَ في الإجابة يقود إلى خيانة الحضارة الإسلاميّة، لأنّ هذه الحضارة تَأَسَّسَت على الوحي الأَوّل والعقل يبقى مُساعِداً.

توضيحٌ ثان لهذا الاستدلال وهو التَقَدّم. لا يَتَوَجَّبُ الردّ على الغربيّ الذي يَدَّعِي بأنّ العرب-المُسلِمِين لا يتقدمون البتّة، وهو ما يظهر بِشكل وَاضِحٍ في الاقتصاد، لأنّ التَقَدُّمَ، في الحضارة الإسلامية، مسألةٌ داخليّةٌ، وإنجازه الماديّ مُسَاعِدٌ له. وحسب العطّاس، فإنّ هذا لا يقود إلى صراع حضارات، ولكنه يدعو إلى إرساء تمييز راديكاليّ بينها. وهو ما لم يتهيّأ له الغربيون، يقول العطّاس، بِسَبَب يقينهم في كونيّة العقل؛ إنّ التسليمَ بأن الوحيَ كَنَمط معرفةٍ والتَقَدُّمَ الداخلي كَنَمَطِ تنميةٍ يُعادِلان، على التوالي، العقل والنّزوع الاقتصادي، يُشَكِّلان التحدي الأساسيّ الذي سَيُواجِهُه الغربيون في مواجهة المُسلِمين.

فَهَلْ يوجدُ عَالَمَان، عالَمُ الغربيين المُتَحَرِّرُ من الأوهام والتقدميُّ في مُواجَهَة عالَم الإسلامويين الموهوم؟ هذا ما ندعوه، لدى العطاس بالإغواء الهوياتيّ، الذي ينبثق، بالتأكيد، من الفِطرة الإسلامية ولكن أيضاً من رغبة في مقاومة تغريب العالَم. لا يمكننا أن نرفُضَ دفعةً واحدة ودونَ فَحْصٍ هذا المديح للاختلاف؛ ولكنه ليسَ الطريق الوحيد لإرساءِ إسلامٍ أَصِيلٍ.

إنّ مُقَارَبَة العطّاس، وبالرغم من إدعائها توحيد كل المسلمين، تُعارِضُ، بشكلٍ مُطلَق، عالميّة المسلمين الليبيراليين الذين يُعْتَبَرُ محمد أركون، رَمْزَهُمْ في الوقت الرّاهن. فالإسلامُ الأصيلُ، حسب أركون هو مجموعُ كلّ تاريخ المسلمين وعلاقاتهم مع باقي العَالَم؛ في خِتَام تعريف أركون، لا يُوجَدُ إلاّ عَالَمٌ واحد وإنسانيّة واحدة.

إذا كان خطابُ العطّاس يبدو، في الوقت الحاضر، بعيداً عنّا ولكنّه أكثرُ رواجاً من خطاب أركون، فإنّ التَّحْكيمَ بين التأويلين شأنٌ من شؤون المُسلِمِين؛ وليس من مسؤولية الغربيين. فهل سيستطيعُ المسلمون أن يَتَّخِذوا القرَارَ بحرية؟ الأمر ليس مُؤَكَّداً.

... والإغواء التوتاليتاري

العطّاس ليس فيلسوفاً في إطار ضيّق، إنه يُلْهِمُ الحركات السياسية التي تُلِحُّ على إرساء دولة إسلامية. هذا الاتجاه يهيمن عليه الحزب الإسلامي الماليزيّ PAS، وهو حزبٌ مُعتَرَفٌ به يُعارِض الحكومة المُعتَدِلَة في ماليزيا منذُ خمسين سنة. في البِداية لم يكن هذا الحزب يَجْذِبُ الجماهير إلاّ في الأرياف فقط؛ ومن الآنَ فَصَاعِداً، فإنّه يَعْمَل على استقطاب الطلبة وأصحاب المِهَن الحرّة وفي الضواحي الخضراء في كوالا لامبور. هكذا أصبحت الإسلامويةُ حركةً شعبيّةً في ماليزيا. فهل تُهَدِّدُ الديموقراطية؟ وهل هي ذات جوهر توتاليتاري؟ إذا استَمَعْنا إلى هؤلاء الإسلامويين، فَهُم لا يطالبون سوى بالتناوب السياسيّ في إطار ديموقراطية لا ينتقدونها. باسم الاسلام الذي يَمْتَدِحُ التجارة ويُقصي الاحتكارات، فإنهم يُظهِرُون انتماءَهُم لاقتصادٍ أكثر ليبيراليّة مما هي عليه الحكومةُ الماليزيةُ حاليّاً. وضعيّة النساء؟ زعماء هذا الاتجاه يصرحون لنا بأنّ المساواة يجب أن تَسُودَ، فالعربُ الذين يَحبِسون فَتَيَاتِهم وزوجاتهم إنما يَخْلِطُون بين العادات البدويّة وتعاليم النبيّ.

وعن موضوع الشريعة، وهل ستُطَبَّقُ على المسلمين فقط أم على كلّ الماليزيين، بمن فيهم غيرُ المسلمين؟ إنّ هذا السؤال يَعْتَرِضُ عليه محاوريَّ، دفعة واحدة، قبل أن ينجحوا في صياغة جوابٍ مَا. إنّ أعداء الإسلام، مسلمين أم غير مسلمين، يُشَوِّهون الشريعة من خلال تقديم المَظَاهِر القمعية. وحسَبَ هؤلاء فإنّ الشريعة هي قبل كلّ شيء، بيداغوجيا تقودُ المسلمَ الجيّد إلى احترام المبادئ القرآنية. إنّ العُقوبةَ ليست إلاّ المرحلة الأخيرة في تطبيق الشريعة، وهي مُوَجَّهَةٌ للمُتَصَلِّبين. إنّ هذا التبرير، الذي ليس هو دفاعي فقط، يستحقّ، بالتأكيد، أن يُحْتَفَظَ به، ما دام أن الموضوعَ مُشَوَّهٌ في الغرب؛ ولكن، حين يتعلق الأمر بغير المسلمين، فإنّ مُحَاوَرِيَّ ليسوا واضحين إطلاقاً. وأكّدوا لي أنه إذا كانت الطوائف الأخرى تتمتع بقوانينها الخاصة، وإذا كانت هذه القوانين تُعادل الشريعة، فهي تستطيع أن تُطَبِّقها على نفسها. ولكنّ هذه الطوائف تظلّ حرة في الالتحاق بالشريعة. من تلقاء نفسها؟ لا نعرف كثيرا.

إنّ هذا البرنامج الإسلامويّ لا يبدو لي مخيفاً؛ بل سيكون من المسموح به في إطار ديموقراطيّ، لو أنّ الحوار لم يَنْتَهِ بهذه النتيجة المُربِكَة. قيل لي في مقرّ الحزب الإسلامي الماليزي إنّ طموح حزبنا هو تنظيف المجتمع إنّ مفهوم التنظيف، هذا، يُحيل إلى كلّ الأيديولوجيات التوتاليتارية في القرن العشرين، مسلمة كانت أم غير مسلمة؛ فستالين، ماو، بول بوت، الخميني كان لهم مشروع تنظيف مجتمعاتِهِم.

هذا ما يَضَعُ الإسلاموية، إذاً، في صنف الأيديولوجيات التوتاليتارية، وهو انحرافٌ عالميّ وليس ذا خصوصية مسلمة فقط. كيف يمكن مقاومتُهُ، إنّ لم تكن اللجوء إلى الديموقراطية في كل المجتمعات الإسلامية دون تمييز؟ الديموقراطية وحدها تتيح محاربة الإغواء التوتاليتاري، كما تسمح التنمية بتذويبه. إنّ هذه النتيجة، هي التي يتردد المستبدّون الشرقيون والحكومات الغربية في الانضمام لها. فلا توجد من طرق أخرى لأجل مُسَمّى، حتى ولو كانت طويلة ومتعرّجة.

كما أنه يمكننا أن نعتبر بأنه لا يوجد استعجالٌ، بل يمكننا أن نُطَمْئِنَ أنفسَنَا بِمَظاهر شوارع كوالا لامبور الساخنة. في مساء يوم السبت تلتقي فتياتٌ محجّباتٌ بأخريات لابسات سراويل جينز ضيقة؛ ولا يبدو أن الإغواءات التوتاليتارية تُسبِّبُ أضرارا في بلدهنّ. إِنَّهُنَّ يُضِفْنَ، بدل أن يطرحن، شخصيَتَهُنَّ المسلمة إلى رَغْبَتِهِنَّ في مُوَاطَنَة كونية؛ فلْنَتَّفِقْ على أنهنّ رمزٌ لمستقبلٍ مُمكِنٍ أكثر من كلّ الحركات التمامية.

الفصل الرابع

مصادر الفقر

يتقا سم مليار من المسلمين القرآن وغياب التطور. قد نجد دون شك، مسلمين أغنياء وأمم مسلمة مستغنية، ولكن لا يوجد أمة واحدة من بينها، ذات تطور حقيقي، ولا أي واحدة منها تتمتع باقتصاد متنوع، وبطبقة متوسطة واسعة ذات تطور ثابت. فالعالم العربي- الإسلامي، بشكل خاص، مقسم بين حالتين اقتصاديتين : إما أن تستفيد البلاد من دخل ثابت كالبترول، أو الغاز في الشرق الأدنى، في الجزائر، وإيران، وكالفوسفات في المغرب. وقد يوزع هذا الدخل أو الإيراد على الشعب من قبل الدولة أو الأسرة الحاكمة. أو أن يكون الدخل غير ثابت، كالسياحة في مصر، فيُستكمل ببضعة مساعدات عالمية جانبية، كالمساعدة الأمريكية.

في آسيا المسلمة، تبقى ماليزيا الاستثناء : فهي تشبه بلدا في حالة تطور حقيقي على اعتبار أن عائدها من الطاقة قد أُعيد استثماره في الصناعة. وهو أيضا الطريق الذي تأخذه أندونيسيا بكثير من الهمّة؛ لكن يصادف أن المتعهدين الأكثر فعالية، في هذين البلدين، هم من غير المسلمين، بل صينيين بشكل خاص. كما في الهند، إن قدرها الاقتصادي محدد بالاستراتيجية الهندية، دون أية علاقة مع الأقلية المسلمة. في الستينات، كانت الباكستان معتبرة كأمة مسلمة في طريق التطور الحقيقي، ولكن الفوضى العرقية وضعت حدا نهائيا لهذا الأمل.

نجد 2% فقط من المسلمين المبعثرين، في أربع وخمسين دولة ذات أغلبية مسلمة ذوي وضع اقتصادي، قابل للمقارنة مع الوضع المهيمن في البلاد المتطورة. في اقتصادنا المقاس بدقة على القواعد المعرفية، عثرنا على دليل آخر يثير الاضطراب بشكل أكبر: فإن عدد الرخصات العلمية الصادرة من العالم المسلم، أي في البلاد الأربعة والخمسين مسلمة، أقل مما يصدر من رخصات من سويسرا وحدها.

وأخيراً، نستطيع أن نقدر عدد الأميين المسلمين ب 08% من مليار مسلم، رغم أن هذا الامر، مناقض لدين مبني على الكتاب !. فهل المسلمون بشكل عام فقراء لأنهم مسلمون؟.

هل يجب أن يكون المرء بروتستانتيا كي يغدو غنيا؟.

إذا اعتمدنا على النظرية المهيمنة حول العلاقة القائمة بين الدين والتطور كما عالجها ماكس فيبير في بداية القرن العشرين، فنجد أنه لا يوجد تطور ممكن إلا بالرأسمالية، وأن الرأسمالية لا تنشأ إلا في نظام ديني مهيأ لها؛ ولكونه قد لاحظ أصول الرأسمالية في البروتستانتية، فقد شك فيبير بإمكانية نجاحها في مكان آخر. لم يكذبه التاريخ حول هذه نقطة: فخارج الرأسمالية لا يوجد، حتى اللحظة، أي نوع مجرب لتطور اقتصادي مستمر ومتماسك. إلا أن ماكس فيبير قد أخطأ في نقطة أخرى وهي أن عددا من غير البروتستاتنين ككاثوليك، اليهود، الكنفوشيين وحديثا الهندويين قد التحقوا بالرأسمالية.

صحيح أن فيبير قد قدّم قبل أي شيء، شرحا لأصول الرأسمالية، دون التنبؤ حول مستقبلها. لم يمنع هذا، بأنه حتى 1 9 6 0، كان معظم الفيبريين يعتقدون أنه من المستحيل حصول أي تطور في حضن الثقافة الكنفوشية أو الهندوسية؛ تقديراتهم كانت مخصصة لمجتمعات ذات أغلبية

مسيحية، كاثوليكة، وأرثوذوكسية، محافظة أو تقليدية. كانت تبدو لهم هذه الأديان حصينة تماما. غير أن هذا التشاؤم الثقافي ما لبث أن ظهر بدون أي أساس من الصحة : فماذا حصل؟

التقليد هو التفسير الأول : إن كل الشعوب، لرغبتها بتحسين معيشتهم المادية، قد استنسخت ما نجح في الخارج. فكان من غير المجدي لكنفوشي، إعادة اختراع الرأسمالية في اللحظة التي برهنت فيها على فعاليتها.

ظهر تفسير مكمل -أو بديل لنظرية ماكس فيبير -قد اقترح في الولايات المتحدة من قبل فرانسيس فوكوياما، وفي فرنسا من قبل ألان بيرفيت يقول : ليست القيم الدينية ما يؤسس الرأسمالية، بل(الثقة) التي تسهل العلاقات التعاقدية بين أعضاء المجتمع. إن (المجتمع الموثوق به) كمؤسس للتطور الرأسمالي يتواجد في الثقافات المتعددة ذات البنية العائلية القوية، وبشكل خاص في آسيا الكونفوشيوسية. في عام 1980، اقترح العالم الاجتماعي الأمريكي بيتر برجير الذي يعد وريث المؤسس ماكس فيبير، في عام 1980، نظرية (المعادل الوظيفي) للبروتستانتية : من الممكن أن يلاحظ في الأديان غير المسيحية، تصرفات مشابهة للأقلية البروتستانتية، وغالبا عند طوائف الأقليات. كما في الأخوية الموريد في السنغال، المعروفة بأخلاقها للعمل، وفضائلها بالادخار والاستثمار. فهي تمثل المعادل الوظيفي البروتستانتي في حضن الإسلام الإفريقي ؛ الأمر سيان في الهند بالنسبة لمؤيدي ديانة جايين ولطبقة المارواري.

العالم لا يخلو من الأمثلة، وهي لا تدخل في الإطار الفيبيري، الأصلي أو المراجَع، وعلى هذا الأساس، أين سنضع كوريا الجنوبية في هذا المشهد الديني؟ هناك توضيح ممكن، نستطيع أن نضعه في خانة الفيبيري المحدث. فهو يؤكد على عنصر المنافسة بين الأديان، المسيحية، الكونفوشيسية، والبوذية: فهل بإمكان النجاح الاقتصادي جزئيا، أن يترجم بمنافسة أو مزاحمة صحيّة بين تلك الأديان؟. قد نجد منافسات مشابهة، في جنوب الهند، في كرالا حيث المنافسة بين المسيحيين، المسلمين، والهندوس، قد أدت إلى الحصول على نسبة التعليم الأكثر ارتفاعا في البلاد. بالنتيجة، حسب النظرية ما بعد الفيبيرية، إن البروتستانتية كانت تمتلك ربما أسبقية منذ البداية. ولكن، كثيراً من الشعوب قلدتها، إمّا لأنها قد وجدت في البروتستانتية ديانة لها، أو أنها وجدت تحديا ما لديانتها، وهذا هو المعادل الوظيفي الذي يولد التطور.

أثناء ذلك، تبقى الديانة أحد الأسباب الحاسمة للنجاح الاقتصادي. يجدر أن نذكر توضيحات مادية أخرى: لهذا لا يخضع الليبراليون التطور إلى القيم الروحية، بل لوجود (أو عدم وجود سوق) ولمتابعة (أو لا) سياسة اقتصادية جيدة. حسب الاقتصاديين الكلاسيكيين، من آدم سميث إلى فريدرش فون هايك، كل الثقافات تتضمن عناصر صالحة للتطور، مثل روح العمل، أو الرغبة لتحسين وضع الأطفال في العائلة؛ إنها تعتمد على السياسة المتّبعة أكثر مما تعتمد على عناصرها الفعّالة المزدهرة أو الذابلة.

في هذا الاطار العام من القيّم والتعاليم، أين سنحدد موقع المسلمين، بافتراض، - وهذا أمر مثير للجدل- إن وحدة الإسلام تطغي على تنوع الثقافات التي تتفاعل في داخلها؟

محمد، النبي المتعهد

يبدو أن الديانة الإسلامية أكثر قابلية للرأسمالية من المسيحية -كان النبي تاجرا كبيرا وزوجا لامرأة أعمال؛ هذه الصفة لا تنطبق على المسيح، بوذا، أو كونفوشيوس. لقدكان محمد المؤسس الوحيد لديانة كبيرة له طموح اقتصادي حقيقي : أليس على كل المسلمين أن يتبعوا المثال، والمشاركة في هذا الميل؟ فضلاً عن ذلك، وعكس كل الديانات الأخرى المنزّلة، لا يعظم التزهد، بل أنه يبارك الغنى. كتمثيل رمزي لتحالف الله مع التجارة نجد أن السوق في كل المدن الكبرى المسلمة الكلاسيكية- استنبول، أصفهان، القاهرة، دمشق- متصلا بالمسجد ؛ يحسب التجار أموالهم فوق رحبة الجامع مع مباركة علماء الدين. صحيح، أننا سنكتشف عقبة مهمة للرأسمالية في منع الإسلام الديّن بفائدة، ولكن هذا المنع موجود أيضا في مسيحية القرون الوسطى، وقد احتيل عليه ببعض حيل المحاسبة المتنوعة. هذا الاحتيال موجود في بعض الممارسات الإسلامية المسموح بها، كإعارة المال تحت شكل آخر، ومقاسمة الارباح. في القرن الأول للإسلام، كان المسلمون مميزين بالرخاء والازدهار. مما يؤكد ميلهم إلى الرأسمالية. هل كان ذلك بفضل (مجتمع الثقة)؟ متحدون بقيم الإسلام، كان على المسلمين أن يتمتعوا بازدهار مترع. ولكن لماذا اختفى ازدهار البديات هذا؟ هل لكون المسلمين قدرييّن؟ وأين ذهبت الثروة الاجتماعية للمسلمين؟

يقلق الذين يربطون القّيم والتطور حول احتمال أن الإسلام بعد أن انقضت الحقبة الأولية للفتوحات، قد أصبح قدريّا : إن الشعور بالانحدار، قد طغى على روح المسلمين. فمادام، كل شيء مكتوبا فما جدوى الاستثمار؟ إلا أن نفس المحاكمة نجدها عند الكلفانيين الذين، كما يشرح ماكس فيبير، احتاجوا الاطمئنان على تسجيلهم السماوي عبر النجاح الاقتصادي على الأرض. لماذا لا يصلح هذا القياس على المسلمين؟ من جهة أخرى، إن رؤية قدرية كهذه، هي مغذاة بمراقبة أخلاق البلاد الفقيرة أكثر من معرفة معمقة لتلك الديانة ؛ لأنها مبنية بالقدر نفسه على حرية الاختيار كما الكاثوليكية في الحالتين، يأمل المؤمنون ربح الجنة بأعمالهم.

إن ربط الإسلام بالسلبية، والخمول الاقتصادي، يساعد إذن على قلب العناصر. السلبية هي من إنتاج الفقر، وليست من إنتاج القرآن ؛ إنها تصرف اجتماعي قد أثبت في كل المجتمعات الفقيرة حيث الأمراض المستوطنة غالبا ما تفاقمه

إلى هذه المقاربات ذات الإيحاءات الدينية والانثروبولوجية، يضيف البعض، توضيحات ذات أبعاد نفسية وهي: غياب المبادرة الاقتصادية يكمن في طيات اللاوعي للديانة الإسلامية، وفي نوعية تربية الأطفال التي ينتجها. ما هي قيمة تلك النظرية التي حسبها يقال إن روح العمل الرأسمالي مركّزة في الغرب كتعويض عن حياة جنسية مقموعة؟ صحيح أن القرآن هو على عكس الإنجيل، يقترح مقاربة ابتهاجية من الجنس، على الأقل بالنسبة للرجال : ففي العالم الإسلامي، إن فحولة الصبيان معظّمة من قبل الأمهات كما من قبل الآباء. بعدها، لا يشعر الشاب المسلم بحاجة أن يحّول طاقته الجنسية لطاقة إبداعية، اقتصادية أو شيئا آخر. هذه المسببات الجنسية والتربية الأبوية، لها بدون شك تأثير ما، على مصير المجتمع الإسلامي. ولكن هذه المقاربة الفرويدية، تبدو

لنا ساذجة أو تبسيطية لحد ما وغير قابلة للبرهنة ؛ في حين أن كل شيء غير قابل للتحقيق لا يمكن اعتباره حقيقة في ميدان الاقتصاد الذي، يهمنا هنا

قيمة أخرى حقيقية وليست أسطورية في الإسلام غالبا ما طرحت خلال الخمسينات، ليس لشرح فشل الرأسمالية، ولكن من أجل الابتهاج بهذا الفشل ألا وهي : التشديد الذي وضعه القرآن على العدالة وتوزيع الغنى، تحتم قيادته باتجاه الاشترا كية وليس باتجاه الرأسمالية. فالاشتراكية التي كانت في تلك الحقبة تحت هيمنة الماركسية، اعتبرت أكثر عدالة وأكثر فعالية من الرأسمالية. ألم يكن الإسلام هكذا متقدما على الغرب المسيحي؟ كثير من المنظرين - مثل ماكسيم رودينسون في فرنسا - هنأوا انفسهم لذلك، كما استلهم رؤساء الدول العربية منها. ولكن فشل الاشتراكية العربية لم يظهر عدم فعالية الإسلام، بل عدم فعالية الاشتراكية ولو كانت عربية. ما دفع بحاملي هذه النظرية إلى الصمت.

بدءًا من عام 1 9 8 0، أخذ الإسلامويون على عاتقهم مبدأ العدالة الاجتماعية دون أن يقترحوا، مع ذلك، منهجا للتطور لا يكون رأسمالياً أو اشتراكياً بل اسلامويا. الاقتصاد الإسلاموي هذا، يبقى حتى الآن، شعاراً الإسلام هو الحل أكثر منه مثالا أو تجربة قابلة للتحقيق

في حدود إمكانية تحليل ما يفهمه الإسلامويون عندما يكتبون بأن (الإسلام هو الحل)، لقد وضعوا الإسلام بمكانة أقرب إلى اقتصاد السوق منها إلى الاشتراكية. فالتفضيل الإسلاموي هذا يعتمد على القرآن، الكاره للاحتكار والمشجع لحرية التجارة ؛ كما يفسر أيضا عبر الفشل الاقتصادي للدول في حضن العالم المسلم ؛ نلاحظ في النهاية بأن الاسلامويين، يجتذبون أعضاء من وسط التجّار والمؤسسات الصغيرة، إذ يدافعون في المقابل عن مصالح زبائنهم هؤلاء.

إجمالا، تبدو قيم الإسلام ملتبسة ؛ إذ إن بعضها يميل إلى الرأسمالية، وبعضها الآخر يعارضه. فهي تستطيع أن توضح الرأسمالية من أصولها، ولكنها لا تسمح لفهم لماذا اختفت الرأسمالية في القرن الخامس عشر؟

لماذا اختفت الرأسمالية الإسلامية؟

مفارقة تاريخية : ظهرت الرأسمالية وهي شكل من أشكال الازدهار الأولي في العالم الإسلامي لكنها سرعان ما اختفت منه لتنبثق في ذات الوقت، في العالم المسيحي. يوجد هناك على الأقل، أربعة توضيحات متعارضة، لن نستطيع الحكم بينها لكونها تتعلق بماض بعيد.

الإيضاح الأول الذي لا يتمسك به الغربيون غالبا، لأنه يبين صفة دينية أكثر منها تاريخية، ولكنه شائع ويردد باستمرار في أرض الإسلام، وخاصة من قبل علماء الدين : لقد سقط الإسلام -باستيلاء المغول على بغداد في عام 8 6 2 1- لأن الخلفاء خانوا تعاليم النبي. فاستنتج المؤرخ ابن خلدون، الذي تطور ونقح هذه النظرية، قانونا دوريا للحضارات : يؤدي فساد السلطة - حسب رأيه-إلى فساد القيم الاجتماعية، والأخلاق، وفي النهاية إلى انهيار الحضارات المصابة. كثير من المفكرين الدينيين رأوا أن وحده ظهور خليفة صالح، ومخلص للقرآن بإمكانه ترميم أو تجديد مجد الإسلام، وذلك بإعادة صنع وحدته وازدهاره. لنذكر وجهة نظر أخرى أكثر تعقيدا من تلك النظرية، شرحها علماء الدين الأورثودكسيون، أعداء الطرق الصوفية : العبادات الشعبية، بتفضيلها التصوف، والفكر السحري، والانعزال عن العالم، قد حولت الإسلام عن الحياة العملية والاقتصادية. إن صعود، ما سماه محمد أركون (الإخوانية)، لتمييز التجربة الصوفية عن استعمالها السياسي، يتوافق في الواقع مع الانحدار الاقتصادي للمسلمين؛ ولكن أليس الانحدار ما قد شجع الصوفية على صبّ القوى نحو الحياة الداخلية، بدلا من صبها في عالم في طريقه للزوال؟ من جهة أخرى، إن نقد الطرق الصوفية جزريا، يدعو للتصور أنها ليست إسلاماً حقيقياً، وهذا ما يحتج عليه الصوفيون

ولكن المراجعين الغربيين الأكثر صرامة للتاريخ العربي، يعتبرون بأن العالم الإسلامي لم يعرف أبدا تطورا نابعا منه: فالازدهار المعروف عنه في القرون الأولى، لم يأت إلا عن طريق سلب المناطق المفتوحة. في منتصف القرن الخامس عشر، في حين امتصت الفتوحات وانتهت (سقوط القسطنطينية 3 5 4 1)، توقف العصر الذهبي وتطور الإسلام

هناك نظرية تاريخية أخرى أكثر كرما، تعتبر بأن الإسلام قد حقق تطورا اقتصاديا نابعا من داخل العالم الإسلامي بفضل التجارة. فبدءا من عام 2 9 4 1، ألغى الأسبان والبرتغاليون احتكار الملاحة البحرية من قبل العرب، فحطموا تلك التجارة الإسلامية بين آسيا وأوروبا0كما أن عام 2 1 4 9 هو أيضا تاريخ طرد المسلمين (واليهود) خارج إسبانيا، إنها السنة المحورية لانقلاب مصير العرب الاقتصادي والسياسي في آن واحد. نستشف هنا مخطط نقد معاد للامبريالية : إن عدم تطور العالم الإسلامي، من المغرب حتى جاوا، كان نتيجة ثورة الغرب، التي هي استهلال لاستعمار لاحق. ولكن بعد خمسين عاما من الاستقلال، لماذا لم تنهض بعد معظم البلاد المسلمة؟ أعداء الامبريالية، الذين لا يزال لهم دور فعال في جامعات العالم الإسلامية يقلبون الاعتراض بحجة أن الامبريالية لاتزال مستمرة تحت غطاء الدولة الناتجة عن الاستعمار: الحكومات المصرية، المغربية، أو السودانية، تظهر كحكومات مستقلة، ولكنها ليست سوى مستشاريات استعمارية، في خدمة المستعمرين السابقين 0لا يمكن عزل هذا النقد دون فحصه وفهمه، يبقى أن

نبرهن على كون الاستعمار COLONIALISME ، الامبريالية أو حتى الصهيونية، ومحتقريهم يندمجون بخسة، لمنع النمو الاقتصادي فعلا.

لقد أظهر التاريخ الاقتصادي للعقود الثلاثة الأخيرة العكس، عند معرفة أن الشعوب المرتبطة بالامبريالية تزدهر بسرعة أكبر من تلك التي تنغلق داخل نظام الاكتفاء الذاتي. كما أن الشعوب التي هي أقل مواجهة مع الامبريالية هي الأقل تطورا والأكثر محاصرة بالإسلامويين : مثل آسيا الوسطى، الجزائر، اليمن، السودان. تظهر نظرية عدم تطور المسلمين كنتيجة للامبريالية أو العولمة دون أساس، إذا قارنا فشل المجتمع المسلم بنجاح المجتمعات غير المسلمة الخاضعة لنفس التحدي الغربي.

يقودنا هذا إلى الشرح النهائي لعدم التطور: وهو سحق البرجوازية المغامرة الجريئة من قبل الدولة. فإذا اعترفنا أن التطور يمر بالرأسمالية، وأنها بالتالي تتطلب برجوازية حرة بشرع الأعمال، نلاحظ بأن معظم الحكومات المسلمة هي حكومات (توتاليتير) شمولية وستبقى؛ فلا يوجد للبرجوازية المستقلة مكان في تلك الحكومات. ترى، هل باستطاعتنا أن نوضح هذه الحقيقة التاريخية في الإسلام؟ يحرص القرآن، في عدم التمييز بين السلطة الدنيوية الجسدية والسلطة الروحية، على تكثيف القوى والسلطات ويمنع أن تنبثق جماعة اجتماعية مستقلة مثل البرجوازية. لا يترك الإسلام (مجالاً للمقامرة) في المجتمع، على العكس من تمييز السلطة في الغرب المسيحي - حيث يتنافس العرش والهيكل، البابا والامبراطور - أو في الامبرطورية الصينية التي تزودت بمؤسسات تجارية -مستقلة.

إذا بدت هذه النظرية بأنها مؤسسة على علم الدين، فهي ليست مدعومة من قبل التاريخ، لأنه، خلافا للأفكار السائدة، كانت القوى السياسية والسلطة الدينية في العالم الإسلامي غالبا منفصلتين وبقيتا هكذا. فمنذ قرون عديدة، يعمل العلماء، والإخوانيات، والمرابطون أو الأولياء، الجامعات، غالبا باستقلال نسبي، لبعدهم الجغرافي عن المركز السياسي.على العكس، فقد احترم الغرب المسيحي الأرثوذوكسي حتى حقبة حديثة، طريقة السلطة الواحدة، طريقة (إسلامية) لحد ما، وإذا استطعنا القول، إنه بدونها قد تطّور كثيرا.

الاستبدادية الشرقية

أليست إذن الاستبدادية الشرقية من يوضح الفقر أكثر من القرآن؟ نحن نميل بحماس نحو هذا التوضيح، إذا كان هناك حاجة لتوضيح موحّد ؛ ولكن هذه الاستبدادية ليست ملازمة للإسلام. فإذا كان صحيحا أن محمدا كان قائدا حربيا، وبأن الخلفاء الأوائل قد نشروا الإسلام بحد السيف، فإن هذه الظروف التاريخية ليست مرتبطة بالإسلام. ففي آسيا الشرقية، لم يكن الإسلام منتشرا بسبب المحاربين، إنما بواسطة التجّار والمبشرين؛ ففي الهند، اعتناق المنبوذين كان يحصل بتلقائية، لقد حررهم الإسلام من نظام القمع الطبقي. إذا، العلاقة بين الإسلام والحرب هي عرضية وليست ضرورية. كما لا نستطيع أن نتظاهر بعدم وجود مجتمع مدني فيه؛ إذكانت الجمعيات، المساجد، المحاكم، والأسواق، أماكن للاجتماع، تساعد على بروز مجتمع مدني. لقد تميّزت السلطة الدينية عن المؤسسات الدينية، منذ العهد الأول للخلافة؛ وجّه العلماء تنبيهاتهم إلى الخليفة الأول، وكان الخليفة يأخذهم بعين الاعتبار ، في القرن الثاني عشر والثالث عشر، العصر الذهبي للإسلام، كان التجّار في الأندلس يؤلفون مجتمعا مستقلا عن السلطة الدينية، وعن السلطة السياسية. فالوحدة السياسية والدينية في الإسلام هي إذا أسطورة سياسية حديثة، تتعارض مع تاريخ المسلمين ؛ التاريخ الذي يبين المنافسة الدائمة بين السلطة الدينية والسياسية. ما تبقى صحيح : إنه في عصرنا، في مصر، في الباكستان، في تركيا، في السعودية، تبذل السلطةالسياسية جهدها بدون نجاح للسيطرة على الجوامع، بينما ينشأ في كل يوم جامع جديد. إذا كان صحيحا أن المستبدين قد حطموا دائما المؤسسات المدنية الاجتماعية، فإنهم لم يتصرفوا باسم الإسلام. لا في الامس ولا اليوم

إذا، لا نستطيع توضيح الفقر بسبب الإسلام بحد ذاته، إلا إذا حصرنا تاريخ كل المسلمين في قراءة أحادية للقرآن. هذا الإغواء الايديولوجي موجود عند الإسلامويين، وهذا مفهوم بما فيه الكفاية؛ كما هو موجود في العديد من المستندات الخطيّة أو الوثائق الغربية، الشيء الذي يثير المزيد من الغضب. هل يقبل هؤلاء الكتّاب فهم تاريخ الغرب بقراءة أحادية للإنجيل؟ طبعا لا، ولكنّا نتصرف غالبا بهذه الطريقة سهواً عندما نشرح كل شيء عن المسلمين بالإسلام

إنه لأكثر من محتمل، أن يكون الفقر في أرض الإسلام ناتجا عن عمل الاستبدادية السياسية كما نجد في كل الحضارات إذ قويت الاستبدادية بشكل معتبر في القرن العشرين بسبب الايديولوجيات الدولانية. باسم الاشتراكية في مصر، الاستبدادية المستنيرة في المغرب وفي أندونيسيا، الثورة الإسلامية في إيران

الى أية حقبة يعود تحطيم البرجوازية النشيطة من قبل المستبدين؟ يقدّر المؤرخ الباكستاني فضل الرحمن بأن، السلاطين الذين بذّروا الأموال على أنفسهم وعلى مغامراتهم الحربية منذ القرن العاشر، قد أضعفوا التجّار بضغط الضرائب العالية. فالتاريخ الاقتصادي للإسلام يمتزج جيدا مع تاريخ تحطيم المؤسسات والمنشآت بسبب السياسة: فرضية سنحاول إثباتها بتحليل تجربة المغرب

لماذا المغرب فقير؟

لماذا نعتبر المغرب فريدا؟ هذه البلاد تحتل مكانة فريدة في العالم العربي لاستمرارية حضارتها ومؤسساتها ؛ لا يوجد أي إبداع جديد أو مصطنع، وليد تفكيك الاستعمار. حالة البلاد عريقة، وليست استنساخا عن الغرب. كما أن شروطها الجغرافية ملائمة. أمّا الشعب، الذي هو بربري وعربي، فلم يواجه فتناً عرقية أو دينية صعبة. إن كان قد استعمر من قبل الفرنسيين، فالجميع، في فرنسا كما في المغرب، يعترف بأن هذه الحماية القصيرة، بدون أن تخلو من العنف، عملت كمطوّر، وجهزت المملكة بمؤسسات حكومية وأسس بناء ذات نوعية عالية. بالرغم من أن المصادر الطبيعية لا تنقص المغرب، وبشكل خاص الفوسفات، يبقى المغرب قليل التطور ؛ دخل الفرد الشهري تضعه في ربع الشعوب الأكثر فقرا في العالم، نصف سكانه أميون، نصف العائلات لا تملك وسيلة للحصول على ماء للشرب.

حسب تصنيف تركيبي للأمم المتحدة، يحتل المغرب الصف 3 2 1 من مراتب التطور البشري، أي في المرتبة الأخيرة

نستطيع أن نضاعف مؤشرات البؤس التي لا يراها السائحون العابرون على عجل ؛ فهم لا يحتفظون من عبورهم في المغرب سوى بالضوء والألوان. لقد خُدع ذكاؤنا بتوهج طبقة حاكمة، فرنسية اللغة ولامعة التي تشكل طبقة نشيطة وفعّالة وراء ملكها. صحيح، أن محمد السادس أكثر تحفظا مما كان عليه والده حسن الثاني، ولكن النظام الذي ورثه لا يزال على حاله. هذه الطبقة الارستقراطية - 1% من السكان- تملك نصف الدخل الوطني ؛ وهي التي تسيطر على صورة المغرب في الخارج. يبقى أن ندقق فيما إذا كانت العلاقات العامة تعوّض عن السياسة الاقتصادية والتطور. نرد بقسوة: لا ! ففي طرقات الدار البيضاء، بعيدا عن حلقات السياحية، يوجد فتيات صغيرات طردن من القرى بسبب الفقر، يحملن على أذرعهن رضّعا بعيون تأكل وجوههم. لا، لسنا في أعماق أفريقيا السوداء، بل على بعد ثلاث ساعات في الطائرة فقط. لا يوجد أسف مجدٍ لمسح البؤس، الجهل وغياب الخدمات الطبية لهؤلاء الأطفال ذوي التغذية السيئة. لا تجد أمهاتهم اليائسات مساعدة إلا في المستوصفات النادرة الخاصة. هؤلاء الأمهات غالبا ما يكن عازبات، ما يسمح أن يقال الكثير حول عدم المسؤولية والجبن الذكوري في العالم الإسلامي. عندما يعبر الأغنياء المغاربة أمامهن في طرقات الدار البيضاء، لا يرمينهن بنظرة ولا حتى بحسنة؛ هذا بدون شك لأنهم لا يروهن. أو لأنهم لا يروهن كما نراهن. تحت التخلف، في قبوله اللا إنساني بالقدر الذي هو اقتصادي، يحتفظ في تبديله غير المجدي في نفس المكان، عالمين مختلفين محجوبين الواحد عن الآخر : الغنى الفاحش للقلّة، والبؤس المطلق لكل الآخرين. بين الاثنين، طبقة متوسط هزيلة، في أغلب الأحيان تقبض رواتبها من القطاع العام، وتحاول تقليد العادات الغربية على حساب ديون باهظة

كيف الوصول إلى هذه الدرجة من الاستقطابية للمجتمع خلال ثلاثين أو أربعين سنة؟

الامبريالية الداخلية

في اليوم التالي للاستقلال في عام 1 9 5 6، كان المغاربة فقراء ولكن لم يكونوا بؤساء. كانت الفروق الاجتماعية أقل، وكانت الآمال كبيرة. بدا للخبراء بأنه يكفي أن تعهد مهمة تطوير، وتخطيط المغرب، لدولة قوية، وإضافة مساعدات غربية : ولا بد أن يكون الازدهار، كما اعتقدوا، نتيجة حتمية

أربعون سنة فيما بعد، غدت الدولة بدينة، الخطط مهملة، المساعدات منفقة ؛ ولكن النخبة القريبة من الحكم أصبحت أغنى! كيف تحولت المغرب من 7% من النمو السنوي المرجو في الستينات، والمحقق عند الشعوب الأخرى، إلى 0% إذا أخذنا بعين الاعتبار الارتفاع السكاني؟ أسوأ الأسباب هي في العادة التي تعطيها السلطة لشرح هذا الفشل : وهكذا نسمع من الحكومات المتعاقبة تردد، بأن (هذه السنة)، حطم الجفاف النمو؛ سيصبح المغرب فقيرا بسبب الجفاف؟ بالفعل، لقد تحسن النمو في السنين الممطرة. ولكن بسبب الاقتصاد القديم (السابق للعهود الكلاسيكية) الرازح تحت رحمة الطقس. لتخفيف هذا التعلق، وجب تعميم السقاية أو تنوع العمل في الصناعة الصغيرة والوسطى. إلا أن الاختيارات الزراعية المنسقة من الدولة قد زادت الاعتماد على الطقس.

بعد رحيل المستوطنين الفرنسيين، صادرت العائلة الملكية أراضيهم، احتفظت لها بالثلث، ووزعت الثلث الثاني على الوجهاء، زبائن الملكيّة. ما تبقى، أي الفتات، تُرك لرؤساء القرى مقابل ولائهم للسلطة. موّل هؤلاء المستوطنون الجدد المغاربة، ري أراضيهم من الدولة والمساعدات الدولية ؛ ما سمح لهم الانتاج بسعر رخيص، الحمضيات المدفوعة بالعملة الصعبة في السوق الأوروبية. بفضل مجانية الأرض والماء، أثري المستوطنون الجدد، بينما خسر الفلاح المسكين، المصدر الوحيد الذي يسمح له بالمحافظة على زراعة بعلية وسباخية ؛ بالنسبة لهم، لم يبق لهم حل سوى المهجر، بينما ندعو الأجانب لزيارة المنشآت التي يقال عنها حديثة، والتي تغني الارستقراطية. من المذنب؟ بالطبع الجفاف هو المتهم !

لم يكن الاستقلال من الاستعمار لم يكن إذا، سوى نوع من الكاريكاتور للاستثمار الاستعماري، كون الارستقراطية المغربية قد ألغت الاستعمار لصالحها، بدون أزمات الضمير التي كان بإمكان المستوطن المعمر الفرنسي أن يشعر بها. يطبق نفس الشيء نفسه على الفوسفات، الذي يمثّل للمغرب، تقريبا، ما يمثله البترول للبلاد العربية الأخرى : مستثمر من قبل مؤسسة وطنية ذات سجل حساب سري، يمّول الفوسفات الصرف العام، ودوائر رسمية غزيرة وجيشا قويا. منذ الاستقلال، قضى هذا الجيش على الفتن الداخلية، قمع الثورات المدنية، حارب الجزائر واحتل الصحراء الغربية بعد رحيل الأسبان، وأخيرا يطالب بالأراضي المحصورة الإسبانية لسبتة أو ميليلة

إذا كان يجب شرح الفقر في المغرب كنتيجة للامبريالية، فمن الأجدر أن يذكر بدلا منه الاستبداد الذي تمارسه الامبريالية الداخلية على المجتمع المغربي

هل الجنوب ضحية الشمال؟

ألا يتوجب علينا أن نلوم تحّفظ البلاد الشمالية في قبول الإنتاج الزراعي ودراق المغرب؟ إذا كانت أوروبا أقل حماية في سياستها الاقتصادية، فسيغتني الجنوب بصورة أسرع٠ في الواقع، سيكون هذا أمرا مرغوبا، وهذا ما يحصل الآن بشكل تدريجي بفضل استقبال الفواكه والخضار المغربية في أوروبا٠ ولكن ليست سياسة الحماية وحدها هي ما يشرح تأخر الآخرين٠ إذا اقترحت المنشآت المغربية على الأوروبيين إنتاجا أكثر تنوعا وأكثر صنعة من حمضيات بلا ترتيب، فسيشتري المستهلك بشكل أكثر، اعتمادا على سمعة الماركة المغربية٠ ولكن المصدّرين المغاربة يفضلون اتهام الحمائية على تكثيف المساعي للتسويق : إن هذا التصرف هو تصرف غير رأسمالي يشرح بدون شك، على طريقة من استملك منشأته بدون تعب٠ إذاً، انفتاح الشمال لا يضمن بأن الإنتاج المغربي سيزداد، ولا يعد أيضا بتوزيع أفضل للثروات، في اللحظة التي لا تتغير فيها تركيبة الإنتاج المغربي ؛ حتى أنه من الممكن أنه يشدّد على الفروق الاجتماعية في الجنوب0 0 0 الجفاف هو السبب، أقول لكم!

هنالك، سبب آخر آت من الخارج، ملام بشكل دائم من قبل السلطة واليسار المغربي، وهو متعلق بالتدخل المنحرف لصندوق النقد الدولي FMI ٠ هل يفقر الصندوق الدولي الفقراء، هكذا ما نفهمه عندما يُفضح من قبل أعداء العولمة في الشمال وفي الجنوب؟ في سنوات الثمانينات، حين كانت الدولة المغربية مفلسة بسبب إنفاقها المبالغ، طلب الملك مساعدة من صندوق النقد الدولي ؛ فأنقذ الصندوق النقد الدولي العملة والسلطة بفضل ديون يمولها مانحو البلاد الغنية٠ هذا هو عمل صندوق النقد الدولي عندما نطلب مساعدته، ولأن لا أحد مجبر على أن يلتمسه، يطلب الصندوق، في المقابل، أن توفى قروضه، الموهوبة بفائدة ضعيفة جدا، والموزعة لعدة سنوات طويلة ؛ مما يجبر المدنيين على تنظيم ميزانيتهم٠ اختار الملك مواصلة الإنفاق العسكري الذي كان يبدو له ضروريا، مضحيا بالمصروف الاجتماعي، وبشكل خاص المساعدة المخصصة لمواد الضرورة الأولى والمواد الحيوية٠ هذا السيناريو الكلاسيكي، موجود في عديد من البلاد المنقَذة من قبل الصندوق الدولي الذي يلعب دور البنك والضحية٠ عندما ثار سكان المدن الكبرى، وقمع الجيش هذه الثورات، المسماة بثورات الجوع، في عام 1 9 8 1، حمِّل صندوق النقد الدولي المسؤولية٠ ولا يزال إلى اليوم ُمتهما في المغرب، في الوسط الجامعي واليساري، لأن لوم الصندوق الدولي أقل مشقة من لوم الملكيّة٠ هذا اليسار ذاته الذي فضح بسرعة، عمليات التخصيص التي ترى توسيع السلطة الملكية غير مقبول ويؤدي إلى تدمير الغنى الوطني٠ ولكنه لا ينتقد تخصيص المال بالشكل الذي تقوم به الدول ؛ هذا لأنه في الواقع، يؤمن دخل الجيش والموظفين، أي الجامعيين (التقدميين)

إجمالا، الأسباب الخارجية - الحمائية الأوروبية، والجفاف - لا يفسر بها وحدها الفقر، الذي يعيث بقسوة معاقبا المغرب، كما لا يوضح الفقر أيضا بعدم المساواة الاجتماعية ؛ إيضاحات تلك الأسباب لا تقاوم الفحص والتدقيق، حتى لو أن بعضهم يستطيع جزئيا أن يساهم في البؤس 0تذكروا أن هناك شعوبا أخرى كالمغرب، قد بدأت من نفس العتبة من سلم الفقر، ثم ازداد غناهم عشرة أضعاف في الوقت الذي وزعت فيه الثروة بطريقة متساوية٠

لقد حان الوقت للتوقف عن مناقشة التطور بمصطلحات إيديولوجية، وكأن لاشيء قد حدث منذ ثلاثة عقود. لنقارن بالأحرى تجارب ملموسة لمحاولة فهم فشل بعضهم ونجاح البعض الآخر ! لا الجفاف ولا الامبريالية يتمتعان بقيمة تجريبية لشرح أو تخفيف من تخلف المغرب.

الأسباب الحقيقية للبؤس

السبب الأول، إذا وجب عزل سبب واحد لركود المغرب، يعود إلى تنظيمه الإقطاعي ؛ هذه الاقطاعية التي لا تفتأ أن تقوى حول الملكيّة، كافية لكي تضعف العوامل الاجتماعية، الاقتصادية، والثقافية الصالحة للتطور

في النظام الإقطاعي، لا يقبل الحاكم منافسة من سلطة أخرى، وبشكل خاص منافسة الجماعات المستقلة. ويفضل الزبائن أو العملاء على البرجوازية الوطنية ؛ العملاء الذين يتميزون بفعالية اقتصادية أقل من ولائهم للبلاط. وهكذا صادر الملك ممتلكات المستوطنين في اليوم التالي للاستقلال، ليمتلكها لنفسه أو ليوزعها على أنصاره أولا. في الحقيقة، إن المصدر الرئيسي للغنى في المغرب، الجديد هو الاقتراب من البلاط والولاء له وليس بالاختراعات بالابتكار.

في عام 1 9 6 0، كان ممكنا أن يبدو التأميم الاقتصادي مبررا، لأنه كان منطقيا للايديولوجية المسيطرة في ذلك الحين، وخاصة في فرنسا: كان للدولة السمعة بأنها أكثر منطقية من السوق. لقد مضت تلك الموضة، وبالرغم من ذلك اشتد التأميم، في عام 1 9 7 3، وراء ما نسميه (بمغربة الاقتصاد؛ووراءستارةالسيادةالوطنية والإنتاجية، حرم الملك المتعهدين الأجانب واليهود المغاربة فاستبدلت هذه النخبة العالمية بالعائلة الملكية وتوابعها والمقطنعين؛ واستملك الموظفون الكبار والوزراء المنشآت المحررة على طريقة nomenklaturaأصحاب الامتيازات الاستثنائية السوفيتية PRIVATIZA المنشآت العامة في 1 9 9 0. وهكذا فقد المغرب القسم الأكبر من المتعهدين : كارثة اقتصادية للمملكة ! ومنذ ذلك الحين تسيطر برجوازية الحاشية على السوق، وتبذل قصار جهدها على إفناء كل متعهد وطني جديد يمكن أن يكون عقبة لاحتكارها. سخرية التاريخ: المتعهدون الأجانب يعودون لصالح عملية التخصيص للخدمات العامة ؛ فالنخبة المغربية بحاجة لتليفون يعمل ولماء للشرب، المهنة التي لا تتقنها برجوازية البلاط الملكيٌّ.!

لتقوية سلطتهم، بدّل السادة قواعد الاقتصاد بنظام الدخل. في غياب المنآقشات لم يستطع أحد أن يعترض. بالطبع نستطيع أن نبرهن، بأن النفوذ الملكية قد حماها من الاعتراضات وبأنها عرفت إخماد بعض الانتفاضات المدنية. ولكن العقوبة الحقيقية تحصل يوميا، بهروب ذوي الشهادات الأمر الذي يفقر البلاد بشكل أكثر0

معاهدة أو اتفاقية الاقتصاد الإقطاعي

ماذا يعني رب عمل كبير؟ ما هو القانون؟ وماذا يعني صاحب دخل؟ تصرفات المديرين في المنشآت المغربية، لا تشابه ما نقابله في الغرب· الهمّ الأول لرب العمل، وخاصة في المزارع الكبيرة، هو ترسيخ وضعه· معبراً عن ذلك بحجم مكتبه، بكراج سياراته، عدد السكرتيرات والخدام والحشم· إن هذه الطريقة الحياتية ليست سوى إعادة انتاج أو محاكاة وضع الملك نفسه على صعيد المنشآت· وللتقليد، يبدي رب العمل ازدراء أو تسامحا، محسنا أو مقترا· لا تخضع علاقاته مع موظفيه، حتى مع زبائنه، لنظام واضح معلوم، ولكنها تعبر عن مزاجه في الحين· في هذا النظام، الراتب ليس حقا واجبا بقدر ما هو حسنة موزعة من رب العمل العاهل· وعلى الرغم من أن النقابات قوية - ورثة صراع الاستقلال، الذي شاركوا فيه- لا تفرض احترام حقوق العمل، هذه الحقوق الموجودة على الورق، والتي معظمها مستلهم من المثال الفرنسي، غير مطبقة حتى بالنسبة للحد الأدنى من الدخل

المؤسسات العائلية الكبيرة، مرتبطة تقليديا برضا الملك، ليس لها عادة مشاريع ذات أمد طويل؛ وليدة التبرع ملكي، باستطاعتها أن تزدهر أو أن تتحطم تبعا لإرادة الملك· وهكذا خضعت المنشآت المغربية في عام 1996 لحملة صراع ضد الفساد· هذه (الحملة التطهيرية)تصفع أرباب العمل بالصدفة، بل إنها ساقت بعضهمإلى السجن· قصد الملك من ذلك أن يذكّر أرباب العمل الذين أصبحوا مستقلين أكثر من اللازم، بأن الولاء يربح أكثر من القانون· لقد فهم أرباب العمل الرسالة· ودفعوا جزية جماعية (طوعية)، الشيء نفسه، في الظروف العادية، مستوى الضرائب المدفوعة من قبل المؤسسات المغربية تعتمد على نوعية علاقة هذه المؤسسات مع السلطة، وليس حسب قانون الضرائب!

يتصرف رب العمل المغربي إذاً، بطريقة عقلية عندما يبحث لاغتناء سريع بدل أن يستثمر لمدة طويلة ؛ إذا ظل عقلانيا، فسيهرّب أرباحه بمهارة خارج المغرب· يطوع أصحاب الرواتب أيضا تصرفاتهم حسب تلك المعايير الاجتماعية والقانونية· فالذي لديه ذرة سلطة في المؤسسة يستعملها كما رب العمل نفسه، فيتصرف كمستبد صغير مع من هم أتباعه ؛ وهكذا هي الحال حتى أعلى سلم المرتبة وبالطبع ستصاحب هذه الاستبدادية لفئات محسنة كريمة يشارك هكذا النظام الاقطاعي الذي كل علاقاته هي علاقات شخصية، عقد الإخلاص، التبعية، والاعتراف بالجميل ؛ بالمقابل، لا يوجد علاقة مقررة بنظام منطقي، معروف منذ البداية· هذه المعايير المتغيرة، ضرورية للسلطة الإقطاعية، ولكنها سيئة للمؤسسات لأنها عكس الوضوح اللازم للتطور الاقتصادي

في أسفل السلم، يتأقلم الموظفون مع هذه الحالة، بأن يعملوا أقل ما يمكن، وبالبحث عن وظيفة براتب بدون عمل، بحقوق ضئيلة، حتما بدون الاشتراك في الإنتاج الجماعي ؛ وغير وارد، الاعتماد عليهم لتجديد وتطوير الفعاليات، فكسلهم هوكسل منطقي ناتج عن محاكمة عقلية صحيحة، أكثر من كونه ناتجاً عن معيار ثقافي أو ديني، قدري، وهي خاصة العالم العربي- الإسلامي

للذين لا يتأقلمون مع النظام الإقطاعي الذي يلون الاقتصاد المغربي كله، يبقى حل الهرب· الأفراد الأكثر جرأة، الأكثر كدحا، الأكثر جسارة، الأكثر تأهيلا، يغتربون ؛ ذوي التأهيلات والشهادات

مثلهم مثل العمال اليدويين المغاربة، هم أكثر اعتبارا وأكثر دخلا خارج بلادهم من داخلها. المحاولات الفصلية للمملكة للاحتفاظ بالنخبة أو لتشجيعهم على العودة تنتهي غالبا بالفشل ؛ الوطنية وحدها ليست قادرة على تعويض التأثيرات المؤذية الضارة للإقطاعية

شكل آخر من أشكال (الهروب) الممارس في المكان ؛ إنه مؤلف من العمل خارج هامش النظام، في الاقتصاد المسمر (غير رسمي) الذي يضم الأعمال اليدوية حتى التهريب مرورا بتجارة المخدرات. نجد المغرب أول منتج للحشيش باتجاه اوروبا، صحيح أن الطقس مشجع، الطلب من الشمال قوي جدا، الأسعار مغرية، ولكن أيضا لأن المتاجرة تتطور أو التجارة غير الشرعية في المنطقة(الرمادية) تتمتع بحرية نسبية. بالإضافة إلى من يطالب المنتجين أو تجّار الحشيش باحترام القانون في حين أن مفهوم القانون نفسه مجهول بشكل كبير من أعلى إلى أسفل المملكة؟ ننتظر من المهرّب أن يتصرف هو أيضا كشخص ملكي، وليس كمواطن شرعويهذه اللائحة للعادات الاقتصادية ستصبح غير كاملة إذا لم نذكر الفساد، في الواقع، أنه ليس حادثاً في المسار، ولكنه عنصر مكون للنظام. فبما أن القانون مشخص حسب المعني أو الخاطب، فالفساد هو تكتيك ضروري للبقاء في عالم ذي قواعد شخصية ؛ بدون الرشوة لا يوجد أي مشروع صغير أو كبير محققا. فقط ذو النفوذ القوية والكبار في الاقتصاد اللذين يستطيعون الامتناع عن دفعها، السلطة تكفي لتلوي القاعدة دون حاجة للدفع أن تساعد الإقطاعية على ركود الاقتصاد في المملكة أمر لا يفاجئ : فلا أحد، موجود في قمة النظام له منفعة في الإنتاج الذي لا يتزحزح عن نسبة الإنماء 0% إلا إذا أمطرت بالطبع، الذي لا يمنع الخطابات الكبيرة حول التطور، قداس سياسي يعزز القليل من المشاريع في المؤسسات أو في الحكومة. ألا يمكن أن نقلق بشكل صريح، للفرق بين مصير المغرب ومصير البلاد الأخرى الفقيرة في نقطة الانطلاق والتي توقفت عن كونها فقيرة؟ هذا النقاش الأساسي- إلا إذا كان مكتوما- ضروري للغاية، كون الدستور كما مجموعة المعايير الاجتماعية يمنع مناقشة طبيعة النظام السياسي. من جهة أخرى، فالنجاح المحقق بعيدا عن العالم العربي غير معاش كتحدٍ يخاف منه ولا كمثال للعمل نحتذي به. يظل أكثر راحة أن نتهم الجفاف!

إذا كان علينا أن نكتفي بسبب واحد، ولكن أساسي، لمرور المغرب بجانب التطور، فمن المستحسن أن يذكر أن المغرب لم تأخذ بعين الاعتبار المحرك ـ المفتاح للإنماء، الذي يشير إليه الاقتصاديون بلقب بشع (الرأسمال البشري). لأنه لا يوجد تطور اقتصادي بدون تقييم هذه القدرة. في هذه الحالة، ماذا نلاحظ في المغرب؟ إن نصف السكان أميون وليسوا مسجلين في المدارس. بالرغم من أنها مبدئيا إجبارية. ولكن التدريس ماقبل المدرسة معهود إلى المدارس القرآنية التي يخرج منها الأطفال غالبا أميين. المدارس الابتدائية هي غالبا دون مدرسين ودون إمكانيات. وحيث توجد المدارس، التعليم إجباري باللغة العربية الفصحى، بينما الكتلة السكانية تتحدث بالعربية المحلية أو البربرية. أما التعليم العالي، فهو غالبا باللغة الفرنسية فيعزل بشكل تلقائي الأطفال من الوسط الأكثر تواضعا، الذين لم يستفيدوا من مدارس ابتدائية وإعدادية خاصة في اللغة الفرنسية، ولا من المدارس الفرنسية الخاصة التي تقصدها النخبة. الجامعات تتابع إذن التفريق الطبقي بدلاً من أن تقيّم الأفضل. وأخيرا تهميش النساء، وارثات الثقافة العربية، أي حرمان نصف السكان من كل تأهيل، باستثناء اللواتي ينتمين إلى الارستقراطية. إذاً، يرتكز الأمل الاقتصادي للمغرب على رأس دبوس

الخلاص هو بالعولمة

إن الصورة المرسومة هكذا عن الاقتصاد المغربي تبدو جدلية للغاية ؛ لأنها تترك جانبا بعض النجاحات، بشكل خاص في PME للتحويلات اليدوية والصناعية الصغيرة والمتوسطة. ولكن بدا لنا أكثر نفعا وودا أن نهز المجاملات التي يبديها جيدا الأصدقاء المعلنون في الخارج للمغرب، وللحكام المغاربة. ما أطرحه هنا هو محصلة مقطرة للمقابلات جرت مع المتعهدين، اقتصاديين وعلماء اجتماع مغاربة الذين يلاقون صعوبة بأن يسمعوا في بلادهم. لا أحد، طبعا، سيتعرف على نفسه في تلك الصورة، لا رب العمل ولا البيروقراطيون المحليون ؛الحقيقة أن اللائحة بأجملها لا تختصر على صورة ظلّية معينة، ولكنها تعبر عن محصلة التصرفات التي تشكل المجتمع. ألف توضيح سيأتي على ذهن الذي سيقرأ هذا الكتاب، مثله أتت أيضا على ذهن كاتبه، هكذا هو قانون النوع الذي يحتاج إلى عرض التعميمات قبل اقتراح حلول بديلة

المغرب، في هذا الاعتبار، بعيد عن أن يكون في وضع سيىء ؛ ونحن مخيبون من فشلها وخاصة أنها تتمتع بميزات طبيعية، وحكومة ثابتة، واستمرارية ثقافية وسياسية. مستثناة من الانتفاضة الثورية التي أضرّت بالعالم العربي- الإسلامي. كيف من الممكن، أن يفوتها قطار التطور هكذا وكل شيء مساعد على ركوبه؟

على الرغم من ذلك، ليست الحالة بدون مخرج : فهناك تطور يخطط، آت من الخارج، مما نسميه كما هو شائع (العولمة). من هذه الاختبار الذي تواجهه المغرب الآن يستطيع أن تنبثق، أمطرت أم لا، تنمية حقيقية؛ بالمقابل بدون العولمة الحالة تصبح يائسة. يعود إلى الحكام المغربيين ضرورة فهم أهمية أن يفرضوا على أنفسهم هذه التجربة للانفتاح. فنتيجة اتفاقياته مع الاتحاد الأوروبي ومشاركته في المنظمة العالمية للتجارة، سيصبح المغرب اقتصادا مفتوحا على المنافسة بدءا من عام 2 0 1 0

من الآن حتى 2 0 1 0، ستكون الحدود مفتوحة للاستيراد، باستثناء بعض المواد الزراعية المحمية. بالنسبة للمؤسسات المغربية التي تحول المواد المستوردة، الحرية للتبادل هذه هي أساس كل تطور. الشيء الذي لا يفهمه بعض أعداء العولمة : هؤلاء، الذين يزعمون كونهم في صف الفقراء، هم، في الواقع، حلفاء ذوي الدخل وراء الحدود المغلقة. ذوي الدخل الذين يسيطرون على الاحتكار في السوق الداخلية، ببيع مواد نادرة وغالية، يفقرون المستهلكين ويمنعون ابتكار مؤسسات جديدة.

إذن، هل يمكن أن يبرز حل لليأس الاقتصادي من الخارج فقط؟ ليست الحالة خارقة للعادة. فإذا رجعنا إلى فرنسا كمرجع، ألا نستطيع القول بأنه بدون الضغط الذي مارسه الاتحاد الاوربي للتحرير، لكبحت حرفيتنا عجلة التنمية؟ في حالة المغرب والشعوب التي تشابهها، الانفتاح هو شرط للبقاء للشعب المغربي وحكومته؛ الخيار الآخر هو الركود والإسلاموية التي تزدهر على حساب الفقر والجور.

مديحنا للعولمة المطبقة على المغرب ليس إيديولوجيا أو ظرفيا: ونستطيع آنفا أن نقيس تأثيراته. بالرغم من معارك ذوي الرواتب الذين يعادونه لكي يتأخر. فالانفتاح التدريجي للحدود سيساعد

على ولادة جيل جديد لمتعهدين حقيقيين على رأس معمل التحويل. وبهذا نثبت لأي درجة كون المغرب ليس ممسوكا في المؤخرة بسبب الإسلام0بل بسبب مؤسسات ضارة للابتكار والغنى وعلى تبادل النخبة. وتظهر الخدمات العامة التي خصصت بعد أن كانت مؤممة منذ ثلاثين عاما، بأنها تعمل جيدا لمنفعة الجميع. ليس أمرا سهلا بالنسبة لغالبية فقراء الدار البيضاء، الحصول على ماء للشرب، وسيان لديهم أن يكون المدير مغربيا أم لا!

وكذلك المؤسسات الاقتصادية المدارة من قبل مديرين فرنسيين مبشرة جدا بنجاح الاقتصادي. تلك المؤسسات التي كانت سابقا وطنية ومفلسة، هي الآن في تطور وازدهار ؛ مثال، حالة معمل الاسمنت الذي كان مأمما في عام 1 9 7 4 وخصص في 1 9 9 8، يديره الآن الفرنسي لافارج. لقد وصل هذا المعمل المغربي إلى المعايير النوعية والفعالية العالمية؛ هذه المؤسسات تزدهر وتخلق حولها شبكة من متعاملين - تابعين. ترى بأية معجزة؟

المعجزة اسمها إدارة المصادر الإنسانية 0عند لافارج، العمال مغاربة، الموظفون والمهندسون هم غالبا مغاربة أيضا، ولكن الإدارة لا تتبع المنهج الاقطاعي المتعجرف. الوضوح في المعلومات، احترام العمال، الاهتمام بالنتائج عوامل قد جعلت العامل المغربي الذي كان فيما مضى كسولا، عاملا متطورا وفعالا مثل العمال في الشمال. ما يدل الى أية درجة أن الادارة الجيدة للمصادر الإنسانية هو مفتاح التطور؛ هي وحدها، بلا شك، غير قادرة على فتح كل الأقفال، ولكن لامناص منها

إن مواجهة تحد لهذا المنهج الآتي من الخارج ومنافسة المواد المستوردة، ليس بمقدرة كل المؤسسات المغربية على الصمود والبقاء أمامه أي أمام العولمة ؛ بعضهم سيتأقلم، وآخرون سيبتكرون. التطور ليس لعبة بمبلغ غير موجود ولكنها (تحطيم إبداعي) حيث يتلاشى القديم ليترك مكانا للمجددين وإلى المتعهدين.

سياق مؤلم في بعض الأحيان ومثير. لاسيما أن اختفاء المؤسسات مرئي، ومذاع عن طريق الإعلام، ومستعمل سياسيا، بينما تمضي الابتكارات بشكل غير ملحوظ نعرف أيضا ظاهرة اللا تماثل asymetrie هذه في البلاد المتطورة، وبشكل أكبر أيضا في اقتصاد الاشتراكي- السابق الذي في طريقه للتحول إلى الرأسمالية ؛ قد خلق أحقادا مفهومة، غالبا ما يغذيها الإقطاعيون المهتون ببقائهم الذاتي. فمن يصنع لعبة الإسلامويين : هم غالبا ممولون بالمؤسسات التي تهددها العولمة. ولكن ماهو الخيار أو البديل الذي يطرحونه؟

تعترف المتحدثة باسم العدالة والأعمال الخيرية، الحركة الإسلامية - الأكثر تأثيرا في المغرب، ناديا ياسين، ابنة الشيخ ياسين، معارض (تاريخي) للملكية المغربية، بأنها لا تقترح شيئا ؛ تقول : الضغط الذي تمارسه السلطة على الإسلامويين، لا يترك لهم الوقت لإعداد مشروع اقتصادي. إذا ألححنا قليلا، نستنتج من هذا النقاش بأن الإرادة لأخذ السلطة تغلب كل المشاريع الأخرى. السلطة، لفعل ماذا؟ (لإنقاذ المجتمع من انحلال الأخلاقي، لصيانة عظمته القديمة) لماذا لا؟ نحن لا نعرف أن نطبق معاييرنا المادية على الرؤية الدينية، نحن لا نستطيع سوى العمل. فلنترجم أيضا بطريقة عادلة، النجاح الانتخابي للأحزاب الإسلامية - في الانتخاب2 0 0 2، معتبرة من قبل الملك من أوائل الانتخابات الحرة في المغرب: نجاح نستطيع أن نخمّنه لأن السلطة قد اعترفت به من دون أن تنشر، بالرغم من ذلك، نتائجه مرقمة ! هل يريد المغرب دولة إكليروسية، الشريعة والحجاب؟

على الأرجح أنه يريد بشكل أكبر الاحتجاج على الإقطاعية التي أنهكته : الإسلاموية هي حركة احتجاج في كل مكان، غالبا ما يسمح بها الطاغية، وهي ليست الحل مطلقا· إذا لم يوجد حل إسلامي ولا حتى مشروع ضد الفقر، فيوجد اتجاه ليبرالي قد برهن على جودته، ضمن بلاد إسلامية متنوعة أيضا؛ هذا الاتجاه الليبرالي لا يّدعي كونه أخلاقيا ؛ هو اتجاه فعّال فقط · ثم يعود الأمر للشعوب المعنية، في إطار نقاش نأمل أن يكون ديموقراطيا، وبالنسبة لتوزيع ثمار التنمية ؛ فليس ممنوعا أن يكون هذا التوزيع توزيعا عادلا

البرهان العكسي الماليزي

في الجهة المعاكسة جغرافيا وثقافيا للمغرب، تقع ماليزيا التي تقدم كضد -مثال لتوضيح فرضياتنا· لا أحد يعترض على كون ماليزيا بلداً متطوراً أو متطوراً نسبيا حتى في حين - تفسد· في وقت استقلالها في 1957، كانت في فقر شديد، مشابه لفقر المغرب في نفس الحقبة· في خمسين عاما، وصلت ماليزيا إلى قمة الاقتصادالبارز ؛ حالتها مشابهة لحالة كوريا الجنوبية وتايوان ؛ ولكن، بفارق عن تلك الشعوب الكونفوشيوسية كونها مسلمة أو غالبيتها مسلمة· زد عل ذلك كونها مأخوذة عند النخبة كمثل حي لمصالحة الإسلام والحداثة الاقتصادية فضلا عن ذلك، أنها تتمتع بدرجة معينة من الديمقراطية النيابية التمثيلية 0هل تبرهن ماليزيا بأن لا شيء في الإسلام يعارض التطور الاقتصادي، وأبعد من ذلك، حسب بعض المعلقين، من بينهم نحن، بأن الإسلام يستطيع أن يساهم في التطور؟

إذا بحثنا في التجربة الماليزية عن قرب، فسنلاحظ أنها تبرهن على أن الفشل الاقتصادي للعالم العربي -المغرب وغيرها - سببه الإقطاعية في تلك المجتمعات، وبأخطائها الاقتصادية أكثر من الاعتبارات الدينية· ومسؤولية الإسلام بحد ذاته هي أقل من مسؤولية الإقطاعية بتسبب فقر المسلمين ؛ هؤلاء ليسوا ضحية إيمانهم، بل ضحية ثقل الاستبداد الذي يرزحون تحته

إذا حاولنا أن نحدد مقومات التنمية الماليزية، سنتذكر أن المصادر الطبيعية -غاز وبترول - قد ساهمت بهذا الانطلاق الاقتصادي، ولكنها فيما بعد، لم تلعب دورا حاسما· بالإضافة، على أن هذه المصادر لا تمثل أكثر من 01% من الثروة الوطنية ؛ إذن لا نستطيع أن نبوب ماليزيا في اقتصاد الإيراد من النوع السعودي· التطور الحقيقي للبلاد هو نتيجة تصنيع مشابه للطريق الذي تبعه اليابان، وتيوان وكورية الجنوبية حديثا· النتائج السعيدة هي تشكيل المؤسسات تلك الطبقة الوسطى الصلبة أو المتينة التي تنقص العالم العربي بشدة ولمحي البؤس

نرجع بشكل طوعي هذا النجاح لوجود جالية صينية جسورة كانت في الواقع ولا تزال المحرك لتلك التجربة الماليزية· بدون صينيين، هل كان بإمكان الاقتصاد الإسلامي أن ينطلق؟ نتساءل· ولكن إذا لعب الصينيون واستمروا بلعب دور اقتصادي حاسم، هذا لأن الحكومة الماليزية والمسلمة الاثنين يمتزجان هنا : فكل ماليزي يعتبر مسلماً· ذكاء الحكومة منعهم من الهرب· كما أنه يوجد أيضا في بعض البلاد العربية وبعض البلاد المسلمة في أفريقيا مثل السنغال (صينيين-هم) أو ما يعادلهم اقتصاديا : أرمنيين، يونان، مارونيين، يهود، ايطاليين، الخ· ولكن العالم العربي تخلص منهم· الجهد المتميز والخارق للعادة للمغرب لتشجيع عودة جاليتها اليهودية هوجهد صالح للمديح، ولكن لا يستطيع أن يعوض نزوحهم الأول· الماليزيون في ماليزيا كانوا مائلين لطرد الصينيين في اليوم التالي للاستقلال ؛ مرحلة عنيفة في 1969 كان بإمكانها أن تؤدي بهم لتلك النتيجة· لكن الحكومة الماليزية عرفت أن تجد الحل الوسط بترك الحق للصينيين بالثراء رفع وضع الماليزي المسلم بنفس الوقت وذلك باتباع سياسة (العنصرية الإيجابية) في التعليم والإدارة الحكومية: يوجد كوتا أو حصص نسبية، محفوظة للماليزيين المسلمين، واسمهم (ابن الارض) fils du sol، للدخول إلى الجامعة والعمل العام0مهما يكن حجم الاعتراض على هذه التمييز

العنصري ضد الصينيين، فهو ليس بأقل من ضمانة للاستقرار الاجتماعي في ماليزيا ورفع مستوى التأهيل للمسلمين· ما قاد البلاد ليس فقط على اللحاق بصف الإدارة، ولكن، أكثر وأكثر، بالحياة الاقتصادية، صناعية ومدنية· لقد نجا الاقتصاد من الخطف الايديولوجي للعالم العربي الذي يمارسه، بشكل دوري، وبكل الوسائل والطرق - الاشتراكية، ثم رفع التأميم أي عملية (التخصيص) أو الخوصصة- ولكن لم يحاولوا أبدا أن يخطفوهم بواسطة دولة -القانون· لقد عرف الماليزيون، الذين ورثوا وقت استقلالهم دولة -القانون هذه التي شيدها البريطانيون، أن لا يرموها ؛ ثم نظروا باتجاه اليابان، وليس باتجاه الاتحاد السوفيتي· لقد فهم الماليزيون كما اليابانيون بأن المصادر الداخلية والسوق المحلية تجبرهم على البحث عن الثروة في السوق العالمية، وهذا ما فعلوه وبشكل خاص في مجال الالكترونيات· لا شيء منع العالم العربي أن يتصرف مثلهم : الوِرثة الاستعمارية الفرنسية للمغرب، لا تحدد دولاً نية الاقتصاد المغربي، ولا انطواءه، ولا إقصاء النخبة الاقتصادية

الاستعمال الاقتصادي في الإسلام

نحتفظ أيضا من التجربة الماليزية الاستعمال الجيد للإسلام كعامل اقتصادي. شجع الإسلام من قبل الحكومة لغاية توحيد الماليزيين من مختلف الأصول العرقية وجمعهم في شعب واحد. أبعد من هذه الوسائلية السياسية، لقد أسس الإسلام أخلاقا للعمل نستطيع وصفها بالبروتستانتينية، أو بما يعادلها أسيوية البروتستانتية0

الشعب الماليزي في البدء، شعب قراصنة وفلاحين، لم يتمتع الماليزي أبدا بالصرامة التي يتطلبها المجتمع الصناعي ؛ ولكن الإسلام الصارم المنتشر بواسطة التعليم، من المستوى الابتدائي حتى الجامعي، زود الأمة بإطار أخلاقي ووطني كان ينقصه فيما مضى. لم يجبر الماليزيون أن يؤمنوا، ولكن ليتصرفوا وكأنهم مؤمنون ويحترمون الإسلام، وأقل الإيمان هو أن يكبحوا من استهلاكهم للكحول. ونفس الشيء يطبق على تعميم الحجاب الإسلامي. تقليد لم يكن الحجاب معروفاً عند الماليزيين في السابق، قد منح الفتيات وطالبي الزواج منهن، الشعور بأن عليهم الالتزام بحد أدنى للنظام، النظام الذي سيستقر بواسطته المجتمع ومن هذه الواقعة سيساهم في تحسين إنتاجه

بإمكان الإسلام أن يصبح عنصرا لدراسة السوق، هذا ما تبينه شعبية البنوك وشركات الضمان المسماة (إسلامية). في كل مكان آخر في العالم الإسلامي، من السودان إلى الباكستان ومصر، قد فشلت أو آوت هذه المؤسسات المالية اختلاسات في مصروف الورعين. ولكن لم يحصل ذلك في ماليزيا، حيث البنوك وشركات الضمان الإسلامية هي فاعلة كمنافستها غيرالمسلمة

ما هي المؤسسة المالية الإسلامية بالفعل؟ إنها ترسخ على مبدأين من القرآن : الدين بالفائدة ممنوع فيها ؛ يجب أن تتحاشى الاستثمارات الفعاليات المحرمة في القرآن، مثل القمار والكحول 0لهذا ترفض البنوك الإسلامية في ماليزيا الاستثمار في شركة الطيران الماليزية لأنها تقدم الكحول لركابها على متن طائراتها. كما أنه مطالب من البنوك وشركات التأمين الإسلامية أن تكون تحت مراقبة مجلس دكاترة القانون، العلماء الذين يسهرون كراصدين جيدين لتجنب الممنوعات في مواجهة مستمرة لمواد نقدية جديدة لم تكن موجودة في عهد النبي، فيحكمون عليها حسب الصفات الإسلامية المتطلبة. وبما أننا في ماليزيا حيث العلماء أكثر تأقلما من إخوانهم في العالم العربي، فمفهوم الاستثمار الإسلامي متداول هنا بمرونة ؛ ومعتبر كمفهوم إسلامي ليس لأنه مذكور في القرآن، بل لأن كل ماهو غير ممنوع بوضوح، محلل. كل ما هو منسجم مع الشريعة، يصرح وزير الشؤون الدينية، هو إسلامي بما فيه الكفاية لنا. هذا المفهوم، المعبر عنه بالانكليزية، للشريعة الموافقة، المنتشرة فقط في ماليزيا، تساهم في إسلام منفتح. ولكنه إسلام أصلي كالإسلام المغلق.

ولأي سبب لا يكون أصليا، ومن يجرؤ على أن يدعيه؟

إذا كانت نتائج تلك المؤسسات الإسلامية ممتازة، فبالتأكيد لأنه، بالتقوى، الزبائن مغرون لتوظيف ادخارهم فيها؛ بينما ثلث الزبائن فقط من يتبعون حوافز دينية : الآخرون يختارون الحصيلة والمقارنة وهما غالبا لمصلحة المؤسسات الإسلامية. يدير هذه المؤسسات مسلمون مثقفون وصارمون ويتحاشون المغامرات التي فيها المضاربة كبيرة. هؤلاء المديرون هم غالبا خريجو

الجامعات الإسلامية في ماليزيا، حيث يتعلمون الديانة الإسلامية والادارة على الطريقة الأميركية معا في آن واحد: في اللغة العربية للديانة الإسلامية، وبالإنكليزية للأعمال. إضافة إلى إشراف العلماء، الفعالية المالية هي أيضا مضمونة بسبب المنافسة ؛ للماليزيين الخيار بين بنك وشركة ضمان إسلامية أم لا. أحيانا، في مؤسسة بنك، ضمنها البنوك الغربية، بإمكان الزبون الخيار بين كوتين واحدة إسلامية وأخرى غير إسلامية

إذا كانت المنافسة هي ضمان الفعالية العالمي، فالإسلام أيضا يستطيع أن يظهر كوسيلة لدراسة السوق أصلية أو مبتكرة؛ لنتحدث هنا عن دفتر الادخار- للحج

على كل مسلم جيد أن يحج ولو مرة واحدة في حياته. ولكون الحج يكلف غاليا، تقترح البنوك الإسلامية للمؤمنين رصيد ادخار، لديهم الحياة كلها لتسديده. هذا النوع من الادخار بدون فائدة، لأن الفائدة محرّمة ولكن الربح موزّع بين البنك والزبون. وعندما يرغب الزبون ان يحجّ، يرد له البنك رأس ماله المتراكم الذي يضاف إليه قسمة الربح المشترك ؛ التي تنشأ هي نفسها عن توظيف المال الإسلامي.

يتوافد المفوضون إلى كوالا لامبور، آتين من السودان، من مصر أو من بنغلادش، لكي يحاولوا فهم هذه المصالحة بين الإسلام والحداثة 0يعتبر الحكام الماليزيون أنفسهم، وهذا لا يخلو من الغرور، كمؤسسين للحداثة الإسلامي. وإنهم لكذلك وأكثر من العرب، ومن الباكستانيين، أومن البنغاليين، حتما إذ إن جميعهم مصابون بعطل التطور. إلا أنهم متأخرون أكثر من الاندونسيين الذين هم في تطور، ولكنهم غالبا ما اعتبروا استثناء الإسلام. هذا المثال الماليزية لا يمكن بالطبع إنتاجه كالاصلي في البلاد العربية. يلزمه مستوطن انكليزي، متعهدون صينييون، مستثمرون يابانييون ؛ ولكن المبادئ التي باستطاعة العالم الإسلامي أن يستخلصها هي مبادئ عالمية. بشرط أن يعّبر عنها بوضوح. تسمى احترام الأقلية، دولة- القانون، تخفيض الفساد والرشوة، استمرارية سياسية، الحد الادنى من الديمقراطية اقتصاد مفتوح للعالم، منافسة. تلك المتلبات، كلها متطلبات عالمية قد برهنت عن فعاليتها وملاءمتها مع القرآن. ولكن من يريد سماعهم في العالم الإسلامي، أوحتى خارجه؟

(1) عن هذا الموضوع اقرأ LE CAPITAL, SUIT ET FINS FAYARD 1 9 9 4

الفصل الخامس

في بلاد ابن لادن

في طرقات مدينة الدرعية يمكن للمتنزه أن يتخيل كيف كانت السعودية منذ بداية الحقبة الإسلامية وحتى فترة ما قبل الازدهار البترول. لقد كانت عالما محصورا، ومحاطا بأسوار تحميه من القبائل المعادية، إلى جانب رقابة اجتماعية صارمة. ومنازل واسعة تسكنها عائلات كثيرة العدد . وحيث كل شيء بلون التربة التي تشكل المادة الوحيدة للبناء، وهي تربة باهتة مثل الصحراء. فيما مضى كانت الدرعية على مسيرة يوم فوق ظهر جمل، أما اليوم، فإن نصف ساعة تكفي للوصول إليها من الرياض. وكانت الجيوش العثمانية لمحمد علي قد هدمت الدرعية عام 1818 فعاش آخر سكانها على أطلال بيوتهم حتى عام 1940، كي تغدو بعد ذلك مهجورة. إن مناخ نجد في وسط شبه الجزيرة هو مناخ جاف، ومع هذا قاومت الأسوار الترابية الزمن. إن هذه المدينة الميتة هي المهد التاريخي لعائلة آل سعود الحاكمة والتي كانت قد دخلت تاريخ العالم عام 1744 عندما استقبلت ابن عبد الوهاب المصلح التطهيري للإسلام الحديث.

يمتزج تاريخ الإسلام مع تاريخ المدن. لكن الخيال العربي يخلط على خطأ، الدعوات التوحيدية مع الصحراء، هذا مع أنها ظاهرة مدنية. ومكة والمدينة تديران ظهرهما للحياة البربرية، وإذا كان الله قد اختار محمدا خاتم الأنبياء، فإنه قد اصطفاه من بين جموع من البشر وليس بين واحتين. إذ لو لم يكن مدنيا(حضريا) وقارئا عارفا بالإنجيل، وعلى علاقة حميمة مع مسيحيّ مكة، هل كان له أن يؤسس الإسلام.؟

إن اتحاد عقيدة التوحيد والنزعة الإنسانية والعدالة التي تشكل أسس القرآن إنما قد قامت في بيئة مثقفة بعيدة عن البداوة وعن الرحّل الذين لم يكن محمد يبدي لهم احتراما كبيرا: ففي المدن أشهر رسالته وأراد دائما أن يصل إلى مكة انطلاقا من المدينة، فالإسلام لا يفصل الرسالة الإلهية عن العمل الإسلامي : في الإسلام، لا يكتفي الله بتنزيل الوحي على محمد لكنه ينتظر منه أيضا أن يفرض رسالته. إنها ملحمة إلهية بالنسبة للمؤمنين، ولكن يمكن تفسيرها في إطار تاريخي، وذلك كحرب أهل المدن ضد قبائل الرحّل، والتي أرغمها محمد على الاستقرار والحياة الحضرية والتخلي عن عاداتها الجاهلية وذلك بقصد الحد من إخلالها بالأمن.

لقد تغيّر في السعودية حجم المدن (عدد سكان الرياض حوالي أربعة ملايين نسمة، وجدّة حوالي ثلاثة ملايين). ولكن طبيعتها لم تتغير. إذ وكما في زمن محمد، لا يزال العرب تجّارا حتى لو لم يبيعوا شيئا سوى البترول بينما يستوردون كل ما عداه. فلقد غدت الأسواق في الزمن الحديث بمثابة مراكز تجارية موصول فيما بينها بطرق عريضة على الطرق الكاليفورنية: وفي المراكز التجارية malls في الرياض كما في جدة يجد المرء كل شيء بما في ذلك المخدرات والمغامرات.

سمعة سيئة

إن المبشر عبد الوهاب، المصمم على تطهير الإسلام، هو من نوع مارتن لوثر، مسلم غاضب ضد الممارسات الصوفية والسحر. وكانت المقارنة مع المصلح الألماني قد جرت أثناء حياته من قبل دبلوماسيين أوروبيين كانوا قد أقاموا في السعودية. إنه، وباسم العودة إلى المصدر، يطالب بإعادة النظر في الطقوس والشعائر، وخاصة طقوس الموت، بل وحتى وجود القبور. حتى كاد أتباعه أن يهدموا ضريح محمد في المدينة عام 1808، لقد عارضه السكان المحليون، مثلما هم يقاومون اليوم مطالب الإسلامويين. وقد انتقد عبد الوهاب الصوفيين كما وصفهم بأنهم مشعوذون، قد تأثروا بالمسيحيين، ثم انتقد علماء الدين المحافظين متهما إياهم بالتراخي : إن الوهابية وعبر مطالبتها بالالتزام الحرفي بالنصوص، ولكن أيضا بالحرية الكبيرة للمؤمن في علاقته المباشرة بالقرآن، إنما هي حركة رجعية وحداثية في آن واحد. ومن هنا تكمن مقاربتها مع البروتستانتية التي تصر على التمسك بالنص بينما تتحرر من رجال الدين .

يطالب عبد الوهاب أتباعه بالتمسك الصارم بالقرآن. ولكن ماذا يقول القرآن إلا ما يجعلونه، يقول ؟ إن سلطة قوية فقط، هي التي تستطيع أن تفرض أفكاره وأقواله، وهذا ما دفعه للتحالف مع آل سعود. وكان جاك بنوا- ميشان قد لخص ذلك في كتابه عن سيرة حياة ابن سعود بالقول: ((كان المحارب يبحث عن عقيدة وكان المبشر يبحث عن سيف)) ؛ ما قابله في العالم المسيحي تحالف العرش مع المذبح؛ إن هذا الميثاق السياسي والديني التعاقدي لا يزال ساري المفعول حتى الآن، وهو يسمح لآل سعود باستخدام القبائل المتنافسة باسم الجهاد الذي دعا إليه عبد الوهاب؟. وهنا أيضا يمكن التفكير بلوثر عندما تحالف مع الأمراء الالمانيين. لقد استولى السعوديون على مكة في عام 1803، ثم على المدينة وبعدها على حلب عام 1808 ؛ وفي عام 1811، أرسل نابليون مبعوثا إلى الملك سعود واقترح عليه التحالف. وكادت تلك المحاولة الأولى من نوعها لتوحيد الجزيرة العربية أن تنجح. لكن العثمانيين الذين أثار صعود الوهابية قلقهم، وضعوا حدا لها عام، 1818 وهدّموا الدرعية. لكن المحاولة الثانية المدعومة من بريطانية أدت عام 1832، إلى إعلان قيام المملكة العربية السعودية. وفيما بعد، أعطى البترول باعتباره صدفة جيولوجية ومنّة إلهية، لذلك العقد بين السيف والمصحف، ومهما كان متواضعا في البداية، بعدا عالميا. وذلك لأن الوهابية السعودية لها تأثيرها على العالم الغربي كما على العالم الإسلامي. فليس هناك سوى القليل من المساجد في هذا العالم أو ذاك، وقليل من المدارس القرآنية التي لم يتم تمويلها من قبل الدولة السعودية أو من قبل عائلات سعودية: ولنتذكّر بأن أسرة ابن لادن هي سعودية.

وبالرغم من سيل الهبات، فإن التحالف بين السلطة الملكية والوهابية لا يحظى بسمعة طيبة في العالم الإسلامي أو لدى الغربيين. والكثير من المسلمين ينتفضون ضد النزعة الطهورية الوهابية التي تحتقر العادات المحلية وخاصة طقوس الأولياء. وفي الغرب حيث لا نلتقي سوى بأمراء سعوديين يتم تقديمهم على أنهم ماجنون قليلا، فيبدو، وكأنهم قد أساءوا استخدام أموال النفط، كما تبدو الوهابية منافقة. وإذا تمّ النظر إلى السعودية من الداخل، حيث تسود تناقضات كثيرة اجتماعية، وسياسية، ودينية، فتظهر في وضع أقل تبسيطا مما تبدو عليه الصورة من الخارج.

هناك خصوصية تجب الإشارة لها أولا بأول، وهي أن هذه البلاد هي قليلة الميل نحو سفك الدماء، الأمر الذي يشكل استثناء مشهوداً في العالم العربي، حيث السجون مأهولة أكثر من الجامعات. هناك من يعترض على قطع الرأس بالسيف، أو قطع يد السارق. ولكن أليس ما يصدمنا بالأحرى هو، القيام بعمليات الإعدام النادرة علنا أمام الجمهور ؟ إننا لا نحضر الإعدامات الجماعية في سوريا والعراق ولا عمليات الشنق الكبيرة في مصر. إن الشريعة السعودية قاسية ولكنها ليست ظالمة دائما. علما أنه لا يوجد في شبه الجزيرة العربية سوى عدد قليل من سجناء الرأي، وهذا لا يجعل منها ((مجتمعا مفتوحا)) وتعدديا- وخاصة بالنسبة لوضع النساء- ولكن أي سعودي من الجنسين يستطيع التنقل والتعبير بحرية أكبر من أي سوري أو عراقي ومن عدد كبير من المصريين. كما يحظى كل سعودي بقدر كبير من الأمن الفردي والجماعي، مما هو لدى جيرانه وهو أكثر ازدهارا أيضا، وهذا يعود بالتأكيد إلى صدفة النفط، ولكن أيضا، بفضل إعادة توزيع ريعه من قبل الدولة. وهذه الدولة ليست هي الأكثر فاعلية والأكثر فسادا، والأكثر قسوة في العالم العربي، إنها بعيدة جدا عن ذلك.

بدوي ومصاب بالفصام

الضيافة العربية ليست كلمة جوفاء· ولكن كيف يمكن تنظيم عشاء بدوي في الوقت الذي لم يعد فيه بدو، وجمال، وخيم، وقصور من الطوب، وحيث أصبحت أنوار المدينة اللامعة تحجب رؤية النجوم؟

لقد تجاوز حليم المؤمن كل هذه العقبات، عبر تنظيم قافلة من السيّارات التي تقود الضيوف على بعد 05 كيلو متر من الرياض، أي بعيدا عن المدينة حيث يمكن تأمل السماء· وبما أنه ممثل إحدى الشركات لصناعة السيارات اليابانية في السعودية - حليم المؤمن، هو الوكيل أو المسخّر السعودي، في الواقع لا يمكن لأي اجنبي أن يعمل في البلاد بدون أن يكون له وكيل سعودي - فإن الشركة قد وضعت تحت تصرفه ما يريده من السيارات المكيفة، السيارات يابانية، أمّا سائقوها فقد تّم ((استيرادهم)) من بنغلاديش· وكان المؤمن قد نصب الخيام بواسطة عمال من سيرلانكا، عانوا من الإنهاك الشديد مدة أيام، ذلك أن الحرارة في ذاك الصيف قد استمرت على 54 درجة· لكن الضيوف لم يعانوا من مثل هذه القيظ الشديد، والذي بالكاد أن يهبط ليلا· لعدم هبوب نسمات ريح ملطّفة· ولأن المنظّم كان قد أقام بالقرب منا بخاخات لبخار الماء، لنشر الرطوبة، بات الليل لطيفا، ولم يعد ينقص، سوى النساء اللواتي جرى استثناءهن من هذه المتع ·

إن الكحول والموسيقى، من الممنوعات أيضا من قبل الوهابية· وكان أصحابي يرددون لحنا قديما لأم كلثوم ويشربون كي ينسوا بأنهم قد ارتكبوا بذلك خطيئة: هذه الدعابة لهم !· وكاد الحديث يصبح أكثر خطورة، عند التعرض لسياسة المملكة · فقد وافق الجميع على أنه ينبغي تغييرها · فالسعودية تميل نحو الإفقار، ودخل البترول في تضاؤل، وسوف تنقطع موارده في النهاية، والطبقات الوسطى التي تشكل الأغلبية في المملكة، غاضبة، والإسلامويون غدوا أكثر راديكالية· فكيف يمكن إذن، كما يتساءلون، منع بروز ابن لادن جديد ؟· والجامعات تعج بالطلبة المتكاسلين الذين يخلطون ضجرهم بتعاطي المخدرات، ومشاهدة أفلام الجنس، والقيام بمغامرات مع نساء أجنبيات أو عيش أحلام ثورية· ولاشك بأن وجود 51 سعودياً من أصل 91 الذين قاموا بتفجيرات 11 سبتمبر في نيويورك، أمر يثير قلق المدعوين ·

إن مثل هذه الحرية في التعبير تثير الدهشة عندما نجهل كل شيء عن السعودية· لا شك بأن النقاش حديث العهد، وهو نتيجة لعملية 11 سبتمبر التي فكّت عقدة الألسنة· وهو نقاش داخلي أكثر مما هو نقاش عام في الساحة السياسية، ولكن من المسموح للكثيرين، إذا لم يكن للجميع إظهار اختلاف آرائهم وحتى تعارضاتهم دون خشية أن يمسّ ذلك حريتهم·

وفي وسط الليل، تمّ تقديم الخرفان كاملة على أطباق كبيرة، مع الرز والسمن والتوابل ·

وقبل أن يفرقنا الفجر، تحلقت مجموعة على طرف، ومعلّم ما، يدعو لترديد اسم الله بصوت خافت، وبما يشبهه الثمالة· إن هؤلاء سينهون ليلتهم في حالة نشوة، إنهم الصوفيون، الفئة الممنوعة· لقد سمعتهم، لكن معلّم الجماعة هو رئيس شركة هامة أصله من مكة، الأمر الذي يعطيه إحساسا بالتفوق قياسا مع ((وهابيي الصحراء)) أو ((أبناء المحافظات)) كما يقول، لا شك بأن الوهابية تشكل ايديولوجية وطنية للملكة ؛ والشرطة الدينية تسهر على تطبيق مستلزماتها مثل إغلاق

المخازن وقت الصلوات الخمس يوميا، واحترام اللباس الإسلامي من قبل النساء، ومنع خروجهن علنا إلا مع أخ أو زوج. لكن السعودية هي إقطاعية أيضا، والنظام الملكي لا يفرض قواعده على التجار الذي هو بحاجة لهم، ولا على حوالي 6 0 0 أمير وأميرة الذين تتكون منهم الأسرة المالكة. إن الوهابية التي تقوم السعودية بتصديرها إلى الخارج، هي مشوبة بالاعتدال داخليا، وتختلف حسب المناطق والطبقات الاجتماعية : وبقدر ما نبتعد عن العاصمة الرياض يقلّ احترام الممنوعات. وفي جدة على شاطئ البحر الأحمر، يتقارب الجو (الاجتماعي) مع القاهرة. وفي الدمّام وعلى الجهة الأخرى، نحسّ بالاقتراب أكثر من مجتمعات الخليج المفتوحة مما هو إلى الرياض: وعندما يتم تجاوز الجسر الذي يؤدي إلى البحرين، فإن نوعا من الفجور هو الذي يسود، وليس الإسلام.

الله أكبر، ولكن السعودية شاسعة ومتنوعة، فهل تكون مصابة أيضا بحالة فصام؟. هذا هو رأي الروائي السعودي الذي يكتب بالفرنسية، أحمد أبو دهمان، الذي اختار الهرب إلى اوروبا، لأنه لم يكن يحتمل الحياة السعودية المزدوجة، الصارمة إسلاميا في الظاهر، لكنها غير ذلك في الواقع. وحيث يتم تطبيق النزعة الأبوية - البطريركية - في داخل السعودية، والمجون على (الكوت دازور) في فرنسا، وأن يكون المرء زاهدا في العلن وكحوليا في حياته الخاصة. وفي السعودية كما يقول ((لا يتطابق الخطاب أبدا مع الواقع في أية لحظة، فمن يستطيع أن يعيش دون ألم، في ظل مثل هذه التناقضات؟))

إنه ربما من الصعب أكثر، مما نتصور أن يكون المرء سعوديا من وجهة نظر أوروبية؟. لكن كيف تعيش النساء، هذا النصف غير المرئي من قبلنا ؟ من المناسب ان نطلب منهن ذلك، الأمر الذي لا يحظره القرآن.

المنزوية

لقد اعترفت لي بدرية التي التقيتها في الرياض بأن صديقها الوحيد هو هاتفها الذي أخذ شكل ((ميكي)): والذي اشترته من أحد المخازن الكبرى. وأضافت، أنه عندما تنام طفلتها التي بلغت للتو عاما، وتغادر المربية الفلبينية المنزل للقيام بمشتريات الأسرة، تبدأ بتوليف أي رقم هاتفي بمحض الصدفة، فإذا كان المتحدث على الطرف الآخر رجلا تقطع المكالمة فورا، وهي خجلة من جرأتها. وإذا أجابت امرأة وبدا من خلال صوتها أنها في سن مقاربة لسنها تبدأ الحديث. وقد يحدث وتصادف امرأة أخرى تمارس نفس اللعبة. ويبدأ حوار طويل يتم التطرق فيه للأزواج الخائنين وللأطفال، وأهل الزوج، وإغراء الطلاق: إن نسبة 04% من الزيجات في السعودية تنتهي إلى الانفصال. وهكذا يتم نسج شبكة في المدينة دون دراية الرجال، بين هؤلاء السعوديات اللواتي يتقاسمن نفس المصير المشترك ألا وهو الضجر.! إن أغلبية هؤلاء النسوة اللواتي لا يتقابلن سوى في أحاديثهن السرية، يعشن حالة من الحنين إلى حريتهن الضائعة؛ حرية أيام الطفولة والدراسة: ومثل أغلبية السعوديات درست بدرية في الجامعة الإسلامية النسائية وخرجت منها بعمر 22 سنة وهي تحمل شهادة قيمّة ضئيلة في ميدان علم الاجتماع، السوسيلوجيا، ولم تخدمها هذه الشهادة في شيء ذلك أنه ممنوع على النساء العمل خارج التدريس ووسائل الإعلام والمهن الطبية.

وعندما لا تلجأ بدرية إلى الهاتف ((تتنقل)) من قناة تلفزيونية إلى أخرى مع تفضيلها الواضح للمسلسلات الأمريكية ! وغالبا تتوقف عند قناة الجزيرة القطرية لا سيما عندما تقدم هذه الصور عن الاعتداءات الاسرائيلية ضد الأشقاء الفلسطينيين. إن هذه الصور تثير كرهها لليهود، وأكثر أيضا للولايات المتحدة التي تعتبرها بمثابة المذنب الحقيقي. وقد بدأت مع بعض المتواطئات معها في الهاتف مجملة لمقاطعة المنتوجات الامريكية، وقد أعطت تعليماتها للخادمة الفلبينية بهذا الشأن، ولكن بسبب عدم تمكن الخادمة من قراءة ما هو مكتوب، فإن جهلها يحد من المقاومة المناهضة للامبريالية.

إن بدرية تخرج قليلا من منزلها، وإن خرجت فإلى أين تذهب ؟ العاصمة كبيرة ولا توجد وسائل نقل عام، وحيث يختلط الجنسان أيضا ؛ وليس هناك سينما أو مقاهي. وأمكنة التسلية الوحيدة هي المراكز التجارية حيث بعضها مختلط، وأما البعض الآخر فلا. و هذه المراكز المختلطة لا يمكن لبدرية أن تذهب إليها إلا برفقة زوجها. إذ لا يحق لها أن تقود السيارة. وهذا المنع لا يزعج نساء أخريات، لديهن سائق باكستاني. لكن بدرية وزوجها إبراهيم الذي أجبرت على الزواج منه، عندما كان عمرها 61 سنة، ينتميان إلى الطبقة الوسطى السعودية الكبيرة. وليس لديهما إمكانية دفع إيجار سائق. كما أنهما قد اشتريا سيارتهما بواسطة قرض.

إن منع النساء من قيادة السيارة يثير الحيرة، إذ هذا المنع غير موجود في أي بلد إسلامي آخر، ولا حتى في إيران. لكونه لا يعتمد على أي أساس ديني، وإنما هو في الواقع، ذو طبيعة سياسية : إنه رمز للتحالف بين النظام الملكي ورجال الدين وزعماء القبائل. ويعني هذا العقد الاجتماعي بأنه ينبغي على النساء أن يبقين في بيوتهن، فمهنتهن هي الإنجاب : وللسعوديات خمسة أطفال كمعدل لكل واحدة، أي أعلى نسبة في العالم بالنسبة لبلد غني ومتعلم. وينتقد السعوديون بشدة منع النساء

من القيادة في مجالسهن الخاصة· لأنه باهظ الكلفة· من أجل تعويض هذا الخلل، استوردت المملكة ستمائة ألف سائق هندي أو فلبيني يقع عبؤهم على ميزانية العائلات· وبسبب القيمة الرمزية لهذا الموضوع، فلم يتم التعرض له أبدا في النقاشات العامة، كما لم تتجرأ أية صحيفة على تكريس منبر له· وإننا نراهن بأن هذا المنع سوف ينتهي ذات يوم وحده، بضغط الضرورة وليس إثر نقاشات ثيولوجية ·

وكما هو الأمر بالنسبة لأغلبية السعوديين، فإن مدخول بدرية وإبراهيم يتدنى باضطراد ؛ تعاني المملكة التي لا تملك ثروة أخرى غير البترول، والتي تنفق كثيراً، وأصبحت الأسرة السعودية تلجأ إلى الاقتراض· وفي أيران أيضا، توجب على رجال الدين التراجع حيال حقوق النساء، لانه بدون نشاطهن فإن الجمهورية الإسلامية تسير نحو الخراب· إن إبراهيم يبحث عن عمل ثان، لكن اعتزازه بنفسه يمنعه من قبول عمل يدوي أو صغير، يمارسه المهاجرون عادة·

عندما اكتشفت بدرية بأن زوجها غالبا ما يعود من((مكتبه)) متأخرا، مشربا برائحة عطر نسائي، من النوع الذي تستخدمه عادة الأجنبيات وليس السعوديات، فلم تتفوه بكلمة حيال ذلك، خوفا من أن يهجرها أو حتى أن تدفع بإبراهيم إلى الزواج ثانية· ففكرت، بأنه بواسطة مهر زواجها، القيام بعملية تجميل لأنفها، فلعل هذا التجديد يثير رغبة إبراهيم مجددا بها ؟ (وقد طلبت بدرية، الورعة إذن رجل الدين، والذي طمأنها على أن القرآن لا يحرّم ذلك· فدفعت مائة ريال سعودي مقابل هذه الاستشارة القانونية الإسلامية)·

الاميرة

ريم هي أميرة أنيقة، ومصورة للموضة· تسافر باستمرار بين جدة، حيث تقيم، ولندن، ونيويورك· لكنها منذ 11 سبتمبر، تتجنب قليلا الولايات المتحدة، حيث ترى بأن موظفيّ الهجرة يبالغون في شكوكهم، بل وإنهم عدوانيون حيالها· تقول وهي تتذكر ضاحكة، بأنها عندما كانت طالبة في باريس، خلال سنوات الثمانينات، اقترحن عليها صديقاتها، طلب اللجوء السياسي، لقد كن يعتقدن بأن شابة سعودية، لا يمكن إلا وأن تكون عبدة، وتحلم بالهرب من بلادها"! لم تفهم ريم الأحكام المسبقة للغربيين أثناء تلك الفترة، والتي لاتقبلها اليوم أيضا : إنها فرحة لكونها سعودية وفخورة لكونها مسلمة ·

هل هناك اضطهاد للنساء ·؟ إنها ترى، بأن الفقر في جميع أنحاء العالم هو مصدر الاضطهاد، وليس الإسلام· وسيطرة الرجال· ؟ ترى، أنهم يظهرون بأنهم أسياد المجتمع خارج بيوتهم ؛ لكن المرأة هي التي تسيطر في الداخل· والغربيون الذين لا يعرفون سوى الخارج، يصدرون أحكامهم المسبقة على السعودية· لكونهم لا يفهمون هذا التمايز بين الداخل النسائي، والخارج الذكوري· المرأة لا تقود سيارة ؟· حسنا، ولكن لديها سائق وإخوة وزوج يقومون بالمهمة· وماذا عن العباءة السوداء التي تلف النساء من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين في الخارج ؟ تجيب ريم : لا شيء يمنع من تزيين هذا اللباس بالتخاريم والجواهر· ريم تشعر بأنها أكثر حرية بعباءتها، بعيدا عن نزوات الآخرين: ثم إنها في بيتها وبيوت صديقاتها ترتدي الألبسة ذات الألوان الزاهية والشفافة قليلا· وماذا عن اضطهاد علماء الدين ؟ إن رجال الدين السعوديين الذين تعتبرهم جهلة، قد استغلوا سذاجة الشعب وفرضوا إسلاما ناقصا· ولكن بمقدار ما يتعمّق الشعب بفهم دينه، يتقلص نفوذ رجال الدين· ولذلك تؤيد ريم أن يتم تخصيص ثلث الوقت في المدارس السعودية للتعليم الديني· والإسلام لا يؤمن مبدئيا بوجود طبقة رجال دين ؛ فالمسلم المتعلم ليس بحاجة لفقيه· وكان عبد الوهاب قد ذكّر بذلك في زمنه ·

وقد لاحظت ريم بأن الشرطة الدينية التي تسهر على ارتداء الحجاب وإغلاق المتاجر أوقات الصلوات، تميل إلى أن يكون نشاطها أكثر تحفظا، وعندما يعرف العرب بشكل أفضل حقوقهم

وواجباتهم تصبح هذه الشرطة بدون فائدة ·

وإذا كان يتم النظر دائما للسعوديات على إنهن قاصرات، فينبغي العمل على تطوير القوانين والقضاء كما ترى ريم، وذلك بتفسير الشريعة بطريقة أكثر ملاءمة للنساء·

والطلاق ؟ لقد أخذت ريم ميثاقا عندما تزوجت، بأن تحصل من زوجها على عقد تشترط فيه أن يضع في حسابها، مبلغا كبيرا يصبح لها إذا تركها : وهذا نوع من ((التأمين)) يشيع في جميع الأوساط ·

ما هي النقاط المشتركة بين ريم وبدرية؟· كما تقولان، إنهما ورعتان· إنها مسألة إيمان لدى بدرية، بينما تضيف ريم الأكثر اقترابا من الغرب، مفهوم الهوية؛ فالإسلام المنقّى لدى السعوديين يبدو لها

أرقى من الممارسات الخرافية لدى بقية المسلمين. والاثنتان متفقتان أيضا في كرههما لأمريكا ولإسرائيل.

إلى هذين النموذجين، المنزوية والأميرة، أريد أن أضيف نموذجا آخر، وهو نموذج المهاجرة . ولكن زينة، الفلبينية والمسلمة، لا تملك حقا سوى تقديم الشاي في منزل الأميرة ؛ وليس لها الحق بالكلام. ونرى نحن الغربيون، هؤلاء المهاجرين في العالم العربي كعبيد. أما هم فإنهم لا يرون أنفسهم كذلك بالضرورة، فبالمقارنة مع المناطق الفقيرة جدا، والمجتمعات القمعية التي قدموا منها، يعتبرون السعودية بمثابة الدورادو.

هل الإسلام هو الذي يحدد شروط حياة النساء في السعودية ؟. إنه يبدو بالأحرى، بين ريم وبدرية، كأداة في خدمة التمييز الاجتماعي، فبدرية هي ضحية وضعها الاجتماعي، بينما ريم هي، مالكة عقارية غنية. إن الملكية في جدة تعود غالبا للنساء. إن الدين الإسلامي بحد ذاته يقود إلى احترام المرأة أكثر مما يقود إلى استعبادها. وكلّ يجد فيه ما يبحث عنه، وما يبحث عنه حسب الحقب والثقافات ورهانات السلطة. وأما ربط اضطهاد المرأة في الإسلام فيتطلب بحثا مماثلا لما يخص الأديان الأخرى، إذ إن الأكثر قمعية بينها، إذا تمسكنا بالنصوص، هي بدون جدال اليهودية! ومع هذا لا يوجد من يطالب بتحرير المرأة اليهودية ! وإذا كان المجتمع يضطهد النساء المسلمات، فمن الأجدر البحث عن أصول هذا الاضطهاد، بدلا من تحميل المسؤولية على القرآن: ومثل هذا التفكير هو موقف أكثر شرفا من تجريم الإسلام. ولكنه، يسمح بتبني مواقف دون التصدي لواقع هو دائما معقد.

ولنتساءل نحن أيضا عن مسارات تطورنا. في عام 1955، عندما قام بونوا- ميشان بنشر حياة ابن سعود، لم يشر في ذلك الكتاب إلى الشريعة أو إلى وضع النساء. كما لم يصدم ذلك آنذاك أحداً، ولم يؤدِ إلى مثل هذا الإهمال، إلى منع الاحتفاء بهذا العمل، الذي أصبح بمثابة مرجع حول السعودية لمدة طويلة. وبعد نصف قرن، بقيت العادات في السعودية كما هي، لكننا نحن من تغير تماما. إن ما نعيبه على العرب إذن، هو أنهم لم يتغيروا بالسرعة التي تغيرنا بها، وبالاتجاه الذي ذهبنا اليه.

الاستبداد الرخو

توقظ السعودية وتغذي بعض الآراء الشائعة، حول أنها دولة شمولية (توتاليتارية)، وبأن النساء يعانين فيها من العبودية، والرجال محكوم عليهم الإصابة بالفصام· يعتقد الغربيون بهذه الصورة الكاريكاتورية، ويشاطرهم هذا الرأي التبسيطي، كما يروجون له، العديد من المسلمين في العالم، المعادين للسعوديين، والذين يغارون من ثروتهم· ولا تتوقف منظمة العفو الدولية عن شجب تجاوزات الشرطة السعودية، لقيامها بعمليات اعتقال تعسفية، وتعذيب للسجناء، وسوء معاملة العمال المهاجرين·

لا شك، أن السعودية ليست مجتمعا ليبرليا· والعادات الاجتماعية التقليدية فيها طاغية، والمعايير الجنسية غير مفهومة، للذين لا يدركون عملها من الداخل· ولكن هل من المناسب مقارنة السعودية بأوروبا اليوم، أو بجيرانها، وفي أزمنة أخرى؟·

إن السعودية قد انتقلت في مدى جيل واحد، من مجتمع قرن أوسطي، مثل الذي كان قائما في زمن محمد إلى مستوى معيشة على النمط الأمريكي· ولم يتم إلغاء العبودية فيها حتى عام 1960· لكن الشريعة مطبقة فيها، وقد يجري قطع يد سارق أمام الملأ أو رجم نساء زانيات دون شهود· هذا مثير، ولكن تنبغي المعرفة، أن ممارسة هذه العقوبات العامة هي نادرة، ذلك لأن السارقين قلّة : فهذه الأمة هي إحدى الأمم الأكثر أمانا في العالم·

هل الشريعة، والخوف منها ما يولد مثل هذا الأمر ؟· إن الاحتمال الأكبر، هو أن تكون العادات المحلية، والاحترام الفطري للسلطة، واستقرار العائلات الكبرى، والرقابة التي يمارسها كلّ فرد على أعضاء أسرته، وعلى جيرانه، هي بالأحرى وراء مثل هذا الأمان·! إن السعوديين يعيشون إذن، يعيشون في حالة أمن يحسدون عليها وذلك مع الالتزام بواجبات وصفناها سريعا في الخارج، بأنها شمولية - توتاليتارية : لكن هذه الشمولية السعودية مستبطنة أكثر مما هي تعبير عن عنف الدولة·

هل يمكن تفضيل مصر على السعودية، مصر العزيزة القديمة بحضارتها ذات الخمسة آلاف سنة، حيث السجون زاخرة، وحيث يمكن كل يوم اختيار أي مواطن مشبوه بأنه إسلامي أو مجرد خصم للديكتاتور، بدون إثباتات وبدون محاكمة ؟ أو هل سورية بأفضل، حيث توجد شرطة سياسية أكثر قسوة بما يقارن مع الشرطة الدينية التي أصبحت أكثر تحفظا في السعودية ؟ وللتذكير فقط، نجد أنه في سورية أو في العراق يتم ضرب المعارضين بالعصي كما في السعودية، كما لا يخشون تطبيق عقوبة قطع اليد عليهم، ولكن قد يتم قتلهم جماعيا بالنابالم أو بمساعدة الأسلحة الكيميائية· وبالقياس إلى منطقتها المضطربة والمختلفة عن منطقتنا، فلنكرر، ومهما أثار ذلك الدهشة، بأن السعودية هي دولة - أمة ناجحة بالأحرى·

قبل اكتشاف النفط بكثير، توصل عبد العزيز، المعروف لدينا باسمه القبلي ابن سعود، في عام 1932، إلى إعادة توحيد بعض القبائل التي كانت تتحارب فيما بينها منذ آلاف السنين ؛ وعلى عكس التقاليد المحلية لم يقم بإبادتها، بل دمجها مع المملكة الجديدة· وحوّل بعد ثلاثين سنة من المعارك من ((عملية التوحيد)) هذه كما يسميها التاريخ الرسمي، أحد أكثر المناطق خطورة في العالم،

والتي يمكن مقارنتها مع أفغانستان الحالية، إلى منطقة سلام. وكما أن ابن سعود قد تحرك باسم الإسلام، فإنه لم يكسب في الغرب شهرة أتاتورك الذي كان يقرأ كتابات جان جاك روسو، وليس القرآن. بالرغم من أن مسيرتهما كانتا متزامنتين وقابلتين للمقارنة. لقد بنى أتاتورك أمة حسب النموذج الأوربي مؤكدا انتماءه إلى أوروبا. كما أسس ابن سعود دولة- أمة حسب النموذج الأوربي أيضا، فالعربية السعودية غير البدوية وغير القبلية تعارض المبدأ الإسلامي ل ((الأمة)) مع تأكيد انتمائها للإسلام. ولم يكن العرب أكثر انسجاما، فيما بينهم من الأتراك في زمن أتاتورك لقد اخترع ابن سعود ((العرب)) عبر نفيه تنوعهم القبلي واللغوي والثقافي، كما أن أتاتورك قد اخترع ((الأتراك)) : وكما أن هذا الاخير قد فرض اللباس الأوروبي من أجل جعل الأمة، تنتمي للغرب فإن ابن سعود فرض نظاما للباس - الثوب البدوي الأبيض للرجال، والحجاب الأسود للنساء، أي ثياب نجد في قلب الجزية العربية- بدلا من الألبسة الأكثر تلوينا في مناطق الريف الخاضعة. ثم إن الرجلين يملكان نفس الميل التقنية الغربية، الاثنان اصطدما بمقاومة الأصوليين الإسلاميين. وعندما استورد ابن سعود الهاتف رجا علماء الدين الذين اعتبروا، بأن هذه الآلة تتلاءم قليلا مع الإسلام، بأن يغادروا المملكة. وضد إرادة رجال الدين فرض الملك فهد عام 1961 دخول الفتيات إلى المدارس.

وعندما تدفق النفط اعتبارا من عام 1936، كان من الممكن تبذيره على غرار الجزائر : أي أن النفط بحد ذاته لا يشكل جزءا من ثروة الشعوب بل يمكن أن يساهم في إفقارهم، كما يمكن أن نلاحظ من المغرب إلى فنزويلا. فهل تمّ استخدام ريع البترول بصورة جيدة في السعودية ؟. لقد ساهم البترول في الثراء الكبير لأمراء السلالة الحاكمة، ولم يتم تمويل أية صناعة متنوعة عن طريقه. بالمقابل، في السعودية، استفاد الشعب من البترول من حيث السكن، والعلاج، والعمل (لقد تمّ توظيفه بشكل سيّئ في الدوائر العامة غير المنتجة غالبا). وأغلبية السكان تقريبا متعلمون، فنصف كل فئة من العمر، تصل إلى المدرسة الثانوية ؛ كما أن الجامعات هي ذات درجة مقبولة، واثنا عشر ألف طالب قد حصلوا على منحة من الدولة، وهم يدرسون في الخارج، نصفهم تقريبا يتابع دراسته في الولايات المتحدة. إن المحصلة العامة للأسرة السعودية مناسبة، وأعلى من متوسط ما حققته دول أخرى غنية مثلها بالموارد الطبيعية .

تعيش هذه الدولة السخية، الميسورة، في مستوى أعلى من إمكانياتها ؛ وهي مهددة بالإفلاس. هذا هو مسلبها الطاغي. وهو مسلب أكثر خطورة من طيش بعض الأمراء، ولكن أقل مأساوية من الفقر الجزائري، أو زيادة التسليح العراقي. وعلى عكس ما هو قائم في أغلبية الأمم العربية الأخرى، من الممكن نقاش هذه العلة علانية.

ملامح مجتمع مدني

إن أكبر قصر في الرياض، ذات القصور الكثيرة، لا يسكنه الملك، وإنما يأوي المجلس الاستشاري. الأمر الذي لا يتطابق مع صورة البلد الشمولي (توتاليتير) الملتصقة بالسعودية. بالتأكيد، لا يجد اللبراليون الغربيون، وأمثالهم السعوديون (وهم كثيرون بين الجامعيين والصحفيين)، ما يأملون من هذا البرلمان، لأن هذا البرلمان لا يتماشى مع نوعية معترف بها في الغرب: وإنما ينتمي إلى تقاليد ذات مصدر قرآني. يقال إن محمداً والخلفاء الراشدين الأربعة، لم يتخذوا أي قرار دون استشارة مسبقة لمجلس الحكماء، الذي هو مجلس الشورى. لقد تشكل مجلس الشورى السعودي عام 1992، من أجل قنونة النقاشات العامة التي أثارتها حرب الخليج ؛ إن هذا المجلس ليس له صفة تمثيلية بالمعنى الغربي للكلمة، ولكن له دلالته بالمعنى الإسلامي. حيث يقوم الملك بتعيين أعضائه المائة، لمدة أربع سنوات، تبعا لكفاءتهم، وسلوكهم المثالي، ويتم تمثيل جميع المحافظات فيه - لا يوجد نساء فيه - وكذلك جميع الاتجاهات، باستثناء المتطرفين الذين يهاجمون النظام الملكي أو الشريعة . و كان جميع أعضاء هذا المجلس قد مارسوا وظائف عامة، أو خاصة هامة، واحتل بعضهم وظائف دينية ؛ جميعهم قد تلقوا تعليمهم في جامعات أجنبية، غالبا أمريكية .

أليس من الغريب، أن تؤمّن هذه السعودية التي يتم وصفها بأنها مغلقة ورجعية، تمثيلها لمجلس من أصحاب الشهادات الأمريكية ؟ وعند الاحتكاك بهم، بدوا لي، انهم أكثر قربا من العقل النقدي للغربيين مما هو إلى الجمود العقائدي - الدوغمائية- للمدارس القرآنية. وليس هناك ملاحظة حول السعودية في الغرب لم يكونوا قد تفحصوها جيدا، وما نقوله حول الاستبداد السعودي يعرفونه جيدا. وقد قرأوا كتبنا وصحفنا. والانترنيت في متناول يد الجميع. الصحافة والادب خاضعان للرقابة، لكنهما متوفران . إذن، هل يمكن الحديث عن استبداد مستنير ؟. هكذا ترغب الملكيّة أن يتم النظر إليها. لا يمكن الإنكار، إن هذه الملكية والنخبة السعودية، هم في الواقع، أكثر تقدمية من الشعب الذي بقي محافظا. وما يضع السعودية على تعارض مع بلدان، مثل المغرب، أو مصر أو تونس، هو أنه في شمال إفريقيا، يراد التحديث الذي يرفضه المستبدون. أما في السعودية، فأغلبية القادة يتمنون حدوث تطورات اقتصادية وسياسية، ترفضها أغلبية محافظة، والمتمسكون بالشكلية الدينية.

كيف يمكن تقدير نفوذ مجلس الشورى هذا، المفترض بأنه يلعب دورا تنويريا للمستبد ؟ عبر حضور أعماله التي تخضع لآليات برلمانية غربيّة تماماً . يلاحظ بأن اعضاءه يعبّرون بقدر كبير من الحرية، حول جميع المواضيع التي يناقشونها ويقترعون عليها ؛ ونتائج الاقتراع ليست معروفة مسبقا، ومن المألوف أن يرفض النواب بعض المشاريع الصادرة عن الحكومة. لكن من الصحيح أيضا القول، بأن المجلس لا يناقش المواضيع الحساسة مثل وضع المرأة، كما لا يناقش بشكل عام، المواضيع التي تثير النزاعات داخل الأمة. لكن ساحة النقاش تتسع أكثر فأكثر، وبواسطة النقد الاقتصادي المسموح به، يهتم مجلس الشورى تدريجيا بكل ما يخص المجتمع السعودي.

هل يمكن إذن الحديث عن مجتمع مدني سعودي ؟

فضلا عن مجلس الشورى، يعبر الشعب عن رأيه تبعا للنمط التقليدي للعادات القبلية، إذ إن زعماء القبائل البدوية يدخلون مباشرة إلى الأمراء، وإلى الملك، ويخاطبونهم دون محاباة في حالات الاجتماعات بالشعب في قصورهم. فما هي القيمة التمثيلية لزعيم القبيلة، مع العلم بأن جميع السعوديين تقريبا، يعيشون في المدن الكبرى وليس هناك من يعيش تحت الخيام إلا من أجل قضاء إجازة نهاية الأسبوع ؟. على الرغم من التمدين، لا تزال الانتماءات القبلية سارية في المدن حيث يجتمع الناس تبعا لأصولهم ؛ ولا تزال الشبكات العائلية والولاءات مستمرة .

هكذا، وبواسطة مجلس الشورى، واللقاءات القبلية، نجد أن الحاكم ليس مقطوعا عن رعاياه، ويمكن القول، أنه يوجد في السعودية، مجتمع مدني ورأي عام. لكن السعودية ليست ديمقراطية ليبرالية، وهي لا تدّعي ذلك، لأنها تصرح بانتمائها إلى شرعية أخرى غير شرعية الاقتراع العام ؛ ولكنها مع ذلك ليست شمولية. وأقل شمولية من كل الأوضاع والحالات في تلك الأمم العربية، من الجزائر، إلى سورية، التي تقوم بتنظيم انتخابات مزورة ؛ وهي بالطبع، أقل شمولية مما كانت عليه روسيا الستالينية، وألمانيا النازية، والصين الماوية، وأقل مما هي جميع الأنظمة التي يريد كارهو الإسلام تشبيهها بها، على أساس التناظر التاريخي، أو من أجل إعادة اختراع عدو .

هل ابن لادن سعودي ؟

عملت أسرة ابن لادن بشكل قاس، منذ سنوات 1 9 3 0، من أجل أن تجعل لاسمها علامة فارقة في عالم الأشغال العامة السعودية. ومنذ 11 سبتمبر 2 0 0 1، تباطأ إيقاع نشاط مؤسستهم. وبات المزودون الأجانب يترددون بتسليمها مواد حساسة. كما أصبح التصدير خارج العالم العربي مستحيلا. فهل ينبغي لوم محمد الأب، أب الخمسة وخمسين طفلا، من بينهم سبعة وثلاثين ذكرا، لأنه أنجب واحدا من بينهم، قد ضلّ الطريق ؟ إنه من المستحيل مراقبتهم جميعا. ولم يكن قد رأى ابنه اسامة منذ سنوات طويلة. عند وفاة الأب، أصبح الابن البكر، بكر بن لادن، الرئيس الجديد للسلالة، ورئيس مجموعة بن لادن. وليس له أي علاقة أو مسؤولية حيال العملية التي قام بها أسامة، أخوه غير الشقيق، والذي لم يعد يعترف به كأحد أفراد العائلة. لكن، كيف لا نلمح لدى بكر النظرة الحزينة التي يتسم بها أسامة، والتي يبدو أنها علامة مشتركة بين جميع أفراد أسرة ابن لادن ؟.

قبل أن يلوث أسامة اسم العائلة لعدة أجيال، كانت هذه العائلة تسيطر على سوق البناء في السعودية. وكان النظام الملكي قد عهد لمجموعة بن لادن بالورثة الأكثر نبلا، والأغلى ثمنا في القرن، ألا وهي، توسيع الحرمين الشريفين للإسلام، مسجد المدينة ومكّة . وبما أنني غير مسلم، فإنني لن أتعرف أبدا بشكل أفضل، على هذين الموقعين، إلا عبر المجسدات ـ الماكيت- الموجودة في مقر الشركة بجدة، والتي أطلعني عليها بكر بن لادن. لم يتم الاحتفاظ، من أجل استقبال الحجّاج، بأي شيء تقريبا من المسجدين القديمين، المتناسقين العثمانيين . ويتقارب الموقع الجديد، الذي لا أشك بأنه سوف يكون جيدا، من حيث آلية عمله، من الهندسة المعمارية للمطارات أكثر مما هو إلى الجماليات الدينية. باختصار كنت أفضل أن اعرف مكة والمدينة قبل الأشغال. لكن لنعترف، بأن نظام الملكي وأسرة بن لادن قد نجحوا في هذا الرهان السياسي، والتقني، الذي يسمح

باستقبال عدة ملايين من الحجّاج سنويا، دون تمييز، ودون مأساة تقنية. إن مثل هذا العمل يستحق توجيه بعض الثناء له، الذي نادرا ما يتم الإفصاح عنه، حتى من قبل المسلمين الآخرين.

فهل راق لأسامة بن لادن، هدم نمط البناء الذي أراد ابوه وأخوته إشادته بالتحديد ؟ فلنترك أمر الاجابة عن هذا السؤال للمحللين النفسانيين. وما نبحث عنه هنا، والذي لا تسمح المناقشات مع أسرته توضيحه كما نحب، إنما يتعلق بجذور أسامة. بماذا هو ابن لادن ؟ وبشكل عام، بماذا هو سعودي ؟ وهل السعودية هي المؤهلة لإنتاج ابن لادن ؟ .

إن السعوديين الذين لا يحبون أسامة - محبوه لا يتكلمون -، والذين يضايقهم هذا السؤال المزعج، يردون بأن أسامة يمني. في الواقع، كان أبوه محمد، قد هاجر من اليمن عام 1920، للإقامة في جدّة ؛ ويعود وصول قبيلته إلى جنوب شبه الجزيرة، وليس إلى نجد، مهد الوهابية. تكشف هذه الحجة الأثنية ضد ابن لادن، على أنه رغم تأسيس ابن سعود (القريب العهد فعلا) لدولة- أمة، بأن ردود الفعل الأولية تبقى قبلية. وعند أي طارئ، يعود المرء إلى قبيلته أكثر مما يعود إلى أمته ؛ وكل سعودي يعرف ذلك ويتمسك به. صحيح، ان هناك خمسة عشر سعودياً من بين مقترفي تفجيرات 11 سبتمبر، لكن أغلبيتهم ينتمون إلى المناطق المحيطة، في العسير والقصيم، وإلى القبائل التي تقاوم تقليديا السلطة المركزية .

إن عسير ذات الثقافة اليمنية الأكثر منها سعودية، لم يتم ضمها للمملكة إلا في عام 1930، وبعد حرب عصابات طويلة. فهل كره أسامة بن لادن للأسرة الحاكمة، يعود إلى نزعة ثأر قبلية مكنونة منذ أجيال ؟. مهما يكن من الأمر، فإن عدوه الحقيقي، هو النظام الملكي السعودي، الشيء الذي لم يخفيه أبدا؛ وفي هذا النزاع اقتربت الولايات المتحدة من دعم قبيلة ابن سعود. فهل يمكن لتفجيرات 11 سبتمبر، أن تكون أحد قطع المركبة (PUZZLE) عرقية، بقدر ما هي إسلامية، ومن الممكن مقارنتها بالعمليات في أفغانستان أو في شيشينا ؟

بالإضافة إلى هذا التوضيح الإثني للعمل الذي قام به أسامة بن لادن، يظل التساؤل قائما حول الظروف الاجتماعية التي صاغت شخصيته. كان الجو المحيط به سعوديا بلا جدال، وربما يمكن الاعتبار، أن مصيره قد حدّد على أساس التباين المستمر بين الواقع وبين الخطابات السعودية، وحالة الفصام الوطني التي شرحها فيما سبق أحمد أبو دهمان. إن أغلبية السعوديين يتأقلمون مع هذا الوضع لأنهم يدركون بأنه في هذه المملكة الغريبة، من المستحسن تبني أشكال سلوك خارجية، لا تتناظر مع المشاعر المكنونة في الداخل ؛ واحترام قواعد الزهد في العلن مع رفضها في الحياة الخاصة، أو في الخارج. وليس باستطاعتنا معرفة فيما إذا كان السعوديون يعانون من هذا الفصام بالقدر الذي يزعمه أحمد أبو دهمان، أو أنهم قد استبطنوا عملية الفصام هذه، إلى درجة أنهم لا يعانون منها. وفي باريس، خلال القرن السابع عشر، ألم يكن، أي داعية للتحرر مأخوذا في شبكة شبيهة من التناقضات، بين المعايير والسلوك، أي أن يكون زاهدا جنسيا في المدينة، وساديّا في الصالون الخاص به ؟ وفي الواقع، إن مثل هذه الأجواء تنتهي غالبا بالثورة.

من الممكن التصور أيضا، بأن هذه اللعبة المزدوجة التي قامت عليها بنية المجتمع السعودي، قد انتهت بأنها أصبحت غير محتملة بالنسبة لابن لادن. أو التصور، أنه وبذهنية بسيطة، وعلى أساس ساعات طويلة من التعليم الديني، ومن التاريخ التمجيدي في مدارس المملكة، رأى أنه من المناسب أن تنسجم أفعاله، مع التفسير الصارم للإسلام. فهل طبق حرفيا مثل هذا التفسير ؟. إذ يصبح

بنظره طرد الكفرة خارج السعودية، وتطهير الإسلام، وترميم الخلافة، بمثابة واجب المسلم الجيد، أي واجبه · ؟ ثم جاءت الظروف التاريخية كي تقوم بالباقي، وتقدم ساحة معركة مناسبة لهذه الوهابية المطبقة ·

وإن رفض القادة السعوديون علانية، بأن ابن لادن هو دون أي تردد ممكن، نتاج للوهابية المحلية، فهم يعترفون بذلك غالبا في أحاديثهم الخاصة· إن تفرده يأتي من تبنيه بجدية بالغة، ما تلقاه من تعاليم، ثم تحديده لنفسه مهمة خلاص البشرية· لكن إذا كانت الفرضية صالحة، فإن ما ترتب عليها فيما بعد، يثير الاضطراب على الأقل· ذلك لأن التعليم الديني الذي تلقاه أسامة ابن لادن وزملاؤه، إنما هو الذي تتبناه المدارس القرآنية الممولة من قبل السعوديين- من الدولة، كما من العائلات الكبرى- والتي أشادوها في بلادهم كما في بقية أنحاء العالم· يعتقد هؤلاء السعوديون، أنه من واجبهم نشر ما يعتبرونه بمثابة الإسلام الحقيقي ·

الحركة الإسلاموية مؤامرة أم سوق ؟

لم يبق من الرياض القديمة سوى الآثار المتمثلة بقلعة من الطوب (التربة) كانت مقر المملكة، وقد تمّ تحويلها إلى متحف وسوق مكيفيين· عبد الله رحمان، هو سعودي من أصل يمني، كمعظم تجّار سوق الذهب، وكان قد ورث مكان أبيه وجده· أغلبية زبائنه من النساء الملفحات بالعباءات السوداء· وطرف الحذاء الذي يتجاوز الثوب، يسمح بتخمين السن، والوسط الاجتماعي ودرجة الدلع والغنج لهذه الظلال، التي تشتري الحلي بالكيلو وتساوم كثيرا في الأسعار· وإذا بنداء الصلاة يعلن فتتوقف كل عمليات البيع والشراء، فيضطر عبد الله إغلاق متجره كي لا يتعرض لغرامة من قبل الشرطة الدينية·

فيطفئ الواجهة، ويلجأ إلى مؤخرة المتجر حيث لا يمكن رؤيته من الشارع· إن عبد الله كأغلبية السعوديين، متمسك بالتقاليد الاجتماعية أكثر مما هو ورع، ولكن في الوهابية النوايا هي أقل أهمية من احترام القواعد المطبقة·

إن البقاء مع عبد الله، يسمح بالجلوس على السجاد واقتسام القهوة العربية، والتمر والحديث معه· في ذلك المساء تواجد معنا أيضا شخص اسمه خالد، الذي كان يمر مرة كلّ شهر، لكي يأخذ الهبات من التاجر· فهذا العمل من التصدّق ينص عليه القرآن، ويقدر عبد الله قيمته بـ5% من أرباحه· لكن ليس هناك من يدقق، كما لا يوجد في السوق حسابات أو ضرائب، وعمليات البيع والشراء تتم نقدا· إن خالد الذي يقول، بأنه مدير سجن متقاعد، يكرس نفسه للقيام بهذا الواجب المطلوب من المسلم الجيد، أي الصدقة · إنه يجمع الأموال من تجّار السوق، بالوقت الذي يقوم بنفس المهمة آخرون لدى الشركات الكبرى أو لدى الخاصّة· والمبالغ التي يتم جمعها كبيرة·

يكّرس خالد، وبموافقة ا لوهابيين، المال الذي يجمعه لتعليم الإسلام خارج المملكة· فالمدارس القرآنية في السعودية، ليست بحاجة للمساعدة بأموال البر والإحسان، ولكن هناك في الباكستان، وأفغانستان تعاني المدارس من الفقر، كما يقول· ثم توضع الأموال نقدا في البنك الإسلامي بالرياض، ليتم تحويلها عبر بريطانيا أو سويسرا، إلى وسطاء في البلد الموجهة له· هكذا يتم دفع أجور المدرسين، وبناء المدارس، وتوزيع الكتب على الأطفال، وتقديم وجبات طعام مجانية من أجل جذب الأكثر فقرا·

هل يهتم عبد الله وخالد بنقد الغربيين الذين يشجبون عملية التجنيد المذهبي الإسلامي من النموذج الشمولي - التوتاليتاري-لهذه المدارس، وذلك تحت غطاء تدريس القرآن ؟. وبعد تفجيرات 11 سبتمبر، وبعد شجب علماء الدين كلهم لها تقريبا، هل من المناسب تقديم التمويل الأعمى من أجل تكوين عناصر مثل طالبان ؟ ألم يكن مطلوبا استكمال هذا التعليم القرآني بمواد أكثر فائدة في العالم الحديث بحيث يستطيع الطالب الذي يخرج من المدرسة امتلاك مهنة ؟

لم تهز حججي قناعات عبد الله وخالد. فلقد أجابا بأن مسؤولية اعتداءات 11 سبتمبر، لم يتم البرهان على أنها من عمل ابن لادن، والأفغان، وهذا الإحساس يسود في كل أنحاء السعودية. كما يبدو لهما ان الخلط بين المدارس القرآنية والإرهاب يتم في إطار حملة صهيونية معادية للإسلام وبأنهما على استعداد لإعطائي درسا في اللاهوت، وترداد الآيات القرآنية، بقصد إقناعي بأن الإسلام هو دين سلام واعتدال. لربما كان الدين الإسلامي دين سلام واعتدال، ولكنه في الوقت نفسه، هو العكس، مثله مثل أي دين وأية ايديولوجية. بينما أنا، قد أكون ربما طالبا سيئا.

عند انتهاء الصلاة، أضاء عبد الله مخزنه، فلمعت الحلي على المصطبة المنورة، وعاد الزبائن للظهور كما اختفوا. إنني أجهل، أين كانوا أثناء الصلاة. كذلك الشرطة الدينية المكلّفة بتطبيق احترام العادات الإسلامية التي كانت أيضا غير مرئية. لم تعد السعودية تشابه الصورة الكاريكاتورية التي كان يتم تقديمها بها.

ديمقراطية سعودية ؟

قد يتمكن الغرب بعد أجل، من عدم شراء النفط السعودي لأنه سيتم استثمار حقول جديدة أو لأن أشكالا جديدة من الطاقة قد تفرض نفسها. هذا ما يتصوره النواب، والجامعيون، والصحافيون، والأمراء السعوديون. وإذا لم تتهيأ السعودية لمواجهة مثل هذا الوضع فإنها ستعود إذن إلى الصحراء. إلى اليوم، لا يوجد أي نشاط اقتصادي يمكنه ان يحل محل النفط، كما لا يوجد سوى القليل من الكوادر السعودية المؤهلة لكي تحلّ مكان الخبراء الأجانب. ثم إن الأشياء الحديثة المستوردة كلّها، تبدو وكأنها موضوعة بين الرمال دون أن يكون مصدرها أية مسيرة اقتصادية وعلمية تسمح بإنتاجها أو إعادة إنتاجها. والمأزق هو ثقافي قبل كل شيء. فالتعليم المحافظ، يعطي الأولوية للآداب والفقه الديني، ويحث على التذكار والحفظ عن ظهر قلب، وليس على الفهم، من دون فسح أي مجال، للنقد أو النقد الذاتي. هناك مجموعة قوية مثل تلك التي تمثلها الأسرة الحاكمة تؤدي إلى تجميد أي تجديد، وهي مجموعة رجال الدين. وقلة الإبداع التي تنتج عن مثل هذا التعليم، تزيد من حدة التبعية التقنية للغرب، وما ينجم عن هذا من حنق وإحساس بالنقص.

إن النخبة المتنورة، ودون أية حاجة لنصائحنا، هي أول من يأسف لهذه التربية التي تؤدي إلى إفقار المعرفة الحقيقية، وتختزل الإسلام إلى صورته الكاريكاتورية. لكن إصلاح التربية والتعليم يتطلب أداة لا تملكها الأسرة الحاكمة. والأمر نفسه بالنسبة للاقتصاد، حيث المملكة هي بمثابة مستبد رخو.

ويروي الوزير المكلف باستبدال العمال الأجانب المتواجدين في السعودية، أي جعل الوظائف والأعمال بيد السعوديين، كيف أنه وجد نفسه مرغما على استخدام سائق سعودي براتب قدره 0 0 0 2 ريال. لكن بسبب الغياب المتكرر لهذا السائق، وعدم قدرته على صرفه من الخدمة، اضطر لتوظيف سائق باكستاني أيضا براتب 0 0 4 ريال. فالباكستاني لا يتغيب، ومستعد لأعمال

السخرة. مثل هذا الوضع، يتكرر في جميع المؤسسات الخاصة والعامة لأن السعوديين الذين يتلقون ريع النفط، لا يخفّون كي يصبحوا أصحاب مشاريع. وهذا سلوك لا يعود للإسلام أو للثقافة العربية بشيء، لأنني على قناعة بأننا في موقف مماثل سوف نركن إلى كسل مشابه.

هل لديمقراطية النموذج الغربي أن تكون أكثر فعالية، وقدرة على قيادة العرب باتجاه مستقبل أقل استبدادية، وأقل جمودا ؟

منذ 11 سبتمبر، قرر الأمريكيون، جعل العربية السعودية ديمقراطية ؛ فذهبت التصريحات والافتتاحيات الصحفية، والتصريحات السياسية في هذا الاتجاه، وعلى الرغم من الرقابة، استطاعت أن تتسرب إلى المملكة عبر الانترنيت الأقمار الصناعية. وأزعجت الحكّام كما الشعب الذي لم يعد يتحمّل دروسا وعظات آتية من الخارج ؛ وهكذا ينشل كل تحرر للعادات وللمؤسسات، لأن لا أحد، لا رجال الدين ولا العائلة المالكة، يريد الظهور كمن يخضع للضغوط الأمريكية. ولكن كيف العبور إلى الديمقراطية في أمة قبلية، ليس لها أي تاريخ ديمقراطي ؟ يستشهد الحكّام الأمريكيون بألمانيا السابقة، وباليابان في عام 1945 ! هذه المقارنة التي ليس لها علاقة بالتاريخ وبالثقافة تتركنا في حيرة. ومع ذلك إذا غدت العربية السعودية ديمقراطية تمثيلية، لا شيء ينبئ بأنها ستبقى محبذة للغرب. وبدل أن نلصق مبادئنا، وممارساتنا على السعودية، من الأفضل للسعوديين ولنا، أن تتطور المملكة نحو نظام أكثر تمثيلية ومملكة دستورية. يصرح الأمراء والمثقفون الأكثر استنارة، بإرادتهم أن يرافق الاتحاد الاوربي هذا التحول نحو تحرير الدولة، والاقتصاد، والأفكار، بدون جرح المشاعر الدينية للشعب. ولكن إذا لم تحرض أوربا نفس مشاعر العداوة للولايات المتحدة، فهي لا تملك سياسة عربية .

في انتظار هذا التطور غير الممكن، يبقى المجتمع السعودي مرتبطا بسعر برميل البترول ؛ فإذا ثبت السعر، فستهدئ المملكة المطالبات الاجتماعية، وستشتري ولاء القبائل ورجال الدين، كما نجحت دائما بفعله منذ تأسيسها. وإذا نقصت الأموال، سيتوجه الشعب ناحية ابن لادن. هذه هي خطورة الشرعية الإسلامية، التي يطالب بها العائلة المالكة: باسم الإسلام، انتصرت على الأتراك، أخذت الحرمين الشريفين، ونصبت نفسها عليهما كحامية، كما أخضعت القبائل المعادية. لكن، لشدة الدعوة للنقاء الإسلامي، نقابل دائما من هو أكثر أسلاما من نفسه.

الفصل السادس

مدرسة طالبان

هارتال، أي إضراب عام. إذا كان من الواجب معرفة كلمة واحدة قبل الذهاب إلى بنغلادش، فهي تلك الكلمة. أصلها من اللغة الكوجاراتية، عممها المهاتما غاندي في معركته ضد البريطانيين، فدخلت في اللغة البنغالية، واستقرت، ثم ازدهرت: الهارتال هو جرح وطني، أكثر تكررا من الطوفان. لا يوجد أي برنامج منظم في منأى عنه. في بنغلادش، غالبا ما يشل الإضراب الأمة أكثر من الريح الموسمية.

يوم من أيام هارتال في دكا، العاصمة، الحياة معلقة: لا يوجد مواصلات عامة، تغلق المكاتب؛ في كل مكان مسيرة اعتراضات للنقابات والأحزاب تتحول إلى عنف: فظاظة البوليس ضد المتظاهرين وفئات ضد فئات أخرى بضربات هراوات، السكاكين والمسدسات.

من حضارة إلى أخرى

مصادفة، وفي أحد أيام هارتال، التقيت بأكبر أكبر هو سائق مركبة -الدرّاجة، من إحدى أقدم المهن في عالم البنغال. في ذلك النهار، كان سائقو الريكشو ذات الموتور، في إضراب، يسدّون دكا. يتظاهرون احتجاجا على مرسوم من الحكومة التي تصر على تطبيق المعايير ضد التلوث: توقيف التلوث في أحد أفقر تجمعات بشرية في العالم، بدون شك لم يكن هناك أكثر ضرورة! الملاريا والضنك اللذان دمرا البلاد لا يلقيان القدر ذاته من الاهتمام من السلطة العامة. للتنقل في هذه المدينة الشاسعة، لم يبقَ سوى مركبة -الدرّاجة. يوجد منها ستة ملايين في الخدمة، ولكن ضمير الأجانب يؤنبهم عند استعمالها؛ مشهد الصعلوك واقفا على دواسة دراجته، بسيقان نحيلة، وصدر ضامر والجبهة مربوطة بمنشفة لتمتص العرق، يخلق لدينا شعورا إليما. بالطبع، لا يشاركنا البنغاليون حالاتنا النفسية؛ في الطرقات الضيقة من شوارع دكا القديمة، وحتى في غياب هارتال. هي وحدها المركبات -الدراجة التي تستطيع أن تشق طريقاً. سائقو الدراجات هؤلاء لا يمتلكون الدراجة، إنما يستأجرونها للنهار، محكوم عليهم بالجوع إذا لم يجدوا زبائن.

فرح أكبر لأنه وجدني. لم يكن لدي خيار، فرضيت. من أجل المبدأ، فاوضته ببضعة تاكاس العملة المحلية التي لا أعرف قيمتها؛ بدأ تأنيب ضميري يخف، ليقيني بأن البقشيش الذي سأعطيه سيغذي قرية بأكملها. وهكذا غدا أكبر سائقي ومرشدي خلال بضعة أيام. ولكن كان عليّ أن أقبل، من أجله، بأن الخط المستقيم ليس أقرب الطرق أبدا. بينما كنت أنتظره على مقعد من فرو الخلد، المحمي من الرياح الموسمية (الموسم) بغطاء من البلاستيك، كان هو يتاجر بشكل غير شرعي في دكاكين المدينة القديمة؛ كل بنغلادش في حالة عوز- تقريبا كلها- هناك دائما شيء للبيع، قرن فلفل مع معيار مورفين. بفضل أكبر، تعرفت على دكان يؤجر الكلاشينكوف لمدة ساعة، طريقة أكثر سرعة وأقل كلفة من محاولة تحصيل الديون عبر اللجوء إلى المحكمة المحلية. في هذا العالم حيث البقاء حيا هو صراع يومي وفردي، لم يكن عليّ أن أطلب من مرشدي احترام المواعيد؛ لكون مفاوضيّ هم أيضا في تأخر دائم.

كل شيء في بنغلادش معاكس للعالم العربي. وصلت من الرياض، أكبر مدينة مستهلكة للعمال البنغاليين الذين يعطون لمستخدمهم السعودي الميزة بأنهم مسلمون وأنه لا دافع لهم غير الفقر للاغتراب. العبور من عالم إلى آخر يعادل مغادرة شاشة بالأسود والأبيض للدخول في فيلم ملون. في الرياض النساء في الأسود والرجال في لباس أبيض؛ الصحراء لا لون لها، صامتة، لا يمكن المغامرة بالخروج إليها إلا ليلا بسبب شدة الحرارة. ففي العربية السعودية كل شيء هادئ، لا سينما، لا مقهى لا صراخ عدا الأذان في أوقات الصلاة، التصرفات مضبوطة، لا يتشاتمون وقليلا ما يضحكون.بينما في بنغلادش، كل شيء مختلط ومبلل بالمطر: الطبيعة، النساء غير محجبات، ديكورات الدكاكين تخلق جواً مرحاً، منتظماً على الفرقعات المدنية، العصافير والموسيقى. هنا، الطبيعة تتكلم، هناك، في العربية السعودية، الطبيعة تصمت.

فصلت عن الهند في 1 9 4 7، لتصبح باكستان الشرقية، ثم استقلت في 1 9 7 1، بنغلادش دولة مسلمة بنسبة 90%؛كما هي أكبر دولة إسلامية في العالم تعداداً، وتناسقاً ثقافياً ولغوياً. كلُ

الشعوب الإسلامية الأخرى مجزأة لأعراق ولغات نادراً ما تتوافق مع دولة؛ أما في بنغلادش، فهاهي دولة ذات شعب يصل إلى مائة وثلاثين مليون نسمة، بلغة ودين وثقافة متوافقين·

هل تنتمي بنغلادش إلى نفس (الحضارة الإسلامية) كما في العربية السعودية ؟ الجواب مقسم بين من يقول بأن الإسلام واحد، والآخرون الذين يقولون بأن الإسلام بالنسبة لهم هو حصيلة المسلمين· يبقى البنغاليون رغم كونهم مسلمين منذ أربعة أو خمسة قرون، مشبعين بأصلهم الهندوسي والبوذي· ولباس الساري هو أفصح تعبير عن ذلك: إنه يوجد كجغرافية للساري الذي، من أفغانستان إلى بورما، يرسم جسد النساء وملامح حضارة هندية· وتضم هذه الحضارة مناطق غير متوائمة من حيث المبدأ· ولكن في دكا كما في القرى، يشارك المسلمون في الأعياد الهندوسية ويبجل الهندوس قبور الأولياء المسلمين؛ فعالية القديسين والمجوسيين، أحياء أو أمواتا، تنتصر على الانتساب·

الصوفية في اليومي

منذ استيقاظه، عان أكبر من ما يسميه (الريح السيئة)· من المستحيل أن يسوق بحمل كهذا: يلزمه أن يستشير (بيره)؛ البير هو رجل نصف صوفي، ونصف طبيب عائلة·يعاين هذا المعلم المسلم مرضاه بالقرب من قبر ولي محلي هو حارسه· الضريح، قديم يعود إلى قرنين أو ثلاثة قرون، حيث يمارس البير نشاطه من دون أن يلفت النظر، مخفي وراء سياج مشبك في آخر حظيرة·كان للبير مظهر متواضع، ولكنه يعرف جيدا صنعته ولا يشك بقدرته· قبّل أكبر قدميه ولم يقل شيئا·ركّز البير تفكيره بضع ثوان وقال: (يا أكبر، أنت مصاب بالريح السيئة·) فهَز أكبر رأسه موافقا· قال البير (لقد مررت تحت شجرة)· وافق أكبر· (هذه الشجرة، يضيف البير،ُشنق رجل عليها، وهنا أصابتك الريح السيئة) كان أكبر مفتونا بكل هذا القدر من العلم·

من علبة معدنية مقرقعة، أخرج البير فلفلاً أحمر وحرقه في الصحن: (الجني، لا يتحمل دخان الفلفل، شرح لنا، مع بعض الزعفران)، دوّن بضع آيات من القرآن على صفحة ممزقة من دفتر مدرسي؛ ثم حرقها ناثرا رمادها على أكبر· فاختفت الريح السيئة·بكامل همته، اعتلا أكبر دراجته من جديد·

فأبديت تعجبي لكونه لم يدفع مالا للبير· شرح لي قائلا (معلمي رجل شريف سأهديه قربانا عندما أشفى حقا، فيما بعد) ثم لامني أكبر لخلطي بين البير الأصلي، الذي يسيطر على القوى الروحية، والدجّالين·

الدجَال هو من لم يتلق ورثة من معرفة الأسرار؛ وليس حارس ضريح، يهيم حول الجوامع باحثا عن ضحايا يسحب منهم المال·

حول كل هذه المواضيع، يتحدث أكبر بكل ثقة: قبل أن يهاجر إلى دكا، ألم يتابع أكبر سبع سنوات من التعليم القرآني في مدرسة في قريته ؟ كم ودّ لو أنه دخل المدرسة الابتدائية حيث تعلم الانكليزية قليلا، أول درجة في السلم الاجتماعي، ولكن لم يكن لأهله القدرة· أليست المدارس العامة مجانية؟ إنها مجانية نظريا، ولكون المعلمين محدودي بل نادري الدخل، يطلبون من الآباء بعض الأقساط· مساهمة ليست في قدرة الفلاحين بدون أرض، وصيادي خلفية البلاد· أليس هذا هو الفساد؟ لم يكن أكبر صارما لهذا الحد: كان مجبرا بسبب الفقر أن يبتدع بعض الحيل· لا يخطر على باله بأن هذا الاختيار للتهريب يؤبد التفرقة الاجتماعية: أطفال المالكين لهم القدرة على التردد إلى المدارس العامة، بينما يرسل الفقراء إلى المدرسة القرآنية·

في هذه المدرسة، تعلم أكبر القرآن عن ظهر قلب، بدون أن يفهم اللغة العربية ولا أن يتعلم القراءة؛ ولم يكن أستاذه متعلماً أكثر منه· المدارس في القرى هي مؤسسات صغيرة محلية منشأة من قبل ملالي مرتجلين؛ إنها تفلت من كل مراقبة لنوعية أو لطريقة التعليم وتخلد إسلاماً مؤسساً على النصوص المقدسة بالقدر التي هي غير مفهومة للمؤمنين· هؤلاء يعتقدون، بأن القرآن يقول ما يقوله لهم الملالي· الملالي الذي يجهل دائما النص الذي يلقنه· أكبر واع لحدود ثقافته الدينية، ولكنه مقتنع بأن تلك السنوات التي قضاها في المدرسة قربته من الجنة· والجنة هي غايته· أما بخصوص هذه الدنيا السفلية، فهو بدون أوهام·

(لقد كنت طالبا، ولكنني لست إرهابيا) يحتج أكبر الذي يتابع أحداث العالم. الإرهاب، الكلمة دخلت المفردات البنغالية منذ 11 سبتمبر 2 0 0 1؛ يعرف أكبر بأن كل طالب بالنسبة للغربيين هو إرهابي نشيط، وكل مدرسة هي مدرسة مشبوهة. على الأقل، ألم يزين دراجته كما فعل بعض رفقائه بصورة رمزية لابن لادن ؟ لقد أصبحت هذه الصورة كالأيقونة، على طريقة صورة تشي جيفارا في الغرب في وقت آخر. في جهوده للصعود إلى الجنة، يصلي أكبر كلما استطاع؛ لديه الشعور بأنه يأخذ نقاطاً إضافية. ولكن خمس مرات في اليوم، هذا كثير: الإسلام في بنغلادش ليس متطلبا هكذا. إنه يحترم الصيام في رمضان، الذي هو، لسائق مركبة- دراجة برهان صعب. في المحصلة، يعتبر أكبر نفسه مسلماً صالحاً.

الإسلام واحد، ولكنه دائما مصاغ حسب أصوله. صارم في البلاد العربية، حيث كان دائما مفروضا بالانتصارات العسكرية، وهو متساهل في البنغال حيث انتشر بسلام بفضل الصوفيين، الناسكين الآتين من شمال الهند؛ لم يفرضه أبداً السلاطين المحليون على الشعب، إن كان بوذياً أو هندوسياً. هؤلاء الرسل الصوفيون يستقرون على تخوم القرى؛ ينشئون مدارس ومستوصفات؛ تصرفاتهم كانت متقشفة ومثالية.نحو القرن السابع عشر، كانت الظروف مواتية لهم: المالكون الكبار للأراضي والدائنون رهن حيازة، أغلبهم هندوس، شددوا على دقة تقسيم أتباعهم في فئة صارمة. على العكس منهم الصوفيون يقدمون ديانة عادلة، شخصية، تكره الفئات. في العالم الهندي، الإسلام حر. بالعكس من الهندوسية المعقدة، لا يفرض الصوفيون أي طقس؛ في نسختهم الخصوصية للإسلام، الاتصال مع الله هو أساسي أكثر من ترديد الصلاة خمس مرات يوميا؛ لا يبغضون الرقص والموسيقى، الحاضريّن في الهند، فبواسطة النشوة يقتربون من الله. هكذا هي هذه الديانة الجديدة، على الصعيد الانساني، هي حديثة وفعّالة مع مدارسها، مع مستوصفاتها وأطبائها، لقد أغرت الريف، العمال اليدويين، القرويين بينما بقي البراهمة والفئات الأخرى العليا الهندوسية غير حساسة.كثير من القبور لأوائل المبشرين أصبحت ضريحاً أو غرفة خدمة للبيرة المعاصرين، منذ دخول الإسلام بواسطة الصوفيين، تغير الإسلام البنغالي قليلا.

هذه النسخة التصوفية عن الإسلام تغري، تلقائياً، الغربيين أكثر من تلك المتمثلة في صرامة العالم العربي؛ ربما هي مألوفة لنا أكثر، لكونها أكثر قربا للصوفية المسيحية، لتقاليد القديسين و، الموسيقى المرافقة، هي ابنة عم للكنيسة أكثر منها للجامع ؟ هناك مسيحيون أصبحوا مسلمين مثل لويس ماسينون اعتقدوا بأنهم وجدوا في الصوفية جسرا بين الديانتين، بداية لكنائسية أسمى من كل الكنائس المؤسسة.

ولكن هذا التجميل للصوفية في عيون الغربيين يخفي الجانب السحري، الذي هو أكثر عدم منطقية أيضا- في حدود كون المنطق متلائما مع الوحي- من الإسلام الوهابي. إلى أي حد لا يحول البير بممارساتهم تابعيهم عن العالم الحقيقي؟ ألا يسجنونهم في التفكير السحري، فيساهمون هكذا في نقص عام للتربية وأخيرا، في التخلف الاقتصادي ؟ ليس من الممكن عزل هذه المساهمة غير الإرادية للجمعيات التصوفية في خلق الفقر في بنغلادش.

فشل دولة الإسلام

في جغرافية العقلية الفرنسية، لا تحتل بنغلادش مكانا محددا، على الرغم من أنه سنة 1 9 7 1، في معركتها من أجل الاستقلال، تلقت هذه الأمة مساندة أندرية مالرو الصاخبة؛ وكانت آخر معركة له، إلى جانبه شاب مبتدئ برنارد هنري ليفي، وكانت أول قضية له. ملتمساً من قبل المقاومة الأفغانية ضد الاحتلال الباكستاني، ظن مالرو بأنه عاد إلى الحرب الإسبانية؛ فدعا عن طريق الراديو لتأليف فرقة عالمية لمساعدة بنغلادش. يلبي برناد ليفي. اتضح أن تعبئة رجال أدبنا أكثر بطئاً من تلك التي للجيش الهندي، الذي بدون تروٍ طرد الباكستانيين في مدة أسبوعين. منذ ذلك الحين، يشعر البنغلادشيون باتجاه إخوتهم الكبار مشاعر مختلطة كالفرنسيين المحررين بواسطة الأمريكان، هم أيضا عظموا مقاومتهم الداخلية. في الواقع، جيش بأكثرية هندوسية هو من حطم جيشا إسلاميا ليحرر شعبا مسلما! كما أبيدت حتى فكرة دولة مسلمة حيث يجب أن تكون الباكستان التعبير الحديث عنها: درس من التاريخ قريب، ولكنه منسي.

كانت الباكستان في الواقع، في 1 9 4 7، أول جمهورية معاصرة مؤسسة على شرعية واحدة وهي الإسلام؛ عكس ما سمعنا قوله في أوروبا عن أصلها، فهي لا تسبق إرادة بريطانية لتقسيم الهند. الفكرة بباكستان بإيجاد وطن قومي لمسلمي الهند كانت بدءا تبرعم في خيال المنشد رمز الهنود المسلمين محمد إقبال؛ هذا الشاعر الغنائي والديني، الذي كتب في شبابه باللغة الفارسية، ثم انتقل إلى الأوردو ليقترب من الشعب، في 1 9 2 0-1 9 3 0 كان سيد الفكر للحانين إلى الامبراطورية العثمانية. إقبال بذاته هو من طرح في تصريح شهير، عام 1 9 3 0، مبدأ ولقب الباكستان، أي(بلاد الطاهرين). بقي أن تتحول هذه الرؤية الشعرية إلى حقيقة سياسية؛ النتيجة ليست على مستوى مراثي إقبال.

رسمت الباكستان بدون أي اعتبار للجغرافيا أو الثقافة. ارتبطت بحدود مخططة على عجل من قبل البريطانيين؛ تخلط اللغات بدون أن تكون أحدها مسيطرة، ولكن مؤسس الجمهورية علي جنناه، فرض الأوردو، اللغة التي لا يتكلم بها أحد. وهاهم إذن، السنديون، البنجابيون، البالوشيون، الباشتوس، البنغاليون، كل الشعوب المتآخية بتاريخ طويل، مجموعين بدون موافقتهم الواضحة في دولة واحدة. الرابط لهذا التجمع هو الأسلام. لكن، منذ الأصل، هذا الوطن القومي لمسلمي الهند لا يجمع سوى جزء منهم: مائة مليون بقى في الهند، مما يحد في الحال من شرعية الباكستان. منذ ذلك الحين، تاريخ الباكستان هو تاريخ دولة فاشلة، مهزوزة بالعنف العرقي والديني، بدون مؤسسات سياسية مستقرة، تحت حقن متواصل مالي بفضل مال المخدرات ورواتب المهاجرين.

ألا نستخلص بأن الفكرة نفسها لأمة مؤسسة على الإسلام، والتي تستعلي على التنوع الثقافي، هي فكرة مآلها الفشل ؟

هذا تفسير ممكن: انتماء الباكستانيين هو أولا لأمتهم العرقية، ثم إلى الإسلام، في النهاية فقط إلى الباكستان .. كما يقول والي خان، الرئيس التاريخي للباتشو في الباكستان (أنا باتشو بالثقافة وباللغة منذ 2 5 0 0 عام، من حضارة الهندية منذ 2 0 0 عام، ومن الدين الإسلامي منذ 1 5 0 0 عام، وباكستاني منذ 05 عاما) إنه يناضل من أجل باتشونيستان. بعد خمسين عاما من الاستقلال، على

ما يبدو، الباكستانيون الوحيدون الأصليون والوطنيون هم العسكريون؛ هم من لهم مصلحة مباشرة لوجود هذه الدولة. بدون الجيش الباكستاني، لن تبقى الباكستان؛ الجيش يدير البلاد مباشرة بواسطة الديكتاتور، أو بواسطة وصيه على الحكومة المدنية، ويبحث عبثا على أن تحاك الوحدة باسم الإسلام.

عملية أسلمة الدولة هذه، والشريعة من ضمنها، لم تقوِ الشعور القومي: بالقدر الذي يشدّد العسكريون على صنع باكستانيين مسلمين بإنكار تنويعهم الثقافي، بالقدر الذي يطالب هؤلاء باستقلالهم المحلي. البنغاليون هم من أوائل من هرب بجلده، ولكن الآخرين يزمجرون، ما عدا البنجابيين لأنهم من يسيطر على البلاد ويملك الجيش. الدرس واضح: مبدأ دولة إسلامية ليس مبدأ قابلا للحياة إذا أنكر الثقافات التي تؤسسه، لا توجد حضارة إسلامية ذابت فيها ثقافات ما قبل الإسلام طوعياً.

لربما في الباكستان، ما فشل هو مبدأ دولة إسلامية أكثر من فشل مبدأ الدولة الاتحادية؛ اتحاد كونفدرالي(2)لعدة باكستان كان بإمكانه النجاح بدون عزل الهند بالضرورة. هذا الاتحاد، الذي يقترحه المهاتما غاندي في وقته، ثم مرة جديدة القائد الانفصالي البنغالي مجبور رحمان في 1 7 9 1 الذي يقترح دولة إسلامية ودولة هندوسية؛ حيث يتمتع المسلمون بديمقراطية هندية، وحرية التعبير وبتطور اقتصادي الذي يميز الهند والذي لا يوجد في الباكستان. بحيث إذا، طرح تناقض وتحد على الباكستان، فإن المسلمين في الهند هم أقل تعذيبا من الدولة الهندية ممن هم في الباكستان من قبل دولتهم الإسلامية ! إذا وجدت مواجهات، قل مواجهات طائفية في الهند، فهي منبثقة بالفعل من الفقر ومن التراكم المدني بقدر ما هي منبثقة من التعصب الطائفي. هذا الدرس التاريخي، في معظم العالم الإسلامي، الإسلامويون السياسيون يفضلون أن لا يسمعوه.

كمين إسلامون

بعد الاستقلال، قام أندريه مالرو بدورة انتصارية في بنغلادش المحررة؛ هتف الفلاحون والصيادون أثناء عبوره(عاش مالرو!)· منذ ذلك الحين، وبنغلادش تبرز في إعلامنا بسبب الفيضانات، بالرغم من كونها ضرورية لإخصاب التربة، وأحيانا أخرى من أجل مساندة كاتبة بنغالية في المنفى، تسليمة ناصرين؛ سنعود لهذا الموضوع فيما بعد·

وكوني واحداً من الفرنسيين النادرين الذين عبروا دكا، دعيت إلى معهد الدراسات الاستراتيجية العالمية، مركز للأبحاث مرتبط بوزارة الشؤون الخارجية في بنغلادش عرضت وجهة نظري حول الإسلام، وهي إيجابية إذا قارناها بما يفكر الغرب عادة· الديمقراطية، التطور الاقتصادي، حقوق الرجال والنساء اللواتي تبدون لي متلائمات مع الإسلام؛ فقط الظروف التاريخية وتأثير الايديولوجيات الجديدة ما يمنع المسلمين من إيجاد مكانهم الحقيقي في العالم التعايش الوجودي وليس في عالم الصراع بين الحضارات· كما عبرت عن تخوفي من أن يتراجع تنوع العالم الإسلامي عن مكانه لأحادية مفقرة من نوع الوهابية· انتظرت أن أشكر شكر العرف والعادات· وإذا بهم قد فهموني بشكل خاطئ: طلب مني المجلس الذي يرأسه ملتحون صارمون ونساء نصف مخنوقات الرحيل· خضعت لدروس دينية إسلامية؛ لم أكن أتوقع ذلك، على الأقل هنا!

في الأصل، الاستقلال المحقق ضد الباكستان الغربية كان مشروعا ثقافيا مخصصاً للحفاظ على اللغة والحضارة البنغالية، المهددة من قبل سلطة كراتشي التي تريد فرض الأوردو كلغة رسمية؛ من جهتهم، يعتبر الباكستانيون بأن البنغاليين كانوا من قبل هندوسيين تأسلموا حديثا جدا، ما يسمح بإبادتهم· عشرون سنة فيما بعد استطاع البنغاليون الاحتفاظ باللغة، ولكن هل يا ترى قد غيروا الروح، أم ما زالوا مرتبطين هم أيضا بالإسلاموية ؟ أعتقدت بأنني في عالم هندي، من المتوقع أن بنغلادش تساهم فيه وحيث تسود الحرية في النقاشات؛ ولكنني وجدت نفسي في مكان أكثر انغلاقا من الأمكنة التي ترددت عليها في البلاد العربية·

حسب رأي من استمع إلي، كل ما لدي كان خاطئا، ابتداءً من المفردات: ألم أقل، أحيانا، الإسلام البنغالي وكأن هناك عدة أنواع من الإسلام؟ بدون شك، كان عليّ أن أقول الإسلام في بنغلادش، لكون الإسلام واحداً وليس متعددا·

ألم أتطرق إلى خطر ضياع التنوع الثقافي الإسلامي تحت تأثير ضار لدين الإسلام العالمي ؟ صحيح، لقد قلت ذلك· كان عليّ أن أفرح لأن المسلمين سيتخلون عن تنوعهم لإنشاء طائفة كونية للمؤمنين· فقط الولايات المتحدة، وليس الإسلام من يهدد العالم بالأحادية والتنميط·

ألم أتساءل حول التلاؤم بين الديمقراطية، حقوق المرأة والإسلام؟ توقعت حدوثها· هنا أيضا، بالخطأ! لأنني وبخت من قبل الرجال الملتحين في ملابسهم الأهلية، القرآن هو الذي أسس الديمقراطية بذكره وجوب استشارة الشريعة· أما وضع النساء، ألم يقل النبي ثلاث مرات بأنه يستحسن قبل كل شيء احترام الأم قبل الأب ؟ ثلاث مرات! جميعهم هزوا رأسهم يهنئون بعضهم البعض على هذا الاستشهاد الجميل· تبع ذلك درس في الدين الإسلامي، من طرفه إلى طرفه، بطريقة تمتاز بالرتابة وخاصة عندما يكون الدرس معطى من قبل عسكريين·

المثل له دائما ثلاثة مفاصل: كان المسلمون عظماء عندما، كانوا قريبين من أقوال محمد، سيطروا على العالم وأحالوا الكفرة إلى مسلمين. ابتدأ السقوط عندما أهمل هؤلاء المسلمون القرآن وتركوا أنفسهم تتأثر، ثم تحكم من قبل الغربيين. وسيعود الازدهار والقوة لهم عندما يعودون لربط الأواصر مع الطقوس الصحيحة، كما يحددها بالضبط المبشرون. بدأ من هذه الحبكة غير التاريخية وبدون أي علاقة مع المجتمع الحقيقي، يطرز المبشر خطابه باستشهادات غريبة وبحكايات صغيرة؛ الأتباع، مقتنعون سلفا، يعشقون هذه المواعظ الناعمة التي لا تمنح أي مجال للمناقشة. لو كنت مسلما، لما نجوت ذلك المساء من فتوى قاتلة.

لإرضاء مضيفيّ، كنت أعترف ببعض الأخطاء الابستمولوجية ! صحيح بأننا سجناء ثقافتنا أكثر مما نتصوره. نعمل على أنفسنا بجهد كبير، ولكن نظل عرقيين ! نقدي الذاتي في هذه النقطة لاقى ترحيبا، ولكنه لم يفهم كدعوة لكي يتصرف محادثي بنفس الطريقة؛ هم كانوا في الصواب!

لم أطرح سوى سؤال واحد، باذلا جهدي على إخفاء المواصفات المستفزة: (بما أن القرآن كامل، كيف حدث أن المسلمين لا يطبقونه؟) بعد بضعة اجتماعات غير قانونية، سمو الجنرال الأمرد، على طراز الجيش الهندي، يجاوبني باسم المجموعة: ((المسلمون لا يعرفون القرآن جيدا، هذا هو السبب الذي يفسر عدم الكمال في المجتمعات الإسلامية.))

أتابع بدوري:(لأي الأسباب، الشعوب الإسلامية غير متعلمة، وخاصة في البنغلادش، في حين أن الإسلام هو دين كتاب؟) يبلبل المتدخلون: الجلسة تنقسم بين من يعّرف التعليم على المعرفة وحدها للإسلام، والآخرون الذين يعتبرون بأن التعليم لا يختلط مع حفظ القرآن. انتهت الجلسة؛ وقد قرر بشكل مبهم على أن نجتمع مرة جديدة لمناقشة هذه السؤال عن التربية والتعليم.

من كانوا محاوريّ في معهد الدراسات الاستراتيجية ؟ سفراء، كبار الموظفين، ضباط، بعض الجامعيين: الإسلام السياسي في بنغلادش هو ظاهرة بيروقراطية تجمع النخبة الإدارية والسياسية، بمعنى تجمع الأكثر تطورا، الأكثر مدنية، الأكثر علاقة مع الغرب من بين البنغلادشيين. أهو تحول للدين الإسلامي كنتيجة للعولمة ؟ لقد وقعت هذه النخبة في عطل ايديولوجي؛ كانت اشتراكية بعد الاستقلال، ولكن الاشتراكيين الحقيقيين فشلوا كما في كل العالم. أهو الانضمام إلى الليبرالية ؟ ينفي البيروقراطيون هذا الاحتمال: إنهم يخافون أن يظهروا كملحق أميركي، وفضلا عن ذلك كون بنغلادش مسنودة بواسطة المساعدات العالمية. لقد استلمت 04 ميليار دولار خلال ثلاثين سنة الأخيرة، إنها الأمة الأكثر تلقيا للمساعدات على سطح الأرض، بفضل نوع من خطة مارشال الدائمة؛ بالإضافة إلى الرقم القياسي لتواجد المنظمات العالمية غير الحكومية ذات الميول الإنسانية: أكثر من ثلاثة آلف منظمة.

هؤلاء النخبة البيروقراطية هم الأوائل ممن يستفيدون من ذلك، كيف لا يعضون اليد التي تغذيهم -البنك العالمي، صندوق النقد العالمي، الامم المتحدة- وكل الأرواح الطيبة على وجه البسيطة ؟ هذا إنساني. أليس من المستطاع أن يثبتوا البنغالية كثقافة والبنغلادشية كجنسية، والإسلام كديانة ؟ في 1 9 7 1، كانت هذه الهوية الثقافية والقومية كافية لأن تسمح بالوجود، ولكنها لم تعد تكفي ثلاثين سنة فيما بعد، أن تفرض نفسها في السياسية الداخلية ولا في أنظار العالم الخارجي: في وقت العولمة، يصعب تحديد مركز بنغلادش. يبقى أن الإسلاموية تعطي بطاقة للدخول إلى عائلة كبيرة فكرية من وجهة نظر دكا، تبدو كبديل عن الامبراطورية الأميركية. ليس ضروريا أن تكون

ممولا من قبل السعودية لكي تنضم إلى تلك الجماعة إنها تنطلق بشكل طبيعي من وضع البيروقراطيين في بنغلادش· مواجهين العولمة الليبرالية التي، في آن واحد، تساعدهم وتحقرهم، فيعتنقون العولمة الإسلامية كردة فعل· وضع ليس له علاقة مجسدة مع الدولة البائسة لبلادهم، غريبة عن كل حلول واقعية لفقر الكتلة الشعبية؛ العولمة الإسلاموية، هي أكثر من مشروع، إنها رقية تتحقق عبر معارضتها لنا·

الرغبة بخليفة

صحيح أنه، إذا نظرنا إلى الغرب من بنغلادش، سيبدو مرهقاً غير مبال للظروف المحلية. هذه الإنقاذية الغربية تشتد، وهي ملاحظة بشكل أكثر عند الأميركيين، بينما هي أخف عند الأوربيين: إن زمن اكتشاف الآخر، وتعذيب الضمير والنسبوية(3)الثقافية، قد مضى. حلت محله ثقة جديدة بأنفسنا، التي رسخت بسبب 11ايلول، الذي غذى الشعور بأننا نخوض معركة عادلة ضد كل الأصوليين (التماميين). تظهر هذه الإنقاذية في تطور القضايا التي تدافع عنها المنظمات العالمية غير الحكومية. فلم تعد تصارع ضد المجاعة التي، في بنغلادش كما في الهند، بدأت تتراجع بفضل (الثورة الخضراء)، ولكنها تحولت للدعاية ضد الظلامية(4)الدينية، لحقوق الإنسان والديمقراطية. ولكن الديمقراطية، كما تعاش في بنغلادش، ليست تجربة مشجعة.

منذ 1991، تخلت الديكتاتوريات العسكرية عن أمكنتها في الحكم لصالح نظام الأحزاب: حزبان يتناوبان السلطة، كل منهما منظم حول رئيس من سلالة كبرى، ابنة أول رئيس دولة هي أرملة الثاني. هذه الأحزاب التي توظف قطاعي طرق أكثر مما توظف مناضلين، هي بدون مبدأ ولا برنامج. إذا وجدت (مرحلة بدائية للرأسمالية) حسب تعبير الشهير لكارل ماركس، بنغلادش تمثل مرحلة بدائية للديمقراطية: تشترى الأصوات واستلام السلطة يقود بالدرجة الأولى للغنى غير الشرعي للمنتخبين وزبائنهم.

للشعب، الذي هو مواطن فقط في وقت الانتخابات، الديمقراطية الممدوحة للغاية من قبل الغربيين لا تساهم في الازدهار الاقتصادي، ولا في السلام المدني؛ الأحزاب الخاسرة لا تتوقف عن تنظيم هارتال اضرابات تفلّس أو تدمّر البلاد الفقيرة، ومنع الغالبية الوقتية أن تحكم. بعيدا عن تقوية الأرواح الديمقراطية، التجربة المعاشة تؤجج الرغبة بمستبد متنور. هذا الرجوع للتقليد الإسلامي للخليفة مقوى بالتاريخ الحديث: تبين أن الدكتاتور العسكري أفضل إدارة للاقتصاد والأمن مما هي وما تفعل الحكومة المنتخبة. خلال مناقشاتنا في معهد الدراسات الاستراتيجية، توقف جهاز التكييف؛أصبحت الحرارة والرطوبة غير محتملة؛ كان ذلك بسبب الهارتال. بنغلادش هي ديمقراطية معتدلة بالإضرابات. (أليست هذه أفضل، بالوقت نفسه، من الديكتاتور العسكري الذي يسبقها ؟) أبديت هذه الملاحظة، فردّ عليّ بعنف: المجلس كان يفضل الديكتاتور على الديمقراطية بهارتال. جنرال متقاعد يلاحظ بدون سخرية بأن الوزير الأول ورئيس المعارضة هما امرأتان، الديمقراطية التي تعهد السلطة إلى النساء لا يمكن إلا أن تكون نظاماً سيئاً.

البنغلادشيون لا ينظرون باتجاه الشرق، ولكن باتجاه المشرق: يتبينون أن جيرانهم الحاليين، ماليزيا وسنغافورة مزدهرون أكثر منهم تحت سلطة رجل قوي واحد، محمد مهاتير في ماليزيا، لي كوان يو في سنغافورة. إذاً ديمقراطية الهند المجاورة لا تلهم البنغلادشيين بشيء؟ إذ لم يكن المسلمون في الهند، محميين بالديمقراطية، فلربما كانوا محطمين أو مطرودين من قبل الأغلبية الهندوسية، ولكن البنغلادشيين الذين ليسو أقلية عندهم ولا يشعرون بهذه الحاجة للديمقراطية لحمايتهم؛ لذا لم ينقطعوا عن محاولة التمييز عن الهند: ماليزيا، بالمقابل، تشكل لهم مثالا كونها مسلمة.

في مواجهة هذه التجربة المحلية، ينقص دعاة الديمقراطية الغربيون الحجج العملية. أما المستبدون فنادراً ما يكونون متنورين: هذا ما يرد عليه البنغلاديشيون بأن حكماءهم الديمقراطيين هم أيضا أقل تنورا بكثير. ونضيف، الديمقراطية، نضيف، تسمح بتناوب سلمي، بينما المستبد لا يتنازل عن منصبه إلا ميتاً. ولكن الحلول السريعة لا تزعج البنغالادشي: لقد اغتيل ديكتاتوريون في 1975 و1981؛ عنف يبدو محليا أقل تكلفة من انتخاب. عقبة أكثر رهبة تسيء أيضا إلى دروسنا عن الديمقراطية: إنها معاشة كتشريع للفساد والرشوة. بنغلادش الديمقراطية شكليا، هي أيضا الدولة الأكثر فسادا في العالم. ألكونها مسلمة؟

أول ثمن للفساد

في قريته في ريف كوميلا، يلاحظ منصور بأن بعد كل فيضان يسقي حقول الرز، يبذل جاره حسن جهداً ليتطاول على ملكيته؛ على تربته الخصبة ذات الحدود المتحركة، بضعة سنتيمترات رابحة أو ضائعة تعمق الفرق بين حياة لائقة والسقوط في البؤس. ولكن إنذارات منصور لحسن ظلت بدون فائدة؛ الآخر ينفي كونه غشّ والماء الذي يغير الحدود لا يسهّل في إيجاد حل بالتراضي. يقرر منصور إذن أن يقتل حسن، طريقة لحل الصراعات منتشرة بما فيه الكفاية في هذا الريف من بنغلادش؛ فيستشير، ينصحه البير ألا يفعل. تبقى العدالة الرسمية، مدارة من قبل قاضٍ أو رئيس - مجلس، رحلة ثلاث ساعات في الباص. لعرض شكواهم، استقبل منصور وحسن من قبل شابة في فستان أسود، على طراز بريطاني. يبدو عليها بأنها ملولة جدا من هذا الريف وصراعاته الحدودية فما درسته في الجامعة دكا لا يتطابق مع هذا. لم تصبر إلى نهاية قصتهما لتسأل كل واحد منهما عن المبلغ الذي ينويان دفعه لها.صعق منصور، أليست العدالة مجانية ؟ حسن أكثر خبثا ويعطي ألف تاكاس، ما حمله معه. الجلسة القادمة ثبتت بعد ثلاث أشهر. بعد سنة من الجلسة الأولى، أفلس منصور ولكي يرضي متطلبات القاضي، اضطر إلى بيع أرضه؛ رحل مع أهله ليزيد عدد العمال المياومين في (دكا). أما حسن الذي استطاع أن يمول عدالة بلاده، فلقد أصبح المالك السعيد لأرض منصور، بالإضافة إلى أرضه. هذه القصة هي قصة حقيقية عادية؛ يحدث مثلها كل يوم، في قرى بنغلادش.

فساد الموظفين في بنغلادش ليس فقط البرطيل أو الرشوة للبيع بين الدول، ولكنه غنغرينة آكلة يوميا، تؤذي الطبقة الأكثر فقراً في المجتمع. إنها تفاقم عدم المساواة وتنهي كل مؤسسة على المدى الطويل: يصبح المجتمع أكثر ظلماً وأكثر فقراً. وإن لجأ الفلاحون الأكثر عوزا للعنف بدلاً من البوليس أو العدالة فهذا أمر غير مدهش: إذا كانت بنغلادش كلها هدفاً للعنف المتطرف، فهذا لأن دولة -القانون غائبة. بالمقابل، في القمة أو في الطبقة العليا، تتأنق الطرق، هروب من الضرائب، فواتير غير حقيقية، تحسم من الوزراء لكي يسمحوا بمشاريع سكنية أو صناعية، تحويل كُلي للمساعدات الأجنبية لصالح أشخاص خارج البلاد.

في 2 0 0 2، نالت بنغلادش لسنتين متلاحقتين، الجائزة الأولى للفساد من ضمن مائة واثنين أمة مفحوصة ومبوبة من قبل جمعية محترمة، الشفافية العالمية TRANSPARENCY INTERNATIONAL، ومركزها في برلين. في بنغلادش، قليل من يعترض على صلاحية هذا الترتيب: يبقى أن تحدد الأسباب. هل الفساد يجري في عروق البنغلادشيين ؟

أ يمكن أن يكون ذلك نتيجة ثقافتهم ؟ كلمة بقشيش، التي أصبحت عالمية، ألا تؤشر إلى ميل العالم الإسلامي نحو الالتفاف حول الأنظمة أكثر من الاتجاه نحو روح القانون؟ الفساد، كما يبدو لي، ظاهرة من التاريخ الحديث لبنغلادش أكثر من ثقافتها أو من دينها. الأمة ذات الدولة الحقوقية، هي ذات أصل موروث من البريطانيين، قد فقدت مصداقيتها منذ الاستقلال:في 1 9 7 1، ولأن الدولة كانت باكستانية، فتحطيم المؤسسات الحكومية، البنك، أو اغتيال موظف يعتبر عملاً وطنياً. بعد الاستقلال: تكاثر الديكتاتوريون بحرية مطلقة بدون أي حق. منذ 1 9 9 1، في الديمقراطية

البدائية، المال والعنف هما من يتحكمان في الاختيارات السياسية والعادات الإدارية. يضاف إلى ذلك الفساد المؤسسي، المساهة الحاسمة للمساعدات الأجنبية: بدون شفقة البلاد الغنية، لما حصلت بنغلادش على الجائزة الأولى للفساد!!

منذ الاستقلال، تسارعت المنظمات العالمية، الحكومية وغير الحكومية، للسهر على هذا المريض الفقير من بين الفقراء؛ كرم كانت نتيجته الأكثر وضوحا هي خلق طبقة من حديثي النعمة مرتبطة بتنقلات رأس المال. ولكن، الأثر الأكثر ضلالا من الفساد، هو أن المساعدات سمحت لكل الحكومات، منذ ثلاثين عاما، على أن لا تملك سياسية للتطور، وعلى أن لا تأخذ قرارا لزمن طويل. مثلا: تملك بنغلادش مصادر للغاز الطبيعي، الذي يمكن أن يباع للهند ويجلب عملة صعبة ضرورية لتصنيعه؛ ولكن الأحزاب السياسية ترفض (تصفية الثروة الوطنية) التي بالطبع لا تساوي شيئا إذا ظلت تحت الأرض.

لولا المساعدات، منذ زمن طويل، لكان من الممكن للحكومة أن تنال قدرا أقل من المساعدة أن تعهد استثمار الغاز لشركة عالمية مختصة بذلك.من الصعب فضح هذه المنتجات الصادرة عن المساعدات الخارجية، لقد حللت من الداخل من قبل جمعية اقتصادية معترف بمصداقيتها، والتي يديرها بروفسور في جامعة دكا، أبو بركات. الذي فحص المشاريع الممولة بالمساعدة بمقارنة الأهداف المعلنة مع النتائج المحققة: فاستنتج أنه 57% فقط من المال، لا يصل إلى وجهته، كما اتضح بأن التبذير الأكثر خطورة هو حيث المقصدين هم الأكثر عوزا، بدون دفاع وبدون من يمثلهم. نشر أبو بكر دراساته في اللغة البنغالية ليحصر النقاش في بلاده ولكي لا تقود إلى فضيحة عالمية؛ لقد حقق مأربه بشكل يفوق كل التوقعات، لأن ممثلي الاتحاد الأوربي والبنك العالمي، الممولين الأوائل لبنغلادش، تظاهروا بعدم قراءة تقريره.

أين يذهب المال ؟ نصف، مما يحوّل، يرجع إلى البلاد الأصلية بقنوات مختلفة: شراء المواد الباطلة غير سارية المفعول من مؤسسات غربية، رواتب مبالغ بها للخبراء، مهمات بدون موضوع، دفع فواتير خدمات غير موجودة. النصف الآخر يفيد البنغلادشيين الممركزين على دائرة هذه المساعدة: البيروقراطيين، السياسيين المستوردين، الخبراء المحليين، ويضعون نصف المبلغ المحول خارج بلادهم في البنوك. إذن الفساد يعمل مثل شبكة مغلقة حيث المانح والآخذ هما شركاء كما المنظمات العالمية غير الحكومية الذين لهم مصلحة على الإصرار على فقر بنغلادش حتى على مبالغتها لالتقاط المال من المانحين الغربيين، من العامة والخاصة؛ عل مسؤولية ممثلي المنظمة أن يجدوا في المنطقة القضايا الجيدة والوسائل لصرف المال. الضحايا لهذه الخديعة المزحة الخشنة، مثبتين من قبل السلطات الوطنية والدولية، هم الأكثر فقرا: لا يتلقون شيئا مما هو مخصص لهم، والمساعدة تقتل التطور، لقد فضح أبو بركات هذه العلاقة المتبادلة العكسية بين التطور والمساعدة: في السنوات التي تزداد فيها المساعدات، تنقص فيها الثروات الوطنية. ما يفسر: عندما نعوض الادخار والاستثمار، المساعدة تحرض على عدم التطور.

كيف نهرب من هذه الدورة التي لا تدين بشيء للثقافة المحلية، لا شيء للإسلام، بل تدين بكل شيء إلى الأفكار المسبقة (للتطور بالمساعدة) الأعمال الخيرية ؟ لا نعرف: هذه التأثيرات السيئة للمساعدة قد فضحت عبثاً من قِبل الاقتصادي بيتر باور. الحقيقة لا تهم إلا لمن ليس لهم أصوات؛ ولكن لا تشغف البلاد الغنية، التي تجد في المساعدة إضافة من راحة الضمير، ولا شركاؤهم في البلاد الفقيرة. يبقى التمرد.

وحيد ضد رجال الدين

في نهاية 1990 عبرت شخصيتان فذتان بنغلادش إلى المشهد العالمي لتدافعا عن نفس القضية: قضية النساء المقموعات. لكن لا يمكننا أن نتخيل ممثلين اجتماعيين أكثر اختلافا بشخصيتهما، بتحليلهما والحلول التي ينصحان بها.

الأول هو رجل مصرف أو بنك، مؤسس بنك خاص لا يديّن إلا الفقراء، متخصص في القرى والأفضلية للنساء. اسمه محمد يونس. بدأ من بنغلادش، وسّع معركته إلى مختلف البلاد واقترح أن يعمم ما نجح في بلاده: ميكرو قرض أو اعتماد صغير. إن النساء في بنغلادش لسن مقموعات بالإسلام، بل بالفقر؛ ليخرجهن منه، إنه يعرض أن يحولهن إلى متعهدات بفضل قرض بسيط موافق عليه بدون شروط. مع يونس الاقتصاد ينقذ الإسلام؟ لا يلعب أي دور في إجراءاته؛ هو نفسه ليس رجلا ورعا.

في الطرف المعاكس، تسليمة ناصرين التي تعتبر أن اضطهاد المرأة هو نتيجة القرآن: يحتاج تحريرهن فضح الملالي. من القرآن تسحب شواهد مطابقة لرأيها تحط من المرأة؛ ضد الإسلام، تعلن بأنها ملحدة، ومن الحركة النسوانية.(5)مثل هذه المطالبات مسموح بها بشرط أن تكون منتمية إلى حلقة ضيقة وأنيقة. ولكن تسليمة هي مقاتلة تبحث عن المواجهة وتحوزها. في 1994، كان عمرها 53، دكتورة تمارس مهنتها في دكا، مطلّقة، كتبت في صحف العاصمة والمجلات تهاجم الأصوليين؛ إنها تطالب (بتحرير الرحم) والحق بالحب الحر؛ إنها تمارسه جهرا. في قصيدة لها- تعتبر نفسها كروائية وشاعرة-، وتقترح بتحويل المساجد إلى مدراس. هل بالمستطاع الذهاب أبعد من ذلك في العصيان في بلاد مسلمة؟

تقرأ البرجوازية المضادة لرجال الدين تسليمة بلذة. ولكن الاتحاد النسائي في بنغلادش يعتبر أن الاستفزاز هو ضد - الإنتاج؛ فمساندة تسليمة أتت من الخارج وليس من بنغلادش.

في ذات السنة 1994، نشرت رواية فضائحية، العار، تتحدث بتفاصيل عن اعتداء على فتاة هندوسية من قبل إسلاموي (بعيون محقونة بالدم) كتبت هكذا. يتفق النقاد بأنها ليست أفضل ما كتبت، ولكنه الكتاب الذي سيترجم في الغرب. كتّاب محليون يؤازرونها بمبدأ اسم حرية التعبير. ولكن، ما لا يمكن تحاشيه، هو أن بضعة رجال دين من ريف ناء يلاحظون تسليمة، ويصرحون بأنها كافرة، وبالغوا في الحكم عليها.

فتوى ضد كاتب؟ كل من في الغرب يذكر سلمان رشدي. ولكن الفتوى، في الإسلام، ليست سوى رأي قضائي ملفوظ من قبل عالم ديني، وهي غير قابلة للتنفيذ إلا في حال تبنيها من محكمة أو رفضها. إذن تأثير الفتوى متعلق بسلطة الروحية لمن لفظها؛ مفتي خامل الذكر ليس له نفس وزن دكتور في القانون في الأزهر. إذا وجدت في بلد مثل بنغلادش التي لا تطبق القانون الإسلامي، الفتوى تبقى رسالة ميتة لا نفع لها؛ إذا كانت المحاكم تطبق الشريعة كما في الباكستان، فبإمكان الفتوى أن تضيء قراراتهم. الفتوى ضد رشدي كان تنفيذية ومصاحبة بمكافأة مالية لأنها صادرة عن رئيس الدولة الإيرانية بذاته. ضد تسليمة ناصرين، فمفتي من قرية قد قال رأيه؛ للأسف، ولكنها لا ترتبط بأحد سوى نفسه. في بنغلادش، غالبا ما تحول الفتوى عن موضوعها: قرويون

أغنياء يدفعون لرجال الدين ليفتون ضد أعدائهم أو ضد طالبي الزواج من بناتهم إذا لم يكونوا على قدر المقام. تسليمة ناصرين التي كان بإمكانها فضح هذا التلاعب بالإجراءات، نشرت الفكرة الخاطئة بأن الفتوى ضدها هي فتوى تنفيذية.

صحيح، أن الحكومة قد لاحقتها -بليونة- بالتجديف؛ في هذه اللحظة، أخذ الخوف تسليمة حيث شعرت بثقل الدعاية. فسارعت بمغادرتها إلى الغرب، لتطلب الحماية من منظمة العفو الدولية. وهاهي مستقبلة في السويد في 1 9 9 5، ثم محتفى بها في كل أوربا، ومعظمه في الحركات النسائية ومن قبل إعلامنا وكأنها سلمان رشدي تلبس الساري. استقبلها رؤساء دول، وقلدها البرلمان الأوروبي بمدالية ساخاروف. لم يستعلم في أوروبا جيدا عن الكاتبة، لا عن كتابها، ولا عن الفتوى؛ الكاتب جان إدرن هالير (مع كاتب هذه الخطوط)كان الاستثناء. لاحظ الفرق بين قضية سلمان رشدي، المحكوم عليه من الدولة الايرانية، بأن الحكومة البنغلاديشية لم تضع ثمنا لرأس تسليمة، بل قد حمتها. فضّلت تسليمة أن تفضح بنغلادش وتبحث عن ملجأ أو دعاية خارج بلادها، كان من حقها. ولكن كان من واجب حُماتها الاوربيين أن يستعلموا بشكل أفضل عنها.

ألم تخطأ تسليمة الهدف، كما تعتبرها غالبية المناضلات من أجل حقوق المرأة في بنغلادش اللواتي عارضنها ؟ بنغلادش هي بلد عنف. ولكن هل هي ضد النساء لأنها مسلمة؟ العنف يصيب حتى الرجال، هم أيضا مضطهدون بالفقر، وغياب النظام العام، وقسوة البوليس، والعدالة فاسدة. وإذا تحملت النساء عذابا إضافيا، فهل هذا بسبب الدين ؟ إنها تخضع بالأحرى للاضطهاد الأبوي الذي يميز كل القرى في كل الحضارات المحافظة؛ وإذا بدا هذا الاضطهاد مشددّا، فهذا لأن في بنغلادش وضع المرأة يتطور. من الآن فصاعدا، تخرج من بيتها للعمل في السوق، في الأعمال اليدوية، في المصنع؛ ارتقاء اقتصادي يقودهن إلى الفضاء العام، بينما كانت في السابق مزدراة ومحجوبة. القدماء مصدومون؛ يستخدمون الدين لجمح هذه الحرية التي يعتبرونها مهددة لوضعهم. على ما يبدو أن تسليمة ناصرين لم تفهم بأن العنف ضد النساء لم يحصل بسبب الإسلام، ولكن بسبب فقدانه السيطرة على مجتمع يتحول نحو المزيد من الحرية الشخصية.

ارتكبت تسليمة ناصرين خطأ آخرا، أكثر اضطرابا: لكونها لم تذكر سوى الاغتصاب الذي ارتكبه الإسلاموي ضد المرأة الهندوسية، ولم تذكر في أي سطر، بالمقابل، كلمة ضد قطاع الطرق الهندوسيين الذين، يغتصبون المسلمات في الهند، وحتى أن هذا البرنامج ضد الإسلام، تشمئز، وتثور عليه كل القارة الهندية. الأصوليون الهندوسيون يستفيدون من كتاب تسليمة ناصرين قرب مناصريهم؛ إنها لا تعترض. كما لاحظها في ذلك الوقت جان- ايدرن هاليير بأن تسليمة ناصرين كانت ولا تزال حليفة الفاشية الهندوسية لفضح الفاشية الإسلامية، فضلناها أن تفشي في آن واحد الانحرافات في الديانتين. في بنغلادش، هذا التطرف أفقدها مصداقيتها؛ لم تعد تسليمة معتبرة كمحامية عن حقوق المرأة بل كعدوة للمسلمين التي بحثت ووجدت حلفاء في الغرب.

ولكن مهما تكن أهمية الحقيقية المعقدة للعالم الهندي للأوربيين: أرواحنا الطيبة قد وجدت قضية لن تفلتها لذلك النوع من التفاصيل. هذه الحماس للمناضلين الغربيين لفضح الدين الإسلامي، قبل 11 سبتمبر بكثير، يُظهر جهلاً مقصوداً بالعالم الإسلامي، تماماً كعدم الاهتمام الحقيقي لبنغلادش. الجهل الذي يستمر:

صحفنا النسائية تحتفي بشكل منتظم بتلك التي ندعوها (الكاتبة الكبيرة) بدون حتى قراءتها؛ فعملها ذو المستوى الضحل جدا يبقى مجهولا ولأغلبه، غير المترجم ربما جائزة نوبل للأدب على الأبواب!

ISLAMOPHOPIE عقدة الخوف من الإسلام المناضلة

هل هي بسبب الجهل فقط ؟ أو بسبب حقد واع أو غير واع على الإسلام، بحيث أن أي سبب كاف لتأجيجها ؟ هل تسليمة ناصرين ضحية تبحث عن حماية، أو هل التابعون للحركة النسائية ولحقوق الإنسان في أوروبا هم محاربون صليبيون يبحثون عن ضحية الإسلام؟ لأن تكون تسليمة ناصرين ملاحقة هذا لا شك فيه، وأن تعاني من هذيان ارتيابي من رهاب الإسلام لا شك فيه أيضا؛ ما يؤسف أن يكون هذا الذعر من الإسلام متقاسما بدون أي تفكير من قبل مفكرينا المعاصرين. ولكن نفضل أن يكتشفوا كم أن الإسلام شامل وبأن في بنغلادش، كما في البلاد الإسلامية الأخرى، المحبذون لإسلام مستنير يحاربون في الساحة ضد الظلامية(6)

منذ تلك الواقعة، صحيح، أن الذعر من الإسلام قد تقدم في الغرب. تبدو الآن تسليمة ناصرين مثل تذوق أولي لأوريانا فاللاشي. صحافية إيطالية نُسيت قليلا، ثم ظهرت في 2 0 0 2 ونشرت هجاء برازيا(7)ضد الإسلام، اسمه الحنق والكبرياء، نجح نجاحا تجارياً في عدة بلاد أوروبية.تصب الكاتبة حقدا بذيئا ضد (العرق) الإسلامي، مُبهّراً بتخيلات جنسية التي تصفها أكثر ما تصف القرآن الذي تستشهد به بالمقلوب.كان لهذا الهذيان أن يكون غير مهم لو أن كتابا مماثلا لكتاب تسليمة ناصرين لم يتلق هنا (في فرنسا) ككتاب يستحق الاهتمام؛ من غير شك، أن فاللاشي مثل تسليمة ناصرين قد أفشلوا النقد لكونهما امرأتين ولكون الغربيين في قعر أنفسهم مؤمنين أن الإسلام يضطهد النساء بالضرورة. تستسلم صاحبتا كتابي الهجاء للأحكام المسبقة بخلط الإسلام والقمع الذي ينتج عن كل ثقافة أبوية، وما يكثفه الفقر.

تجاهل الحدود بين الدفاع عن الحقوق المرأة في الإسلام والذعر المرضي من الإسلام لا يخدم القضية التي ندعي الدفاع عنها: المجادلات حول تسليمة ناصرين وأوريانا قد أوّلت في العالم الإسلامي ليست كشفقة الغربيين على مصير المرأة المسلمة، ولكن كظاهرة من الحقد ضد المسلمين. وهذا لم يكن بدون شك غاية الاتباع الأوربيين للقديسة تسليمة والقديسة أريانا، ولكن تلك هي نتيجة الموضوعية لما، عندنا، يقال وما نشر لصالحهم.

الرجل الذي حرر النساء

محمد يونس، هو، ليس شاعرا بل اقتصاديا؛ في 1976، يعود من الولايات المتحدة ويدرّس اقتصاد التطور في جامعة شيتاغونغ. بين درسين، يتجول في الضيعة المجاورة؛ ويقابل النساء اللواتي، طوال اليوم، يصنعن منضدات خفيضة من الصفصاف، عمل مضنٍ يسمح لهن فقط بالعيش. في الحديث معهن، اكتشف يونس بأن، عدم امتلاكهن لأي مصدر، يجعلهن يعتمدن اعتماداً كاملاً يوم بيوم، على مزوديهن بالمواد الأولية وعلى المشترين الذين يفرضون عليهن أسعاراً زهيدة. يكفي لتلك النساء أن يمتلكن بعض الاعتمادات ليشترين المواد الأولية مسبقاً ويخففن بهذا عبوديتهن.يطلب يونس من بنك محلي أن يمنحهن قرضا: بضعة دولارات. يرفض البنك، لأن الأشغال اليدوية لا تقدم أي ضمان لإيفاء القرض. يقدم يونس نفسه ككفيل ويحصل على هذا القرض الذي يمنحه للفلاحات. بفضل ربحهن، يسددن القرض ليونس بدون أي صعوبة. فتخطر له فكرة إنشاء بنك لا يقرض سوى الفلاحات الفقيرات. وللحرص على استعمال منطقي للقرض، وحصر المجازفة بعدم التسديد، البنك غرامين (الذي يعني القرية في اللغة البنغالية)، لا يدين سوى مجموعة عددها على الاقل خمسة نساء، يصبحن هن أيضا مساهمات في البنك.

وهكذا حوّل يونس هؤلاء النساء لمتعهدات ومساهمات ذوات أقدام حافية؛ سبع وعشرون سنة، فيما بعد، بات بنك غرامين ثلاثة ملايين امرأة مساهمة وزبونة.

قص يونس قصته في كتبه وفي مؤتمراته بحيث إننا شككنا أحيانا ببساطتها: اكتشاف الفقر والحل الانقاذي يشابه ويلتبس به كوحي بوذا. يبدو على يونس نفسه مظهر المتعهد الأمريكي الكبير أكثر من ناسك نذر نفسه لقضية البائسين؛ في دكا، يرأس اتحادا ماليا ضخما من ضمنها البنك غرامين الذي ليس أكثر من فرع. يدعي أنه ابتدع ما سماه (ميكرو قرض) ولكن هذا موجود قبله على أساس محلي، مثل التونتية(8)يتشارك بموجبها عدد من الأشخاص بحيث توزع حقوق أحدهم، عند وفاته على سائر رفاقه) في آسيا أو في أفريقيا. اختلافات درجاته التي جاء به، لا يبقى أقل صحة بأن يونس قد أعطى للميكرو- قرض شأنا لا سابق له وقد أسسه على قواعد اقتصادية دائمة التدفق؛ فالقروض الممنوحة من قبل الغرامين مسددة بنسبة 89% للبنك، مكتفيا بذاته، لم يعد يتلقى أي مساعدة خارجية. لقد دخل غرامين في الرأسمالية البحتة، الرأسمالية التي تحرر بمنح النساء استقلالاً اقتصادياً ووضعاً اجتماعياً.

وهكذا أعطى يونس درسا للمانحين الكبار ولاقتصاديي التطور وإلى كل المنظمات للمساعدات غير الحكومية المحسنة: ليس المعونة بل الاقتصاد هو ما ينجي. كل هذا لأنه كان في الأصل مغتاظا من عدم التماسك بين المقولة حول التطور ونتائجه فصنع غرامين. لماذا فضل النساء؟ لأنهن الأكثر بؤسا، ولكونه يثق بهن أكثر: فهن لن يبعثرن القروض وسيكنّ أكثر حرصا من الرجال على تسديده.

المبادرة الأكثر حداثة التي بادرها يونس، في 2002، هي إنشاء قروض لإيجار تليفونات خلوي للفلاحات. فأصبحن آنسات التليفون، بإعطاء خدمة مدفوعة لمجموعة القرية التي تجد نفسها فجأة موصولة بالعالم الشاسع. التحدث مع ابن أو أخ، عمال في الكويت أو في العربية، بواسطة آنسة

التليفون؛ وأكثر من الربح الضئيل الذي يقبضونه، هو مكانتهن الاجتماعية التي تنقلب رأسا على عقب يدرك يونس هذا الفاعل، بأنه سيدخل في صدام مع نظام الأبوة للقرى والمولاة، الذين لا يقبلون أن تهجر الفلاحات أعمالهن التقليدية؛ ولكونه لا يضمر أي تعاطف مع هؤلاء المولاة فالصدام يسره. فروع الغرامين، المهاجمة من قبل الملالي، أصبحت، كما يبدو لنا، رمزا لتحرير المرأة؛ انها تبلور الحقد الانفعالي، مثل ماكدونالد في فرنسا، يشدّد. من بين النقد المحافظ ضد يونس، اعتراض اليسار كان له صدى بأن درسه عن الرأسمالية المطبقة لا يمكن له أن يغري؛ في هذا الحزب، يتهمونه بأنه قد (خفف الفقر)بدون أن يجند البلاد في تطور حقيقي. في الواقع، هذا التمييز بين (تخفيف الفقر) و(التطور) يطبّق على كل البلاد الفقيرة ويتطلب بأن تكون المعركتان مقادتين من الجبهة. وهكذا في بنغلادش، ألا يوجد تناقض بين تحرير المرأة بواسطة الميكرو -قرض وتحررهن عن طريق الصناعة. في كل يوم، تعمل مليونا شابة في مصنع النسيج الذي سيصدر إنتاجه إلى العالم. جهد لا يرضي حركاتنا النسائية وأعداء العولمة: سيفضحون بحماس شكلاً من إجمالية العبودية لصالح المؤسسات المتعددة الجنسيات. ماذا يظن المعنيون ؟ دخولهم في المجتمع الصناعي، بالرغم من قسوته، فهو معاش مثل التحرر من العبودية التقليدية التي هي أكثر ثقلا؛ بفضل العمل المدفوع، نهرب من المولاة، مثل أوربا، الهروب من الكهنة! تاريخ تحرر النساء في الغرب ليس مختلفاً: العمل هو القاعدة لحقوق أخرى ناتجة عنه. عندما يعترض أعداء العولمة والحركات النسائية التحرر بواسطة الاقتصاد وبواسطة الصناعة، يجدون أنفسهم في نفس معسكر الإسلامويين المعادين لكسر التقاليد.

الطالبانية أو التطور

للمدن الكبيرة في آسيا رائحة تميّزها، باستثناء سنغافورة التي لا رائحة لها. طرقات دكا القديمة، كلما اقتربنا من حوافي براهمتور، تعبق رائحة سوق السمك؛ عربة أكبر الدراجة تتسرب بين البسطات حتى جامع خارجيين، أقدم جامع في المدينة. العادة أرَّخته بدون أي تحديد إلى العائلة المالكة المغولية؛ ليس مهما، لأن التصليح المتكرر لا يدع للهندسة الأصلية أن تظهر، مغطى ببلاط للحمام؛ بعض الأفكار لتحديثه. حول المسجد، مجموعات من هنا وهناك، مباني من القرميد تحتوي أقدم وأكبر مدرسة لهذا الجزء من العالم، كل سنة، يتخرج منها ملايين من الصبيان الذين كرسوا سبع عشر سنة من طفولتهم ومراهقتهم لتعلم القرآن (حفظه غيبا ثم قراءته). الأحاديث النبوية، التقاليد الأصلية، القضاء الإسلامي وفن تشكيل الفتوى. الأكثر مهارة يتعلمون اللغة العربية، ما يكفيهم أن يحلفوا بلغة محمد، التي يعتبرونها لغة الله؛ لن يفهم المؤمنون منها شيئا ولكنهم سيكونون متأثرين.

هذه المدارس الخاصة - يوجد منها حوالي عشرة آلاف في بنغلادش-، هي مصدر ريبة للغرب. أليست المدارس منشأ الطالبان، ، كل طالب له هدف أن يخوض الحرب المقدسة أو الجهاد ضد الغربيين ؟ في الحقيقة، نحن نعرف القليل عن تلك المدارس، كما لا يعرف الطالبان عنّا شيئاً. في دكا، بدا لي بأنني كنت أول أوربي يزور تلك المنشأة، صحيح، أنها قليلة الترحيب. المفتي الذي يديرها بدا مستغربا من بحثي: هل كنت في خدمة بعض المنظمات العالمية، بالأحرى، جاسوسا؟ صفة الوحيدة ككاتب- ولست حتى صحافيا- لم تطمئنه. هل كنت عضوا في المنظمات الإنسانية غير الحكومية، نوع معروف ومعتبر في بنغلادش بسبب الإعانة المالية التي يوزعونها بدون تفرقة؟ لا شيء من كل ذلك، كنت أريد فقط أن أكتشف ما يغذي خيالنا. جعلني المفتي أعرف بأنه

ليس إرهابيا - الخطوة الأولى لرجال الدين الذين لهم علاقة مع الغربيين- وبأنه جيد حقا أن (التقرب بين الشعوب لتقوية السلام)، الخ.. مسيطر على المفردات الصحيحة للحوار عن الحضارات.

الأطفال يرتلون، مقرفصين على أرض من الاسمنت، متراكمين فوق بعضهم في صالة تخدم كصف للدراسة وكمكان للنوم؛ تحت سيطرة كاهن ملتح، يرددون سورة من القرآن بغبطة يزيدها حضوري. تعبق من هذا الحشد المتراص رائحة قوية للوسخ والبؤس. البرنامج، شرح لي المفتي، لم يتغير منذ قرون، لأنه تام، وكان من المستحيل إضافة بعض المواد الحديثة للدراسة التقليدية، لأن كل شيء موجود في القرآن والتقاليد. ولكن يستحسن، فيما لو سمحت له بمنحة لهذا الشأن، دراسة الانكليزية، بعد العربية، من الممكن تصورها. جيوبي كانت خالية؛ وعدته أن أساعد في التدريس من فرنسا، أشك بأن منحة كافية.

ما هو مصير هؤلاء الطالبان، بعد انتهاء عشر سنوات من دراسة الدين؟ أجابني المفتي، سيصبحون مستشارين في القضاء الإسلامي أو سيعظون الكلام الحسن. كنا في مجال أمين، فحاولت أن أغامر في حقل ملغوم: ماذا يتضمن هذا الكلام الحسن ؟ هل سيقاتل الطالبان العادات في بنغلادش والبير ؟ وما رأي المفتي بالوهابية في الإسلام ؟ محاوري، الذي يجيد مبحث الذمة(9)، لم يكن ضد البير: هم أسياد محترمون ومسلمون صالحون. لسوء الحظ، تنمو حولهم عادات أقرب إلى الهندوسية منها إلى الإسلام. إذن على الطالبان أن يحترموا البير ويقضون على العادات السيئة. كيف لهم أن يصلوا إلى هذا التطهير ؟ رد المفتي: يكفيهم العودة إلى القرآن الذي يرسم حدوداً بين ما هو هندوسي وما هو مسلم. فتذكرت في تلك اللحظة خوف الإسلاموي أن يتحول للمسيحية بسبب الأقباط؛ وبشكل موازٍ، هؤلاء المسلمون في الهند يخافون (الوقوع) مرة أخرى في الهندوسية، والتي والحق يقال، لم يخرجوا منها تماما. هل المفتي من محبذي الشريعة ؟ لم يتردد لحظة أن يؤكد تفضيله لها؛ على الشريعة أن تكون القانون في بنغلادش، لكون الغالبية هم مسلمون. فبؤسا للأقلية الهندوسية والمسيحية الذي لا يفتأ عددهم أن يتقلص؛ الشريعة تسمح أن تضيق الخناق عليهم حتى النفي.

وماذا يعني له مصطلح (الجهاد) المتناقض بين المسلمين؟ أكد لي المفتي بأنه ليس لديه أدنى شك بالمعنى الحقيقي له: الجهاد هو صراع، في حضن الإسلام، ضد الشر، الانحراف، الفساد و(الإرهاب). سمى بالإرهابيين المسلمين في بنغلادش، الذين يعتدون على المسلمين. ألا يخص هذا الجهاد الذي هو على شكل تحقيق غير المسلمين؟ هذا هو بالضبط، يؤكد المفتي. (فقط في حال الاعتداء من قبلهم، عندها يصبح واجبنا الدفاع). هل الهجوم على العراق هو اعتداء على الإسلام؟ طلب المفتي مهلة للتفكير على هذا السؤال الذي يتطلب تركيزاً بين علماء الدين.

هل للطالبان مهمة قيادة النساء إلى بيوتهن؟ كان المفتي واقعيا. ستستمر النساء في العمل في كل مجالات المجتمع، لا يجبرهن مطلقا على وضع الحجاب- لسنا عربا، ظن أنه من الجيد أن يؤكد ذلك-، ولكن ينبغي أن تكون ملابسهن أكثر حشمة، كان خطأ من الساري أن يكشف الأذرع وأحيانا البطن! تجرأت، متقدما بخطى الذئب، أن أسأل فيما إذا كان لهذه المدرسة علاقة مع العالم العربي وبالأخص مع العربية السعودية. (العربية السعودية، بالنسبة لنا، يعترف المفتي، هي البلد الأكثر احتراما في العالم الإسلامي) أتراهم يستلمون منها مساعدات مالية؟ يذكر بدون تحديد اتفاقاً بين

الجامعات السعودية في المدينة. ما يسمح له أن يؤمن مجانية الدراسة وجذب أكبر عدد ممكن من الطالبان.

وجاء دوري بأن أُسأل. كنت مسيحيا، أليس كذلك؟ كان من الأبسط أن أرد إيجابيا. لكثير من المسلمين كل غربي هو مسيحي؛ لا يوجد ملحدون، إلا إذا كانوا شيوعيين. الفرق بين البروتستانتيين، ارتودكس، أو كاثوليك يتعذر عليّ فهمهم كما يتعذر علينا التمييز بين السنّة، الوهابيين، أو الإسلامويين (ولكوني مسيحياً) رغب المفتي بشدة أن يذكرني بأن المسلمين يحبون عيسى المسيح، الذي كان أيضا واحدا من أنبيائهم. ولكن لم يكن الأعلى. من طرف مفتي، كان ذلك نوعا من التهذيب، تميز الموقف الدائم للمسلمين من المسيحية، : لاحترامها، فليكن، ولكن التفكير حقا فهذا غير مجدٍ.

للاحتفاء بهذه الكنائسية في الظاهر. يقدمون لنا حلوى والكاتو بالكريم والكوكا كولا؛ وفجأة ظهر المولاة من الكواليس وانقضوا على الحلوى التي كانت زيارتي الحجة السعيدة لوجودها. ماذا سيحدث لهؤلاء الطالبان عندما يخرجون من محيطهم ويواجهون العالم الحقيقي؟ لبنغلادش وحدها فقط، يوجد بضعة ملايين لحل لغز النصوص التي يفلت منهم معناها والتي جمالها يطربهم؛ لا أحد يعلم فيما إذا سيحوز هؤلاء الأطفال على إيمان عميق، ولكن سيحوزون على الديانة. كيف سيتواصلون مع بنغلادش التي، على الرغم من كونها فقيرة، فهي في طريق التطور والعولمة ؟ لا شيء، خلال عشر سنوات من تأهيلهم، لا يهيئهم شيء على مواجهة المجتمع ولا على خدمة رعيتهم؛ عليهم أن يضمنوا انفصامية مستمرة بين العالم الحقيقي والعالم المثالي للخلفاء الأوليين. بعضهم يصبح كاهناً ويفتحون بدورهم مدرسة؛ ولكن سيقل أكثر الناس المجذوبين إلى هذا النوع من التعليم. وآخرون، مثل أكبر، يقودون عربة دراجة. وبدون شك، واحد منهم يريد تغيير العالم، للشكل الذي وصفوه له كماض كامل التمام. بعضهم يستخدم التبشير، والآخر، وهذا لا يمكن تفاديه، سيستخدم العنف: وبعضهم سيأتون لتضخيم جيش العولمة للإسلامويين الراديكاليين.

أفيون الأصوليين

في الوقت نفسه يبدو أنه من الصعب أن تصبح بنغلادش (طالبانية)، لكن الأسلامويين هم كما في أفغانستان أو هم كما من الممكن أن تصبح الباكستان. لأنه ينقص بنغلادش عنصراً ضرورياً للثورة الإسلامية، وللانتقال من عنف الزميرة إلى دولة محكومة من قبلها وهو: مال المخدرات. من كلومبيا إلى أفغانستان، من بورما إلى إفريقيا الشرقية، لا يوجد حرب العصابات في العالم كله لا تتطابق فعاليتها مع إنتاج، تحويل، استهلاك المخدرات الممنوعة. الهبات التي تعطيها العائلات في الخليج والعربية لا تستطيع أبدا خلق رأس مال ومصالح مادية مهمة للغاية كالتي يمنحها الأفيون في الافغانستان والبورماني. بدون أن تكون معزولة عن الدائرة البورمانية، بنغلادش أو الباكستان، في المقابل، لا يمكن أبدا الطالبان أن تجند وأن تزود بالمعدات بدون المصادر اللامتناهية للأفيون المزروع في المكان نفسه، مصفّى ومصدّرا بدأ من كراتشي.

لإرادتنا الكبيرة بتوضيح كل شيء بواسطة الإسلام وليس بواسطة الاقتصاد، نصبح حلفاء للإسلامويين ولمن يتلاعب بهم، بدون إيمان، بدون العداء للأمريكان، لا يملك الطالبان النزعة لحمل الجهاد عندهم وعندنا، ولكن، بدون الأفيون، لا يملكون أية واسطة.

المولاّ الذي بلع ثلاث قطع كاتوه بالكريم سأل المفتي السماح له أن يسألني سؤالا. كان السؤال مختصرا وبسيطا: (لماذا يحارب المسيحيون المسلمين ؟) طلبت منه أن يكون أكثر وضوحا. بدون أن يلزمني مترجم من البنغالية سمعت: (صدام حسين، فلسطين، أفغانستان، الشيشان). ووافق عليه بهز رؤوس الملالي الآخرين. إن هذه الأزمة، حسب رأيه، ليست سوى مناوشة لحرب كبيرة يعقدها المسيحيون ضد المسلمين.(يجب زيارتنا بشكل دائم)، يختتم المفتي. ولكن هل يكفي حقا أن نتقاسم كاتوه بالكريم لنتعرف على بعضنا البعض ؟. يضع النداء للصلاة حدا للنقاش. كان راعداً للغاية لدرجة أنني تذكرت هذه الأبيات ل كبير:

(أيها المؤذن، لماذا تصرخ بشكل قوي

في أذن الله؟

أتظنه أطرش ؟)

كان مسلماً ولكنه منكمش لكل سلطة دينية، شاعر وحائك، عاش كبير قبل أربعة قرون خلت في بينارس: في زمن لم تكن المساجد مزودة بعد بالمكبر، ولا الصلوات المسجلة.

(2)اتفاق عهدي بين دول تحتفظ فيه كل دولة بسيادتها وتحل مسائلها العامة في مؤتمر جامع له صفة سياسية لا تشريعية كما في سويسرا).

(3)مذهب يقرر أن المعرفة نسبة بين العارف والمعروف.

(4)نزعة إلى إعاقة التقدم وانتشار المعرفة .

(5)مناصرة لنزعة تحسين وضع المرأة بتوسيع حقوقها ومد سلطاتها.

(6)نزعة إلى إعاقة التقدم وانتشار المعرفة.

(7)نوع من الأدب المتعلق بالبراز والغائط وبالموضوعات الداعرة إجمالا۰

(8)شركة تأمين تكافلي نسبة إلى منشئها الإيطالي تونتي۰

(9)علم قضايا الضميرية، دراسة أحوال الضمير۰

الفصل السابع

كيف تنتهي الثورات

بسم الله الرحمن الرحيم، اربطوا أحزمتكم وغطّوا رؤوسكم!) · هذا ما تقوله مضيفة الطيران للركاب المسافرين إلى طهران ليكونوا مطابقين لمعيار اللباس الإسلامي· أو للمعيار الذي وضعه نظام آيات الله منذ ثلاثة وعشرين عاماً· والذي تبدو فيه الإيرانيات وكأنهن في كيس أسود، متحولات إلى مجموعة غربان· النساء الغربيات، النادرات الموجودات على متن الطائرة، خبأن شعرهن تحت منديل· المهم ألاَّ تبدو منه أية شعرة هاربة: إن هذا التحريم، ليس له أي علاقة واضحة بالإسلام، بل بتقليد قديم في بلاد الفرس· ففي القرن الحادي عشر، احتفى الفردوسي، الشاعر الأهم في الحضارة الفارسية، بتسريحة النساء التيَ خشي من أن تصبح مصيدة يقع فيها العاشق سجيناً· في الشعر الإيراني، خلف الأذن هو أقصى الحسية الايروتيكية· وليست خصلة من شعر مضيفاتنا ما سيوقعنا في الفخ؛ لا يدع الشادور الأزرق الكاحل، شيئا يظهر سوى بياض الوجه، الخالي من الزينة، يذكرنا براهبات بور رويال كما رسمهن فيليب دو شامبان·

شعرت بهذا الشادور، كاعتداء· إذن ماذا سأفعل في إيران؟ هل كان ضرورياً لعب دور الفارسي بالاتجاه المعاكس؟ ألم يكن بإمكاني الاكتفاء بالإطلاع على الموضوع من خلال ما ينشر في أوربا؟ ثم إنني عقّلت نفسي: لماذا أنفعل لدرجة التطرف تجاه هذه المعتقدات، فعادة- تغطية الرأس- كانت جارية عندنا في زمن ليس ببعيد؟ أليست معياراً اجتماعياً أو ثقافياً ؟ ألم أتعود سابقاً على العباءة السعودية، التي هي بالمظهر أكثر إخافة ؟ ولكن ما بدا لي هو أن العباءة تقليد مفروض باتفاق اجتماعي قديم، بينما وضع الشادور هو ضربة سلطة سياسية مفروضة على الإيرانيات: لأنه قبل عام 1979، كان باستطاعتهن ألاَّ يلبسنه · وبدا لي كذلك - تناقض! -أن الشادور بتغطيته للجسد وتركه للوجه مرئياً، يعرض سجن النساء أكثر من العباءة، التي تخفيهن بالكامل· هذا الشادور الذي تنادي به الثورة الإسلامية أليس غايته إزعاجي،أنا، الغربي، بقدر ما هي غايته تعطيل النساء اللواتي يلبسنه؟·

كان عليّ الذهاب إلى إيران لمحاولة فهم ما يخفي الشادور· لا أعني هنا جسد المضيفة، بل أعني الرسالة التي وجهت إلي بواسطة الشادور· إذن ·· سأطير إلى إيران ولن أعرف الراحة في الطائرة، ولا في إيران فيما بعد· فكيف لي ذلك ؟·

التحرر بواسطة الحجاب

في الشرق كما في الغرب، الثورة الإسلامية مرتبطة بالشادور، راية بالنسبة للبعض، وتراجعا بالنسبة للآخرين· يتمثل الإسلام المطلق بصفات أخرى، إلا أن الشادور يؤجج الانفعالات- انفعالاتنا وانفعالاتهم· بفرض الحجاب، الذي يلبس بطرق وأشكال مختلفة حسب الشعوب، الإسلامويون الأكثر حماساً أو الأكثر حدةً يوقعون انتصارهم· فإن لم يكن وضع الشادور الإجباري في إيران من أهم نتائج الثورة الإسلامية، أليس هو ما يبقى الأكثر ظهوراً ؟ حتى لربما قد تختفي الثورة باختفائه· يدّعي ذوو الآمال الخائبة والمفلوجين من هذه الثورة الإسلامية،بأن الشادور، في الحقيقة، هو كل ما تبقى منها·

هل تؤدي الإسلاموية لاضطهاد المرأة، وما الشادور سوى الممثل الأعلى لهذا الاضطهاد؟ أو بالعكس، هل نمثّل التطور في الغرب بتحرر جسد المرأة؟ التطور الذي يفسره الإسلامويون كتخلف. فالايروتيكية، بالنسبة لهم، مستحبة ولكن في المجال الخاص فقط، سرعان ما تتحول إلى إباحية إذا تجاوزت هذا الحد. لقد عسكرنا في الغرب عند هذا الاعتراض الذي يتعذر قهره: حجابهم أو تطورنا. عند رؤية الأمور من الداخل، كل شيء يبدو أكثر تعقيدا.

الغريب هو أن تفسير الحجاب في الإسلام، وفي إيران، قليل الذكر. أ لأن القرآن لا يتحدث عنه ؟ أو لأن الشادور قد سبق الإسلام؟ أول مرة ظهر فيها مدونا في التاريخ ترجع إلى المملكة أشمينيد، قبل حوالي ألف سنة من اعتناق الفرس للإسلام. إذ كان الحجاب يميز نساء الطبقة الأرستقراطية. ثم بسبب المحاكاة الاجتماعية، انتشر عند التجار، وفي النهاية عند الشعب. بعد اعتناق الفرس للإسلام، انطلاقاً من القرن السابع، عمم الشادور عند الفرس.

كما يبدو،ابتدأ الشادور عند الفرس ثم انتشر في العالم الإسلامي. تبناه العرب في العراق في القرن الثامن. لقد غلبوا بالسلاح الحضارة الفارسية بالوقت نفسه تبنوا -وهذا أمر كلاسيكي- عادات المغلوب. كما يمكن القول، بأن وضع المرأة المسلمة، مستعار من إيران ومن القانون الزرادشتي القديم. يعتبر الزرادشتيون المرأة، كحالة متوسطة بين الرجل والعبد. بإمكان هذا التأثير الفارسي تفسير لماذا تدهورت مكانة المرأة في العالم الإسلامي بالمقارنة بما هو مذكور في القرآن. وبما أنه أكثر (حداثة) من الفرس، يدعو القرآن المرأة إلى التواضع: لا شيء أكثر من ذلك، ولا شيء فيه بإمكانه تبرير الحجاب. إذن، آيات الله الثوريون، الذين هم علماء دين واعون، لم يفرضوا الشادور باسم الإسلام بقدر ما فرضوه باسم الحرية: إن الشادور (يحمي) النساء - بل أفضل من ذلك، هو (يحررهن). التحرر عبر التفرقة ؟.

كان على النظام الإسلاموي أن يمنع وضع ربطة العنق للرجال، الذين كانوا بحاجة أقل لتحرر، بالاعتماد على الآية القرآنية التي تمنع الرجال أن يلبسوا كالنساء؛ ولأن الحرير مخصص للنساء، وربطة العنق مصنوعة من الحرير؛ انتهى النقاش، تحّرم ربطة العنق ! بالوقت الذي يحافظ فيه على الزي الذي فرضه رضا شاه في 1920، مؤسس السلالة الحاكمة البهلوي، رمزاً لارتباطه مع الحداثة الغربية. نعم للبنطال، لا لربطة العنق: الثورة هي ثورة عصرية وإسلامية في الوقت ذاته .

بما أن الشادور يحرر، تشرح لي شابة جميلة، تعمل مستشارة لوضع المرأة عند رئيس الجمهورية الإيرانية، فمن الصعب جدا التخلي عنه، أليس كذلك؟ دونت كل هذا، بالوقت الذي كنت أعجب فيه من البراعة التي نتفت فيها حواجبها،التي تكشف عن قدرة في فن النحت. إن أفضل ما ترتئيه المستشارة لمستقبل الشادور هو اللعب بألوانه: فمن الممكن ألاّ يكون أسودَ أو من لون التراب. هذا التنازل يرجع إلى الموجة التي نسميها في إيران (الإصلاحية) المخالف لل(المحافظة) . قد يرضي تحرير الألوان، تضيف محاورتي، النساء اللواتي هن حقاً ورعات: فمنذ أن أصبح الشادور إجبارياً، تحزن الفتيات على عدم استطاعة التمييز بينهن وبين اللواتي يلبسنه فقط لامتثالهن. إذا تتبعنا هذا الحديث (الإصلاحي)، نجد أن تحرير المرأة هو الربح الوحيد للثورة. لقد أُكد لي بأن النساء أكثر حضوراً ونشاطاً في المجتمع الإيراني، في المؤسسات، في المكاتب، في الجامعات، من كل نساء البلاد المسلمة الأخرى. فاعترض ذاكراً تركيا. فيردون علي بأن اعتراضي مرفوض لكون تركيا سنّية، وأكثر من ذلك فهي ملحدة.

في الواقع، إن حضور المرأة في إيران لا يمكن نفيه مقارنةً مع معظم بلاد العالم العربي حيث هن محجوبات؛ ولكن بأي شيء يدين هذا التحرر للشادور؟

قد ينشئ الشادور مساواة بين الطبقات الاجتماعية وبين الأجيال؛ سمح للشابات بالخروج للشارع أو الذهاب إلى المدرسة بدون أن يحبسهن الآباء التقليديون في البيوت. أو بالأحرى، قد مكّن السجن الذي أصبح محمولاً إلى المدرسة، في الشارع أو في البازار، من حماية النساء من شهوة الذكر. كل ذكر، في الرؤية الإسلاموية للعالم، هو بالضرورة مجنون بالرغبة. بفضل الشادور، تهرب النساء أيضا من عبء المظهر، عبودية الغرب للموضة والمكياج؛ يشعرن بالحرية أن يلبسن تحته ما يلائمهن، حسب اختيارهن الشخصي وليس لأجل نظرة الخارج. بالإجمال، النساء تحت الشادور هن أكثر حرية من النساء الغربيات المعروضات . هذه هي نظرية الشادور الذي يحرر .

من الممكن أن تقنع هذه الحجج، فيما لو لم تكن بداياتها خاصة. فهي تطرح كشيء عادي أن تكون المرأة خاضعة لعائلتها ويعود إلى هذه العائلة السماح أو عدم السماح لها بالخروج من بيتها. إنها تطرح كشيء بديهي أن النساء هن فريسة الرجال، وأنه ليس باستطاعة الرجال أن يكبحوا أنفسهم، وهم بالضرورة مغتصبون محتملون. نظرية الشادور إذن تعني أن المرأة لا تلبس إلا لإغرائهم، وإطلاقاً ليس من أجل نفسها، وأن هذا الإغراء يشكل عبودية تسحق النساء بدون شادور.

لعلّ هذه المسلمات تعكس حالة المجتمع الإيراني. بدون شك، إن الحرب بين الجنسين موجودة أيضا في الغرب، لأن بعض حركاتنا النسائية تشارك التحليل الإسلامي في اضطهاد المرأة بواسطة النظرية القضيبية(10). ولكن إن كان صحيحاً أن بإمكان الشادور تحرير بعض النساء الإيرانيات، فهو يضطهد الأخريات اللواتي يرغبن في رفضه. منذ 1979، في الحقيقة، استعمل الشادور لإقصاء نساء البرجوازية المستغربة وبدلهن بنساء ورعات راضخات. تستمر هذا العملية الاضطهادية كإنذار تستعمله السلطة حسب مشيئتها، لكي تضع في القفص الفتيات الشابات اللواتي يحاولن التحرر، وخاصة في المجال الفني والصحفي.

هل حقاً إن الشادور هو من حرر الإيرانيات ذوات الأصل المتواضع؟ إن تحررهن النسبي هذا يعود بنسبة أكبر لاختفاء الرجال في الحرب والفقر الناتج عنها وعن الثورة؛ من عام 1981 إلى عام 1986، أجبرت الأزمة ضد العراق النساء على العمل، كما فعلت الحرب في أوربا 4 1 9 1-81 (حررت)النساء ببعثهم للمصنع بعيداً عن مواقدهن. نتيجةً لتلك الأزمة والتدهور الاقتصادي الإيراني المعزو إلى التأميم، أصبح ضرورياً، لكل عائلة مدنية، أن تملك على الأقل راتبين. هكذا يكون تحرير المرأة بواسطة العمل نتيجة غير مرغوب فيها لفشل الثورة الاقتصادي وليس إنجازاً من إنجازاتها ...

إذا كانت حجج التحرير عبر الحجاب غير مقنعة، فلا يمكن رغم ذلك تطبيق المعايير الغربية على المجتمع الإيراني. إذ علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أعمال الاجتماعيين الإيرانيين العصريين والذين يميلون بشكل أقل للإسلاموية، فهم يدافعون عن ضرورة الحجاب في فترة من الزمن لتحرير بعض نساء الطبقات الاجتماعية الأكثر تقليدية. وقد بدا أن الحجاب والجو الإسلامي في السنوات التي أعقبت مباشرة الثورة،قد سمحا لنساء ينتمين إلى وسط محافظ بأن يغامرن في الخروج إلى المجال العمومي، الشيء الذي لم يكن يجرؤن على فعله من قبل. بماذا أرد على المدرّسة في جامعة طهران، المتخصصة في مارسيل بروست بالفارسية، وهي تؤكد لي أنها تلبس الشادور بكثير من

المتعة، لتخوفها أن يتصبب تلاميذها على سيقانها بدل أن يستمعوا إلى درسها؟ وأضافت أنها عرفت وضعاً معاكساً، وهو وضع أمها في عهد رضا شاه؛ فباسم التحضر خلال سنوات الثلاثينات، منع الشادور: هذا النزع، قالت، شعرت به أمها كاغتصاب، وكان أكثر ألماً من إجبار ابنتها على أن تتحجب؛ حتى يومها الأخير، مثل بقية النساء الورعات، قررت أمها ألاّ تغادر منزلها· لو لم يمنع رضا شاه الشادور، ربما لما جعله آيات الله إجبارياً، بعد أربعين عاما!

إذا استدعيت أيضا ذكرياتي الشخصية؛ في بداية الستينات، عندما اكتشفت إيران، لم تكن الإيرانيات من الطبقة العليا مرغمات على الشادور، بل كن يصبغن شعرهن بالأشقر ويتبنين مظهر حسناوات هوليود· بالرغم من سخافتها، كانت عملية التغريب أمراً صادراً ممن كنا ندعوه جلالة الملك· في تلك الحقبة،سمح بالشادور من جديد، ولكنه كان يعتبر كعلامة على التخلف· فاستنتجت، أنه، من المؤكد، ليس من السهل لامرأة ان تكون إيرانية في عهد آيات الله، بل أيضاً، لم يكن سهلاً في أي وقت·

مجازفة الإصلاحات

التنبؤ هو شيء مشكوك فيه: قليل من الأشخاص في إيران، وأقل منهم في الخارج، قد توقعوا الثورة الإسلامية في 1979. المفاجأة كانت كبيرة خاصة أن الغربيين ظلوا مسكونين بشبح الشيوعية. (شبح يسكن أوربا: الشيوعية) كتب الشاب ماركس في 1848. في 1979، ظهر أن ما يسمى طيفاً ليس سوىشبحٍ وأن شيئاً أخرَ حلَّ محله، ملتح وذا عمامة: التمامية الإسلامية (integrisme.11

ولكن التمامية لم تكن السبب الأول للثورة الإيرانية. هذه- بالضبط كالثورة الفرنسية في 1789 - اندلعت بسبب الإصلاحات، إصلاحات النظام القديم؛ الأنظمة الاستبدادية ليست هشة إلا عندما تحاول إصلاح نفسها. مثل لويس السادس عشر، تابع محمد شاه،عمل أبيه رضا، الراغب بتحديث البلاد؛ مثل لويس السادس عشر، استملك فلسفة النور، لصنع سدٍ أمام الثورة الحمراء التي كانت تهدد إيران بضغط من روسيا، استعملوا ما يسمى (الثورة البيضاء) التي كانت نجاحاً اقتصادياً في السبعينات، بفضل المصادر البترولية المعاد استثمارها، وصلت نسبة النمو حداً مذهلا 51% سنوياً. لتحقيق العدالة والفعالية، استملكت أراضي المالكين الكبار ووزعتها على الفلاحين البسطاء. ولكن من العناصر التي لم ينتبه إليها الشاه حينها، هو أن الإقطاعيين المسلوبين ينتمون في الغالب لرجال الدين . يستثمر أصحاب المراتب العليا الدينية أراضيهم بواسطة الفلاحين فهم أسيادهم الإقطاعيون، ولكن الفلاحين كانوا يعتبرون أسيادهم كحماةٍ لَهم. كان هذا الاستثمار يسمح لرجال الدين إعادة توزيع الفائض بواسطة الأعمال الخيرية وتمويل المؤسسات الحكومية. لقد حطمت مصادرة هذه الأراضي الأسس البنيوية الاقتصادية والشبكة الاجتماعية لرجال الدين. إلاَّ أن الشاه، مشجعاً من محيط متفرنس ومناهضا لرجال الدين، احتقر الدين ولم يعره أدنى اهتمام .

هاجمت هذه (الثورة البيضاء) طبقة اجتماعية أخرى لم تقدر أهميتها حق قدرها: البازار. في المدن الايرانية، البازار، بالقدر ما هو مكان، هو شكل من أشكال التبادل، مصطلح عليه بين السلالات العائلية. هؤلاء البازاريون، الذين هم متدينون، ومحافظون، كانوا مرتبطين أيضا برجال الدين عبر علاقات النسب. قلّل الشاه من شأن البازار كما قلّل من شأن رجال الدين: سمح باستيراد مواد خارجية، أرخص وذات نوعية أفضل مما يوجد. بتشجيعها للصناعات الحديثة، أدت الثورة البيضاء إلى إفلاس البازاريين .

نظّمت المقاومة ضد هذا التحديث المملى من الأعلى، تظاهر البازار، واحتج آيات الله على الكفر، وتأسف الطلاب(غالباً الشيوعيون) على غياب النقاش الديمقراطي. لإكمال التشابه مع لويس السادس عشر الذي نظم سقوطه باستدعاء المسؤولين الكبار لاجتماعات العامة، قرر الشاه في نهاية حكمه،تحرير الحياة السياسية: في عام 1976، ألغى الحزب الواحد، وأطلق سراح السجناء السياسيين، وحلّت المحاكم المدنية محل المحاكم العسكرية، وسمح للشيعيين، ورجال الدين أن يعبروا عن آرائهم. . يكتشف الملك الذي ظن نفسه شعبياً،أنه ليس شعبياً. فأصبح بدون إرادة أيضا كما لويس السادس عشر. هكذا، أصبح السؤالالوحيدهو: (من سينتصر، الثورة البيضاء أو

الحمراء؟) الحزب الشيوعي الايراني كان قوياً، الاتحادالسوفيتي على الحدود. انتظروا لينين فجاء الخميني من نوفل- الشاتو(12)عل متن الطيران الفرنسي. وكانت الثورة سوداء: ضد الإصلاح.

ولكن أليست كل الثورات ضد الإصلاح؟ ولعت الأرستقراطية القلقة على امتيازاتها، الثورة الفرنسية. عطّل البولشفيّون عملية برجزة المجتمع الروسي. حاولت الثورات الفاشية والنازية قلب مجرى التاريخ بمحاولة إعادة خلق الامبراطوية الرومانية وألمانية الوثنية. ثم تفلت الثورات من مخططيها.

كيف أخطأ الغرب المستقبل؟

أظهرت الثورة الإسلامية للعالم المندهش، أن التاريخ في بعض المرات يتقدم وهو يتراجع، وأنه من الممكن أن تكون الثورة رجعية. إنها تعطي درساً بأن التحديث الصناعي لا يقود بالضرورة إلى العلمانية، ولا إلى الفردية، ولا إلى ذوبان الأهواء في المصلحة المادية؛ أو إذا كان لها أن تقود إلى ذلك، فطريق الوصول بدا شاقاً. وهكذا مات نموذج مسيطر في العلم السياسي في تلك الحقبة، الذي كان منتظراً من قبل صامويل هانتغتون، جامعي من هافارد: الـحتمية الديمقراطية . لقد أقنع هانتغتون أهل الفكر الغربيين بأن كل تحديث اقتصادي يؤدي إلى الديمقراطية: وكان من المفترض على إيران والصين الشيوعية أن يظهرا الدليل على ذلك. (خطأه لم يمنعه أن يكرره بعد عشرين سنة، بنبوءة جديدة(صدام الحضارات).

عكس توقعات هانتغتون، التحديث السريع الاقتصادي لإيران مّتن سلطة الملالي. الملّة في القرية الإيرانية التقليدية، كالخوري في الريف عندنا، يثير عند الفلاحين الإيرانيين خليطاً من مشاعر الود والتهكم. نستطيع أن نقرأ في مذكرات أرثور دو غوبينو، الذي كان سفيراً لفرنسا في إيران خلال الأعوام 1 8 5 0، كيف يستهزئ المصلون في الجامع من الملالي وخطباتهم البدائية. هذه العداوة لأهل الدين بدت للمعلق صفة خاصة بالشعب الفارسي. ولكن نفس الفلاح المعادي لهم، بعد أن اقتلع من جذوره بسبب التصنيع، عندما ضاع في ضاحية من ضواحي طهران، التجأ إلى أقرب ملّة كمصدر للنصائح في عالم مجهول. في المرحلة الأولية التي قادت للثورة الإسلامية؛ متّن إذن التحديث مكانة رجال الدين؛ حالة نجدها بشكل مطابق في ضواحي القاهرة أو الدار البيضاء. ولد، أيضاً، من عملية التصنيع الإيرانية هذه، الكتلة العمالية التي غدت المجموعة الصدامية التي قامت بمظاهرات شعبية في 1 9 7 8. بدون هذا التحديث الاقتصادي، لم تكن الثورة واردة ومستحيلة.

التعليمات التي احتفظت بها الحكومات الاستبدادية للبلاد الإسلامية الأخرى من الثورتين الايرانية - البيضاء، ثم السوداء- هي أنه من الأفضل ألاَّ يصلحوا أي شيء على الإطلاق. ولكن هذا المديح لحالة الركود statu quo،الذي نستطيع أن نخمن إغراءه في عيون كل مستبد في الحكم، ناتج عن قراءة خاصة للثورة الإسلامية. بالواقع نستطيع أن نستنتج درساً آخر: فإن حل أهل الدين بدلاً من الشاه، فهذا لأنه حطّم كلَّ شكلٍ آخر لتنظيم- الأحزاب، نقابات، جمعيات . كان الدينيون الشيعية القوى الوحيدة القابلة أن تحل محل الشاه في غياب قوى أخرى -إذا سمح بالتعددية السياسية، كان من الممكن أن تنضم الأحزاب غير الدينية إلى الملكية الدستورية. مكنت إصلاحات الشاه من خسارته، ولكن منع التعددية هو ما أدى إلى الصفة الإسلاموية لمن جاء بعده.

لهذا اليوم، يستفيد المستبدون في العالم الإسلامي، وهذا صحيح، من ورقة رابحة قد خسرها الشاه: مساندة القوى الغربية لهم. لو لم يتخل الغرب عن (الشاه)، لما رأت الثورة الخمينية النور. لماذا

ترك الشاه لهذا المصير - الذي يبدو مع مرور الوقت، كخطأ فادح، للغربيين بالقدر نفسه للإيرانيين الذين في الغالبية، لا يعرفون أنفسهم في التمامية الإسلامية ؟ فعدو تلك الحقبة لم تكن الإسلاموية، غير معروف حينها، بل الشيوعية · ساندت الحكومةالفرنسية الخميني لأنه كان ضد الشيوعية· خطأ، اعترف به الرئيس جسكارد ديستان فيما بعد· كما ارتاحت الحكومة الأمريكية، لأن الشيوعية الايرانية لم تصل إلى السلطة، واتبعت الموقف فرنسي·

لماذا أصبح الشاه غير شعبي في الغرب؟ أ لأنه كان طاغية ؟ لم يكن محمد البلهوي ديمقراطياً، ولكن هذا المستبد كان مستنيراً، وقليل سفك الدماء بالمقارنة مع الحكومات الإسلاموية في المنطقة· ابتزازات البوليس السري، السافاك savak، كانت بالفعل غير محتملة، ولكنها لم تكن شيئاً مهما بالمقارنة بالمجازر الجماعية التي قام بها أمثاله في سورية، العراق، الباكستان، أو في الاتحاد السوفيتي· كما لم يكن هناك معتقلات جماعية في إيران· نظرا إلى الماضي، وبالمقارنة مع بوليس نظام آيات الله، يبدو السفاك، كصيدلية للمبتدئين؛ من عام 1 9 7 1 إلى عام 1 9 7 9، أعدم مائة سجين سياسي، مقابل اثني عشرة ألفاً من عام 1 9 8 0 إلى عام 1 9 8 5، خلال المرحلة الأولى للثورة· صرّح بعض المساجين السياسيين الذين عرفوا المعتقلات التابعة للشاه وتلك للخميني، بأنه من الأفضل قضاء عشرة أعوام في السجن تحت الحكم الملكي من عشر دقائق في عصر آيات الله· لاحظ المفكرون، الصحافيون، الفنانون الذين عاصروا النظامين القمعيين في عام (في 2 0 0 2)، أنهم حين دعوا من قبل السافاك، كانوا يعرفون مسبقا بأنهم سيخرجون · وهذا ليس دائماً ممكناً مع وزارة الأمن التي أعقبته·

من المؤكد، أن الشاه وحاشيته قد عاشوا حياةً باذخة، ولكنهم كانوا أقل فساداً من الحكومات الأخرى في المنطقة وما آل إليه نظام آيات الله · بينما وحده الشاه من عرف اعتراضات ومظاهرات ضده من الكتلة الشعبية في باريس ولندن· إن عدم الشعبية هذه مرتبط بشكل أقل بطبيعة نظامه من عدم التزامنية desynchronisation: في ذلك الحين، كان يطغي على العصر أصحاب الفكر الشيوعي· وبما إن الشاه لم يكن يسارياً، بل كان قريباً من الأمريكيين وحليفاً لإسرائيل والأسوأ: كان ليبرالياً في الاقتصاد، سابقاً لعصره، وهذا ما كان يشكل انتحاراً سياسياً· ثم إنه اقترف خطأً إضافياً بإرساله طلاباً إيرانيين للدراسة في الغرب: كانوا يعودون إلى ايران يساريين، موضة سنوات السبعينات تلك· سمم الإعلام الغربي هؤلاء الطلاب، بهدف التطويح بملك هو صديق لأميركا وإسرائيل· لم يفوت المثقفون اليساريون الفرنسيون، مخلصون لقدرهم الذي يحتّم عليهم أن يخطئوا في المستقبل، تلبية النداء· شارك جان بول سارتر، الذي لم يعترض ضد المعتقلات، في الموكب ضد الشاه؛ بعد الثورة السوداء، صفق ميشيل فوكو، للخميني الذي توخى به محرر الشعب الإيراني·

كل ثورة هي ثورة وطنية!

مثل الثورة السوفيتية، أعلنت أول ثورة إسلامية طموحاً للكونية؛ بشر الخميني بعالمٍ إسلاميٍ بأجمعه. ولكن، باتباع نفس إجراءات الثورة السوفيتية، بعد حرب العراق لم يعد هناك الحديث في إيران، إلا على الثورة في (بلد واحد)؛ انحصرت المحاولة لتصديرها، على مساندة متواضعة من الإرهاب الإسلاموي العالمي، الأفضلية للإرهاب الشيعي. بينما يبقى العالم المسلم مسكوناً بالإسلاموية، نتساءل اليوم فيما إذا الكونية الخمينية مكتوبة في المذهب الشيعي. في عبارة أخرى، هل الثورة الخمينية هي ثورة إسلامية، شيعية أو إيرانية، على غرار الثورة السوفيتية التي لم تكن أبدا غير روسية؟

يبدو لنا أن الخمينية لم تكن أبداً سوى إيرانية، وشيعية فقط في حدود كون هذه الطائفة مطابقة لإيديولوجية وطنية. مفروضة من قبل الشاه إسماعيل. في 1 5 0 1، سمحت الشيعية للفرس أن يستمروا ضد جيرانهم السنة، الأتراك والعرب؛ باسم الشيعية أو تحت غطائها، ولد رجال دين وطنيون، حافظوا على اللغة الفارسية. تعيد الملامح المميزة للشيعية الإيرانية كل شيء إلى الماضي الفارسي: التدرج الاكليريكي، تصرفاته، البسته، تأهيله الشرعي والصوفي، كل ذلك يجعل من الرجل الدين الحالي امتداداً لرجل الدين الزارادشتي الفارسي ما قبل الإسلام. كما يفعل نظام آيات الله منذ الثورة، لا يمارس المجوس الفارسيون السلطة مباشرة، بل يقررون في الملاذ الأخير بمقتضى قانون وقرارات العدالة للديانة الزرادشتية. طبقة رجال الدين هذه هي طبقة قديمة وعصرية، وليس هناك ما يعادلها في عالم إسلامي آخر.

بالإمكان فهم الدور الفريد للإمام الخميني على ضوء النظرية الشيعية الغريبة عن النظرية السنية. في الشيعية، بعد الوحي الذي حدث لمحمد، لم يكن جيدا أن يدع الرجال لحالهم، بل كان عليه أن يبعث اثني عشرة إماما لقيادتهم، ينتمون لعائلة النبي؛ حجب آخر إمام في 6 7 8 . في انتظار عودته، خضع الشيعيون لآيات الله ليقودوهم؛ إذن كان الأمام خميني (منتظرا).

استعيرت الجمالية الدموية للثورة أيضا من المراسيم الشيعية، مركزة على الأئمّة المغتالين. في عروض مشابهة للطقوس المسيحية الغابرة، يعاود المؤمنون دوما تمثيل الموت التراجيدي للشهداء، علي والحسين؛ الثورة بحد ذاتها حصلت كعشق كبير .

صفة أخرى خاصة بالشيعية: حضور الشيطان. عند الشيعة، كما كان الامر عند الزرادشتيين، الشيطان حاضر، وقتله هو واجب مستمر، ولكون الولايات المتحدة الاميركية، الشيطان الكبير، فهي لم تعتبر من قبل الثوريين كرمز للفصاحة وحسب.

في النهاية، خطاب آية الله هو خطاب مزدوج، كما هو خطاب الزرادشتية: الخير والشر يتعاركان في حرب أبدية. للنساء، يقول لي وزير الثقافة، (مصلح)، الخيار هو (بين الإسلام والإباحية). بين الاثنين لا يوجد شيء، لا تسوية ممكنة.

لأن الثورة كانت شيعية فلم يكن بإمكانها الا أن تكون إيرانية. في إيران نفسها، قاومت الاقلية، الكردية، البالوطية، الأزرية ذات المذهب السني، هذه الثورة. إذن استطاعت الثورة الخمينية أن

تعطي أجنحة لإسلامويين ذو ولاء آخر. في الوقت نفسه، لا يوجد مكان آخر إلا في إيران يمكن فيه لثورة إسلامية أن تعتمد على رجال دين منظمين. كما لا يوجد في مكان آخر ذائقة الاستشهاد واضحة كهذه، ولا يوجد في مكان آخر شعب ينتظر أن يقوده إمام .

أخيرا، لم يكن باستطاعة الثورة أن تنجح بدون مقدرة الخميني على تحميس الحشد، كما الثورة الصينية التي لم تكن لتقام بدون ماو تسي تونغ، والبلشفية بدون لينين، ولا الكوبية بدون كاسترو . الثورات لا تخضع لضرورة تاريخية تصنع منها سيناريو يعاد إنتاجه؛ الخمينية كانت وستظل غير قابلة للتقليد: طيف ثورة إسلامية في مكان آخر غير ايران شيء مستحيل الاحتمال.

الإمام الأحمر؟

لأن الثورة الخمينية هي ثورة وطنية أكثر منها دينية، فارسية أكثر منها عالمية، ما يفسر فشلها في تصدير نفسها. انها تشبه في هذا الصدد ثورة عام 1917، روسية أكثر منها شيوعية، وطنية أكثر منها عالمية، لم تكن لتنتشر بدون القوة العسكرية. من ناحية أخرى نستطيع أن نفهم بشكل أفضل الخمينية بمواصلة المقارنة بين الثورتين، ولكن هل يحق إجراء تقارب كهذا؟

يوجد تفسيران محتملان، متناقضان، للثورة. الاول، بأنها كانت حقا دينية، وبأنها حملت إجابة باطنية سامية لشعب ينتظر عودة فتنة العالم، وهذا ما ألهم خميني لأقصى درجة؛ يتبنى المؤمنون وجهة النظر هذه. التفسير الثاني يفضّل المقاييس السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛في هذه الفرضية الواقعية، قادة الثورة، ابتداء من الخميني نفسه، لم يكن لديهم طموح آخر واع أو غير واع غير ممارسة االسلطة. إذا كانت الثورة إلهية، لا نستطيع، مثل أيوب، الا أن نستسلم، حتى إذا أرهقت الشعب الايراني. اذا لم يكن الله مسؤولا، ومهما كانت نيات القادة، طاهرة أو غير طاهرة، بإمكان النتيجة أن تحسب. بعدد الضحايا، مثلا.

سنتبع هذه الفرضية مع مواصلة المقارنة، التي تبدو لنا منيرة، بين الخمينيية واللينينية. نتذكر أن لينين، من دون انتظار أن تجمع الشروط الموضوعية للثورة، متجاوزا لماركس، قرر تحقيق اليتوبيا الشيوعية بالقوة. كذلك، الخميني، بدون أن ينتظر الإمام المخفي، قرر أن يمارس السلطة مباشرة بواسطة آيات الله لاستباق العصر الذهبي؛ في هذه الحالة أو في تلك، حلّت المشيئة السياسية محل الانتظار الديني، مشرعا الديكتاتور بواسطة التاريخ أو بواسطة الميتافيزيقا، محققين اليوتوبيا على الارض في الحال.

رفع لينين الحزب إلى صف المقدمة في المجتمع؛تصرف خميني نفس التصرف مع رجال الدين. على طريقة الحزب الشيوعي للاتحاد السوفيتي القديم، قرر أن يمارس آيات الله السلطة. في الحالة الأولى، كان باسم البروليتارية؛ في الحالة الثانية باسم الإسلام. تمرين بدون سابقة في الإسلام الشيعي أو السني. يجعله الامام شرعيا بواسطة تجديد مذهبي، اسمه (سيادة المستشارون المحلفون)souverainete du jurisconsulte . على طريقة لينين الذي انفصل عن الماركسية الكلاسيكية، وجب على الخميني محاربة الطمأنينية(13)quietisme لآيات الله التقليدية. في الحالتين، انتحلت الأقلية سلطة شبه سامية التي تصعّد السيادة الشعبية. باسم هذه (السيادة للمستشارين المحلفين)، بالضبط كما فعل في السابق الحزب السوفيتي، تركت حكومة آيات الله مظهر السلطة لمؤسسات تنتمي للشعب، بنفس الوقت احتفظت هي بمنصب الملاذ الأخير.

كما في الاتحاد السوفيتي في ذلك الوقت، حكمت إيران الإسلامية بسلطة مزدوجة: رئيس الجمهورية والبرلمان، على الرغم من انهما منتخبان بانتخاب عام، فهما تحت سلطة مجلس الخبراء وقائد الثورة، معادل للهيئة المركزية والسكرتير العام الشيوعي. كنا بانتظار مدينة النبي فإذا بها موسكو. مصادفة أو منطقية كل الثورات: أول قائد مستهو للجمهور، الخميني، نوع من أنواع لينين إسلامي، عقبه في 1989 بيروقراطيا، الخميني، نوع من أنواع ستالين المساجد الذي كون كل مجرى حياته في إطار الحزب الشيعي. من الممكن وصف الثورة البلشفية كتحول

السياسة إلى دين، كما من الممكن تفسير الثورة الخمينية كتبدّل الدين إلى سياسة. مثل الثورة البلشفية، من الممكن فهمها أيضا كقفزة للوراء . حاول البلشفيون الغاء التقدم في روسيا، تطور الملكية الخاصة، والفردية، وتغريب الأخلاق، والديمقراطية. باسم المستقبل، رمموا المؤسسات القديمة للملكية الجماعية، الرقابة، والضغوط الجماعية. بشكل مواز، حاولت ثورة الخميني إلغاء مكتسبات المجتمع الايراني، في حين كان في طريقه للتحرر والفردية، بهدف نشر عادات قديمة. كما يوضح عالم الاجتماع الايراني داريوش شايقان، في وقت الثورة، استملك الجزء الكبير من الشعب هوية حديثة، اضيفت فوق طبقة عرقية- دينية لشخصيته؛ العودة لمعايير شبه قبلية -عقوبة الرجم، الجلد - ردّ بالمجتمع إلى مرحلة ما قبل الحداثة. شعر الغرب من جراء ذلك بالضياع كما الايرانيين، ولهذا عدد كبير منهم اختار المنفى.

ليس هذا التقليد للبلشفية عرضيا فقط . فلقد شارك المناضلون الشيعيون الايرانيون بشكل فعّال في الثورة الإسلاموية؛ انتسب بعض منهم إلى الايديولوجية الإسلامية-الماركسية، منظرة من قبل آية ا لله علي شريعاتي في شكل من (نظرية لاهوتية للتحرر) شيعية، معدة على مقاعد السربون في 8 196.

انتصرت حرب العصابات المدنية على جيش الشاه. وبما أن الملالي كانوا قادرين على تعبأة الحشد ولكن لم يكونوا صالحين لخلق مؤسسات جديدة، فقد أسس الشيوعيون الجمهورية الحديثة لحسابهم. عندما اكتشف الملالي هذه النواة الشيوعية، قاموا بعملية تطهيرية على الطريقة البلشفية، التي تعلموا وسائلها جيدا . لاحقا لذلك، حصلت مصادرة المنشآت الخاصة، وانتقلت حقوقها إلى مؤسسات خيرية دينية - بمعنى آخر إلى حكومة آيات الله- مكّنت اصحاب الامتيازات الاستثنائية لرجال الدين، من السلطة الاقتصادية، وبنفس الوقت، استرجعت الطريقة القديمة لإعادة التوزيع الإحساني. طريقة عمل هذه المؤسسات الخيرية معتمة فهي لا تنشر أية نتيجة ولا تقدم حساباتها إلا لقائد الثورة. تدار المنشآت المؤّممة بواسطة الملالي بشكل سيّئ يشبه طريقة ادارة المؤسسات في الاتحاد السوفيتي القديم من طرف اصحاب الامتيازات nomenklatura؛ ماتت الصناعة الايرانية من جراء ذلك، لكونها لا تستثمر، ولا تصدر شيئا ولم تعد تكفي الطلب الداخلي. مديرو هذه الجمعيات الخيرية والمؤسسات العامة، هم في الغالب قواد الثورة القدامى وقد تحولوا إلى رجال أعمال، كما هم اليوم شخصيات-الآلة الحزبية الروسية. في السنوات الاخيرة في الاتحاد السوفيتي، ثلث السكان في بطالة ويعيشون بفضل اقتصاد مواز. البزارية، فقط من نجى؛ لشكرها على مؤازرتها للثورة، منحها نظام آيات الله احتكارا لاستيراد مواد الاستهلاك والحق بالتهريب وتحويل الدولار في السوق السوداء .

بدون الدخل الذي يؤمنه تصدير البترول والذي يمثل 09% بما تصدره إيران والذي يمول الاستيراد لكل ما هو لازم، لا أحد يشك بأن حكومة آيات الله هذه، كانت ستتحطم منذ عدة سنوات؛ يسمح مال البترول بشراء الامن الاجتماعي وزبائن سياسيين. لقد عاش أصحاب الامتيازات السوفيتية أيضا حتى 1 9 9 0 بفضل تصدير البترول والغاز. بدأ من استلهامات مختلفة جدا، التشابه في النسيج البنياني قاد لتشابه في المصير. وبقي أصحاب الامتيازات الشيوعية يلوحون بلينين للحفاظ على امتيازاتهم؛ اربعة وعشرين عاما بعد الثورة، يحفظ آيات الله مصالحهم المادية تحت غطاء الإسلام.

هذه المقاربة بين البولشفية والخمينية أصبحت واضحة للانظار: الطرق لتقديم الثورة الخمينية مشابهة لطرق روسيا الستالينية والأنظمة الشمولية totalitaire مثل الصين الشيوعية· كوبا أو المكسيك لا فرق يوجد·

تبعا للتكنيك الذي لن نجرؤ على وصفه بفني، القاسم المشترك لتلك الأنظمة هو، لوحة جدارية واقعية تغطي واجهات الابنية المطلة على الشارع في طهران· الأحجام العملاقة، الألوان العنيفة، الأبطال الرائعون· مطيعون نفس معايير النحت، الذي يحتفي بالشهداء لإرهاق الشعب· هل البشاعة متعايشة مع الأنظمة الشمولية ؟ هل تعبر عن ذاتها فقط بواسطة شخصية المستبدين ؟ لا الخميني ولا استالين قد تخرجا من الفنون الجميلة؛ هتلر وماو كانا فنانين فاشلين: الأول رسام طبيعة رديء، والثاني، نساخ ثانوي·

ولكن لأسباب أقل طرافة تفسر الذوق الرديء للشمولية: المغالاة، والواقعية· البشاعة لا تشجع كل تعبير جمالي آخر يفهم كعمل فردي أو منشق· الرسم بالمّلاسة والكيلومتر يكبح اندفاع الفنانين، مضعفا كل نزعة إلى التجديد؛ البشاعة المحزّبة ·

كما في التمييز العنصري للنساء، تخدر البشاعة الحساسية الشخصية، وتخمد الاهواء· هذه الإرادة نفسها لإطفاء الحس، ما يفسر الطهريّة أو تزمت الثورات ؟ روبيسبير، ستالين، هيتلر، ماو، الخميني جميعهم أظهروا عداوة لكل تحرر جنسي· الحرمان من الحسية بواسطة الشادور، والحلم بالانعتاق بواسطة اللوحات الجدارية، هي من أشياء الامبراطورية الخمينية، تحجير العواطف، وتغيير كل اندفاع غير ايديولوجي أو ديني·

هذا لم يمنع: عودة الدعارة في ايران، في عام 2 0 0 2، التي فضحتها الصحف المحافظة· ما يشهد على خلود الطبيعة الانسانية- أ يجب القول أيضا العوز الانساني؟ - الذي لم تمحوه الثورة· إذا وجب فحص فشل الثورة، فأعادة فتح المواخير في طهران، كما في عهد الشاه، يكفي كدليل·

بريسترويكا في طهران

قَصُرَ الشادور، خصلات الشعر فلتت خارج الحجاب، الجدارية المرسومة تهلهلت ولا يوجد من يجدد ألوانها. الهواء الذي نستنشقه في طهران في عام 2002 يذّكر بهواء موسكو في وقت البريسترويكا .

في روسيا، يعبّر عن الانشقاق في الأغاني والشعر. في ايران، المسرح هو التعبير عن الانشقاق . تضع العروض، التي تجري غالبا في اماكن مرتجلة، على المسرح، بدعابة، عيوب الجمهورية الإسلامية. الشباب الايراني مندفع كما كان قديما الشباب الروسي. ولكنه يخاطر أكثر: لأن نظام آيات الله، الوشاة، البوليس وقضاته يقظون. العروض الممنوعة بشكل ما في مسرح، تعرض في اليوم التالي على مسرح آخر. نفس الشيء يحصل للصحف عندما تحقّر النظام، تحبسهم الرقابة ؟ في اليوم التالي يكتبون تحت عنوان آخر. إنها لعبة، ولكن لعبة شاقة؛ المحاكم مسيطر عليها من قبل الإسلاميين ذوي الأيادي الثقيلة: باسم الشريعة، نرجم بسبب الزنا، نجلد بسبب الكفر، ونحبس السفيه. ولكن مهما تكون قدرة مقاومة نظام آيات الله، فهي خاسرة؛ الثورة الإسلامية غدت غير شرعية، كما الشيوعية في وقتها.

لا أحد عندنا يجرؤ أن يكفر كما في ايران. أصبح الشباب الإيراني بشكل علني ضد رجال الدين، لدرجة أن الملالي يترددون من الاقتراب من الجامعة في لباس الدين. لنتذكر في الاتحاد السوفيتي، بعد ستين عاما من الماركسية - اللينينية: الشيوعيون الغربيون هم الذين لا يزالون يؤمنون بها، بينما لم يبق أحد في روسيا. كذلك في ايران، ثلاثاً وعشرين سنة من الإسلاموية لم تقد فقط إلى نبذ الإسلاموية، بل الإسلام أيضاً.

مصير حزين، لأن الثورة قطعت الحضارة الإيرانية عن تقاليد صوفية وفلسفية فريدة في العالم الإسلامي. قبل الثورة، كانت الشيعية، فكرة دينية وفلسفة أكثر خصوبة وأكثر حرية مما كانت عليه أبدا السنية. هذه الكارثة كانت متوجسة منذ فجر الثورة؛ الاكتشاف بفزع العطش الشخصي للسلطة من قبل الإمام خميني، آية الله اللامح طبطابي، عالم ديني في رتبة أعلى منه، في 1979: (أخاف أن يكون أكبر شهيد في الثورة الإسلامية هو الإسلام.) من هذا الإسلام الايراني لم يتبق، في الاعلى، سوى ايديولوجية محولة إلى عظم، وفي الاسفل، عادات الحج، التي هي سياحية بالقدر التي هي تقوى، والتقليد الشعبي للمقابر. ان كان لا يزال هناك بعض العلماء الدينيون المحافظون على الحكمة والصوفية الشيعية، فهم غير مرئيين. ما يتمناه الغالبية الإيرانية، هو إعادة الدين إلى فلكه الخاص، وضمن الشباب، وانهاء التمييز بين الجنسين.

لا شك أن الخروج من الديكتاتورية الإسلامية هي أمنية غالية، لأن الانتخابات، بدون أن تكون حرة تماما، تكفي للتعبير عن المشاعر: المرشحون المختارون مسبقا من قبل مجلس المراقبة للدستور، كلهم محترمون إسلاميا، ليسوا أحرارا، ولكن المنتخبين، هم، أحرار. إذا كان ممنوعا على المرشحين الاعتراض على الصفات الإسلامية للنظام، فالمنتخبون غالبا ما يميزون بين البرامج: منذ 1996، في كل انتخاب، ينتصر (المصلحون) بنسبة 07% ضد (المحافظين). بدون تغذية الوهم حول التحررية من ما يسمى المصلحون، بين إسلامويون، يفضل المنتخبون

بشكل أكثف الاقل إسلاموية من الاثنين· في حيز أكثر ثانوية، نستطيع ان نقيس فقدان شرعية رجال الدين بالنسبة للشعب، اذ لوحظ أن سائقي التاكسي في طهران يرفضون حمل الملالي الذين يلوحون لهم بالوقوف·

هل ستصبح ايران جمهورية للمسلمين بدلاً من جمهورية إسلامية؟ في هذه الفرضية، ليس واحدا، بل نموذجين للثورة قدمته هذه البلاد للعالم: الدخول في الإسلاموية، ثم الخروج من الإسلاموية· كل شيء يمضي وكأنه كان من الضروري للإيرانيين عيش تخيلات الإسلاموية ليرغبوا أن يتخلصوا منه فيما بعد· صفة خاصة بالايديولوجيات: غير قابلة للنقد النظري، لا تموت الا اذا مورست · المحامون الأخيرون للثورة،المنتمون إلى تيار المصلحين، ابدوا بأن الخروج من الإسلاموية هو انتاج الإسلاموية: خلقت الثورة مجتمعا مدنيا بدل المجتمع الاقطاعي السالف· بالاعتماد على هذا المفارقة، يسلفون بأن الايرانيين قد أصبحوا أكثر ثقافة وأكثر فردية من ما كانوا عليه في عهد الملكية· ميل عالمي، هل كان لهذا التطور الأكيد للمجتمع الإيراني أن يحصل بدون الثورة ؟ انه جائز أيضا تفسير انطواء الايرانيين إلى الفردية كطريقة للهروب من ثورة خانقة بدلا من مصاحبتها· أخيرا مهما يكن المصير السابق والقادم لهذه الثورة، فالثمن المدفوع من قبل الشعب في كل الأحوال هو ثمن مرتفع جدا لتبرير بعض الأرباح مهما تكون؟

الاختيار المقلوب

هل يوجد مبدأ عام لإخماد الثورات؟ نقترح مبدأ - نوعاً من المرض التكويني الذي يقود إلى الاحتضار: تدمير النخبة وتبديلها بمضاد- النخبة.

في إيران كما في الاتحاد السوفيتي، في الصين الماوية كما سابقاً في ألمانيا النازية، الميكانيكية الثورية قد نفت أولاً أفضل العقول: علماء، نقاد، فنانين، متعهدين. من لم يهرب منهم قتل، لكي يُزرع الرعب عند من بقي. على طريقة تنفيذ الإعدام الجماعي المقررة من قبل لينين من بداية عام 1917. نظام آيات الله قد قتل لشلّ كلّ مقاومة ولربط القادة بميثاق الدم الذي يجعل كل عملية انشقاق مستحيلة.

ربما لا يوجد طريقتان لقيادة ثورة؟ أمر لينين أن يكون عدد القتلى كبيراً، وإعلان الدافع بعد التنفيذ. نفس الشيء في إيران، الإرادة لتكبير العدد انتصرت على الأسباب الموضوعية المزعومة. في البدء، نظام الخميني هجم على (العامود الخامس): ملكيون، جواسيس، شيوعيون. ولكن الهدف الرئيسي هو التخلص من كل قوة منافسة.

بعد الحرب ضد العراق، بينما كان الإيرانيون يأملون بقليل من الراحة، جاء دور (الكفرة)apostats. أحد الناجين من هذا الرعب في عام 1988، قارنه بالتمييز العنصري في جنوب إفريقيا: الملالي يقررون من كان (أبيض) ويستحق العيش، ومن كان (أسود)ويستحق الموت. يعطون حكمهم باستجواب المساجين حول التصرفات الدينية لآبائهم. هل يصلي الأب بشكل منتظم ويحترم الصيام في رمضان؟ السجين الذي يعتبر من الواجب أن يرد بنعم لينجو بجلده، يقترف خطأً كبيرا لا يمكن اصلاحه. إذ يجب أن يرد بلا، لأن المحكمة تسامح الكافر الذي لم يتلقَ تعليما دينياً . أما إذا كان أبوه مسلماً ممارساً، فالكافر لا يملك عذراً ويستحق الموت.

كما في الاتحاد السوفيتي المحاكم الثورية لديها أيضاً مهمة اغتصاب الاعترافات التي تسجل، تحت التعذيب كانت هذه الحصص تبث على التلفزيون حتى 1994. يستمر التعذيب، ولكن بثه قد توقف: تعب الجمهور، أو تعبت الثورة... في الحالتين لقد أنقذنا !

هذا التنفيذ الجماعي لم يكن له طبعاً وظيفة تطهير الإسلام. كان الخميني يبحث عن أوضاع غير قابلة للقلب بحيث يمنع شركاءه عن الاعتدال. في نفس الوقت، كانت فتواه ضد سليمان رشدي هدف منع كل اقتراب من الغرب. في عشية موته، ضاعف التصريحات ضد السامية ليتفادى من بعده أن تمّيع الثورة في التسويات.

نتيجة هذه الميكانيكية الشرسة أو القاسية للانتخابات، لم يعيّن المعتقلون الباقون في السلطة في مناصبهم إلاّ من أجل قوتهم القمعية وخلوهم من الذمة؛ تكمن موهبتهم في قدرتهم على توظيف الرعب، وليس في إدارة المجتمع، الاقتصاد، والدولة. الركود التام للاقتصاد (إلا البترول). منذ 9 197، عقم كل تجديد للنخبة، ليس فقط بسبب العنف المباشر بل بسبب البطالة. ذو الشهادات الجامعية، من ضمن العدد الصغير الذي ينتمي إلى شبكة عائلية موصولة بالدولة أو بالبترول،

محكوم عليهم بالخمول أو بعمل ترقيعي · هكذا عوضا أن ينتجوا طبقة جديدة متوسطة، الجامعات تسمن كل سنة بحشد من غير الراضين·

مقارنا الترعيب الإسلاموي، بكل الأمراض التي عرفتها سابقاً إيران، يعتبر الفيلسوف جواد طبطابي، المنفي في باريس، أن هذا الترعيب أسوأ من المصير الذي أخضعه المغول على الفرس القدماء: يقول (في القرن الثالث عشر، كان المغول يخرجون، قبل تدمير المدن،النخبة- المفكرين، الفنانين، الحرفيين -المعروفين بأهميتهم·) لقد تصرف الإسلامويون بالعكس: حذفوا النخبة وأبدلوها بمضاد - النخبة، الأمر الذي لابد أن يقود النظام إلى السقوط الأخير· دعا القادة المصلحون، الذين كانوا واعين لذلك، لعودة المنفيين- لحد الآن بدون نجاح· نهاية الحكم الشبه بيولوجية تقترب· هل لا يزال هناك وقت لتأهيل نخبة جديدة في ايران نفسها تبقى موالية للثورة الإسلامية في نفس الوقت قادرة على إدارة الدولة؟·

التقنوقراطية الإسلاموية

تحتل التقنوقراطية الإسلاموية، جامعة الإمام صادق في طهران، رمزياً، الأماكن التي، في عهد الشاه، كانت تستقبل فرع الأعمال الإيراني لمدرسة هارفارد. ينتظر آيات الله من هذه الجامعة أن تؤهل الإداريين المستقبليين للجمهورية الإسلامية . يتابع الطلاب والطالبات في صفوف منفصلة تعاليم الدين، المسماة (علوم إسلامية)، مترافقةً مع، الحقوق، علم الاجتماع، الاقتصاد والإدارة، المعتبرة كعلوم حديثة، ولكن لا يوجد في البرنامج لا علم اجتماع إسلامي ولا اقتصاد إسلامي، هذا يعني بأنهم يعترفون بعدم وجودهما بهذه الصفة.

وبما أنني قد استغربت من نوع هذه الجامعات التي لا تدرس العلوم الصحيحة، اعترف ذو العمامة، عميد الجامعة التي يقارنونها غالباً (بمدرسة الإدارة الإسلامية)، إنه لا يوجد علوم صحيحة إسلامية أو غير إسلامية؛ إذن فإن الطلاب في العلوم الصحيحة، مدعوون لدراسة الإسلام (فضلا عن ذلك). هذا الازدواجية في التعليم العالي مدونة في مشروع إسلامي معاصر: السماح للحداثة في مجال التقنية والعلوم، وتعليمها بواسطة طبقة من علماء الدين. هل كان قابلاً للتصور عقد نقاشٍ حول هذا الموضوع مع العميد، حجة الإسلام، الرتبة الأعلى في المرتبات الشيعية مباشرة تحت المرتبة النادرة، آية الله؟ ذكرتني هذه المقابلة مع حجة الإسلام بشكل لا يقاوم مع أخرى من نفس النوع، تلك كانت مع واحدٍ من الموظفين الشيوعيين الكبار. وكان الشاي مرافقاً لكليهما!

ككل الموظفين الكبار لرجال الدين الذين كان عليّ مقابلتهم، أبدى العميد لباقة فائقة، وزّع بحفاوة الشاي وصحون الخيار والحلوى. لا شيء أكثر. ولكن بين (العلم الإسلامي) الذي سبق الثورة والفكر النقدي الذي لا يتقدم إلاّ في عدم اليقين أو الشك، من أين ستعبر المناقشة؟

التعبير نفسه (العلم) المستعمل من قبل علماء اللاهوت الإسلامويون يترك ارتباكاً. فطبقاً لتعريف كارل بوبر، نعتبر أن كل ما هو علمي هو قابل للتزوير، وإن ما لا يمكن اعتباره مؤقتاً حقيقياً، هو ما يمكن إثبات عدم حقيقته. لذا لن يوجد في فكرنا الغربي (علم) إسلامي، لأن الإسلام، بالتعريف، لا يمكن تزويره. الملاحظة هي لكل الفكر المنزّل، مسلماً كان أم مسيحياً أم بوذياً: عدم اتصالنا مع الفكر اللاهوتي يجعل المفكرين العلمانيين يعتقدون، أن الإسلام وحده متصلب..

الحوار إذن ممكن، ولكنه لا يستطيع أن يتقدم بين المسلمين والغربيين، إلاّ إذا تبنوا نفس زاوية النظر للكون. هكذا ميّز جاك بيرك،ثلاث نظرات إلى الإسلام: البحث المنطقي: الذي يمثله ابن الرشد والذي يذكّر بالأرسطوطالية اليسارية؛ الإيمان الشامل:التي يمثلها الغزالي في الإسلام والقديس توما في الغرب، اللذان صبا العقل في الإيمان؛ الصوفية والشعر: معظم المختصين الأوروبيين بالإسلام يحتفظون من الإسلام الإيراني قبل كل شيء بالشعر والصوفية. بيرك، من جهته يفضل البحث المنطقي، ولكن كان ينقصه مفاوضون.

حجّات الإسلام في ايران هم مشاركون في المدرسة الثانية، مدرسة الإيمان الشامل. ولكن الحداثة انبثقت في الغرب من التمييز الراديكالي الحاد بين الإيمان والعلم، ولا من مبحث الذمة التوماوية، نشك إذن بأن (التوماوية-المسلمة) لحجّات الإسلام تستطيع أن تقودهم إلى الحداثة في الإيمان الذي

يستلهمون منه. يبدو لنا أن هذا الملصّقة للعقيدة والإيمان، للعلم الحديث والعلم الإسلامي، تشارك في أسطورة قديمة في العالم الإسلامي: الاعتقاد بأنه من الممكن الاستحواذ على العلم الغربي شرط فصله عن أسسه. الخطأ الذي اقترفه رفاعة والتي فضحها الفيلسوف الإيراني الأفغاني: (القوى الغربية التي تهيمن علينا ليست مرتبطة بآلاتها ولكن بالميتافيزيقيا) يكتب في عام 1880. ولكن الأفغاني ليس مدرجاً في برنامج ENA المدرسة العليا (الإدارة) الإسلامية، والطلاب الذين نقابلهم ليسوا مولعين إلاّ بعلم اللاهوت المعجبون بالأسطورة. بدوا لي جميعاً مستعدين للتأقلم مع الغرب معاً !! الميل لعدم فهمه؛بحاجة لتدقيق ويعانون مما يسميه داريوش شايقان (نظرة مبتورة) إلى العالم.

هل يتصورون أن المغامرة في المعرفة الغربية قد تفقدهم هويتهم الإيرانية، الشيعية، الثورية؟ ولكن ما يفاجئ، في هذه الجامعة الإسلامية، ما يحل محل النواة الهوية، بحاجة لتدقيق قبل كل شيء آخر هو الفصل الاستحواذي بين الجنسين والخوف المعلن بدون انقطاع من خطيئة الجسد . حيث يبدو أن تجنب العلاقات الجنسية، الحشمة، الشادور في هذه الأمكنة كالملاذ الأخير للثورة. لا شيء يستحق أن يجعلها مستمرة !. لهذا سنشك باستطاعة نظام آيات الله تجديد موظفيه، بدون أن نستطيع التنبؤ بالنظام الذي سيعقبه.

بعد الإسلاموية، الطريق الثالث

لنواصل المقارنة بين الثورة السوفيتية والثورة الإسلامية، التي وصلت بدورها إلى نهاية مسارها. في نهاية الإمبراطورية السوفيتية، استحوذت أسطورتان على الفكر (صحيح هذا في الغرب، أكثر منه في الشعوب المعنية مباشرة). الأسطورة الأولى، أسطورة السوفيتي، تفترض أن الخروج من تكيّف شمولي كهذا، سيحتاج إلى جيل على الأقل لكي يظهر من جديد المواطن الحر في فكره. الأسطورة الثانية، الـ(اشتراكية بوجه إنساني)، تتخيل هذه النظرية أن الشعوب المنهكة بالإيديولوجيات ستخترع طريقاً ثالثاً بين المادية الرأسمالية والشيوعية المنتهية. إبداعان فكريان سرعان ما كذبا من قبل الشعوب المعنية: تعاود هذه الشعوب فوراً إيجاد حريتها الفكرية، وتفضل على الطريق الثالث الذي لم تجده الحلو والمر للديمقراطية الليبرالية واقتصاد السوق.

إن نهاية الثورة الإسلامية يثير أوهاماً مماثلة. نتصوّر بصعوبة هنا، أن هؤلاء الايرانيون المعجونون بإسلام ما قبل الثورة، خاضعون للإسلام منذ ذلك الحين، سيتحولون عنه تماما؛ بنفس الوقت، نستطيع بصعوبة التصور امكانية مرور الرجل الإسلامي بدون العبور من دولة شمولية إلى دولة ديمقراطية ليبرالية. وهكذا تنبثق، مطبقة على ايران، اسطورة (الطريق الثالث)، مسماة (ما بعد الإسلام)، موضحة من قبل عبد الكريم سوروش، المفكر الرمزي ل (الخروج من الإسلاموية الذي لا يقطع مع الإسلام). ممزوجاً باصطفائية العلم والفلسفة الغربية والنظرية اللاهوتية الشيعية، يميز سوروش بين الحقيقة والمجتمع: الإسلام هو مصدر الحقيقة، ولكن بإمكان المجتمع أن يعمل حسب قواعد علمانية وعالمية كالديمقراطية واحترام حقوق الانسان. نقض سوروش إذن مبدأ الحضارة الإسلامية، الذي يبدو له بأنه يبتذل الإسلام برده إلى المادية، انه يرسل الدين والملالي إلى السمو بدعوتهم إلى الانسحاب من العالم. ويذكّر، بأن هذا يتطابق مع التقاليد الشيعية، السابقة للثورة.

هذا العقيدة القليلة الجدة، اكسبت ساروش لقب (لوثر الإسلام)، من قبل الصحف الاميركية الشمالية والأوروبية، الباحثة بغير كلل عن مصلحين: لقب لا ينفيه المعني. ولكن نبقى خائبي الأمل لكونه لم يعط أي شرح لانحراف الخمينية، ولا انطباعات عن فشل الثورة البيضاء. ولا أي نقد ذاتي أيضا ! بينما، قبل أن يكون منشقا، كان ساروش في عام 1 9 8 0، قائدا للثورة الثقافية التي طهرت بطريقة دموية، (على الطريقة الماوية)، مدرسي وطلاب الجامعات؛ ثم، كمستشار للخميني، أعطى صبغة إسلامية للمناهج الدراسية: فترة، يرفض أن يتحدث عنها. عندما نسأله إذا كان ممكنا، في ديمقراطيته، انتقاد الدين، وأن يبدي في الاماكن العامة كفرا مشابها لما يبديه الايرانيون الشباب في الأماكن الخاصة، يتهرب. هذا الخط الأحمر لا يمكن تجاوزه للمفكر (العلماني). هل هذا وفاء للإرث، ورفض خيانة الهوية؟ أو هل التخوف من الفتوى القاتلة يثقل على كل فكر حر؟

سوروش ليس سليمان رشدي: صحيح أن أعماله محرمة في إيران، ولكنه يسافر بحرية. فهل من الممكن أن يكون ناقدا رسميا كما كان يوجد سابقا في الاتحاد السوفيتي، (منشق شرعي) يشهد على تسامح النظام؟ عرف مثل هذا، في الغرب في الشرق، في عهد بريجنيف، عندما شاخت الامبراطورية كما تتراجع الإسلاموية اليوم.

يعجب الغرب، بتطور ما بعد الإسلاموية، جدا: لكون سوروش مدعو بشكل مستمر للجامعات الكبرى الاميركية، فهو حاضر في جامعة هافارد أكثر من طهران · يذوق اليسار الاميركي تمييزه بين الرأسمالية القاسية في الغرب والرأسمالية الاخلاقية التي قد تصبح معتدلة بواسطة الإسلام· نقد مغر، لهؤلاء الاميركيين الذين يعانون من نجاح مادي يحسدهم عليه العالم بأكمله!

في أوروبا أيضا، نجح تطور مابعد الإسلاموية نجاحا كبيرا بالقرب من المستشرقين الباحثين عن النسبوية الثقافية وأعداء التحررية- الجديدة؛ هؤلاء قد نقلوا إلى سوروش الاهتمام الذي وجهوه فيما مضى للنقابة البولونية التضامن· كانوا يتمنون أن تقدم حصيلة أو تأليف بين السوق والدين·

الإسلام بدون لحية

من في ايران ينتظر الخلاص على يد ما بعد الإسلاموية ؟ تبين طلاب علوم الدين والملالي الشباب هذا، في الفصل بين الشيعية والسياسة، لوح الانقاذ لدينهم. على الرغم من أنهم لا يملكون أي وسيلة للتعبير، هؤلاء الملالي، المأخوذون بالعلمانية هم المنشقون الأكثر تهديدا للنظام، لأنهم يعترضون على شرعيته الدينية.

ولكن، خارج هذه الدائرة للدينيين المصلحين، يجهل الطلاب يجهلون ونظريته عن ما بعد الإسلاموية. بالنسبة لهم، سوروش هو رجل عجوز. وعجائز هم كل أعضاء الجيل الذي شارك من قريب أو بعيد في الجمهورية الإسلامية.

بنظر ايراني ذي العشرين عاما، الفرق بين سوروش وآية الله،بين الإسلام المصلح، والجمهورية الإسلامية، وما بعد الإسلاموية ليس واضحا: كلهم ملتحون ! قال لي المترجم، وهو خريج جديد من الجامعة ((في المرة القادمة التي سأنتخب بها، سأختار أي مرشح بشرط أن يكون بدون لحية !))

المعلم الفكري لهذا الجيل الجديد اسمه داروبش شيقان، ابن محترم لرفاعة، جواد طباطابي، أو الصحافي أكبر غانجي . هم اللذين يجب حفظ أسمائهم، يرفضون كل تسوية مع الإسلاموية: إنهم يقدمون الديمقراطية من غير أن تكون معدلة بالدين أو مهجنة بالإسلام. (لقد جربنا الثورة الإسلامية، يقول شيقان لإخوته الايرانيين والمسلمين، ولم تنجح؛ تخلوا عن كل طلب للثأر وعن كل حنين؛ اقبلوا ان حقوق الانسان ليست غربية، بل عالمية !.)

غانجي، الاكثر تطرفا، ينشر من سجنه في طهران حيث هو معتقل، بواسطة الانترنيت نشرات هجائية شعبية جدا عند الشباب والتي، باستشهادات متينة، تعلن عدم تلاؤم القرآن مع الديمقراطية.

عندما يتظاهر الشباب في الشارع، وهذه طريقتهم للتعبير، لأن الوسائل الأخرى ممنوعة، يفضلون ميكي ماوس على كل العمائم. حالتهم الفكرية مشابهة لتلك التي كانت للشباب الروسي أو البولوني في 1980 أو المتظاهرين في تيانمن في بكين الذين شيدوا في 1989، نسخة بالورق المقوى من تمثال الحرية: الجمهورية الإسلامية تبدوا لهم غير قابلة للإصلاح.

في ربيع 2002، وجب على الرئيس جورج بوش أن يلقي خطابا استرعى الانتباه اعتبر فيه ايران منتمية إلى (محور الشر) ضاما إليها العراق وكوريا الشمالية. رُفض هذا التصريح بشدة من قبل المستشارين الاوربيين، بينما استقبل في ايران بشكل حار من قبل الشباب المثقف وعدد من المفكرين: أخيرا نستطيع أن نقول بصوت عال إن الثورة الإسلامية تمثل الشر في المجتمع الايراني أو، تقليدا، الشر معتبرا كشيطنة حقيقية. اتهام سياسي - ديني الذي هو صدى لخطاب رولاند ريغان، عشرين سنة فيما قبل: لكونه قد نعت الاتحاد السوفيتي (بامبراطورية الشر)، رولاند ريغان الذي سخرت منه أوروبا، أصبح بطلا بالنسبة للشباب الروسي. كما الشباب الإيراني اليوم، الشباب الروسي المطّلع على الموضوع.

المشاركة الحقيقية للمجتمع الإيراني هي أقل بين المحافظين والمصلحين، كما يلقونها لنا في الحلقات الرسمية، هناك وهنا، مما هي بين الأجيال.

في كل العالم الإسلامي، إن كان محاصرا بالثورة، أو بالإسلاموية أو بالتطور الغربي، أليست تصرفات جيل الشاب هي مؤشر المستقبل؟

لأن النظام الإسلامي يقمع الشباب بممنوعات لباسية، فهؤلاء يعارضونه ضمن المجال نفسه، تضع الصبايا مكياجا ويلبس الشباب ربطة عنق: ربطة العنق هي علامة على الانشقاق! ولكون هذا ممنوعا، فهو يرقص في الحفلات الخاصة، ويشرب الكحول، ويتسمع إلى موسيقى البوب الإيرانية المستوردة من كاليفورنيا، ويتابع البرامج التلفزيونية بواسطة الستاليت؛ المبعوثة باللغة الفارسية من لوس انجولوس، تبث الأفلام والأغاني ضد الثورة، ونشرة الاخبار الكافرة ضد نظام آية الله. شباب ايراني يدهش بجرأته، لأن خطر أن يجلدوا، أن يسجنوا، أن يستجوبوا أو أن يفقدوا عملهم، بالرغم من انحلال النظام، يبقى حقيقيا.

مواطن لعصره بنفس القدر لشعبه، هذا الجيل الصاعد هو في اتصال مستمر مع العالم، من خلال التليفون الخلوي وبواسطة الرسائل الالكترونية الموجهة إلى ابن عم في المنفى، مكتوبة بـ(الفارنكليزية): فارسي مكتوب بالأحرف اللاتينية منقشة بالانكليزية . بشكل خاص الصبايا اللواتي هن مسلمات ومتطورات في نفس الوقت، هذا يعني بأنهن غربيات حتما، يجمعن الهويات، إنهن منتميات للعالم ولقبائلهن، متعددات الثقافة، ويتمكن من ذلك بدون جهد ولا صراع صعب .

بأي سر يلغى التعارض بين الإسلام والحداثة الغربية، المذكور بغير انقطاع من قبل علماء الدين، والبيروقراطيين الإسلامويين، وأيضا بواسطة المعلقين الغربيين، بدون صعوبة ظاهرة من فكر الشباب الإيراني؟ يجب التصور بأن هذا التناقض هو أقل حقيقية مما هو إخفاء لرغبة في السيطرة الاجتماعية عند الذين يعلنون أنه لا يقهر. لكل الآخرين، يذكر بأنه جائز بدون انفصام ثقافي، أن يعيش عصره، هويته ودينه وبنفس الوقت تقام المعايير الغربية للحداثة؛ من الآن فصاعدا هو مشترك بين الحضارات .

عندما تصل الثورة الإسلامية لنهايتها، ماذا سيبقى من الإسلام؟ في هذه العتبة، تختفي المقارنة مع الاتحاد السوفيتي، لأن الإسلام ليس إيديولوجية فقط بل عنصراً جوهرياً للحضارة الفارسية منذ ألف عام. بدون شك رجال الدين هم اللذين سيخرجون أكثر تضرراً، بسبب تدخلهم المزعج في السلطة السياسية؛ سيبقى رجال الدين ولكن مجمدين في اجتماعاتهم ومساجدهم. والممارسة الدينية، مع أو بدون الإيمان، ستبقى أيضاً،ولو في أيام الحج الشعبي والأعياد الكبيرة فقط، تقريباً مثلما صارت عليه المسيحية في الغرب. وبالتأكيد ستشعل شعلة الصوفية لوقت طويل طالما هي مغروسة في الروح الإيرانية وانتظار الإمام المختفي للشيعية.

بالإجمال، سيبقى القليل من الإسلام. سيبقى الأساسي، على مدى تكوين HOMO SLAMICUS الإنسان الإسلامي.

(10)النزعة التي ترجع كل شيء إلى القضيب الذكوري ويعتبر رمزية القضيب خصيصة النوع البشري كله، ومن يفضل الرجل عن المرأة.

(11)الاحتفاظ بتمام نظام (كالدين مذهب يحاول).

(12)ضاحية من ضواحي باريس وتقع في غربها.

(13)مذهب تصوفي يرى أن الكمال يقوم على حب الله وسكون الروح.

الفصل الثامن

نحو ديمقراطية عربية

في جنوب مدينة الكويت، في ضاحية فانطاس، تختلط المدينة بالصحراء؛ في الافق تحترق مشاعل الصناعة البتروكيماوية . تمدن على الحدود النائية، لفنطاس التي هي نصف ضاحية، نصف بلاد العرب الخالدة، آخر بدو الكويت. في الأصيل، عندما يصبح الجو أقل حرارة، يجتمع رجال الحارة على مقاعد مغطاة بسجاد يضعونه بشكل مربع- ديوانية- للتدخين، وليتقاسموا الشاي والقهوة، ولكن قبل كل شيء، ليدردشوا.

في الكويت، في عصر القوافل، الذي كان أيضا عصر البؤس، المنتمي إلى ماض يحتفظ به فقط القدماء في الذاكرة؛ يصل صيادو اللؤلؤ والتجارة البحرية الذين كانوا-بدوا في الماضي-، إلى الديوانية، في سيارات فخمة مستوردة من اليابان والولايات المتحدة . كل غريب يمر من هناك يدعى بحرارة لينضم إلى الجماعة. رفض المشاركة بشرب الشاي، الحليب والتمر يقارب الإهانة؛ يدعونك بكل أريحية للعشاء ثم لقضاء الليلة. في هذه الأمكنة، يلزمني - أن اقترب أكثر من التجربة، لربما كانت شاملة لحضارة عربية أخوية ومنفتحة؛ ولكنها حضارة محجوزة لنصف المسلمين، لأن النساء غائبات فيها . عندما طلبت من مضيفيّ في لحظة ما- لم أحرم نفسي منها أبدا- أين النساء؟، فردوا علي بدون أي حرج لأي منهم، بأنهن استبدلن الديوانية بالمخازن الكبرى لمدينة الكويت. في البلد كله، لا يوجد إلا ديوانية واحدة تديرها امرأة ذات نفوذ، يجتمع فيها الزبائن من الجنسين؛ الديوانية هي خصوصية ذكورية في مجتمع، النساء فيه محجبات لغير أقاربهن .

تلك الصالونات، المفتوحة للكل عند كويتيي الضاحية، في منتصف العاصمة، مُدارة من طرف بعض عائلات التجّار الكبيرة، أو بعض أعضاء العائلة الحاكمة، آل الصباح؛ الدخول إليها يخضع لانتقاء . الأكثر ندرة، مكيفة، وذات ديكور فخم، لا تفتح إلا مساء واحدا في الأسبوع ؛ يتواجدون فيها لكي يروا، ولكي يعرضوا سلطتهم، ولطلب بعض الامتيازات . عند آخر البدو في فانطاس، تاريخ الماضي هو ما يحتل كل المحادثات ؛ بين الكوتيين المتمدنين من وقت طويل ؛ السياسة هي الحديث المتداول. في الواقع، هنا البلد الوحيد العربي، الذي يسمح بالتآمر بشكل علني ضد الحكومة وحتى الاحتجاج على العائلة الحاكمة ! الديوانية هي مؤسسة لا توجد إلا في هذا الأمة التي لا يوجد لها مثيل.

عرب عرض البحر الواسع

الكويت أمة فريدة، بالطبع عربية ومسلمة، ولكن لا يمكن أن تخلط مع أي واحدة أخرى. على العكس من الصورة عن عرب الصحراء، توجه الكويتيون من التقاليد إلى البحر، هم عرب الشواطئ الواسعة شعب مؤلف من ملاحين . رمز الأمة هو الرفيع(14)هذا القارب الخشبي الذي، في عام 1756، منذ تأسيس البلاد من قبل سلالة العائلة الحاكمة، كان يضمن تجارة مثلثية بين الخليج الفارسي، والهند والقرن الأفريقي. منصوبة على أرض شحيحة، لا تنتظر القبائل العربية التي تختار أن تستقر هنا أي شيء من بلادهم الخلفية ؛ بالنسبة لها، لا يوجد أي خلاص خارج التجارة البعيدة ! يضاف إلى ذلك مغامرة اللؤلؤ. في الديوانية الواقعة في مدينة الكويت، لا يزال باستطاعتنا الاستماع إلى بعض القباطنة القدماء، الأحفاد البعيدين للسندباد البحري، يسردون كيف، في السنوات الثلاثينات، قد أبعد اللؤلؤ الياباني الزراعي من السوق العالمية، اللؤلؤ الطبيعي المصطاد من عرض البحر. هؤلاء التجّار قد أسسوا بلاداً أكثر قدماً من الكثير من البلاد الأوربية، وكل تلك ذات الحدود الاعتباطية والهوية الضائعة التي شيدت في القرن العشرين. هذا التاريخ الطويل للكويت، هذا التبادل التقليدي مع بقية العالم، حرية الكلام في الديوانية، إسلام ذو علاقة مع أديان أخرى في الشرق، الكوزموبوليتية أو تعدد القوميات الصفة الخاصة بالمرافئ، التسامح الناتج عن ممارسة التجارة، كل هذا مكّن من إنشاء ثقافة مختلفة، ظهرت طويلا قبل اكتشاف البترول في عام 1938 واستثماره منذ عام 1946 .

إذا كان علينا أن نؤشر بشدة للهوية الكويتية، فهذا لأنها قد شكّك بها أثناء المحاولة العراقية في عام 1990 لضم الكويت. نذكر أن الكثير من الأوربيين قد اعتبروا حينها أنه ليس ضروريا الموت من أجل الكويت؛ من دون أن يهمهم أن تصبح هذه الرقعة من الصحراء رقعة عراقية. يمتزج في عدم الإكتراث هذا من قبل المفكرين والسياسيين الغربيين يساريين كانوا أم يمينين متطرفين، الجهل والتعجرف؛ ألم يكن العرب غير قابلين للتبادل ؟ في ضمن هذه الدائرة، نلوم الكويتيين أيضا إنهم أغنياء جدا: وهذه خطيئة فادحة عندما تتعلق بالعرب...

في هذا التردد لنجدة الكويت، حضرنا تضافراً غريباً، لم ينته بعد، بين صدام حسين، الإسلامويين واليسار المعادي لأميركا. لقد أقنع صدام حسين أن الكويت ليست سوى اختراع اصطناعي للبريطانيين. في الحقيقة، هي العراق التي نشأت نتيجة الاستعمار، كمجموعة لثلاث مقاطعات متميزة : كرد، شيعة وسنة، لا تمثل أي وحدة ثقافية؛ بينما الكويت، هي، أقدم بقرنين من الوصاية البريطانية التي لم تدم أكثر من ستين سنة.، لم يفتأ صدام حسين، من طرفه عن اختلاق هوية قومية، غير موجودة، لبلاده . مرة على مرة، حاول فرض نفسه كاستمرارية لبابل، ثم كموحد للمسلمين باسم الامة Umma، ضد دولة- الأمة Etat- nation، بعد أن ابتدأ حياته السياسية باسم الوطنية nationalisme أخيراً، أقنع بعض اليسار الغربي بأنه يمثل التقدم العلماني laique أمام الإقطاعية للنظام الكويتي. بينما كانت الكويت دائما أكثر ديمقراطية من العراق: أول مجلس منتخب يعود إلى 1938، لا تحتوي البلاد على سجناء سياسيين ولا ايديولوجية رسمية ؛ أما فيما يخص الدخل البترولي فهو موزع بشكل أفضل على الشعب الكويتي ما لم يكن مطلقا في العراق.

كيف نفسر هذا الارتباط لجزء من النخبة والطبقة السياسية الأوربية بنظام صدام حسين؟ بالطبع، العداوة الأميركية بكل الأحوال هي، مخدر يقود إلى هذا النوع من الاضطراب العقلي ٠ واذا تبنينا وجهة نظر أكثر كرما، يجب التصور أن الجهل يحدد أيضا هذا الموقف ٠ يعتبر الكثير من الغربيين صدام حسين مستبدا من بين المستبدين في المنطقة والذين هم كثر٠ وهذا ما يدل على خطأ فادح ٠ النظام العراقي، بالرغم من أنه عربي، لا ينتمي إلى نفس نوعية نظام جيرانه : الآخرون هم ديكتاتورين فقط٠ أما العراق فهو نظام شمولي (توتاليتاري) ٠إن الأصل السياسي لصدام حسين لا يربطه بأمراء ولا بشيوخ آخرين سلطويين، بل يربطه بالفاشية الأوربية: فأصل سلطته، الطريقة التي يمارسها ترجعه إلى هتلر أو موسوليني، وليس إلى صلاح الدين٠ القضاء على العدو الداخلي، إرادة الغزو الخارجي، الايديولوجية الإجبارية، الهمجية كطريقة للحكم، الحزب الأوحد، إبادة الأقلية العرقية والدينية، شيعية وكردية، كل هذه الصفات التي تمثّل بتراكمها خصوصية النظام العراقي، ليس لها أي علاقة بالمسلمين ولا بالعرب٠ الديكتاتوريون العرب لا يمارسون الإبادة ؛ بينما صدام حسين، نعم: في عام 1988، قتل الجيش العراقي مائة الف كردي لأنهم أكراد٠ البعث العراقي، ناسخا في الثلاثينات الأحزاب الفاشية الأوروبية، لم يفعل أكثر من تحسين الهمجية لنماذجه بواسطة استخدام الاغتصاب بشكل مستمر ؛ يصون الجيش العراقي (مغتصبي الدولة) الذين يطغون على المواطنين المتمردين ٠ لقد كان هؤلاء نشيطين بشكل خاص أثناء الاحتلال الكويتي؛ في الثقافة العربية، ليس المغتصَب هو المصاب فقط، بل كل عائلته التي تجد نفسها محطمة٠ إذا لم يكن صدام حسين هتلر، فليس هذا بسبب غياب الطموح، بل لعدم امتلاكه النسبي للوسائل ٠

إذا فلتت فاشية صدام من المراقبين العرب، الذين ليس لهم التجربة، أمر نستطيع فهمه ؛ ولكن إن لم تره النخبة الأوربية intelligentsia ، فهذا أمر مقلق٠ من الممكن تفسير عدم اكتراث الاوربيين هذا، للطبيعة الحقيقية للنظام العراقي، وببعض من العنصرية تجاه العرب، (هل العرب هم مثلنا، هل لهم الحقوق الفردية، هل يعرفون ما هي حقوق الإنسان والديمقراطية؟) ٠ هذه العنصرية تبدو أحيانا في اليسار، تحت زينة الثقافة النسبية (لن نعرف فرض معاييرنا على العراقيين، أليس كذلك؟) ولكن هل من المناسب احترام تقاليدهم، بينما هي متعلقة بالفاشية؟ في النهاية نتردد في أن نعطي تفسيراً أخيراً، غالباً غير مقدر عندما يتعلق بالنخبة الغربية المدعية : يوجد أغبياء في هذه الفئة بالقدر الذي يوجد في كل الفئات الأخرى، وحتما يوجد فيها منحرفون٠

اثنا عشر عاماً فيما بعد، يجب أن نتذكر هذه الظروف، لأن كل العوامل التي أدت لغزو الكويت ظلت فعّالة، لا الأسباب ولا الفاعلين قد اختفوا ٠ الجهل لم يختف أيضا؛ إنه لمخيف أن تصبح أوروبا مطمئنة ٠ ترى من يعرف عندنا، أن الكويت، من غير أن تكون ديمقراطية من النوع الغربي، هي المجتمع الأكثر انفتاحاً في العالم العربي الإسلامي؟

هل يجب الموت من أجل الكويت؟

في عام 1990، الذين وجدوا أن الموت من أجل الكويت غير مجدٍ، يبدون لي أنهم ورثة هؤلاء الذين اعتبروا غير مجد أيضا، في عام 1939، الموت من اجل دانتزغ· هذه المقارنة مع(المسالمين) في ذلك الوقت ليست قسرية · في الواقع، من هم أنصار التسوية مع هتلر، الذين كانوا قابلين لتقديم بعض الامتيازات الاقليمية التي بدت لهم مبررة من قبل التاريخ؟ اليسار المتطرف الشيوعي الذي لم يكن يريد أخذ طرف في الصراع (الامبريالي)، واليمين المتطرف الذي يكنّ بعض التعاطف مع النازيين · في عام 1990، ودائما باسم (الصراع ضد الامبريالية)، رفض اليسار نفسه (المسالم) التدخل في أزمة بين المتسلطين العرب حيث البترول - أي مصالح المؤسسات الرأسمالية-كان رهاناً حقيقياً ! هذا اليسار نفسه المسالم-اعتبر أيضا أن صدام حسين يمثل منحى علمانياً وتقدمياً في حضن العالم العربي، ضد الأمير (الاقطاعي) في الكويت· الشيوعيون الفرنسيون، الكارهون نجدة الكويت، ألم يساندوا في عام 1960، الضم (التقدمي) للتيبة، التي كانت تعتبر (اقطاعا)، من قبل الصين الماوية ؟· على اليمين المتطرف، أن يجمع المعارضين للحرب اعداء الرأسمالية، الممثلة بالأمير، ، أعداء امريكا المرضى والمتعاطفين مع صدام، (رجل قوي)، على رأس نظام (يصلح للعرب) ·

اثنتا عشرة سنة بعد الحادثة، ولا يزال هناك عنيدون مستمرون بمساندتهم، من ضمنهم جان ماري لوبن، جورج هايدر وبعض النواب الفرنسيين لليمين الضائع، المشجعين من قبل جان بيير شيفنمون · دوافعهم جميعا معروفة : عداء أمريكي عاطفي، عداء صهيوني، ونأمل، الكثير من الجهل· يعاند الإعلام الساري والمؤسسات غير الحكومية ذات ادعاءات خيرية في مساندة صدام ضد الكويت المحرَرَة · لا نسمعهم أبداً محتجين على الاغتيالات النظامية من قبل صدام حسين لكل معارضيه المزعومين، ولا ضد تحويل أموال المساعدات الخيرية بهدف بناء ترسانته ؛ ولا منظمة إنسانية غربية تهتم بمصائر مساجين الحرب المسلوبين في الكويت في 1991، المحتفظ بهم كرهائن منذ اثني عشر عاما من قبل صدام· بدون شك أنه أكثر راحة، أمام الكاميرا، الإشهار بالحصار الاميركي كسبب لتفقير العراقيين ؛ هم نفسهم الذين يعترضون ضد نتائج الحصار، أو الآخرون الذين كانوا يشبهونهم وكأنهم أخوة، والذين كانوا يزورون المعتقلات الستالينية السعيدة في عام 1950 ·

حرب عادلة

لحسن الحظ، لم تخضع حكومة الولايات المتحدة الأميركية للصفارات السلمية، أكثر في عام 90 19، منها في السنوات 1940 · كان أكثر وضوحاً، عند النظر من واشنطن وليس من باريس، بأن أي اعتراض مقدم ضد تحرير الكويت لم يكن مقبولا؛ هذه الاعتراضات، استعاديّا، هي أقل تقبلا لحد اليوم·

ألا يجب فرض احترام القانون الدولي؟ هل يجب ترديد خطأ جمعية الأمم SDN الذي ترك ايطاليا تحتل اثيوبيا، لسبب، الجزء الكبير منه في تلك الحقبة، إن الأفريقيين في عقول الأوربيين، لا يستحقون بأن يعاملوا حسب المعايير الدولية ؟ ولكن في أزمة الخليج، أ لا يعتبر بعض المسالمين أيضا بأن هذه الحرب بين البدو لا تستحق أن تراق لها قطرة دم غربية؟ لا نستطيع سوى الامتناع عن الشك بهم·

ألم تكن حربا للدفاع عن المصالح المادية للغرب؟ بالطبع نعم، ولكن أليس دور الدولة الدفاع عن المصالح المادية لمواطنيهم المهددة في حالة ندرة التموين بالبترول ؟

هل كنا سنهب لنجدة شعب لا يملك بترولاً؟ التجربة في السنوات العشر الأخيرة تسمح بالأجابة بنعم : الغربيون ينجدون أيضا الشعوب التي لا تنتج شيئا نافعا لمصالحهم، مثل الكوزوفو أو بوراندي، عملية مبررة (فقط) بالهم الإنساني وبالضرورة للحفاظ على الأقل بالأنظمة العالمية التي تتفادى حرب الكل ضد الكل · الإدعاء بأن التدخل في الكويت ليس له محرك سوى إرادة (السيطرة)على البترول هو إذن تفسير مبتذل يغرف من الأسس القديمة اللينينية التي ترى الامبريالية (نهاية التاريخ)· ايديولوجية مشرفة على الموت إلا إنها لا تزال تتحرك في الغرب وتظل شعبية عند أنصار نظرية المؤامرة؛ من بينهم، نقابل عديداً من المفكرين العرب الذين يتحاشون هكذا أن يتساءلوا حول مسؤليتهم الذاتية·

ألم تكن الكويت سوى إقطاعاً بترولياً كان له أن يربح بانضمامه إلى جمهورية عربية ؟ ولكن الكويت موجودة طويلا قبل أن نجد فيها البترول؛ منذ أن بدأ استثمار البترول، توزع الدولة هذا الدخل بأكثر مساواة مما لا تفعله أي حكومة عربية أخرى مع مواطنيها· وإذا وجب اعطاء دليل واحد، فنشدد على أن الكويت، في العالم العربي، هي البلد الوحيد حيث أمل الحياة هو الأطول·

مما لا شك فيه، إن حرب الكويت كانت محركة بمصالح مادية، الأمر الذي لا يصدم ؛ لكن ما لا نشير إليه كفاية، هو أنها كانت حرباً اخلاقية وعادلة· بالاستناد إلى هذه المعلومات، لنتذكر موقف الكويتيين أثناء الاحتلال العراقي: لا يوجد في هذه البلاد بيتان ولا كيزلينغ، وهذه حقيقة نادرة في التاريخ· عكسا لآمالهم وخططهم، لم تجد الحكومة العراقية أي عميل لإنشاء حكومة لصالحهم· وما كان أيضاً مثيراً للانتباه بعد طرد العراقيين، هو أن يتظاهر الكويتيون المحررون لصالح دستورهم المستعاد، الذي يعتبرونه ثمينا بقدر القرآن، لأنه يجعل منهم مواطنين ولا أشياء · ألا يجب صون هذه الحقيقة النادرة في العالم العربي الأسلامي ؟· لمن المؤسف، إن كل هذه الأسباب للتدخل الغربي لم تنشر، في حينه، وليست معروفة حتى لوقتنا الحاضر، كما لم يمت جندي غربي واحد

أثناء المعركة في صحراء الكويت، ولكن حتى لو كانت النهاية تراجيدية، فالموت من أجل هذه البلاد كان عادلا، وبإمكانه أن يكون كذلك في المستقبل.

أخيرا، علينا أن لا ندع (الشارع) العربي يثير الاضطراب فينا . في عام 1991، تظاهر الشارع العربي في مسيرة تعاطفية مع صدام حسين. كما أنه سيتظاهر مرة جديدة في 2002 ضد الأمريكان. ولكن ماذا تعني بالضبط هذه الاضطرابات وهذه التظاهرات ؟ مما لا شك فيه، هو أن الشعب العربي يكره إجمالا الأمريكيين، ولا يحب الغربيين بشكل عام . مساندتنا للألبانيين أو لمسلمي البوسنة قد أفل بسبب عدم تدخلنا الكامل أو النسبي لصالح الشيشان والفلسطينيين . على الرغم من هذا، هل صحيح، أن صدّام وبن لادن هما من يؤازر الشارع حقا؟ الأكثر احتمالا، هو أن معظم المتظاهرين يستغلون كل المناسبات التي لا تستطيع حكوماتهم قمعهم فيها، ليحتجوا ضد الطغيان الذي يحيق بهم.

نوع من الديمقراطية العربية

إن الدستور المستعاد الذي احتفى به الكويتيون في 1 9 9 1 يدع الغربيين في حالة ارتياب· المستبدون العرب بالطبع كارهون لها، تخوفا من انتقال عدوة الديمقراطية · ولكن هل الكويت هي ديمقراطية حقيقية؟

الدستور هو مقدس بالنسبة للكويتيين، هو مؤسسة للمواطنة ؛ لا يخطر ببال أحد أن يحتج عليه، لتعديله أو تحويله · الانتخابات هي انتخابات جدية، حقيقية، تجري فيها مجادلات فعلية· البرلمان ليس وهميا، الجدال ليست مسخرة · إذا لم يكن للنساء الحق في الانتخاب لحد الآن، فهذا لأن البرلمان قد عارضه في 1 9 9 9، نقص صوتين فقط للحصول على الغالبية، ضد رغبة الحكومة نفسها· تمييز عرفته سويسرا حتى تاريخ حديث جدا والذي سيختفي بسرعة بسبب انتقال العداوة من الدولة المجاورة ؛ في عام 2 0 0 2، صوتت النساء في الانتخابات المحلية في قطر، وأثناء الانتخابات البرلمانية في البحرين· غائبات في البرلمان الكويتي، ولكنهن لسن غائبات من الحياة العامة، إذ نراهن على رأس الوزارات، الجامعات والسفارات·

إذا عرفنا الديمقراطية كبلاد حيث تسود دولة-القانون، مؤهلة ببرلمان منتخب، بإعلام حر، حيث نستطيع بكل حرية أن نتناقش بكل المواضيع من غير أن نخاطر بإيجاد أنفسنا في السجن، فالكويت هي الديمقراطية الوحيدة في الوطن العربي· ولكن اذا تحققنا إضافة لغياب المرأة من بين المنتخبين، من أن الكويت مدارة بأسرة حاكمة، ومن أن سلطة البرلمان هي سلطة محدودة، و من أنه يكلف غاليا لكي تنتخب، ومن أن الأحزاب ممنوعة، ومن أنه يوجد حقا مناقشات لا تنشرها الصحافة، ومن أن سلطة العائلات الكبيرة تغلب القانون، ومن أن الفساد هو شيء عادي، فالأكيد أن الكويت هي ديمقراطية غير كاملة · صحيح أيضا بأنها ليست جمهورية، بل ملكية دستورية ؛ الملك الجديد هو من العائلة المؤسسة لآل الصباح بالضرورة، بعد موافقة البرلمان · ما يجعل من الكويت ملكية دستورية وديمقراطية أكثر بقليل من انكلترا أو هولاندة · نستلخص أنها ديمقراطية في جيرة - العالم العربي- حيث لا توجد أية ديمقراطية على الإطلاق·

يحصل غالبا، أن يرفض الموظفون الكبار الغربيون الذين هم في زيارة رسمية للكويت، زيارة البرلمان لأنه لا يوجد فيه أي امرأة ؛ ولكن في كم دولة عربية يستطيعون زيارة برلمان تحصل فيه مناقشات حقيقية ؟ نعم في الكويت، الأحزاب غائبة رسميا، المنتخبون في الواقع مجمعون حسب الميول، واحد يسمى ليبرالياً، والاخر محافظاً مهيمن عليه من قبل الإسلامويين · بين هذين الميلين، العراك لا يقطع إجماع الأمة ؛ الدستور لا يوضع في قفص الاتهام والجدير بالذكر إن الجيش لا يلعب أي دور سياسي· تقليد برلماني يدين بالكثير للديوانية : يمارس النائبون فيها فن الخطابة، النقد السياسي والتسامح· الديوانية هي، بالنسبة للديمقراطية الكويتية، ما تمثله المجالس البلدية لفرنسا: هي مدرسة للمناقشة · هذه الروح الديمقراطية ترجع إلى أصول الكويت نفسها· العائلة الحاكمة ليست في البدء سوى قبيلة من بين القبائل الأخرى، وليست الأقوى من بينها، إليها من منح تجار القبائل الأخرى، الامتياز بواسطة راتب، لتدافع عن المدينة المهددة من قبل جيرانهم

الإيرانيين، الأتراك والعرب. الملكية الدستورية ليست ناتجة عن العنف، بل عن عقد موثوق بكل حرية في عام 1 7 5 6 بين العائلات الكبيرة المؤسسة للدولة.

دستور 1 9 6 1 لم يقل سوى المصادقة على هذا العقد. يشترط واحد من بنوده الضمنية بأن تكرّس العائلة الحاكمة نفسها لإدارة الدولة، و أما عائلات التجار فللأعمال. في حالة خلط الأدوار- أي إذا غامر بعض الأمراء في المجال الخاص- لا يقصّر التجّار في التدخل ضد الأمير . مجتمع التجّار هذا له ممارسة طويلة في العلاقات الخارجية، عكس معظم الشعوب العربية، المتقوقعة على نفسها حسب التقاليد.

عندما طلب الكويتيون، في عام 1 9 9 0، من الولايات المتحدة الاميركية أن تصون استقلالهم، لم يكن طلبهم هذا الأول من نوعه . في القرن الماضي، للإحتماء من الغزوات العثمانية، فكّر التجار الكويتيون في إمكانية التحالف مع الروس قبل أن يتركوا امرهم للبريطانيين بعقد حماية. ولا في أي لحظة، بين 1 8 9 9 و1 9 6 1، اعتبرت هذه الحماية كاستعمار؛ لم يعامل البريطانيون كدخلاء، بل عوملوا كشركاء، وحتى كأجيرين . يشعر الكويتيون اليوم بنفس الشعور تجاه الاميركيين لكونهم قد انقذوا بلادهم، وبما أنهم قد دفعوا مالا ليخدموهم، فهم يشعرون بأنهم أحرار. هذه الممارسة الطويلة توضح العلاقة المريحة بين الكويت و(العولمة) : لا يجدون فيها شيئا جديدا ؛ ولا مقلقا جدا ؛ خلافا للشعوب المسلمة الأخرى، هم لا يتخوفون على هويتهم من التآكل أو الانقراض بسبب هذا التدخل مع عالم عاشوا معه دائما بوفاق تام.

لم نذكر لحد الآن، أو لربما ذكرنا قليلاً البترول: كان هذا إراديا. لأن الكويت غالبا ما تلخص إلى إمارة بترولية جاهلين تاريخها ما قبل البترول. هذا الذي حوّل بدون شك المجتمع الكويتي، ولكنه على الرغم من ذلك لم يحل محل الهوية القومية الموجودة من قبل ؛ عندما ستختفي المصادر البترولية - ليس بسبب استهلاكهم بل لأن العالم سيلتجئ إلى تقنيات أخرى- سيظل هناك كويت وكويتيون . وإذا لم نكن نعرف تاريخ هذه البلاد، ملكيتها الدستورية، برلمانها، عاداتها في النقاش، وجود مجتمع حضري فيها، فلن نعرف لماذا، في بعض البلاد الأخرى، قد دمّر البترول أمماً، بينما هو عامل تقوية في الكويت . بدون شك، بسبب الطبع الديمقراطي النسبي للكويت بتوزيع مصادر البترول، التي تمثل 09%من دخل الدولة، على كل الشعب بطريقة حتما ليست متساوية، ولكن، رغم كل ذلك، عادلة. في بلاد أخرى، في الجزائر مثلا، لا نلاحظ أن البترول قد استخدم في مجانية العلاج والتعليم المعمم؛ عكس حالة الكويت، حيث المصادر البترولية مستثمرة في التعليم، الصحة، السكن، الخدمات العامة، والعمل للجميع. إذا لم يكن يعيش أي مواطن كويتي في البؤس، إذا كانوا جميعهم متعلمين، إذا كانوا جميعهم موظفين، عندهم سكن ومعتنى بهم، ليس هذا فقط لأن الكويت تملك بترولا، بل لأن الدولة قد استخدمته بشكل جيد. حتى هذا اليوم.

يقلقون في الديوانية، عن حالة الكويت ما بعد البترول، ولكن يقلقون أيضا من الإسلامويين الذين يترددون على المنطقة .

ضد إسلام البحر، إسلام الصحراء

واجهنا في مصر، إسلامين، ذلك الذي ينتمي إلى الصحراء، متصلب، حرفي، مطهر، وإسلام النهر، أكثر تأقلماً، مائلاً نحو مراسيم الأولياء وقريباً من العادات القبطية غالبا·

في الكويت، خط آخر من الانشقاق يفصل الإسلام· الأقدم، هو الذي يمارسه مؤسسي البلاد، بالنظر إلى البحر العريض؛ احتكوا بديانات مرافئ أخرى وبمعتقدات بحارة آخرين، هنود، أوروبيين، أو أفارقة · مسلمو البحار العريضة يصلّون في السر أكثر من العلن، في بيوتهم أكثر من الجوامع· لا يحتاجون لإمام ويتصرفون بطريقة علمانية بكل ما فيها من معنى غربي· مسلمون في الحياة الخاصة لا يفرضون إسلامهم في المدينة، لا يستعرضونه ولا يصنعون منه برنامجاً سياسياً · إذا كانوا مسلمين فهم ليسوا إسلامويين ؛ إنهم يصفون أنفسهم كليبراليين - هذا التعبير الذي يستخدمونه هو من أصل فرنسي· ولكن إسلام البحار العريضة محاصر بإسلام الصحراء الذي يمارسه البدو · هؤلاء المهاجرون من العربية السعودية، قد استقروا على حواف المدن مع أئمتهم وعاداتهم القريبة من الوهابية، المتصلبة، الإسلام هو رايتهم، يستعرضونه ويرون المرتدين في كل مكان· الكويتيون إذا منقسمون بين رؤيتين جغرافيتين وعقيدتين للإسلام، حسب قسمة أكثر نقاء هنا من التي تقسم بين السنّة والشيعة هناك· في الكويت هؤلاء وهؤلاء يعيشون معا في ذكاء موفق؛ كما الكاثوليك والبروتستانت في فرنسا، يقال· لقد قاوموا معاً بنفس الوطنية التدخل العراقي، ينتخبون معا في البرلمان للدفاع عن قضايا المسلمين · سنة وشيعة البحار العريضة، أعضاء العائلات الكبيرة للمدينة، يقلقون معا من تقدم مسلمي الصحراء· هل ستحاصر المدينة الحرة بإسلامويي الضواحي؟

هؤلاء البدو، المجنسين في 1961 في عهد الاستقلال، يتزايدون عددا ؛ ويظلون غير متأقلمين مع المجتمع المدني والتجاري؛ ويتزوجون نساءً أكثر وينجبون أطفالاً أكثر، هم حساسون لخطب الأئمة الذين يهاجمون غنى عائلات التجار والأمراء؛يلاحظ بدو الصحراء، بأن الإسلام المعروض للعائلات الكبيرة في المدينة، لا يمنعهم من شرب الكحول ولا أن يأخذوا عشيقات· في ضواحي الكويت المدينة، حرب عام 1991 قد تركت الذاكرة إلى التاريخ ؛ البدو هم أعداء أميركا، يتعاطفون مع شهداء فلسطين، وحتى مع ابن لادن· ويتأثرون بالخطاب المحافظ للاخوان المسلمين· فبعد أن طردت من مصر في عام 1950، وجدت الجمعية في الكويت أرضاً للجوء ؛ لقد خلقت مؤسسات خيرية ومدارس قرآنية وصحفاً شعبية تنشر دعاية لرؤيتها الأصولية للإسلام· هل هناك مؤامرة إسلاموية ترصد البلاد؟

تتقدم الإسلاموية مؤخرا في الكويت · لكي ينتخبوا، يقترح بعض نوابها بأن تصبح الشريعة قانون البلاد· بينما الشريعة، حسب دستور 1961، ليست سوى مصدر من ضمن مصادر الحقوق الأخرى· تعادل الحكومة الوضع بمنح امتيازات للبدو: دروس الدين تتزايد في المدارس، الرياضة ممنوعة للفتيات، وهذه الحالة لم تكن موجودة منذ عدة سنوات · في مجال الإعلام ذي التقليد الليبرالي، مدونو الأخبار هم أكثر حذرا ؛ في الجامعة، يراقب المدرسون كلامهم ويتحاشون تناول المواضيع الدينية ؛حرية السلوك التي كانت ما يميز لحد الآن الكويت، في سبيلها للاختفاء·

ولكن مسلمي البحار العريضة يبقون هادئين (أكثر من اللازم)؛ فهم يعتبرون أن الرخاء، وحتى الفساد كفيلان بتبريد الحماس المناضل· لا يبدو ان أحداً في الكويت لديه روح الشهيد ما بقيت الكويت غنية ؛ لا يوجد فيها للآن العنف السياسي· وفي الوقت الحاضر، لا يزال البترول يباع بسعر جيد · إلا أن المستقبل، ليس مضموناً·

الإسلاموية، نسخة رقيقة

ماذا يريد الإسلامويون ؟ في الغرب، نحكم عليهم غالبا بالتعريف الذي يصفهم به أعداؤهم أكثر من أن نستمع إليهم. هل يجب الاستماع إليهم ؟ طبعا. ولكن هل يجب تصديقهم ؟ تبين التجارب في السودان، في إيران، في افغانستان أن إسلامويا في المعارضة، هو حمامة، ولكن عندما يصبح في السلطة يتحول إلى صقر. الحكومات، في العالم الإسلامي كما في العالم الغربي، تستنتج وجوب حصرهم في المعارضة. ولكن الثمن نادرا ما يحسب : الاستبدادية العسكرية في مصر، في تونس، الديكتاتورية العسكرية في الجزائر، السجن العشوائي، الحرب الأهلية، الحقد على الغرب . قسط الضمانة ضد الإسلامويين هو ثمن مرتفع جدا لهذه الشعوب التي يدّعي حكّامها الديكتاتوريون حمايتها من التعصب؟ .

في الكويت الديمقراطية، والرافضة لكل نوع من أنواع الاستبداد، عزل الإسلامويين هو أمر مرفوض : وإذا وصلوا إلى السلطة، فسيكون هذا بطريقة شرعية. ماذا سيفعلون؟ في عدم اليقين، لا نستطيع سوى الاستماع إليهم، لأن الإسلاموية هي خطاب أكثر منها برنامجاً. كما يليق أيضا إيجاد إسلاموي يقبل التحدث إلى غربي، وخاصة إذا كان هذا الغربي ليبراليا . في الكويت، آلى هذا الدور إلى نائب شاب، عضو في جمعية الإخوان المسلمين ؛ لأن الإخوان الذين يريدون إعادة نشر الإسلام في المجتمع الإسلامي وجدوا هنا الحرية، والزبائن ورؤوس الأموال.

ناصر السان هذا لم يكن مفاوضا سهلا. وجب إيجاد مكان يبدو له مناسبا؛ اختار مقهى من سلسلة اميركية ستاربوك، التي تذكره بسنوات الدراسة في الإدارة في الولايات المتحدة الاميركية :
الإسلامويون لا يرفضون منتوجات الحداثة. وقع الاتفاق بيننا على عدم الخوض في مواضيع ليس لها مخرج ؛ لقد أبعد هو كل سؤال يخص وضع المرأة، وحصلت أنا على عدم طرح القضية الفلسطينية . ثم أصبح مهماً تثبيت المفردات التي سنتداولها . منعني السان استعمال مصطلح الأصولية fondamentalisme، لكونها ذات (استيراد غربي). لكنه قبل التمييز بين المسلمين والإسلامويين : الإسلاموي بالنسبة له هو مسلم (ناشط) يؤثر على المجتمع المسلم بحيث لا تغمره عملية التغريب occidentalisation. الإسلاموية هي قبل كل شيء (مقاومة) موجّهة لحماية المجتمعات المسلمة المهددة . في هذا الصدد، يضيف السان، نستطيع أن نذكر(صدام الحضارات) ؛ ولكنه لا يضع الإسلام والغرب وجها لوجه ؛ هو الإسلام الذي سيتمزق بين (من يخضع للتغريب والذين يقاومونه).

ما هي الأخطار التي تهدد الإسلام؟ بدون مفاجأة، يعدّدهم السان (الفردية، الاباحية، الاستهلاكية) . والقيم التي هي صالحة للحفظ؟ (العدالة الاجتماعية)، (حقوق الإنسان حسب معناها في الإسلام)، (فضيلة النساء)وخاصة(التضامن العائلي) . حتما إن النقطة الأخيرة هي التي تحصل على كل الاصوات. في الكويت، بضعة اجيال تعيش في المنزل نفسه؛ لحسن الحظ، المنازل واسعة. أليست عادة سعيدة، تلك التي تضمن للأكبر سنا أن لا يهجروا كما هم عندنا؟ ولكن نقض النظرية التي لا يذكرها الإسلامويين هو استعباد زوجة الأبناء في الاعمال المنزلية لخدمة آباء الأزواج . في النهاية، ما الذي يجعل من هذه القيم قيماً إسلامية ؟ ألا نجدها طبق الأصل في كل المجتمعات

الأبوية ؟ ما يصفه السان هنا بالإسلامي يمثل القيم المحافظة المشتركة بين كل الحضارات التقليدية، من بينها المسيحية القديمة٠

الإسلاموية ليست أكثر من هذا : أخلاق محافظة أكثر منها مسلمة؟ مقاومة الهوية للعولمة؟ هذه هي نسخته soft (الرقيقة) المميعة في الرخاء العام للكويت ٠ في أي مكان في العالم العربي، العدو الإساسي للإسلامويين هو الدولة القائمة : غالبا هي غير شرعية، فاسدة، ديكتاتورية، ولكن ماذا يقال ضد دولة كدولة الكويت تسمح بالعيش لكل الناس؟ يفتقد الإسلامويين فيها عدواً جدياً لكي يصبحوا حقاً مصدراً للخطر٠ هذا في الوقت الحاضر٠

حل ليبرالي وعربي

ماذا سيحدث إذا لم تعد دولة الكويت قادرة على ضمان العمل للجميع والرخاء العام؟ هل تكفي الديمقراطية وحدها لضبط إغراء الإسلاموية ؟ يشك الليبراليون، خاصة وأن الإسلامويين يملكون هنا مصادر مالية هامة، ومناضلين، ومشروعا اجتماعيا: حتما، مشروع غير واقعي ولكن، إذا لم يبنَ، من الممكن أن يهدم ممتلكات الكويت.

هل يجب تقديم برنامج آخر مقابل المشروع الإسلاموي، محاربة الايديولوجية بايديولوجية أخرى؟ كان هذا في القرن العشرين، موقف الفيلسوف الليبرالي فريدرك فون هايك . إذ اعتبر غيركاف محاربة الشمولية بالعقل فقط، لكونها غير عقلانية، بل لكونها (ساحرة)؛ إنه يدعو أتباعه (وكاتب هذه السطور من بينهم) إلى الدفاع عن ما سماه بالايديولوجيات البديلة، في معركة خاضها الغرب في القرن الماضي والتي من الممكن أن تصبح معركة المسلمين في القرن الجديد . انها استراتجية أحمد بشارة : فهو أيضا يعتبر نفسه ضد الإسلاموية ويحبذ الدفاع عن الليبرالية، في الوقت نفسه يوافق على أنها ليست العقيدة الأكثر سهولة في العالم العربي.

هذا المفكر ذو الخمسين عاما، رئيس حزب صغير ليبرالي، اسمه الحركة الوطنية الديمقراطية، وهو واحد من المعلقين النادرين على المشهد العام الذي ذكر علنا الظلال المعتمة في المجتمع الكويتي : يفضح الوضع المتدني للمرأة، يحتج على المصير المهين لشغالات البيوت المستوردات، و يطالب بتسوية وضع المائة ألف مهاجر في الداخل، (بدون أوراق) إنهم محرومون من كل وضع حقوقي . ولكن هل من الممكن أن تكون الليبرالية عربية؟ يحكم بشارة بأن الاعتراض غير مقبول : الكويت، يقول، ليست عربية، هي تنتمي إلى العالم، لا شيء في ثقافتها يمنعها أن تتبنى الأفكار العادلة والعالمية. فقد استورد العالم العربي، في القرن العشرين أفكاراً خاطئة لم يشف منها، مثل القومية والاشتراكية. إضافة إلى ذلك، يعتبر بشارة بأن المستقبل سيكون لليبيرالية، أو للإ سلاموية : لي للكويت خيار آخر . وإليكم كيف يوضح: بالتبذير من استغلالها لمصادرها البترولية، امتصت دولة الكويت، المقتصدة والمتواضعة في الأصل، مجتمعها المدني. لم يبق شيء من ثقافة المؤسسات والفردية المتحمسة المتعالية؛ كل الكويتيين قد أصبحوا موظفين عند الدولة، وهم يعتمدون عليها. الكويت، التي كانت قبل البترول البلد الأكثر رأسمالية في العالم، الأرض الأفضل في العالم لفعل كل شيء، أصبحت، بصدفة جيولوجية، البلد الأكثر اشتراكية. إن 08%من دخلها ناتج عن القطاع العام و79% من الكويتين لهم سكن، مطببين، وموظفين عند الدولة؛ الدولة تدفع لهم تقاعدا لا يدخرون من أجله ولم يطلب منهم ضرائب أبدا. في هذه الظروف غير المشجعة للعمل، نخمن أن الحماس له ليس من خصال الكويتيين؛ نمر إلى المكتب ولكن لا نمكث به كثيرا؛ لا يمكن لأحد أن يسّرح من القطاع العام، كما هو تقريبا مستحيل في القطاع الخاص. المغتربون هم وحدهم من يعمل في الحقل الخاص وكمتعهدين، المغتربون هم ضعف عدد ساكني البلاد الأصليين . منفيون ليس عندهم أي أمل للاستحواذ على الجنسية : من العسير جداً أن تصبح كويتياً، أصعب من أن تصبح سويسرياً، أو مواطناً من مونتكارلو . لا البرلمان ولا المواطنون الأصليون يرغبون في مواطنين جدد لا يعرفونهم والذين سيكونون على عاتق الدولة.

مصير الكويت، إذاً، مدرج على جدول ثمن البترول، المثبت في السوق العالمية. على مستوى 02% البرميل(تكلفة الإنتاج المحلي هي أدنى من 2%)، يجب على الدولة الكويتية أن تخفض خدماتها الاجتماعية ؛ على مستوى 01%، و إلا ستعلن إفلاسها خلال مدة عشر سنوات، الوقت اللازم لاستنفاد المنتوج من الاحتياطي المالي . وبما ان الأسعار متجهة نحو الانخفاض تميل الحال إلى هذه الأخطار . في النهاية، يجب تصور بأن طاقة المستقبل لن تكون هذه. البترول، يقول بشارة، من الممكن جدا أن يدمر الكويت كما أوهن الذهب الإسبان في القرن السابع عشر. هذا التحليل توافقه عليه النخبة المديرة للكويت. ولكن بدون استنتاج أي تعليمات: لا العائلة الحاكمة، لا البرلمان يميلان إلى غش المنتخبين. لعدم قدرتها على ضبط المستقبل- هذا معيار!- الكويت بالتأكيد في طريقها للديمقراطية. . .

دون استباق مستقبل محتمل، تزيد الدولة المساعدات للعائلات البدوية، التي يعد أطفالها بأكثر من اثني عشر طفلا؛ ترفع بدون انقطاع رواتب القطاع العام. في مواجهة تزايد سكاني نسبته 3% في السنة- رقم قياسي عالمي-، القطاع العام غير قادر على استيعاب الجيل الجديد. بدأت البطالة تظهر في الكويت، ولكن من دون أن تصل إلى الرقم المأساوي للبلدان البترولية الأخرى المدارة أيضا بشكل أسوأ، مثل العربية السعودية المجاورة أو الجزائر.

ألا يستطيع الكويتيون الاستغناء عن العمال المغتربين؟ ولكن لا يوجد طفل مدلل ذو جنسية كويتية ميالاً إلى الأعمال اليدوية التي ينجزها المغتربون. ما هو أكثر قلقاً من البطالة القادمة، هو الوهن وفقدان الأمل. فالجيل الجديد يشعر بأن مستقبله غير أكيد؛ الذين لا ينتمون إلى العائلات الحاكمة أو التجّار يعرفون أن الوظائف الحكومية ستكون أكثر وأكثر ممنوحة حسب النفوذ وليس حسب الشهادات. الكحول والمواد المهربة والمخدرات، التي تعبر عن طريق إيران، قد وصلت إلى مدينة الكويت.

الحل سيكون ليبراليا. بشارة يقترح أن تخصص كل القطاعات العامة بالطريقة تلك التي تجبر الكويتيين على استعادة الإحساس بالمسؤولية الشخصية وروح المؤسسة. فقط الليبرالية هي القادرة على إزالة التسمم من الدخل البترولي. ما قدر الفرص التي يوافقها البرلمان ؟ تقريباً صفر، يعترف بشارة. يعترض النواب على كل تراجع للدولة الكريمة الذي قد يسيء لزبائنهم المنتخبين. بشارة وحزبه لا يملكان زبائن، لأنهم لم يولدوا بعد أو لا يعرفون أي مستقبل يترصدهم.

الأسطورة القدرية

عدم التبصر هذا، و الرفض في التفكير في المستقبل هل يرابطان فقط بحسابات سياسية محلية أو أنهما يندرجان في إطار (طبيعة قدرية) عربية؟ لا يمكن لأوربي أن يطرح هذا النوع من الأسئلة· ولكن غيره، في الكويت، يتساءل عن غياب الشعور بالمستقبل هذا، عن ذلك التردد الدائم بين الحنين والمتعية(15)· محمد الرميحي، ما يعادل وزيرنا للثقافة، قد استنتج بأن العرب - يركز على أن ذلك يخص العرب، وليس المسلمين- يرفضون بعناد مواجهة عدم تأقلمهم مع الحداثة· فأتذكر رفاعة وأتباعه· ولكن رفاعة لا ينال إعجاب محدثي الذي يذكر أن : رفاعة، ليس سوى مترجم مشبع بالأحكام المسبقة التعميمية· فجاوبته بأن رفاعة كان رجل عصره·

لا أحد في العالم العربي غير الكويت يتساءل بالشكل المباشر هذا، ليس فقط عن توافق الإسلام مع الحداثة، بل حول العلاقة المضطربة بين العالم العربي والحداثة· يضيف الرميحي : (ما دام، العرب يتهمون بقية العالم بكل متاعبهم ولا يدخلون في نقد محلي لمصاعبهم المحلية، سيتقهقرون·

لم أسمع في مكان آخر غير الكويت من يذكر علاقة محتملة بين الإسلام والتعصب· ليس الإسلام بحد ذاته، يحدد الرميحي، ولكن (الطريقة الغبية التي يدرسها الأئمة الجاهلون والمنتشرة في التلفزيون بواسطة مبشرين صائحين · هذه الطريقة في التعليم وتلك الدعاية، يتابع الرميحي، تدمّر كل روح نقدية عند الشباب المسلم· تهيؤهم لكل دعوة للإرهاب)· التعصب لا ينتج عن الإسلام، بل من تعليمه·

محمد الرميحي وأحمد بشارة كلاهما عربيان ليبراليان · يوجد منهما أكثر مما يتصوره الغرب · صحيح أنهم قلّة، ولكن في أي مكان هم كثر؟ إنهم تقريبا منشقون، ولكن، في الكويت، لا يزال مسموحا بهم من دون الخطر على حياتهم ؛ هذه الحالة الفريدة في العالم العربي تستحق مساندتنا·

ما يبقى عسيرا على الفهم، هو أن الحكام في الغرب : يتصرفون غالبا وكأنهم يفضلون التعامل مع الطغاة ؛ إعلامنا لا يضع في الضوء سوى المتعصبين؛ مثقفونا غائبون عن الواقع العربي المسلم· بجهلهم وكسلهم يصونون الأحكام المسبقة ضد العرب في الشرق ويرفعون في العالم العربي من شأن المتعصبين ضد الليبراليين·

إن الجهل المتعلق بالكويت هو خيانة لكل المثاليات التي يزعم الغربيون بأنهم روادها · في الواقع، كيف نزعم تجسيد الدفاع عن حقوق الإنسان وعالميتها في حين لا نفضل من يقترب منها، ومن يقّدر أنها توجد، من وراء الحضارات، معايير صالحة للإنسانية بأكملها؟ إنه غير منطقي دحض مبدأ صراع الحضارات من جهة وخلط كل المسلمين في نفس الكتلة من جهة أخرى· بدون تمييز الذين يصارعون لنفس قيمنا · ولكن باستحقاق أكبر منا، غالبا على حساب حياتهم· ولهذا لا نمد أيادينا لأبناء رفاعة ونشد بسهولة أكبر قبضة المستبدين طبعا هذا هو ما يسمى بالسياسة الواقعية، ولكن هذه السياسة، هل هي حقا واقعية في الوقت الذي تشجع فيه للغد حروبا جديدة في الخليج؟

الفصل التاسع

مسلمون وعلمانيون

أفضل مرشد للدخول إلى تركيا، هو، ديدي افندي - ديدي افندي؟ الموسيقار الرمزي للموسيقى العثمانية. في نفس حقبة برليوز أو فردي، كان يلحن سيمفونيات دينية وأغاني دنيوية ؛ يعزف على آلات أوربية وآسيوية؛ تبدو الحانه مرتجلة، إلا أنها كانت مدونة. هل ينتمي ديدي أفندي إلى الغرب أو إلى الشرق؟ عندما نستمع إليه معزوفا من قبل اوركسترا استنبول، نجد أنه يتمركز في منتصف الطريق بين أوروبا والهند - و هكذا، ككل ما هو عثماني، فن يجمع بين الاثنين شرقي وغربي في آن واحد. نستطيع قراءة كتب كثيرة عن تركيا دون أن نلمس روحها، ولكن سماع ديدي أفندي يأخذنا إلى الجوهر - موسيقاه شرقية إذا سمعت في أوروبا، وأوربية إذا سمعت في آسيا: مثل البوسفور، هذا التشبيه المستخدم حتى الاهتراء بخصوص تركيا. ولكن هل كان البوسفور حدوداً في يوم ما ؟ في زمن بيير لوتي، ربما - إذا صدقناه، على ظهر القايق 16(caiique) منذ قرن، كانوا يتأرجحون بين عالمين؛ ولكن لنحذر من هذا الكاتب الكبير، الذي كان المبشر بسياحة حديثة في البحث عن ما لم يعد يوجد.

لقد اختفى القايق، و حل محله جسران بنظام للدفع وأسطول بحري ؛ البوسفور هو أقرب إلى شارع عريض طافح بالضجة والدخان منه إلى عتبة آسيا. لا يزال سكان استنبول يفرقون بين أوروبا وآسيا، ولكن كما يفرق الباريسيون بين الضفة اليمنى والضفة اليسرى لنهر السين - آه، هل تسكنون في أسيا ؟ يقولون، بمعنى، أن الحارة المواجهة هي بدون شك أكثر هدوءاً، ولكن أقل إمكانية للوصل إلى المخازن الكبرى الموجودة في أوروبا.

هل كانت تركيا هذه، شرقية في يوم ما ؟ يندم بيير لوتي على أنها لم تكن أكثر شرقية، ساحباً غليونه المائي، متأسفا، (بصحبة بعض الشيوخ من ذوي العمامات)، بأن (الأتراك يريدون دستورا، كالفرنسيين)! لرحالتنا، الأتراك، في عام 1890، لا يبدو الاتراك أتراكا بما فيه الكفاية.

ولكن أن يبدو المرء تركيا، عبر ملامحه أو بثقافته، فهذا أمر صعب - التركي كالفرنسي، هو هجين ونتيجة ألف غزوة: غزوة أتراك آسيا الوسطى، وغيرها. التركي يبدو كتركي بقدر ما يبدو الفرنسي غالبا.

كيف يكون المرء تركيا ؟ عندما يتكلم التركية، وعندما يكون مواطنا تركيا: بعد انحلال الامبراطورية العثمانية في عام 1920، استخدمت فرنسا كمثال لمؤسسي تركيا الحديثة؛ اذن نحن أتراك كما نحن فرنسيون - أليس الأتراك مسلمين ؟ إذاً هم ليسوا مثلنا! ولكن كثيراً من المثقفين في استنبول يعترفون أنهم ملحدون : مسلمون وملحدون، هل هذا ممكن؟ فيردون بأن الكثير من الفرنسيين يقولون إنهم مسيحيون و.. غير مؤمنين. نعم في تركيا، نستطيع أن نكون مسلمين وملحدين ؛ ذوي ثقافة إسلامية، ولكن بدون إيمان ولا عبادة. الأتراك ليسوا مسلمين كالآخرين، ولكن لكون الإسلام ليس سوى مجموع المسلمين والملحدين من بينهم، فهم ليسوا أقل إسلاما من غيرهم.

إلى أصول العلمانية

ديدي عز الدين دوغان، برفوسور في جامعة استنبول، وهو تركي حقيقي، مسلم ومتعبد. وهو أيضا الاكثر وجهاء العلويين- في تركيا، غالبا المتحدث باسمهم. ديدي، الذي يعني (الجد)، وهو لقب إجلال محفوظ إلى أسياد العلوية. ما هو العلوي ؟

في أوروبا الغربية، نعتقد أننا نعرف بأن الإسلام منقسم بين سنة وشيعة. خطأ ! يقول ديغان. العلويون، حسب رأيه، يؤلفون الفرع الثالث كاملا، الفرع التركي الذي ليس هو سنيا وليس شيعيا. لأنه، كما الشيعة يعبدون الأئمة الاثني عشر، عائلة خلفاء النبي المقدسة . يصنف العلويون غالبا كشيعة؛ ولكن التشابه يتوقف عند هذا الحد. العلويون هم، حسب ديغان، الإسلام الحقيقي. أنشأ الأتراك هذه الطائفة، في القرن الخامس من عصرنا، بدأ من تفسيرهم للقرآن. هذا التفسير، يقول ديغان، هو مقبول ككل تفسير آخر، ولا أحد في الإسلام له الشرعية المطلقة لإنكاره.

رغم ذلك لم يكن، العلويون معتبرين كمسلمين حقيقيين في عصر الامبراطورية العثمانية . والسبب كان سياسياً أكثر منه دينيا: العلويون يحذرون كل سلطة، و السلطة في الماضي هي سلطة السلطان. رافضين مبدأ التيوقراطية(17)الإسلامية، التي يعتبرونها غريبة عن القرآن الذي لا يتحدث عنها، محافظين دائما على تمييز صارم بين السلطة السياسية والدينية. تحت قيادة باباهم وديديهم، العلويون مدعون إلى استئصال ثلاثة مغريات : العنف، الانتقام والحقد . في هذا المشهد، مصطلح الجهاد لا يعني سوى الصراع ضد الشر الموجود في كل منا؛ كل تفسير آخر يحمل العنف باتجاه الآخر هو كفر.

(لا نخلط السياسة بالدين، نحن، يعلق ديغان، بروتستاينيو الإسلام)؛ وكما (مثل البروتستاتنيين، أكثر قرباً من الوحي لا من المؤسسة) . لهذا لا يملك العلويون جوامع . ما النفع؟ فصالات متواضعة للصلاة تكفيهم. كما لا يوجد عندهم علماء ولا أئمّة: تنتقل المعرفة بواسطة المعلم للأتباع ومن الأب إلى أبنائه. بواسطة النقل، نصبح بابا، الذي يعني أب، وديدي الذي يعني جد في مرتبة أعلى. بدون موسيقى ولاغناء، لا يستطيع العلوي الصلاة بشكل ملائم. طقس عبادي يميزهم عن المسلمين الآخرين: فلا يملك العلويون جوامع بل موسيقى؛ عند السنة والشيعة، العكس . والساس SAZ، غيتار قادم من آسيا الوسطى مع الهجرة التركية، هوأساسيفي طقوسهم ؛ الجغرافية الموسيقية للساس تتطابق مع الجغرافية العلوية. منها نستطيع اكتشاف الأصل العلوي للأخويات الصوفية، كالدراويش البارمين، عبر المكانة المركزية التي تحتلها الموسيقى والغناء. النشوة تقرّب من الله، ولكن العلويين لا يشكّون بوجود الله، وكون محمد نبياً له. خلقت من التقاء الشمانيّة(18)في آسيا الوسطى مع الإسلام، العلوية هي - تأليفّية(19)ولكن أي إسلام هو غير ذلك ؟

هناك صفة أساسية للعلوية، نادرة عند المسلمين : هي كون النساء غير منفصلات عن الرجال، كلهم يصلون معاً؛ حتى أن المرأة أحيانا تقود الصلاة. نستنتج من هنا وهناك بأنها إسلام الرحالة الذين لاوقت لديهم لبناء جوامع، إذ على النساء أن تمتطي الأحصنة كما الرجال . لا ينكر ديغان هذا الأصل المحتمل، ولكن بأي شيء يستطيع هذا الأصل أن يصم العلوية بانعدام الأصالة؟ كل

شكل من الإسلام مميز بأصوله، ولا يوجد شكل واحد من الممكن تقديمه على أنه الإسلام وما عداه زائف ؛ إن لم يكن العلويون (المسلمون الحقيقيون)، فهم (مسلمون حقيقيون) بالتأكيد.

يعود الفضل بانتشار الإسلام في البلقان إليهم، وهذا يفسر بدون شك أن البوسنيين والألبانيين المسلمين لا يميزون بين الجنسين. الإسلام الأوربي بقدر ما هي العلوية خاصة وغير سياسية، هو خاص وغير سياسي. إسلام متسامح ؟ لكونه قد عاش منذ بداية الامبراطورية العثمانية مجاوراً لكل الديانات الأخرى. لم يفرض العلويون أبداً إيمانهم على الكاثوليك، الأرتودكس، البروتستانتيين أو اليهود.

الكارثة السنية

نتيجة لما يسميه ديغان الكارثة التاريخية (لفرض السنية)، غدت العلوية لدى العثمانيين إسلام سراديب الموت· في القرن السادس عشر دخل السلطان سليمان في حرب ضد جاره الفارسي سليم؛ الذي كان ينادي بالشيعية كدين للدولة، آملا ان ينضم العلويون إلى الفرس للاستيلاء على الامبراطورية العثمانية· لمواجهته، تحالف سليمان مع السنة العرب، فاستدعى آلاف الأئمة من جامعة الازهر، وعهد إليهم بالجوامع والمدارس القرآنية؛ فحرمت بالتالي العلوية · التجأ الأكثر تديناً منهم إلى جبال وغابات البلقان والأناضول · اتهمهم السنّة بالولع بزنا المحارم، افتراء هاجسي دام حتى القرن العشرين·

لم يترك العلويون ملجأهم حتى ولادة الجمهورية التركية في عام 1922: ساندوا بشكل إجماعي مصطفى كمال، صحيح أنه سني ولكنه علماني، مما يجعل منه علويا شرفيا·

كم من الأتراك قد بقي علويا بعد خمسة قرون من الاضطهاد ؟ الثلث، يدعي ديغان ؛ عشر بالمائة، يرد السنة· ولكن الكثير من الأتراك يعّرفون أنفسهم كسنة (ذوي طباع علوية) · عندئذ أصبح هؤلاء (البروتستانتيين)، المعارضين باختيارهم وهم في الغالبية يساريون، فعالين في الجمهورية · في عام 1970، عندما قدّم بعض المتطرفون أنفسهم كشهداء للثورة الاجتماعية، طرح السؤال حول البعد الشيعي للعلوية، كما في إيران· في 2002، ترك المعتقلون السياسيون، الذين يعّرفون أنفسهم كشيوعيين، أنفسهم تموت من الجوع في السجن؛ كانوا بأجمعهم علويين ·

بدون العودة إلى الجذور العلوية للمجتمع التركي، سيكون غير مفهوم أن تصبح تركيا أول دولة مسلمة وعلمانية ؛ وإن استلخصنا أن العلوية هي الأساس الوحيد للعلمانية التركية هو أيضا شيء مبالغ فيه · التساؤل النقدي لمكان الإسلام في المجتمع التركي بدأ حقيقة في بداية القرن التاسع عشر، في زمن رفاعة، عندما، واجه الأسلامويون والمحدثون الأتراك تأخر التقنية عن المستوى الغربي، كل منهم اقترح طريقته (اللحاق) · حسب الأسلامويين، فساد الإسلام قد أعاق تقدمه المادي· حسب المستغربين- المتحدثين باللغة الفرنسية مثل رفاعة- اللحاق يتطلب إزالة الغبار عن الإسلام· وسط هذه التناقضات المستمرة عبر القرن بأكمله، كانت هناك نساء·

منذ بداية القرن التاسع، اقترح المستغربون العثمانيون (تحرير نصف الشعب التركي من سجون الحريم) ؛ اعتبر الإسلامويون الناشطون بالعكس أن اختفاء الحجاب والحريم يحرم المجتمع من أخلاقه وهويته· حسب تأثير هذه أو تلك من الحركات على السلطان، تراوح وضع المرأة التركية خلال قرن بين التحرر والقمع· في 1890، سجنت أمرأة تركية لكونها أكلت بوظة ورفعت حجابها في بازار استنبول؛ بعد جيل، في 1930، منع الحجاب وحصلت المرأة التركية على حق التصويت· بأسلوب أكثر هزلاً، جعل كمال أتاتورك من الفالس رقصة شعبية لوضع حد للنفاق الاجتماعي ولإجبار الأزواج على الاقتراب من بعضهم البعض·

يرغب العلويون الاعتقاد بأنهم أصل هذا التحرر النسائي · لم يكن هذا ممكنا ألاّ لكون الإسلام التركي ذي أصل علوي، وغير سني: ادعاء لا يمكن إثباته، فهو حقيقي من جهة، ومن جهة أخرى هو خيالي· ولكنه يسمح أن يصالح الإسلام مع الحداثة· تحرر المرأة بالنسبة للعلويين، بدل أن

يعاش، كتقليد حرفي للغرب، معاش كعودة إلى النبع؛ العصر الذهبي للمرأة العلوية، لعله لم يوجد قط، ولكن قصته الجميلة تمنح الشرعية للحرية التركية ضد كل ردة فعل إسلاموية٠

مسلم يعقوبي

رجلا دولة، في القرن العشرين، يمثلان ما يسميه جاك بيرك إسلام التطور: هما مصطفى كمال والحبيب بورقيبة٠ في تركيا، يوجد مصطفى كمال في كل مكان، كتمثال، في رسم، في صورة ٠ هل هناك رجل دولة يرتدي ملابس أكثر تنوعا وبمثل هذه الأناقة؟ تصون كل مدينة متحفا لذكراه؛ غالبا ما نلمح حذاء كان له، أو ربطة عنق ؛ كان يملك ألوفا منها، مصنوعة في لندن أو في باريس ٠ في كل سنة، في 10 تشرين الأول في الساعة 02:9، الحياة تتوقف للاحتفاء بذكرى موته، الواقع في 1 9 3 8، في القصر القديم للسلطان٠ ساعات عديدة تؤشر إلى الأبد إلى الساعة التاسعة وعشرين دقيقة ٠

ولد في سالونيك، التي كانت العاصمة الثقافية العالمية للامبراطورية العثمانية، فضّل مصطفى كمال اللغة الفرنسية على اللغة التركية؛ كان يطالب وزراءه بقراءة ديكارت٠ بدلاً من الطربوش، أجبر الرجال على وضع قبعة لينة ومنع النساء من وضع الحجاب في الأماكن العامة؛ وأرغم المؤذنين أن يصمتوا وأن يصلوا في صمتٍ في مساجدهم٠ جنرال، مات شابا تقريبا، في سريره ؛ بسبب المغالاة في الكحول، الراكي، الكحول الوطني، عجّل من اقتراب أجله٠ هذا لا يمنع أنه كعلامة للاحترام، قد حرم شرب الكحول أو فتح حانات بالقرب من المناصب التذكارية التي لا تحصى لكمال اتاتورك٠ العبادة التي يؤديها الأتراك للمؤسس - الذي تبنى لقب (أب الاتراك) اتاتورك، في الوقت الذي فرض على الجميع اخذ اسم عائلة - تدهش، تضحك، وتزعج المراقب الآتي من أوروبا الغربية؛ يجد بها ذكرى سنوات الـ20 ومحاولات إيديولوجية السائدة في تلك الفترة :الطقوس المتعلقة بالشخصية فيها ملامح من الفاشية٠

كان مصطفى كمال ابن عصره: فرض الحزب الوحيد وأمّم الاقتصاد ٠ ولكنه لم يكن فقط ابن عصره، و لهذا لا يوجد أحد في تركيا من يقترح إلغاء الكمالية ؛ إذ بدونه لما وجدت تركيا قط ٠ ضد مشيئة المنتصرين في الحرب العالمية الاولى، أنقذ من تركيا ما استطاع انقاذه؛ أعاد بناء عزة الاتراك، الذين كلهم بدرجات مختلفة، اعتقد، يعترفون له بالجميل٠

هذه الكرامة والعزة التركية التي قد قاست من قبل في زمن الامبراطورية العثمانية : كانوا السلاطين يفضلون اليونان، والأرمن أو الألبانيين، بينما كان الاتراك، وبشكل خاص أتراك الاناضول، قابعين في أسفل السلم الاجتماعي٠ تناقض يذكر بمصير الروس في الامبراطورية السوفيتية: هكذا عرضها الكسندر سولجينيتسين، لقد عانى الروس من الطغيان السوفيتي أكثر من كل الشعوب الأخرى في روسيا٠ حدث نفس الشيء للأتراك في امبراطوريتهم ٠

الدولة التركية، المفصّلة في 1 9 2 2 بالانتصار العسكري لكمال اتاتورك، قد نسخت على المنهج الفرنسي : المركزي، الموحد، لا تفرقة عرقية، أو ثقافية أو دينية٠ في 1 9 2 2، أحصي في الأناضول سبعة وأربعين عرقا، جميعها، قد عمّدت تركية! الشيء الذي لم يحصل بدون رفض، و منها (لا يزال مستمرا) ٠ وهكذا مسلمون متحمسون يثورون على هذه الدولة -الأمة التي تبعثر هباء الخيار الآخر، أي أمة المؤمنين٠ بدلا من المدّحلة على الطريقة الفرنسية، فضّل الأرمن والأكراد المنهج اليوغسلافي للاتحاد الفدرالي لدولة عرقية٠ عند الأكراد الورعين، المعركتان

للإسلام و(التعدد- الثقافي) - (لم يكن المصطلح موجودا بعد)- كانتا مختلطتين . قاوم مصطفى كمال جيدا، فصمد المنهج الفرنسي، وغدا الأتراك مواطنين في دولة علمانية.

ما هي العلمانية، التي يعتقد غالبا في أوروبا الغربية أنها معارضة للإسلام؟ في كل الأماكن، المبدأ يميز بين السياسة والدين؛ ولكن الأشكال التي يقترن بها المبدأ هي أشكال محددة بتاريخ الشعوب. في الولايات المتحدة، أول دولة علمانية في التاريخ، الدستور يفصل بشكل صارم بين الدولة والكنيسة؛ ما لا يمنع الرئيس أن يقسم على الإنجيل، وعلى الدولار ذكر الله . فرنسا تعلن علمانية مناضلة، ما لا يمنع السلطة العامة أن تموّل المدارس الدينية وأن تصلح أجراس الكنائس؛ ويحصل أيضا أن تبني الجوامع. في ألمانيا، الضرائب تموّل الطقوس الدينية؛ في اسكندنافيا، القساوسة كانوا لزمن طويل موظفين عند الدولة . في كل هذه الشعوب العلمانية، تعايشت الدولة مع الدين في معايير عقود حقيقية، ولكن لا أحد منهما حاول أن يحدد الآخر. تركيا إذاً علمانية على طريقتها.

منع مصطفى كمال كل المظاهر العامة للإسلام، فرّق الاخوانية وسلب السلطات الدينية خيراتها. ولكنه أنشأ أيضا مديرية الأعمال الدينية، مرتبطة بالوزير الأول، المكلف بإدارة الإسلام السني، بتدبير المدرسة القرآنية، بصيانة المساجد بإعطاء رواتب للمؤذنين والأئمّة. ولكون العلويين لا يملكون مؤسسات ولا رجال دين، فهم لا يرتبطون بها.

هل من الممكن لجمهورية تصون مائة ألف مسجد - أكثر عددا من المدارس- ومائة وعشرين ألف موظف ديني، أن تكون جمهورية علمانية ؟ يوجد كماليون متطرفون، وهم في الغالب علويين، يرغبون بقطيعة كاملة للدولة مع الدين. ولكن في هذا الوقت المحمل بالتعصب، أليست هي المناسبة للدولة أن تجازي الأئمّة ؟ هؤلاء هم أقل رغبة بأخذ أوامرهم من مكان آخر غير وزارات الوصاية المشرفة عليهم. ومن الممكن أن يكون نافعا للعلمانية أن تزود المساجد بفاكس بحيث يوم الجمعة، باستطاعة إدارة الأعمال الدينية أن تبعث أحيانا خطبة يقرأها الأمام على المنبر. مع الكماليين المعاصرين، نتأسف فقط أن الدولة لا تبني مدارس بقدر ما تبني المساجد؛ بدون أن نصدق كثيراً، كما هو حال جول فيري، بأن التعصب سيتفكك بفضل التعليم، نحن نعتقد أن التعليم يساهم بشكل أكيد في تفكيك التعصب والقضاء عليه.

تنكر تركيا إذاً الفكرة المسبقة لعالم إسلامي ليس مؤهلاً أن يفرق بين المجتمع المدني والنظام الديني . ولكن، في الأصل، هل الإسلام هو الذي قاد العثمانيين إلى التيوقراطية، أم هو التفسير الانتهازي الذي فرض على السلطان؟ من المحتمل أنه بعد أخذ القسطنطينية، في 1 4 5 3، التشابك بين السياسة والمقدس قد استعيرمنالبيزنطيين المسيحيين بالقدر الذي هو من مدينة النبي. كان العثمانيون يعتبرون أنفسهم كاستمرارية للامبراطورية الرومانية في الشرق؛ لقد استردوا عاداتهم، القصور والكنائس والبازيليك(20)التي حولوها إلى مساجد. هل أصبح السلطان بابا وامبراطورا لأنه كان بيزنطيا، أو لأنه كان مسلما؟ الأصل في جزئه الكبير الغربي يعود للخليفة cesaro -papiste أو المتقيصر- البابوي العثماني الذي يشرح السهولة التي ارتبط فيها السلاطين في بداية القرن التاسع عشر بالقوانين القضائية الأوروبية، و، منذ 1 8 6 3، تبنوا الدستور. لقد استعاروا دائما من أوروبا ما بدا لهم أنه يخدم مصالح الامبراطورية: السلطة المزدوجة الدنيوية والروحية في الشكل الأساسي ؛ ومن ثم الحقوق الحديثة. إذن لقد انبثقت العلمانية من تأمّل فكري حول الدولة الجيدة أكثر منها من خيال مصطفى كمال، تأمّل شرع فيه قبل زمن طويل من تأسيسه - أي مصطفى كمال- للدولة التركية ؛ الإسلام لا يأتي أبدا إلا بعد الدولة.

خيّالة العلمانية

متأرجحة منذ خلقها بتمرد الأكراد، الهجمات الإسلاموية والمؤامرات اليسارية، لم تغرق الدولة التركية: منذ ثمانين عاما - وهو وقت قصير في عمر الشعوب-، إنها تتقدم أكثر فأكثر نحو الديمقراطية، والتطور الاقتصادي لأوروبا· المرفأ لا يزال بعيداً، ولكن السفينة كان بإمكانها أن تختفي عن الأنظار لولا (ربان اليخت) الذي هو الجيش التركي الذي يصنّف نفسه كجيش تقدمي ·

في معظم الدول النامية المشابهة لتركيا، تحتل الجيوش السلطة، ناهبة المصادر ومختلسة المساعدات الخارجية · من الجزائر إلى أندونيسيا، جميعها جيوش فاسدة، يخافها الشعب، ولا توظف الأفضل في صفوفها؛ غالبا ما يكون الضباط جاهلين وفظين · في البلاد المسلمة، ينادى عادة بالإسلام :كما في الثكنات المصرية، الآيات قرآنية معلقة على الحيطان، و على زوجة الضابط أن تكون محجبة· ولكن في تركيا، الضابط الذي زوجته محجّبة يطرد من الجيش: المليون رجل الذي يؤلف الجيش التركي، هم من أحد أهم الجيوش في حلف شمال للاطلسي OTAN ، يخدمون إلهاً واحدا، وهو كمال أتاتورك·

مبادئ الكمالية هي مبادئ للجيش، تدّرس للأشبال كما الدين في المدارس ولكنها مبادئ ملحدة· منذ دخولهم إلى الأكاديمية حتى نهاية حياتهم المهنية، يربّى الجنود والضباط دائما على الحداثة والعلمانية : فعلى تصرفاتهم أن تعكس وتمجد فضائلها، وخصوصاً عند خروجهم إلى العالم المدني · كل شيء مراقب، طريقة الأكل على الطاولة، التي يجب أن تكون غربية، اللباقة والإلمام باللغة الانكليزية · ليس ممنوعاً أن يكون الجندي مؤمناً أو ممارساً لدينه، بشرط أن تكون ممارسته للدين كتومة، محصورة في الحياة الخاصة·

إن مهمة الجيش التركي هي نصر الكمالية على كل الجبهات، ضد التهديد الخارجي والداخلي، إن كان عسكريا، أو سياسيا أو ثقافيا : الكمالية هي إيديولوجية تامة· إنها تبرر أن يكون المجلس الوطني للأمن من يراجع اختيار الحكومة: تمارس الديمقراطية التركية تحت وصاية أركان الدولة· عندما الحكومة المدنية تبدو عاجزة على ضبط المتطرفين اليساريين أو الإسلامويون، تأخذ أركان الدولة السلطة ؛ وهذا لا يحصل إلا بعد اغتيالات أو تهديدات : حدث هذا في 1 9 6 0، في 7 1 1 9 وفي 1 9 8 0 · إذ ذهبت الحكومة عكس وجهة الكمالية، فأركان الدولة هم من يشيرون إلى المخرج: كان هذا مصير الحكومة ذات الميل الإسلاموي في 1 9 8 8 · الحالة التي، بإمكانها أن، تتكرر، إذا كان ذلك ضروريا· وأخيرا، عندما تتردد الحكومة المدنية أن تقمع العصابات الكردية، يتصرف الجيش على طريقته، مما يريح بشدة السياسيين ·

هذا الجيش، الوصي على الديمقراطية، متقدم، حامي الثورة الكمالية، معادي الشيوعية والإسلامويين، لا يعجب الديمقراطيين، و لا اليسار المتطرف، ولا الأكراد ولا الإسلامويين· ولكنه، محترم في كل المؤسسات التركية، ومعترف به من العدد الأكبر من الأتراك بالفعالية، والأكثر حداثة، والأكثر شرفا؛ يثير النقد ولكن لا يثير الثورة· خصائصه هم أقل مما تدعي أركان الدولة، وخاصة وقت عملياته في القطاع الكردي، ولكن بالقياس لتركية، المؤسسات العسكرية تبقى

مثالية؛ التطهير الدائم لموظفيها، باللحظة التي يشك بهم فيها بالتواطؤ والإسلاموية، يساهم بذلك ٠ صحيح أيضا أنه ممنوع أن ينتقد الجيش تحت طائلة السجن، بما يخلق حوله إجماعية مبالغة ٠

التحفظات التي تعبر عنها الصحف أو الطبقة السياسية تخص المستقبل· إنها تلوم أركان الدولة بتضخيم التهديد الإسلاموي (الذي أخذ دور التهديد القديم الشيوعي)، بطريقة لا تترك أي شيء للمجتمع المدني ؛ كما هو متهم بتقسيم إرادي للسياسيين لإظهار عدم مقدرتهم على إدارة البلاد بدون إشراف ٠ وأخيرا وجدت بعض الأصوات التي تشّهر الاتحاد القوي مع الولايات المتحدة الأميركية وإسرائيل، ولكنها منحصرة في المجال الجامعي بدون أهمية حقيقية· بشكل عام، لا ينسى الأتراك أبد أن جيرانهم هم : الروس، العراقيون، السوريون، الايرانيون، وكلهم أعداء تركيا، والديمقراطية والعلمانية· ولكون الكمالية محاصرة، فالجيش ليس مستعدا أن يعود إلى ثكناته ٠ وهذا ليس مرغوبا علاوة على ذلك، لأن تركيا لا تزال دولة هشة· تخيلوها بدون جيش أو بجيش آخر: ستصبح يوغوسلافيا أو الجزائر· ولكن لا يوجد جيش يشابهه الجيش التركي؛ دوره إذن لا يمكن أن يدرّس إلا لأجله، فهو غير قابل للنسخ ٠ سيكون تحويل المنهج الكمالي إلى دولة مسلمة أخرى أمراً مبالغاً فيه بقدر محاولة نسخ الديمقراطية الأوروبية دون أي فهم على تركيا·

هل علمانية في خطر؟

أحيانا، في استنابول، يأخذنا الشك في الانتصار النهائي للكمالية· آذان المؤذن ينهار على المدينة كرعد أخضر· في الطرقات الضيقة لحارة غالاتا التي تنزل باتجاه القرن الذهبي، لا نستطيع الاستماع منذ حين إلا إلى مكبر الصوت، خمس مرات باليوم، من الفجر حتى العشاء، ما يضاعف مائة مرة دعاء الله· ترتاب استنبول من التقاليد، حتى إنها ضد رجال الدين، كما تستنكر استنبول القديمة هذه العودة للدين التي هي في غير زمنها · منذ 1 9 9 6 ربحت محافظة استنبول من قبل الحزب المسلم ؛ إنهم يعتنون بذاكرة المدينة التي كانت في أوروبا - الله فرنجا- اكثر مما كانته أبداً- الله تركيا- في أوروبا الشرقية تتغير استنبول · حتى سنوات 1 9 8 0، كانت رائحة كوزموبوليتية تدعنا نعتقد بانها لا تزال تتعايش مع القسطنطينية · في الحقيقة، من بين اليونانيين، اليهود، الجنويين، ، الأرمن، يبقى بشكل خاص الشيوخ؛ الباقون قد هربوا من الإهانات التي ألحقها بهم الأتراك الأصليون - من بينها ضريبة خاصة فرضت على اليهود خلال الحرب العالمية الثانية· منذ رحيل هذه الأقليات، احتفظت البرجوازية (البيضاء) الأخلاق الغربية للمدينة · البيض- تسمية شُيِّعت بواسطة العالم الاجتماعي نوليفر غول-، وهم نخبة علمانية، برجوازية · المحتقرين من الجمهورية غالبا هم بيض البشرة، من طبقة قديمة للحكماء العثمانيين، ونادرا ما يكونون ذوي أصل اناضولي· نواجههم بالسود، الطبقة الشعبية، من أصل فلاحي، أناضوليين وتقاة· بدأ من سنوات 1 9 8 0، أدخل السود العادات القروية، أزياءهم وطقوسهم · أهل اسطانبول القدماء، آخر العثمانيين، يبكون على مدينتهم المغزوة من قبل مواطنيهم أنفسهم· ·

لقد تلفت المدينة بقدر ما توسعت؛ انها تتسلق الهضبة لكيلو مترات دائرية، بنفس القدر من الجهة الأوربية ومن على الواجهة الآسيوية · الشرق موجود في الغرب· في ساعات الازدحام، يغدو البوسفور غير صالح للاستعمال· مثيرة اليأس العميق للكماليين، استعادت المساجد القديمة فعالياتها، ومساجد جديدة تعمر في الضواحي ؛ نداء الصلاة (في اللغة العربية، يتضاعف) قد غّير المشهد الصوتي للمدينة· الفلاحات في الفيشو وفي (معطف)- اللباس الإسلامي الأناضولي- (يمشرقون) الشارع· الجرائد الإسلامية أخذت في الظهور · في 1 9 9 6، المحافظ الذي ينتمي إلى حزب ليس غير إسلاموي- مما هو ممنوع بالدستور العلماني- ولكنه ينادي بقيم إسلامية المراد منها بناء جامع كبير جدا في بيرا، المنطقة الأكثر أوروبية والأكثر إعلانا لكفرها في المدينة؛ مقابل الإعتراضات العلمانية، رجع عن قراره·

مشرقةorientalisation استنبول هذه ألا تعود لهجرة الفلاحين ؟ في هذه الحالة، تركيا ليست في طريقها إلى إعادة التأسلم : الممارسات الدينية المنتشرة في القرى اصبحت اكثر حضورا نتيجة تكثيفها في المدن· ما هو صحيح جزئيا· ولكن الأمر لا يتعلق فقط بكونها أكثر حضوراً؛ فالاقتلاع الجذري لفلاحي الأناضول وحياة مدنية أكثر قسوة مما تخيلوها، كل هذا أعادهم إلى الإسلام، الشرنقة والهوية·

ومع ذلك الهجرة لا تفسر لماذا طالبات جامعة استنبول، هن أيضا تبنين الحجاب الإسلامي- ليس على الطراز الأناضولي لجداتهن، ولكن حسب المعيار الجلي للإسلام المتعدد القوميات· الذي

وصل إلى تركيا من دون أن تستطيع الكمالية ولا الدستور أن يعزلوه من الموجة العالمية.

بفضل تحليل جدي، غير مختلط بتخيلات لسلوك الطالبات، من قبل نوليفر غول، نستطيع أن نفهم بشكل أفضل معنى الحجاب: تحتج الطالبات ضد التعريف الإجباري للحداثة مع جعل الأخلاق غربيّة ـ لا أقل، ولكن لا أكثر . هل من الممكن تصور تركيا متخلية عن العلمانية ومديرة ظهرها إلى أوروبا؟ هل النجاح الانتخابي لحزب ذي أصل أسلاموي، في تشرين الأول 2002، يدون تحولا في المسيرة الطويلة لتركيا باتجاه العلمانية؟

ثورة إسلاموية في تركيا تبدو قليلة الاحتمال في الوقت الذي ينقص فيه الأعداء للثوار . لا يعرّف الإسلامويون أبداً أنفسهم ببرنامجهم، غير الموجود، بل دائما بمعارضة لدولة غير شرعية وحالة البؤس؛ فهم يجندون موظفيهم من بين أصحاب الشهادات العاطلين عن العمل، الطبقة المثقفة-البائسة . بينما في تركيا، الدولة قديمة وشرعية ؛ لم تفرض من قبل مستعمر؛ وليست في قبضة طاغٍ، لاستبدالها بدولة إسلامية لا معنى له. وإذا بقيت تركيا فقيرة نسبيا، فلأن الأتراك يعرفون بأنهم مواطنو واحدة من الدولة الإسلامية النادرة التي لا تملك بترولاً ومع هذا تتطور. يتبينون أن حولهم البؤس الحقيقي الذي يحكم سورية، العراق، يعرفون التدني للمستوى الحياتي في إيران. الاقتصاد يستوعب أغلب ذوي الشهادات. مما يترك للإسلامويين قليلاً من الحجج وقليلاً من المتطوعين.

يبدو لي أن هذا التهديد الإسلاموي المزعوم هو تهديد مبالغ به في نفس الوقت من قبل الإسلامويين والكماليين الذين لهم مصلحة طبيعية في أن يصرخوا النجدة من الذئب. الذئب الذي لا ينقص أن يكون ذئبا مازحا، أكثر من امتلاكه أسناناً حقيقية . وهكذا، في الانتخابات النيابية في 1999، انتخبت ميرف كفاكسي في قائمة حزب الفضيلة، الاسم الآني للحزب الإسلاموي الذي يتغير في كل مرة تحكم المحاكم على الحزب بالانحلال لمخالفته للعلمانية. هذه الشابة غير المعروفة لحد الآن لكانت قد مرت من دون أن تلفت الانتباه لولا أنها، يوم دعيت للقسم في البرلمان الجديد، لم تشأ أن تقسم إلا وعلى رأسها الحجاب الإسلامي . فاعترض النواب الكماليون باسم العلمانية . صادف أن النائبة تحمل جنسية أميركية بالإضافة إلى التركية ! ما سمح بإنحائها عن توكيلها. وعادت إلى جامعتها في تكساس، إلى حيث لم يعد يسمع بها أحد أبداً . هل إنها حقا هددت الجمهورية العلمانية؟ أو أنها أرادت أن تبدل مكان ظاهرة التعددية، التي هي أميركية أكثر منها تركية، إلى تركيا؟ في الجامعة التكساسية حيث تعلم، لا أحد يتساءل في أي حال من الأحوال عن حجابها.

وإليكم حادثة أخرى التي تدعو إلى جعل خطورة التهديد الإسلاموي نسبيا. في حارة غالاتا، في اسطانبول، نقابة للمخنثين تسير في مسيرة في 2002 تشرين الثاني لتحتج على تنكيد وابتزاز المال من قبل البوليس؛ كل الإعلام التركي قد هرع للمكان، من ضمنهم الصحيفة اليومية الإسلاموية الزمان . الصحفي الذي من المفترض أن يكون إسلامويا يسأل قائد المخنثين، في جواربه الشبكية، ماذا يظن أو تظن من المنع الذي جرى على الطالبات من حمل الحجاب في الجامعة. يغتاظ المخنث مجيبا، أو مجيبة : يجب أن يكون كل واحد حراً أن يلبس كما يريد! أليست تركيا هذه في طريقها إلى التغريب، حتى في مطالباتها التعددية الثقافات، المهددة بالإسلاموية ؟

الديمو-المسلمون

من عام 1 9 8 9 إلى عام 1 9 9 3، مثّل رجل دولة خلال مدة قصيرة، التركيبة الممكنة بين الإسلام والديموقراطية. اسمه توركوت أوزال وكان بشكل متعاقب وزيرا ثم رئيس دولة . لم يكن أوزال من الطبقة البرجوازية البيضاء، الكمالية وضد رجال الدين ؛ كما لم يكن أيضا من السود الأناضوليين. من أصل متواضع، قادته دراسته إلى الجامعة الأميركية وإلى صندوق المال العالمية. ليأخذ بمصطلح نولفير غول، كان أوزال (رماديا)، على تخوم تركيا الدينية وتركيا الكمالية . أراد أوزال الرمادي أن يكون مسلماً وحداثياً في آن واحد ؛ كان يظهر بشكل إرادي علنّي حاملاً تحت ذراعه الكومبيوتر المحمول وتحت الأخرى القرآن. ليبرالي في الاقتصاد، يخلص تركيا من ميراثها الاشتراكي . ويرمي الزائد من العلمانية الكمالية، ويعطي الإسلام الذي ينادي به مكانه الحقيقي - كإسلام شخصي، وغير سياسي. كان يوجد بعض من رفاعة في الرجل ذاك .

منذ ذلك الوقت، تضاعفت المحاولات لإنشاء حزب حكومي في الوقت الذي يكون مسلما، وليس إسلامويا، محافظا من دون أن يكون رجعياً، وعلمانياً لكي لا يخون الأسس االكمالية. المرجع هو الديمقراطية الألمانية ؛ هل هذا ممكن في أرض الإسلام؟

أول المحاولات لم تكن مقنعة . في 1 9 9 8، نسمتين اربكان، الزعيم التاريخي لحزب الفضيلة، حركة إسلاموية أكثر منها إسلامية، أصبح رئيس الحكومة في صدفة التحالف ؛ بعد محاولة لتقريب بلاده من ليبيا وإيران، عمل الجيش على أن يستقيل رئيس الوزراء هذا والغالبية التركية كانت سعيدة بذلك.

فشل تلك المحاولة الأولى قد أفهمت الإسلامويين أنهم لن يأخذوا السلطة أبداً: سيعارضها الجيش دائما، والشعب في أغلبيته لا يريدها . بعد اعتداء 11 سبتمبر، إذ غدا التطرف الإسلامي مرضاً شائناً وغير قابل للإعلان، لم يعد لهم شيء سوى التخلي عن السلطة . ولكن بإمكان الإسلام أن يصبح قاعدة مذهبية لحركة ديمقراطية: هكذا ولد أول حزب ديمو-مسلم في التاريخ التركي، (عدالة وتطور)، أسس في 2 0 0 1 من قبل محافظ قديم لاستنبول انتقل من الإسلاموية إلى الإسلام المصلح، واسمه طيب اردوغان.

قبول الديمقراطية من دون التحول إليها، مساعدتها على أن تكون نفسها من دون الانحلال فيها، هذا ما كتب ألان بيزونصون بشأن الكنيسة الكاثوليكية، أسئلة تحتاج جهدا كبيرا من التفكير . بالكاد قد ابتدأ ماذا نقول إذاً في الإسلام وفي الديمقراطية ؟ رؤساء الحزب الديمو-المسلمون يفضلون الاستشهاد على التفكير. كل شيء يبشر بالتآلف : (كان محمد يستشير أصحابه، إذاً نحن ديمقراطيون.)

برنامجهم هو خليط يرجع إلى خيار الفقراء، إلى الرغبة بأوروبا (تصون الحقوق الأوربية بشكل أفضل الإسلامويين من الحقوق التركية)، إلى السوق الاقتصادية التي تعجب المتعهدين الصغيرين الاتقياء في الأناضول، وإلى حصر الدين في جو الحياة الخاصة. لا يذكر البرنامج الإسلام مطلقا،

ولكن الحزب يناضل من أجل (الحرية الدينية)، وخاصة حق وضع الحجاب في الجامعة· ما يرفضه الكماليون، باسم العلمانية التي ينادي بها أيضا الديمو- المسلمون··

أصبح الحزب الديمو- المسلم، بعد انتخابات تشرين الثاني 2 0 0 2، الحزب الأول في تركيا· هل هو الإسلام الذي يجمع الأصوات ؟ نرجع كل شيء إليه، و ننسى الميكانيكية الاجتماعية التي تصنع التطرف أو التعبئة الشعبية· يصدف أن الإدارة الاقتصادية السيئة في تركيا من قبل الطبقة السياسية المشهورة بعدم كفاءتها تساعد على التضخم المالي المشابه لما عرفته أوروبا في السنوات 1 9 3 0، أو أكثر حداثة، أمريكا اللاتينية· المؤثرات هي مؤثرات عالمية بشكل واضح: تفاقم عدم المساواة الاجتماعية، المضاربة تربح أكثر من الاستثمار، تباطؤ النمو· في تركيا، ثلاثون سنة من التضخم المالي قد انتجت طبقة غنية جدا من المضاربين في البورصة، وتنمية بطيئة، بينما في الأسفل الأكثر تواضعاً يركضون وراء الأسعار وهم محصورون في الأعمال التافهة·

من السهل تصور كبت الفلاح الأناضولي الآتي للبحث عن ثروة في المدينة، محاصراً بالبرجوازية المبهرجة، والذي عليه أن يكتفي بعمل صغير· سيكون أكثر تأثراً أيضا برؤية قوته الشرائية تنهدم بينما من حوله الأكثر مكراً يدخر بالدولار ؛ هو يعد بالليرة التركية، عملة مزيفة كافية فقط لشراء كفاف عيشه · لنتذكر كيف أن التضخم المالي قد أنتج الفاشية في ايطاليا أو في الأرجنتين، النازية في الألمانية· ألم تكن هذه الايديولوجيات أكثر تطرفا من الإسلام المعتدل الذي يلتجئ إليه المستغلون في تركيا؟ في النهاية-التي نأمل اقترابها-سيأتي الخلاص من الاتحاد الاوربي، الذي سيفرض على تركيا الصرامة النقدية ويتخلص من السبب المالي للشعبوية ·

بالانتظار، ومهما كان ذلك بدائيا، الحركة الديمو - المسلم التركية قد خلقت بداية اعتبرها سعيدة، لأنها تستطيع أن تخرط المسلمين في الديمقراطية كما الديمقراطية المسيحية قد صالحت المسيحيين مع الجمهورية· فيما وراء تركيا، يستطيع هذا الحزب أن يصبح لكل المسلمين مثالاً أكثر إغراء من الكمالية، معادي أكثر من اللازم لرجال الدين، لكي يكون قابلا للتسويق بعيدا عن قواعده · حتى لو لم نشعر بأي تعاطف مع هؤلاء الديمو- المسلمين، فمن المرغوب أن يصبحوا جزءاً من الحكومة ؛ إذا نجحوا، فهم سيهمشون الإسلامويين·

أخيراً، يبقى الجيش حاضراً· إن تجربة لحكومة مؤلفة من حزب الديمو- المسلم ممكنة في تركيا، في حدود أن تسهر أركان الدولة على محاربة التطرف وعلى احترام التعاقب· في البلاد الإسلامية الأخرى، المجازفة هي بعدم التعاقب، ما يقلق خصوم الأسلامويين والذي يبرر- بنية طيبة أو بنية سيئة- بأن لا يسمح لهم أي الإسلامويون بممارسة السلطة·

كيف من الممكن أن يكون المرء كرديا ؟

في حكّاري، في (الجنوب شرقي) هكذا نشير رسميا إلى بلاد الأكراد لكي لا نسميهم، دخل الصبي محسن كيزيلكايا إلى المدرسة الداخلية في 1 9 7 0، وعمره سبع سنوات، حيث أمضى عشر سنوات· في ذلك الحين، لم يكن يتكلم كلمة واحدة تركية؛ لغته الأم كانت كردية، الوحيدة التي يستعملها والداه بعد أربعين عاماً بينهما· عندما كانت أم محسن تزوره في المدرسة الداخلية، كانت محادثتهما تجري باللغة الكردية · بعد كل زيارة لها، كان المدّرس يضرب الغلام بعصا من قصب، لأنه في تلك المدرسة وفي كل المدارس التركية، فقط التركية هي التي كانت ولا تزال مسموحا بها · هذا المدرّس الكمالي، الذي يصفه محسن في روايته البيوغرافية، يذكرنا ب (الخيالة السود

للجمهورية) الأعزاء على قلب شارل بيغي· في فرنسا أيضا، وحتى منتصف القرن العشرين، كان ممنوعا البصق على الارض والتكلم بالبروطانية ؛ لم تكن الثقافة التعددية قد وصلت إلينا بعد ؛ وعن تركيا لا تزال بعيدة·

الجزء الأكبر من الأزمة الكردية آت من أنها لم تكن متوافقةً مع تلك (الحقبة): لا يفهم الأتراك الذين نلومهم على قمع الأكراد، لماذا دمج عشرة أو اثنى عشرة مليون كردي الموجودين على أرضهم مختلفاً عن الدمج القليل القسوة لبروطانيوننا، لكورسيكيوننا وللباسكيوننا · اشرحوا لهم أنهم قد وصلوا متأخرين جدا وبأن التعددية الثقافية هي على الموضة حالياً أكثر من موضة الاستيعاب سابقا!

القوميون الأكراد كلهم متأخرون بنفس الدرجة : في العشرينيات، حاربوا الكمالية باسم الإسلام، في حين كانت ساعة هي ساعة القوميات· بدأ من السبعينات، وهم يعارضون الحكومة التركية باسم الشيوعية بينما كانت الشيوعية قد أصبحت خارج الزمن · عندما أصبحت الإيديولوجية السائدة هي حقوق الإنسان، بحث المقاتلون الأكراد عن مساندة في سورية، التي لم تملك نمطا من التسامح ولا تزال !

حينما أصبح محسن شاباً متحدثاً بالتركية، قرر أن يكون شاهداً على مصير الأكراد في تركيا· (كان لدي الخيار أن أصبح مقاتل عصابات أو كاتبا) فاختار أن يكتب روايات وسيناريو، فصار واحدا من العديد من المثقفين الأكراد في اسطانبول · هنالك كثير من الأكراد في مجال الفن، الشيء الذي هو موجود دائما عند الأقليات المسحوقة: اليهود في أوروبا، الأفريقيين- الاميركيين في الولايات المتحدة، الكوريين في اليابان· ولكن عند محسن كيزيلكايا، الحنين للقتال لم يخمد؛ يأمل أن تصبح تركيا في يوم ما حرة كفاية لكي يستطيع أن يكّرس فيلما عن أوجلان المؤسس المحبوب عند الجماهير ل PKK، الحزب الشيوعي الكردي·

أليس من المفارقة بان تكون قضية الأكراد، وهم علنيا شعب تقليدي وتقي، ممثلين دائما في تركيا وفي خارج تركيا من قبل المثقفين والمناضلين اليساريين، في أغلب الأحيان شيوعيين أو قريبين من الماركسية ؟ السبب هو، حسب محاوري، كون معركة الحقوق اللغوية تتضاعف بالصراع ضد إقطاعية رؤساء القرية، هم أنفسهم مساندون من قبل الدولة التركية: الشيوعية الكردية تمثل هذين المطلبين المضاعفين للتحرر الثقافي والاجتماعي·

من اللافت للنظر، إن انتماء كيزيلكايا للشعب الكردي، لم يمنع أن يرتفع شأنه في المجتمع التركي: لأن المجتمع التركي ليس مجتمعا تمييزيا· كل شيء مسموح للأكراد، بشرط أن لا يعارضوا بعناد (النظام)، الدولة وممثليها، ولا مبادئ الكمالية·

إذاً ما هي (المشكلة الكردية) ؟ يعترف كيزيكلايا، بأن تعريفها ليس واضحاً في البدء، المطالبة كانت للاستقلال· وقد اختفت عملياً منذ أن تأكد أكراد تركيا أن مصيرهم أفضل بكثير من أكراد العراق، سورية أو في ايران· أغلبهم مثل كيزيلكيايا، وأعونه بأن أول عصر للأمة يعطي مكانه للعولمة: المستقبل ملك المواطن المعولم أكثر من العودة إلى القبلية البالية ·

لم يعد الأكراد يطالبون بأن تصبح اللغة الكردية لغة رسمية موازية للغة التركية ؛ يطالبون فقط بأن تدرس في المدارس العامة بالإضافة إلى اللغة التركية· ولكنهم يعترفون بأن الاتراك هم فقط من يسمح لهم بالاندماج الاقتصادي لشعبهم·

كيف يمكن لمطالبات في النتيجة هي متواضعة لهذه الدرجة أن تستطيع أن تبقي حرباً مشتعلة طويلة جدا وأن تصنع هذا العدد من الضحايا في الفريقين ؟ نتساءل . بدون شك بأن القضية تطورت :

لقد ربح الجيش التركي الحرب القذرة ضد المقاتلين، المناضلين الأكراد قد خففوا مطابهم. ولكن لا نستطيع أن ننفي بأن جعل الأزمة عالمية ويسارية، ساعدا بتأخير حلها.

منذ السبعينات، ظهر اليسار الأوربي أكثر حساسية لمصير الأكراد في تركيا من مصير الأكراد في العراق، سورية أو في إيران . هل لأن الأكراد معاملون بشكل أسوأ في تركيا منهم في البلاد الاخرى ؟ ولكن، في العراق، تعبير الإبادة ليس مبالغاً به لوصف دمار القرى الكردية. ترحيل السكان، قذفهم بالقنابل الكيميائية في 1988 و1991؛ ليس هي الحقوق الثقافية الكردية ما لم يعترف به، كما في تركيا، بل الحق بالحياة . يحتج الغربيون قليلا ضد هذه المجازر . بدون شك لأنه أسهل للإعلام زيارة تركيا من العراق، و، لليسار الأمر أكثر تحريضاً لمهاجمة تركيا، أمة ((الحقوق-أو القانون))، حليفة الولايات المتحدة وإسرائيل!

إن تحويل القضية الكردية لقضية يسارية هذا قد أساء بشكل أكبر لإدراك الصراع. لإنه لا يوجد، بين الأكراد والأتراك، نزاعات لا تحمل صفات دينية، كما في يوغوسلافيا، ولا حتى نزاع لغوي؛ الأكراد يتكلمون اللغتين . غالبيتهم تقريبا سنّة، يعتبرون بأن الأتراك، سنّة بالرغم من كل شيء. هم أخوة.

فئة من الإسلام توضح سبب غياب المواجهة بين الأتراك والأكراد في المدن حيث يعيشون جنباً إلى جنب؛ لم تعرف اسطانبول أبداً العنف العرقي، مع أن الأكراد موجودون فيها بالملايين. كبرهان مضاد لهذا التضامن الديني، المناوشات يفرضها الأتراك السّنة أحياناً على بعض الأكراد العلويين (الظاظا)، وكأن الوسمة الشعائرية تنتصر على التمييز الثقافي. في النهاية، يعترض قليل من الأتراك على أن يحصل الأكراد على الحقوق الثقافية التي يطالبون بها ؛ امتيازات هذه الحقوق، لم تثر أي احتجاج عندما تبناها البرلمان التركي تقريبا بالإجماع في عام 2002، يبقى أن تمارس، ما سيشجعه الاتحاد الاوربي : قبل أن يوطّد روابطه مع تركيا، ألحّ الاتحاد الأوربي أن تحترم حقوق الشعب الكردي. لا يمكن لهذا الاعتراف إلا أن يسارع بالتنمية الاقتصادية لتركيا: لأن المشكلة الحقيقية للأكراد ليست حقا الحفاظ على اللغة بقدر ما هي فقر هذه الجالية، وبشكل خاص الريف الشرقي، السبب الذي يزعم المقاتلون الدفاع عنه.

ما وراء المشكلة الكردية، نلاحظ المقاومة غير المتوقعة للدول المسلمة لتحدي الأقليات، العرقية أو الدينية . بينما أكثر الدول في الشرق الأدنى هي حديثة الإنشاء مرسومة أحياناً بعجلة من قبل المستعمرين، يقاومون الهزات الداخلية بالقدر الذي يقاومون به التحديات الخارجية. خلال الحرب بين العراق وإيران، توقع العراقيون بأن الريف العربي لإيران، الخوزستان، سينضم إلى العراق؛ في حين أن هؤلاء العرب من إيران بقوا مخلصين لنظام طهران. يأمل الايرانيون بأن الشيعة في العراق سينضمون إلى القضية الإيرانية ؛ في حين بقى الشيعة في المعسكر العراقي الذي يديره السنة. بينما في أوروبا نميل إلى نهاية الدولة-الأمة، بفيديراليات (من الأعلى) ولانبعاث العرقيات (من الأسفل)، في العالم الإسلامي، تصمد الدولة .

هل هذه المقاومة هي مقاومة شعبية أو أنها مبنية على القمع؟ صحيح إن طرق المراقبة في البلاد الإسلامية هي طرق حديثة، بينما كل ما تبقى هو قليل الحداثة: يمّتن الخوف الإخلاص الوطني. كما أنه من المحتمل أن الدعايات المؤثرة تنشئ هوية؛ بواسطة الإعلام الذي تسيطر عليه الدولة، بواسطة البرامج التعليمية التي تمجد ماض أسطوري، تنبثق المواطنية وتقوى. في النهاية، باستطاعة هذه الدولة أن تصبح شرعية بواسطة الخدمات التي يقدمها- الأمن، العمل، والصحة-، مهما كانت هذه الخدمات متواضعة، لشعب لا يملك أي عنصر مقارنة.

هل يصون المسلمون أنفسهم في الحقبة الأولى من الدولة- الأمة في الوقت الذي خرجت منه أوروبا؟ دول اصطناعية، مقتحمة من قبل إسلاموية متعددة القوميات كما من قبل العولمة الغربية؟ ولكن أي دولة هي ليست دولة مصطنعة، وبعد كم من الأجيال تتوقف على أن تكون مصطنعة؟

أوروبا على طراز عثماني

منذ 1963، وباستثناء أقلية هامشية قومية، تطلب الأحزاب التركية - الحزب الديمو- المسلم، باستمرار ملحوظ، أن تقبل في حضن الاتحاد الأوروبي، الرغبة في الانضمام إلى أوروبا هي في الحقيقة قديمة كقدم الامبراطورية العثمانية: اختار الأتراك الآتون من آسيا الوسطى، أوروبا، ثم أعلنوا بأنهم بيزنطيون · خلّد كمال أتاتورك هذا الشغف بالغرب في الوقت الذي انفصل فيه كليا عن الشرق · لا تجرؤ إذاً الحكومات الأوروبية على فصل تركيا، بل تتردد خوفا من أن تسيء إلى رأيها العام المتحفظ لدخول تركيا في الإتحاد ·

ولكن هل يوجد أحد في أوروبا قد سأل معنى هذا الانضمام؟ سمعنا إشاعات- بأن هذا الانضمام سيغير طبيعة أوروبا· ولكن ما هي هذه الطبيعة ؟

الاحتجاجات ضد تركيا، من أي بلد يكون في أوروبا وفي طريقة طرحها، يتشكّل في كل مكان ودائما خليطا من التلميحات والاعترافات· يقدّر المعارضون بأن تركيا فقيرة جدا وبأنها ستكلف باهظا فيما لو أنها التحقت بأوروبا ؛ ولن نعرف كيف نتحاشى الأتراك، المجنسين كأوروبيين، من أن يغزو سوق العمل عندنا· تركيا هذه، لن تكون ديمقراطية بشكل كاف، لن تحترم كفاية حقوق الإنسان وحقوق الأقليات - وهنا نجد الأكراد· عندما تنضم تركيا إلى أوروبا سنعترض، لأننا سنجد على حدودنا شعوبا غير مستقرة بقدر ماهي سوريا والعراق وإيران· وأخيرا، فهناك حجة غير مرحب بها وهي، أن الأتراك مسلمون، بينما أوروبا ليست مسلمة·

ولكن ما هي أوروبا في الحقيقة؟ إن كان مرغوباً ام لا، دخول تركيا في أوروبا يقود للتساؤل حول معنى أوروبا بالقدر نفسه حول معنى تركيا ذاتها·

هل أوروبا هي جغرافيا؟ إذا كان الجواب نعم، فمن أين تمر حدودها ؟ إن أوكرانيا موجودة جغرافيا في أوروبا، ولكنها ليست مرشحة للاتحاد الأوروبي، كما أننا لا نريدها · هل ننفي بأن البوسنة وسراييفو أوروبيتان ؟ بالرغم من أن غالبيتهما مسلمة· هل نرفض لهما الحق بالدخول إلى أوروبا؟ إذا كان الجواب نعم، فباسم أ ي تمييز ؟ إذا كان البوسنيون أوروبيين بالرغم من أنهم مسلمون، فالالبانيون هم أيضا أوروبيون · في حين أن معظم الألبانيين هم مسلمون، وتاريخهم، مثل تاريخ الكوسوفويين والبوسنيين مرتبط بشكل وثيق بالحضارة العثمانية· نتبين أن المعيار الجغرافي لا يصمد أمام الفحص الدقيق·

المعيار الديني قائم أكثر على الصدفة، لأنه يقود إلى تمييزات محددة بين المسلمين الجيدين، الذين يتواجدون في أوروبا، أولئك الذين في آسيا؛ ولكن هو الإسلام نفسه الممارس في تركيا، في البوسنة أو في ألبانيا· إذا حددنا كمعيار للانضمام إلى أوروبا الديانة المسيحية، سنجد أنفسنا في مأزق باتجاه البوسنيين · وأيضا، ماذا سنقول إلى ملايين المسلمين الذين يعيشون في أوروبا منذ اثنين أو ثلاثة أجيال، وهم مواطنون قدماء فيها، وإلى الذين يتابعون الهجرة إليها؟· إن وضعهم في أوروبا التي تتظاهر بكونها مسيحية، بديانتها وحضارتها، سيصبح غير محتمل· هل يجب إنشاء اتفاقيات لهؤلاء المسلمين في الداخل، الذين هم أكثر تديناً ممن هم في تركيا؟ وهل لنا مصداقية، بنظر المسلمين الذين تفرضهم علينا أوروبا، مع العلم أن الاوروبيين، إذا كانوا مسيحيين،

سيصبحون دائما أقل مسيحية ؟ تعريف أوروبا كمسيحية لا يقاوم بشكل أفضل التفكيك أوروبا جغرافيا.

يبقى عذر ثالث، وهو ليس إقليميا وليس ثقافيا: حجج تسمى منفعية. لا يتمنى الأتراك اللحاق بأوروبا إلا للحصول على منفعة. من جهتنا، هل لنا مصلحة ام لا من دمج الأتراك؟

بدون شك، تنفع أوروبا الأتراك بمساعداتها المالية، وأكثر أيضا لإن الإندماج بأوروبا هو عامل مسرع للتنمية ؛ في البلاد الفقيرة - اليونان، البرتغال، إيرلندا -التي انتسبت إلى أوروبا في الوقت الذي لم تكن فيه أكثر غنى أو دائما أكثر ديمقراطية من الأتراك، فمتنت الديمقراطية واستوطن الازدهار بسبب الإجبارية التعاقدية لإدارة الأعمال العامة بشكل مناسب. . إذاً، من الصعب مطالبة الأتراك بأن يكونوا أغنياء وديموقراطيين قبل أن يصبحوا أوروبيين، فهم عندما سيصبحون أوروبيين سيغنون وسيغدون ديمقراطيين بشكل أسرع، كما حصل من قبل لليونانيين والبرتغاليين.

إذا كان واجباً أن نعطي برهاناً أخيراً لارتباط الأتراك بالغرب، فلنتذكر بأنه، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، حارب الأتراك أعداءنا المشتركين : السوفيت، العنف الإسلامي، ضد العراق وضد الطالبان في أفغانستان. هل من المناسب أن نشرح للأتراك أننا نقبلهم كجنود مرتزقة، وأنهم ينفعوننا بهذه الصفة، ولكننا لا نستطيع أن نمنحهم أكثر؟ إذا كان هؤلاء، الذين في تركيا هم أقلية ولكن صاخبة، يدفعون هذه البلاد نحو الإسلاموية أو لأحلام الايديولوجية-التركية لضم الشعب التركي، وعندما يصبحون أغلبية، سيكون ذلك من مسؤولية الأوروبيين؛ وستصل الإسلاموية هذه المرة بالفعل حتى أبوابنا.

لنقلب منطقية النفعية : أليس للأوروبيين على الأقل حاجة لأتراك بالقدر نفسه من حاجة الأتراك لهم ؟ سيكون الأتراك نافعين لحماية جناحنا الشرقي ؛ سيكونون نافعين لتمتين الوزن الاقتصادي للاتحاد الأوروبي مقابل الولايات المتحدة الأميركية، وفي المستقبل مقابل الصين والهند. في النهاية ستصبح الايدي العاملة التركية لا بديل لها عندما ستظهر الاحصائيات البشرية الراكدة كما حدث في ألمانيا، حاجتنا لأيدي عاملة. ؟

وهكذا، بدل أن نتساءل إذا كانت تركيا في أوروبا، سؤال عديم النفع وبدون جواب، لنتساءل ما هي أوروبا. إن لم تكن فقط جغرافية، إن لم تكن فقط مسيحية، وإن لم تكن فقط نفعية، يبقى لها أن تصبح عالمية. لن يكون لأوروبا مستقبل ولا حدود إلا باعتبار القيم الفريدة التي تجسدها، خصوصا في علاقتها مع العالم الإسلامي؛ هذه القيم لا يمكن أن تكون غير الديمقراطية الليبرالية، احترام حقوق الإنسان، الديبلوماسية أخلاقية، التعاون مع البلاد الفقيرة، تقييم التنوع الثقافي، احترام مختلف الديانات. إذا كانت هذه الرسالة هي رسالة أوروبا للمستقبل، فلا يمكن لتركيا الا أن تلحق بها في اللحظة التي تشاركها فيها هذه القيم. بانضمام تركيا إلى أوروبا، ستصبح بين صفات مسلمة أخرى، ثم، بعدها، ستصبح مثالاً جذاباً للبلاد المسلمة غير الأوروبية. هكذا هو المشروع الكبير بأوروبا تشجع إسلاماً متنوراً، في البلقان والأناضول : سيختفي كابوس الحزام الإسلاموي الأخضر الذي يحاصر الغرب؛ ستتوقف أوروبا أن تكون قبيحة للأسلامويين وستصبح موديلاً للمسلمين. أوروبا هذه، بعيدة أن تساهم في (صراع الحضارات)، ترسم تعايشها المتناغم على الطريقة التي وصلت اليها في أفضل أوقاتها في الأمبراطورية العثمانية.

لنظلل هذه المقاربة المتفائلة؛ يوجد عقبة من الناحية التركية التي لن تحل بقوانين ولا بترتيبات اقتصادية أو سياسية: الأوربيانية كايديلوجية. تقلق طبيعة الرغبة التركية بأن تشارك أكثر في ما يسميه عالم الاجتماع التركي نور فرجان (الايديولوجية الأوروبية) ideolgie europeaniste من الفكر الأوروبي. بشكل عام، لا يحتفظ الاتراك من أوروبا الا من فائدتها العملية، بدون أن يؤمنوا بإن أوروبا هي أيضا فكر نقدي. في تركيا، يلاحظ نور فيرجان، نقد أوروبا مترجم في الحال كموقف ضد أوروبا، بينما حتى إظهار روح نقدية يعود بشكل معين إلى جعلهم أوروبيين: ما لا يفهمه الكثير من الأتراك. أصل هذه العبادة لأوروبا قديم وهو يساهم بالتأكيد، بشكل طفيف، الفكر الديماغوجي الإسلامي الموجود حتى عند بعض العلمانيين، كما ساد لوقت طويل في الامبراطورية العثمانية.

إذاً، لا نستطيع سوى الأمل أن نرى تطور عادة النقاش المتناقض والنقد، وضمنها ... النقد ضد أوروبا! فيغدو الأتراك منّا وفينا عندما يعارضوننا بنفس الدرجة التي نعارضهم فيها . تحديث الفكر الإسلامي ليس معزولاً عن هذا التأمّل حول النفس وحول الآخرين والذي تناساه ولمدة طويلة معظم المسلمين.

(14)قارب شراعي دقيق الحيزوم مرتفع الكوثل.

(15)مذهب المتعة، يقول إن اللذة والسعادة هي الخير الأوحد في الحياة، كل نشاط اقتصادي قائم على إرضاء طبقات المجتمع وتحقيق أكثر ما يمكن من رغبات.

(16)زورق طويل وضيق يسير بالمجذاف يستعمل بخاصة في البوسفور.

(17)حكومة إلهية يشرف عيها رجال الدين.

(18)عبادة الطبيعة والقوى الخفية في آسيا الوسطى.

(19)مذهب التأليف او التوفيق بين المذاهب المتعارضة.

(20)كنيسة قديمة إيوانية الشكل.

الفصل العاشر

إسلام الأنوار

)الدين المحمدي، كما هو موجود في جاوة، يظل سطحيا ؛ لأنه لم يدخل في قلوب اهل جاوة· إذا بعض من بينهم قد شرفوا أنفسهم باحترام المبدأ، فالشعب الجاويّ، لا يشعر بأي حقد تجاه الاوروبيين ولا يعاملهم ككفرة، ما يبرهن إلى أية نقطة أهل جاوة هم محمديون غير كاملين)·

هكذا وصف الباحث الانكليزي ستامفورد رافل في سنة 1 8 1 6 الديانة الإسلامية في جاوة ؛ كتابه، الأول عن الموضوع في أوروبا، كان له نفوذ قويا خلال أكثر من قرن·

كيف نجح رافل على أن لا يحدد إسلام أهل جاوة، بينما هم أنفسهم ينادون به؟ بالنسبة للغربيين، كان المسلمون بالضرورة متزمتين وحاقدين ؛ ولكون أهل جاوة لا يرضون أي شرط من هذه الشروط، فلا يمكنهم إذن أن يكونوا مسلمين حقيقيين·

في حكايات أخرى هولوندية من نفس الحقبة ومن نفس النوع، نستطيع أن نقرأ أيضا بأن أهل جاوة ليسوا بمسلمين، لأنهم (مهذبون ولا يزعقون كالعرب)· وكأنه ليس من المستطاع لأحد أن يكون مسلما بدون أن يكون عربيا أو همجيا : عقدة خوف من الإسلام مضاعفة بجهل لن يختفي إلا ببطء· هذا إذا اختفى···

نظرة مبتورة

لأي هدف هرب هذا الإسلام من نظرة الأوروبيين، في جاوة بشكل خاص وهي الأكثر ازدحاما من الأمم المسلمة في وقت رافل؟ لأنهم رغبوا بأن لا يروه · بسبب الأحكام المسبقة الدينية، أولا بأول: بتقليص الإسلام إلى العربية يسمح بإنكار رسالته الكونية والأفضل من هذا، نقض كل مقارنة بينه وبين المسيحية · كما تعامى بعض الحكّام البريطانيون والهولونديين أيضا بنية طيبة : أرادوا بصدق صيانة الحضارة الجاويّة (الأصلية) ضد إسلام مستورد، يمكنه أن يُستقبل كعربي· أخيرا، للقساوسة الباحثين عن أرض لمهمتهم، كان من الضروري اعتبار العادات الإحيائية وحدها كحقيقة، وما الإسلام سوى طلاء سطحي· هذا يذكرنا بالعمى المشابه لعمى اليسوعيين في الصين : في القرن السابع عشر الراغبين بتحويل الصينيين إلى المسيحية· كان أتباع لويولا مقتنعين بأن الصينيين لم تكن لديهم ديانة على الإطلاق· نجحوا بالتجربة التي تتطلب قوة (انتصار حقيقي) أن لا يروا الألف معبد تاوي، بوذي، كنفوشوسي في بكين، كما هو حال المبعوثين البروتستانتيين الذين لم يروا المساجد في جاوة· وبإمكانية تلاؤم العادات المهذبة مع الإسلام الهارب من الأوروبيين حتى عام 1 9 8 0 ·

قصر في البصر جدير بالملاحظة كذلك الدور المصيري الذي يلعبه علماء الدين في معركتهم للاستقلال · بعد أن أخذ الاستقلال، في عام 1 9 4 7، ضد الهولونديين، ناقش الحكام الجدد لاندونيسيا طويلا حول طبيعة الدولة الجديدة، مسلمة كانت أم لا· من جهة، لم يرغب أحد بإعلان جمهورية إسلامية من الممكن أن تطبق الشريعة · من جهة أخرى، آخرون ومن ضمنهم الرئيس سوكارنو، من أم هندوسية، عارض ذلك لأخذه بالاعتبار تنوع أندونيسيا: فعُشر السكان ليسوا مسلمين· تنتهي هذه المجادلات حول الصفات الإسلامية بشكل ما لأندونيسيا باتفاق أو بتنازلات، وهو إعلان ايديولوجية وطنية سميت panca silla ، (الأركان الخمسة) · أول ركن من هذه الأركان يثبت اعتراف أندونيسيا بوجود إله واحد وخالق، ما يرضي الغالبية العظمى من المسلمين ؛ من بينهم، فقط فئات صغيرة تطالب بإعلان دولة إسلامية وتطبيق الشريعة·

وهكذا وجدت أندونيسيا نفسها، على عكس جارتها ماليزيا، ابنة العم العرقّية لأهل جاوة· فهي مزودة بدستور إسلامي، كما أن الإسلام هو دين الدولة · لكي تكون ماليزيّا في ماليزيا ينطوي أو يستتبع قانونيا على أن تكون مسلما · الفرق بينهما آت من دون شك بأن المسلمين في ماليزيا لا يمثلون سوى نصف السكان ويرغبون أن تطمئنهم الدولة ؛ لا يشك الأندونيسيون بأهمية إسلامهم، ويكتفون بالأركان الخمسةpanca silla · فالهوية الدينية المطمئنة في أعماقها ليس لها أي حاجة أن تعزز من قبل القانون·

وبالرغم من هذا الالتصاق بالإسلام الذي لا يشك به لأهل جاوة، استمر علماء الدين الذين، بعد الاستقلال، وضعوا خطواتهم في خطوات المستعمرين والمبعوثين، حتى العقود الحديثة، بتحقير الإسلام·

قضية غيرتز

الدين في جاوة، كتاب نشر في عام 1 9 5 5، يوضح أقوالنا · خلال جيل، كان لهذا العمل الكثيف سلطة هامة في الغرب عند الباحثين والطلاب· يعتبر كاتبه، كليفورد غيرتز، الذي أدار لمدة طويلة قسم علم الإناسة الانتروبولوجية في جامعة برينكتون، في الوسط الجامعي كضد- ليفي- ستراوس، المؤسس للعودة إلى ميدان الواقع التجربة ضد النظرية العامة من نوع البنيوي · يعتبر ليفي - ستراوس من جهته بأن عمل غريتز هو من نوع الأدبي، وليس من النوع العلمي؛ سنرى بأن التاريخ سيعطيه الحق·

بدأ من دراسة طبقت على قرية أُخذت (كشاهد)، ميّز غريتز أو ظنَّ بأنه ميّز بين ثلاث ديانات في جاوة · الأولى الغالبة، هي الإحيائية : مجموعة ممارسات سحرية، عريقة تتيح لأهل جاوة السيطرة على المواد بواسطة الأرواح· هكذا هي الديانة الأصلية، التي هي ديانة (الشعب)· الثانية، هي ديانة الفئة الحاكمة، هي ديانة أقل منها مجموعة طقوس اجتماعية موروثة من البرهمانية الهندوسية· في المقام الثالث يأتي الإسلام، الذي لا ينكره غريتز إنما يعتبره راكدا في وسط مدني ومقطوعا عن الطبقة الشعبية · هذا الإسلام (المقلوع من جذوره) إذن هو غير أصلي، يمارسه التجّار والمتعهدون· خمّن غريتز في هذه الطبقة الاجتماعية الجديدة ما يعادلها من الملاّت البروتستانتية الغالية على قلب ماكس فيبير؛ على غرار غرتز، انتُظر منها أن تقود البلاد إلى التطور الاقتصادي لأندونيسيا الجديدة·

لم يعد يوجد أحد يقبل اليوم بصلاحية هذه الثلاثية الدينية· لذا، بعضهم، مثل غريتز نفسه، قد استنتجوا أن جاوة قد تغيرت كثيرا· وبأن الجزيرة تأسلمت خلال خمسين عاما · ولكن هذه الفرضية للتأسلم الشبه فوري تبلبل الأفكار عندما نعلم بأن الإسلام قد وصل إلى جاوة في القرن الخامس عشر· الأكثر احتمالا بأن غريتز كان في بحث عن شرق خيالي·

من الممكن تفسير إهماله لإسلام أهل جاوة balino-centrisme بالبالية- الوسطية الغربية· فبالي تسحر أكثر من جاوة، وأكثر من اندونيسيا · لكونها قد بقيت كملجأ للديانة القديمة الهندوسية في جاوة، الجزيرة، بالواقع، ليست مسلمة· هذا الشعور موطد بالآثار الكبيرة، التي نزورها فيها : المعابد الهندوسية لبرامبانا، وبودهيك لبورابودور، الذين يرجعون إلى الحقبة ما قبل الإسلام· لم يصنع الإسلام في جاوة شيئا استعراضيا مماثلا، والآثار الإسلامية نفسها متأثرة بهذه التركة الهندوسية- البوذية· تساهم أيضا الباليّة- الوسطية التي هي على الموضة في الغرب بعلة معاصرة: البحث على (الأصالة) ·

كان للقرن العشرين الشغف بالأصالة، أي، بالغرابة في اللحظة ذاتها التي تختفي بها · في هذا البحث، لم تكن جاوة سوى ضاحية غير مخلصة لبالي الأصلية، والإسلام هو طلاء متأخر فوق جوهر جاوة · هذه الجوهرية قد وجهت أعمال الخبراء الذين، في المقابل، قد كيّفوا نظرة السياسيين، الصحافيين والسواح· لاحظوا أن هذا البحث في الجوهرية، عندما تتعلق بالإسلام، تجمع في نفس المعسكر، بدون أن يفتشوا عنها أو يريدوها، علماء الإسلام الغربيون الباحثون عن الإسلام (الصافي) والإسلامويين المعادين للممارسات المحلية·

اسألونا أخيرا هل ستكون نظرية غريتز مفروضة فيما لو لم يكن غريتز امريكيا؟ ٠ هنا نفكر بمبدأ تعسفي، مبدأ صامويل هانتينغتون، حول (صراع الحضارات)، الذي تجنب الحقيقة بعدم تعريف ما يعنيه ب (حضارة)٠ إذا لم يكن هانتينغتون بروفسورا في جامعة هافارد، لما أثارت أقواله نفس الصدى ٠ لو إن غريتز أو هانتينغتون كانا من أصل ألباني أو بوليفي لما أنصت اليهما أحد٠ الامبراطورية أو السلطة الأمريكية تفرض دوغمائيتها مبادئها الفكرية وتدعو العالم إلى أن يدور حولها٠

ولكن النماذج تتغير٠ خلال سنوات الثمانينات، أصبحت بالي النموذج الضائع للسياح بالقدر ذاته بالنسبة للعلماء ٠ لم يعد هناك من يجهل، أن أندونيسيا هي مسلمة، وجاوة أيضا بشكل كبير، وبأن بالي ليست سوى موقع أثري شاهد ٠ لن يشك أحد بعد الآن، بأن أندونيسيا هي البلد المسلم الأكثر اتساعاً في العالم ٠ ولن يتساءل أحد من الأن فصاعدا إذا كان أهل جاوة مسلمين ؛ سنتساءل كيف هم مسلمون ٠

هزيمة الاستشراق(21)

إذا بحث الغربيون من الآن عن الإسلام في جاوة بينما كانوا سابقا يتجنبون ملاحظته، فهل لأن جاوة قد تغيرت، أو لأن الغربيين هم الذين تغيروا؟· يّدعي غريتز بأن الإسلام قد تقدم بتخلصه من العادات القديمة؛ هذا صحيح جزئيا، فقط جزئيا· لأن غريتز والذين يشاركونه في هذا التحليل للأسلمة قد أهملوا واقع كون العادات والتقاليد التي صنفت كمحلية وما قبل الإسلام هي غالبا عادات إسلامية وصوفية · لقد تقدّم الإسلام دائما في جاوة بواسطة طريقين: رسالة القرآن والصوفية- كل منهما أصيلة مثل الأخرى ·

إذاً، نحن من غَيّرنا مواقفنا، أكثر من وضع الإسلام في جاوة، لأسباب بعيدة على كونها مستوحاة من الهدوء · مدفوعة بعودة الإسلام القوية على المستوى الديني، الثقافي والسياسي، فبعد أن كنا لا نراه في أي مكان أصبحنا نطارده في كل مكان · التحول النقدي، في هذه النظرة الجديدة الغربية على العالم، أُشعل بالثورة الإيرانية في عام 1 9 7 9: عندئذ، ليس فقط الإسلام ما نترقب بل نسخته المتعصبة الإسلاموية (التمامية الإسلامية integrist) هي التي تقلقنا· في حين ان أندونيسيا ليست بمعزل عن هذا الاضطراب الإسلامي· رأينا نسخة محلية للحجاب الإسلامي تنبثق، منديل يغطي الشعر ويقع على الأكتاف، ولكن كاشفا الوجه·

تسريحة غير نادرة وقليلة البناعة قد غزت الصبايا، وبشكل خاص الأكثر تعلما· وكيف لا يرى أيضا على مفرق جاكارتا، مقاتلين حركة الجهاد الأصغر ؟ وهي حركة حلّت بعد اعتداء في بالي في تشرين الاول 2 0 0 2، هؤلاء الإسلامويون المتعددو القوميات يبحثون عن تمويل الحرب المقدسة في الشرق الأدنى، وربما معركة أكثر قربا، وهي التي ضد المسيحيين الاندونيسيين في جزر مولوك·

هذه الوقائع الظاهرة، التي لم تكن موجودة قبل الثمانينات، أبعدت الأبحاث حول الاحيائية animisme في جاوة لمصلحة المطالب العالمية، الصحافية والسياسية التي بدت أكثر إلحاحا · بشكل عام، لم نعد نحكم على الشرق كما فعلنا منذ عشرين عاما · بدءًا من الآن سيحتفظ علماء الدين كما علماء الإسلام بالكلام بدلامن(الآخر) الذي لا يعرف ما يريد قوله· توجيه النظرة الغربية هذه تدين بالكثير لإدوار سعيد، جامعي أمريكي من أصل فلسطيني· في عمله المعنون lorientalisme الاستشراق(22)المنشور في عام 1 9 9 6، اتهم سعيد الكتاب الغربيين- في الأدب كما في الأبحاث- بإبداعهم نوعية تسمى شرق، لغاية استرقاقها فكريا أو ثقافيا بعد أن استعمروها ماديا· حديثنا هنا ليس تحليلا لعمل سعيد، الذي لا ينقصه الهجاء، بل للأخذ بالعلم بتأثيره، الذي هو في غاية الأهمية· بالإضافة إلى أنه موضوع عصري يدعو إلى التواضع الفكري أمام ظاهرة (غير مفهومة) كالإسلام ·

الدخول السلمي

من الأن فصاعدا أصبح الإسلام الأندونيسي معترفا به، ومعترفاً به أيضا كإسلام مميز· ولكن أليس كل إسلام هو إسلام مميز ؟ لا يوجد أي سلطة في الإسلام ولا في الأحرى خارجه من يستطيع القول ما هو الإسلام الحقيقي· إذ ليس الإسلام سوى الحصيلة أو مجموع المسلمين: لا يوجد فيه فاتيكان، ولا مجلس، فقط علاقة مباشرة لكل مؤمن مع الله · إن أهل جاوة-و أحصر البحث هنا في جاوة لعدم مراقبة أمكنة أخرى في أندونيسيا - يعتبرون أنفسهم مسلمين ممتازين · مع أنهم مستهلكون مدمنين على العرق، ويعاقرون الجنس بمطلق العنان، وغالبا ما تصبح الفتيات أمهات قبل الزواج، كما أنهم يصلّون على قبور الأولياء أكثر من الجوامع · ففي جامعة جاكارتا، العاصمة الثقافية للجزيرة، ثلث الطلاب يعيشون في علاقات زوجية غير شرعية، هذا لا يمنع من أن تضع الزوجة الحجاب الإسلامي· في حين يقول الجميع إنهم مسلمون· واذا قالوا ذلك، هل هم حقا أو انهم مجبورون على القول ؛ وإن كانوا مسلمين، فماذا تعني لهم كلمة مسلم ؟

إن استمرارية الطقوس الإحيائية، البوذية والهندوسية في ظل إسلام جاوة يجعل منه الأكثر توليفاً من كل إسلام · ولكن أليس كل إسلام هو إسلاما مولّفا، مخلوطا بدرجات مختلفة بالعادات المحلية؟ وهذا صالح من العربية السعودية إلى جاوة· وإذا كان الأثر الذي خلّفه القدماء في جاوة قد بقي أكثر فعالية من مكان آخر، فهذا،بدون شك، لأن أسلمة البلاد جاءت متأخرة · لقد فُرض الإسلام هنا بدون اعتداء على العادات الموجودة، مهما كانت إحيائية أو هندوسية؛ فلم يهدم أي بناء أثري خارج عن الإسلام · كما في البنغال، يأتي نجاح التبشير الإسلامي من ما يقدم من (تطور) بالنسبة للديانات القديمة : إن الإسلام الذي نلمحه من هنا كإسلام محافظ، أصبح محافظا، بينما لم يكن في البدء · في مجتمع متدرج كالذي كان في جاوة في القرن السابع عشر، حرر الإسلام الطبقة الدنيا من اضطهاد الطبقة العليا · كما أدخل في الهند، معايير اجتماعية أكثر مساواة،كذلك مفهوم العدالة· فأعطى معنى للوجود، معترفا بالحكم الحر للفرد وهيأه للموت· وبتناقض مع قصور الملوك، بنى المساجد، أمكنة للتضامن، على الاقل للرجال؛ وخففت الزكاة أو الصدقة الاجبارية قسوة الفقر ؛ كما حررت الشريعة البشر من طغيان الأسياد·

نظرية (الولوج السلمي) هذه، إذا لم يُشكك بها في الماضي، هل تزال صحيحة للوقت الحاضر؟

تخضع أندونسيا لغزوات إسلاموية: ففي جوامع جاكارتا، يخطب الشيوخ العائدون من مصر أو من لاهور، العقيدة المطهرة ؛ نشرات رخيصة تباع وتنشر العادات السعودية· لكن -أهل جاوة- لأنهم أخبروني بهذا- لا يحلمون بالانفصال عن الغرب· فإذا، قاوموا بالهوية الإسلامية، العولمة، فهذه المقاومة هي بشكل عام سلمية؛ وعندما تضع الفتاة في جاوة الحجاب، فهي لا تضعه كالعربيات·

يمثل الحجاب عند المسلم العربي، العودة إلى التقوى، تثبيت هوية غالبا ما هي معادية للغربيين· وإما عند أهل جاوة، فمن الممكن أن توجد هذه الحوافز؛ ولكن بعكس ما هي في العالم العربي أو الإيراني، الحجاب هو تجديد لباسي وليس العودة إلى معيار قديم · إذ يسمح الحجاب لشابات جاوة، المشاركة في حركة متعددة القوميات ومتعددة الثقافات ؛ فيصبحن بحمل الحجاب عالميات؛ يقلدن ما يحصل في الخارج، لكونهن لا يعاودن ما يحصل في القرية أو ما فعلته أمهاتهن · فإذا كان

اللباس الرسمي لطالبات جاوة هو وضع الحجاب والجينز، فهذا لأنهن لا يجدن أي تناقض، بل مشاركة إضافية لمعيارين كلاهما من جوهر عالمي.

في حين أن الحجاب في البلاد العربية يجعل قبليا ويرجع إلى تقاليد الأجداد، في جاوة هو ينفي القبلّية ويرتبط بالعالم الواسع.

هذه الفرضية للعولمة عن طريق الحجاب سترفض من قبل التماميين الأصوليين الغربيين والإسلامويين؛ ومن الممكن أن تدحض في المستقبل. ولكن لوقتنا، يبدو لي بأن مسلمي جاوة، بنفس الوقت الذي يبقون مسلمين تماما، هم مختلفون تمام الاختلاف عن المسلمين الآخرين، وبشكل خاص عن العرب أو الإيرانيين؛ وهذا لا يعني بتاتا بأنهم أقل إسلاما. تقدم جاوة نسخة عن الإسلام تقلب معظم الكليشهات ؛ لأنه لا يمكن الشك بأن الإسلام فيها هو إسلام سلمي، متسامح، متحضر وديمقراطي . وسنتفق على أنه غير ذلك في مكان آخر.

إسلام الحقول، إسلام المدن

ميّزنا في مصر بين إسلام النهر وإسلام الصحراء . في الكويت، بين إسلام الصحراء وإسلام البحر. في بنغلادش بين الإسلام الحرفي والإسلام الصوفي . في تركيا، بين الغزو السني والأصالة العلوي . في جاوة، هل علينا أن نتحدث عن الإسلام في الفردية أم الجماعية؟

حيث يميّز غريتز ثلاثة أديان، الممارسة تقتضي أن نجد الآن نوعين مميزين من الإسلام : إسلام الحقول، مدموغ بالصوفية والممارسات سابقة لوصوله، وإسلام المدن أكثر تطهيرا. يتطابق مع هذين الإسلاَميْن جمعيات مدنية لا مثيل لها في باقي أنحاء العالم الإسلامي، معروفتان تحت اسم المحمدية، الأكثر مدنية وأرتودوكسية، و(nahalutadl ulmema) أي انبعاث العلماء، متأصلة في الريف وفي التأليفية(syncretisme[23]) كل من هاتين الجمعيتين، مؤسسة في بداية القرن العشرين، تعد حوالي ثلاث ملايين منتسب - اشتراك جماعي في بلاد سكانها حوالي مليون نسمة .

من هذين الإسلامَيْن، من هو الأكثر إسلاما، الأصلي؟ على هذا السؤال، الذي غالبا ما جابه الأندونيسيون أحدهما ضد الآخر، خلال القرن العشرين، يرد العالم الديني عبد الرحمن وحيد المسمى Gus (خال) Dur، الرئيس القديم للأمم المتحدة NU والرئيس الزائل للجمهورية الأندونيسية في عام 2 0 0 0، بأن (هو الصدق من يصنع المسلم الجيد أكثر من الممارسة).

بعض الممارسات لا تتركنا في حالة أقل اضطرابا، كطقس السلطان أغونغ، أول ملك اعتنق الإسلام في جاوة. الحجّاج الذين يزورون قبره القريب من جوجكارتا، نهار الجمعة بعد الظهر عند الخروج من المسجد، يطلبون من اغونغ، الميت منذ خمسة قرون، خدمات محّددة جدا: زوج، زوجة، طفل، نجاح في قضية، شفاء، النجاح في فحص. في كل جاوة، ملايين من قبور الأولياء مقدسة، تجذب كثيراً أو قليلا الحجاج حسب تأثير الشفعاء: طقس الأولياء الموجود في كل العالم الإسلامي باستثناء العربية السعودية ومحيط تأثيرها. ولكن، بعكس البلاد ذات الثقافة العربية، ايرانية أو هندية، حيث تغطي النساء عند الاقتراب من القبور، عند ضريح اغونغ يستحسن عليهن أن يكشفن عن عنقهن وأكتافهن، وعلى الرجال ان يحزموا خصورهم بسارنغ[(24)]. من لا يملك منهن أو منهم الزي المناسب، يأجرهم إياه حارس القبر على مدخل المقبرة.

إذا شاركت في طقس اغونغ، فلم أفعل شيئا آخر سوى سماع حديث عن مقابر أخرى حيث، تحت ضوء القمر الكامل أو البدر، يجرب الرجال خصوبتهم مع (القديسات) المومسات، الوريثات البعيدات لبيادر الهندوسية. ماذا يفكر الكياس kyais المحليين، كياس هو ما يعادل الإمام العربي ؟ إنهم يتلاءمون مع ذلك ؛ المهم، يصرحون، مثل غوص دور Gus Dur، هو الصدق؛ كل الطرق جيدة للاقتراب من الله.

يقول مسلمو المدن أيضا بأنهم قد سمعوا الحديث عن هذه الممارسة، ولكنهم يتظاهرون بأنهم لم يمارسوها أبدا: هل هذا متعلق، عندهم، بطهرية متأثرة بالإسلاموية العالمية ذات الإلهام العربي؟ بالتأكيد إن هذه الممارسة تندحر مع التمدن. وستتناسق جاوة بواسطة التعليم، التطور الاقتصادي والتلفزيون؛ التلفزيون الذي ينشر إسلاما حرفيا مقدما وكأنه أكثر حداثة.

بعد سنوات من المنافسة وأحيانا من الاصطدامات، يعترف رؤساء المحمدية ونهضة العلماءNU بأن ما يفصل إسلام المدن وإسلام الريف يميل للاختفاء: من الآن فصاعدا، الحديث عن إسلام واحد بات ممكنا، بالترديد على أنه مجموع لممارسات كل مسلمي جاوة.

إسلام مدني جدا

الإسلام في جاوة الذي سنتحدث عنه بدأ من الآن في صفة المفرد وصف من قبل الانتروبولوج الامريكي روبرت هيفنر ب (إسلام مدني) islam civil· إنه لكذلك في نواح عديدة ومنذ أصوله· بينما خارجا، كان الإسلام غالبا مفروضا بالسلاح، التجّار والمبشرون أو الداعية هم من أدخلوه إلى اندونيسيا · هذا التبشير المؤسس استبدل بعلماء دين اندونيسيين يسافرون حتى مكة أو القاهرة ؛ بالنظر من جاوة، يبدو الإسلام لهم هناك إسلاما تقدميا، وغربيّا·

كأن هذا الانتشار المدني للإسلام موقَع ببقاء الآثار الهندوسية، وهذا لا يطّبق على حالة الهند، حيث الفاتحين العرب قد هدّموها· مدني، نعم، وخاصة فيما سمح بتطوير حياة اجتماعية مستقلة عن السلطة السياسية أو سلطة المال· مجتمع مدني لا يُصادف إلا قليلا في العالم العربي ويدحض الإدعاءات المصطلحة حول الضغوط آنفا(شمولية) للقرآن ·

هذا المجتمع المدني يتبدّى بشكل خاص في هاتين المنظمتين المذكورتين قبلا، نهضة العلماء Nu.· والمحمدية، كلاهما خلقتا، بشكل متناقض، من الاتصال بالعالم العربي ·

مؤسس المحمدية، المنشأة في سنة 1 9 1 2، عاش في القاهرة في وقت النهضة العربية· لأن تكون هذه النهضة المستوردة ناجحة بشكل أفضل في الشرق الأقصى منها من الشرق الأدنى خلق عند الأندونيسيين إحساسا مزدوجا باتجاه العرب : يحسدونهم مجدهم الماضي، الواقعة بأن النبي كان عربيا، ولكنهم يظهرون تسامحاً متعجرفاً باتجاه (البدو)·

نهضة العلماء والمحمدية ليسا حزبين، بل جمعيتين لهما هدف واحد هو تثقيف أعضائهما · في مجرى تاريخهم الطويل، كان بإمكانهما أن يحاولا السياسة، ولكن بدون نجاح؛ من حينه انطلقوا في النقد الذاتي، لأن النقد الذاتي موجود في إسلام جاوة · لقد بنت nu نهضة العلماء والمحمدية المدارس كما أدارتها على كل المستويات، في القرى نهضة العلماء Nu التقليدية، وفي الجامعات للمحمدية، الأكثر مدنية·

تتشارك هاتان الجمعيتان بنفس اليقين : الإسلام الحقيقي يطالب بتعليم الشعب، وليس فقط النخبة· هذا التقارب بين الإسلام وتعليم الشعب قد خلق حالة معاكسة عن تلك الموجودة في البلاد العربية، بل أيضا في الغرب المسيحي: عندنا، تعميم التعليم كان ضد سلطة الكنيسة ؛ في جاوة، على العكس، فالتعليم الابتدائي مسيطر عليه من قبل المؤسسات الخاصة حيث يدرس الدين والأنظمة الحديثة· كما تدور الجامعات الإسلامية الكبيرة حول مساجدهن ولا تفصلن بين المعرفة بالإسلام من الحداثة· تعليم الشعب هذا قد حرر أندونيسيا من المستعمر الهولندي ؛ إنها تحمي الشعب من الظلامية والإسلاموية؛ وتساهم بالتطور الاقتصادي· اذا لم يكن ممكنا، التخلص من الإسلاموية والإرهاب من أي مجتمع مسلم، فسيبقيان هنا في اندونيسيا منعزلين أو منحصرين في المحيط الخارجي بفضل هذا الإسلام المدني والتقدمي·

الديمقراطية، باسم القرآن

في عام 1998، حصلت ثورة قادها طلاب أنشأت أول نظام ديمقراطي عرفته أندونيسيا ٠ إن لم تخضع أندونيسيا من قبل لنظام ديكتاتوري، هل كان هذا لأن شعبها مسالم أو لإنه مسلم؟

لا تدين الديكتاتورية بشيء للإسلام، بل تدين بكل شيء لظروف زوال الاستعمار ٠ نزع الاستقلال بالقوة بواسطة الجيش الذي أخذ السلطة واحتفظ بها٠ عندما يُكشَف أن الديكتاتوريين عاجزون عن إدارة الاقتصاد، فلا يطالب الأندونيسيون بمستبد أكثر استنارة، بل بديمقراطية حقيقية٠ في هذه الأمة المعقدة، التي مرت بصراعات عرقية، هل ستصمد الديمقراطية أمام الجيش؟ لا نعرف، ولكن نستطيع أن نظهر أن المنظمات الإسلامية الكبرى في أندونيسيا تساند الديمقراطية ويفعلون ذلك باسم الإسلام٠

إليكم، كيف رجل الدين الأكثر أهمية في أندونيسيا، السيد نور شوليش مجيد، رئيس الجامعة الإسلامية في جاكارتا، يقر شرعا الديمقراطية:

من الممكن أن تكون الديمقراطية قد عرفت تكوينين، واحد في أثينا، والآخر في المدينة المنورة ٠ كان كلاهما غير كاملين، وبدون شك غير مفهومين لأنهما سبقا عصرهما٠ في أثينا كما في المدينة، لا يساهم النساء والعبيد فيها: عجز مشترك نتيجة الأخلاق السائدة في ذلك الوقت ٠ ولكن، في المدينتين، ساد مبدأ التشاور الجماعي ٠ لم يكن النبي يقرر إلا بعد التشاور مع مجلس صحابته، ما يعادل الأغورا(25)في أثينا٠ نفس الشيء تابعه خلفاء النبي، بعد 632 ، كانوا ينتخبون حسب مقدرتهم وليس حسب مبدأ الوراثة٠ أثناء هذه السنوات التأسيسية، كان العلماء يوجهون إنذارات أو توبيخاً للخليفة حول تفسير الشريعة٠ وهذا ينتج، بأن الإسلام يفرق أو يميز بين السلطة الدينية والسلطة السياسية؛ إنه يعترف أو يعرف مبدأ الحر لتمييز الأنظمة ٠ هل حطمت مبادئ التأسيسية للديمقراطية هذه من قبل الطغاة اللاحقين في الغرب المسيحي كما في الشرق المسلم٠ في العالم العربي - المسلم، الديمقراطية الأصلية قد خنقت في عام 660 عندما أصبحت الخلافة وراثية؛ دام العصر الذهبي للخلفاء الاربعة (الديمقراطيون) ثمانٍ وعشرين سنة٠

مجيد، هل هو (معدّل)(26)؟ فيجيب : لا تخلطوا الإسلام مع مصادرته من قبل الطغاة العرب٠ المتأثرينcesaro-papisme المتقيصر - البابوية في بيزنطة أكثر من تأثرهم بالوحي النبوي ٠ بمتابعة مرشدنا نكتشف، إذن، أن الديمقراطية كانت معلنة عند الإغريقيين ومستلهمة عند العرب؛ وجب انتظار القرن التاسع عشر في الغرب والقرن العشرين في الشرق لكي تجد الإنسانية الطريق إليها٠

نتعجب لماذا لم يحاول مجيد أن يفسر الديمقراطية بالمنطق النقي ؛ ولكن، إذا كنا لانزال نتذكر اجراءات رفاعة، فستتوضح إجراءات مجيد أكثر ٠ فهو كرفاعة، لا يتقدم، إلا بالاعتماد على القرآن وتعليقاته، إنه يتصرف كمؤمن وكتكتيكي في مجتمع تتحول فيه التقوى إلى تطور أكثر من اعتمادها على المنطق٠

بدون شك، ساهم تفسير مجيد للإسلام بإعادة بناء التقاليد؛ ولكن ألا تظهر أصباغ المثالية على الديمقراطية من قبل الغرب في أثينا إجراءات مشابهة ؟ يبقى أن نتساءل لماذا هذه القراءة المستنيرة للعادات الإسلامية، مستقبلة بشكل أفضل في جاوة، البعيدة عن مهد الإسلام، من ما هو في المقربة.

حسب رأي مجيد، إنه أسهل لمسلمي الشرق من مسلمي الغرب إعادة الارتباط مع الديمقراطية واختراع الحداثة الاقتصادية لأنهم لم يعرفوا العصر الذهبي . بينما العرب مسجونون في مراسيم ماضيهم، لا يخطر على بال أي جاوي أن يمجد تاريخه، الممزوج بالفقر للجميع وجهل الإسلام للمؤمنين منهم. في الحاصل، من الأفضل أن يأتي الإسلام متأخراً، ألف سنة بعد العرب، ثمانية قرون بعد الهنود، لكي يمارس بشكل أصح. بسبب فقدهم لماض عظيم، اخترع أهل جاوة مستقبلا، يلخص مجيد، يتعثر الغربي في حرية هذا التفسير للإسلام، بعقبة لا يمكن تخفيفها : لا يمكن الاحتجاج على الدين نفسه . ولكن، يلاحظ مجيد، المتعلم كمعظم علماء الدين المسلمين في جامعة شيكاغو، أليست الديمقراطية الأمريكية مبنية هي أيضا على مبادئ دينية.؟ منذ ماديسون، نثق بالله in God we trust - أو نتظاهر بالإيمان- لأن العيش معا يتطلب امتثالية اجتماعية في حد أدنى . هذا المبدأ يسمى، الله في امريكا، مبدأ الانسجام في آسيا الكنفوشوسية، وإله وحيد وخالق في اندونيسيا التعددية. يتقبل الأمريكان هذا بسهولة أكثر من الفرنسيين، المنحصرين في عدائهم للكليريكالية.

عندما سألني عالم ديني آخر في جاوة، واسمه سيافي ماريف، رئيس جمعية المحمدية، عن ديني، وأجبته بأنني ملحد، لم يلفظ ببنت شفه . بجهد واضح، سألني إذا كنت شيوعيا. هذين التعبيرين غالبا ما يختلطان في اندونيسيا. فطمأنته بأني لست شيوعيا. (تشيّا؟) . أيضا لا رددت. لكن أنت تؤمن في وحدة الجنس الإنساني؟ (- بلا شك، نعم) فاطمأن، إلا أنه ظل مشوشًا ؛ هو أيضاً أهّل في الولايات المتحدة، الأقل إلحاداً من الأمم الغربية.

هذا الإسلام الليبرالي الذي يتأقلم مع الإلحاد بشرط أن لا يصبح مناضلا، هل يقبل أيضا بالمسيحيين ؟ في شمال جاوة، في جزر الملوك، أحيانا تحدث مجازر بين المسلمين والمسيحيين، يجد أتباع (صراع الحضارات) هنا برهانا على عدم التسامح العميق للمسلمين، حتى لو كانوا مسلمين . ولكن هل تختصر أزمة جزر الملوك إلى حرب دينية؟

في الحقيقة، ليست الديانة ما خلق الأزمة، المحدد بهذه الجزيرة، بل التاريخ الاستعماري . سكان الملوك، المسيحيون منذ عددة قرون، كانوا مجندين كموظفين وغالبا كبوليس، في عهد الاستعمار الهولندي في وقت الاستقلال، هؤلاء المتعاملون القلقون حاولوا أن لا يمتزجوا في اندونيسيا الحديثة؛ الكثير من بينهم هاجر حينها إلى هولندا حيث يتمسكون بمطالبهم الاستقلالية . إذن سكان الملوك هم مثيرون للريبة ومراقبون ؛ بالاضافة إلى أن مقاطعتهم غنية، تجذب المهاجرين بعروق وأديان مختلفة. هذه الهجرات تحرض على أزمات اقتصادية، ثقافية واجتماعية .

الديانة إذن هي السبب الأقل من كونها علامة إضافية في صراع أهل جزر الملوك. الذي لا يمر بدون تذكر الفتنة بين المسلمين والهنود. في أندونيسيا كما في الهند، العنف يظهر دائما على سطح اليأس الاقتصادي وتعدد السكان ؛ التمييز الديني يؤجج الحقد، ولكنه ليس السبب الأساسي. أزمة سكان الملوك لا تسمح بأن نستنتج أياً من عدم التسامح مرتبطاً بإسلام جاوة . يبقى على المصابين

بعقدة الخوف من الإسلام أن يستنتجوا، على طريقة رافل، بأن الأسلام في جاوة ليس مسلما، لأنه متسامح.

هل الموديل الجاوي هو منهج عالمي؟

هل التعددية الخاصة بمسلمي جاوة هي عالمية، وقابلة للنسخ ؟ لماذا هي غير معروفة خارج اندونيسيا؟ يعتبر غوص دور Gus Dur، الذي بقي واحد من أهم الرؤساء الدينيين بعد أن كان أول رئيس ديمقراطي في اندونيسيا، بأن شهرة الإسلام الاندونيسي، هي للأسف محدودة بسبب اللغة. الأندونيسيون غير معروفين سوى لأنفسهم ولباحثين نادرين يدفعون برغبة المعرفة حتى هذا الشرق الأقصى ؛ على العكس، يتحدث معظم المفكرين بالشرق الأوسط والهند باللغة العربية أو الانكليزية، لسان قوم عالميين يسمح لهم الوصول للنخبة في العالم الإسلامي كما نخبة العالم الغربي.

يرتبط الإسلام الاندونيسي بجغرافية فريدة لا يوجد لها معادل ؛ يتطلب العيش معا على عدد لا يحصى من الجزر التي توطّن هذا العدد من الثقافات، من عادات وديانات تسامحا في كل لحظة. هذا الصقل الذي أحدثته القرون والتنوع قد أنتج مجتمعا مدنيا مسلما من المحتمل أن يكون فريدا من نوعه في العالم . هل يجب التخلي عن بث الأخبار الجيدة ؟

غوص دور ليس رجلا يتخلى؛ بالرغم من أنه أعمى وهش، يقضي خمسة أيام في الأسبوع على وعظ حشد المؤمنين والفضوليين الذين يعلمهم هذا الإسلام المدني. إنه لا ينقّش أحاديثه باستشهادات من القرآن، وهذا أبعد من التقاليد الإسلامية، بل بقصص شعبية، حتى بنكت رزيلة . فينفجر الحشد الذي يسرع إلى استماع دروسه بالضحك وينقلون من قرية إلى قرية آخرى نكتة للمعلم؛ بالطبع، تبث هذه النكت درسا أخلاقيا. عالم ديني يثير الضحك ؟ نتمنى أن يهاجر بعض منهم إلى العالم العربي .

كيف لنا ونحن في الغرب أن نساند غوص دور وحركته ؟ عندما كان رئيسا للدولة - مدة سنة واحدة- لم يكن للحكومات الغربية الوقت للإدراك بأن أندونيسيا أمة مسلمة، مرؤوسة من قبل رجل دولة ديمقراطي، تقي ومعتدل. صحيح، أنه أظهر نفسه كرئيس غريب الأطوار تقريبا، فطرد بسرعة بسبب انقلاب من أصل برلماني، ولكن عمى الغربيين فيما يخصه مسبوقا أيضا بأحكامنا المسبقة: لم يكن ملائما أن يكون عالم دين مسلم معتدل، ورجل مبدأ ورئيس دولة في مرة واحدة . لا يحملنا غوص دور المسؤولية، ولكن يقترح علينا، للمستقبل، مساعدة المسلمين المعتدلين لدراسة العلوم الغربية.

لا يوجد، اقتصاد إسلامي، ولا علم إسلامي، بل معرفة عالمية يتقنها الغربيون وعلى المسلمين تعلمها. يقول غوص دور. يبدو له إن منحات تدريسية تمنح لطلاب مسلمين معتدلين هي أكثر فعالية من نوعي السياسة المتبوعة حاليا من قبل الحكومات الغربية : وهي مداخلات عسكرية أو مساندة المستبدين المدبوغين بدبغة العداء - الإسلاموي. واحدة من المهمات الأكثر صحة هي توزيع الأدوار في النضال ضد المتطرفين تطالب بأن يشك الغرب بالمسلمين، وأن يتآلف المسلمون المعتدلون مع العالم بقصد أن يسمعوا بشكل أفضل. إنهم الآن صامتون جدا مقابل أقلية تزعق، ممولة من قبل الإسلامويين العرب أكثر كرما من المانحين الغربيين. يقترح علينا غوص دور بالنتيجة أن نختار بشكل أفضل أصدقاءنا ؛ لأنه عند اختيارهم بشكل أفضل، فنحن نضاعف

العدد· تقود الحكومات الغربية سياسة معاكسة ومنذ 11 سبتمبر 2 0 0 1، انقيادا للولايات المتحدة، تستمر في الخطأ ·

جاوي، فردي وملحد

في عمر يناهز الخمسة وسبعين سنة، يعتني السيد برام بتربة خضاره، قدماه حافيتان في الطين، قرعته الصلعاء محميّة بقبعة من القصب مخروطية. لقد قلّ سمعه، ولم يعد يرى واضحا، فهو لم يلاحظني إلا عندما ربّت على كتفه. براموِيدا اناتا توير، الذي يناديه كل الناس في قريته ببرام، يشبه فلاحا جاويّا وهو ليس فلاحا ؛ فقط كان يحاول أن يشبههم، حتى أن يفكر مثلهم . مندهشا لرؤيتي في حقله، فيأخذني مقبلا وجنتيّ، الأمر الذي ليس معتادا في جاوة ؛ هنا المقابلات عادة رسمية والالتماس الجسدي في الأماكن العامة غير موجود . لكن برام ليس جاويا كالآخرين، بالوقت الذي هو الأكثر شهرة من بينهم في الخارج كما في داخل جزيرته. إنه أكبر روائي اندونيسي في عصره ؛ لا أحد يحتج على هذه الشهرة، حتى لو أنها أغاظت النمّامين . يوجد في برام، إميل زولا لأهمية عمله، الواقعية، الروح؛ وهو لا يخفي تأثره بالروائيين الفرنسيين في القرن التاسع عشر، الذين لهم قراء في هولندا.

للهروب من الشمس العامودية، التجأنا إلى منزله، وهو منزل مريح؛ تهطل على برام حقوق الكاتب من كل حدب وصوب من العالم كله. أسرّ لي، بأنه مقروء أكثر خارج اندونيسيا من داخلها، لأن الاندونيسيين قد اكتشفوه على التلفزيون في نفس الوقت الذي بدأوا فيه تعلم القراءة. سبب آخر أكثر متعلق بالتقاليد يحدد القراءة في جاوة وهو: اعتماد القراءة على التقليد الشفوي . برام نفسه، راوٍ رائع وأول أعماله الكبرى، مثل رباعية بارو، التي هي عبارة عن مجموعة قصص قصيرة كان يرويها لأصدقائه في الزنزانة . في الواقع، لقد أمضى برام خمسة عشر عاما في السجن، في زمن الهولنديين، لأنه كان يناضل ضد الاستعمار، ثم تحت حكم سوهارتو لأنه احتج على ديكتاتوريته. يقال عنه شيوعيا، وهو ليس كذلك حقا ؛ إذا وجب وضع اتيكت عليه، حسب معاييرنا الغربية، فهو فوضوي(27)بشكل ما . أو ببساطة فردي، ما جعله في بلاده منشقا.

الايديولوجية المسيطرة في اندونيسيا، يوضح برام، أبعد من الإسلام حتى، وقبله ومعه، هي الـ(entraide) - التعاون - الكلمة نفسها في الأندونيسي، تصف حقيقة الحمل سويا عبء على الاكتاف. المعلقين على الحضارات الشرقية يسمون ذلك ب (جماعية) أو (تساند) أسيوي. لا يرى برام فيها سوى ايديولوجية تستعبد الشعب، وتحرم على كل واحد أن يحقق نفسه بشكل واسع كفرد.

عندما سألني ماذا أتى بي إلى اندونيسيا، وضحت له بأنني أكتب كتابا عن المسلمين، من ضمنهم مسلمي جاوة . ماذا يفكر برام عن الإسلام؟ لا يفكر شيئا ؛ فضّل أن يكرّس حياته للوجود الدنيوي من أن يحلم بما وراء الفرضي. الحقيقة تجعله يائساً. كيف هذا؟ الا يغتبط برام لأن الديكتاتور قد سقط، وبأن الكلام، لأول مرة منذ الاستقلال، في اندونيسيا حرا؟ يبقى حذرا. يوّضح لنا، بأن مأساة أهل جاوة، أنهم مجبورون أن يفكروا كلهم معا بالشيء نفسه في وقت ما. كانوا يحترمون الهولنديين قبل البارحة، ثم مؤسسي الأمة الحديثة، والآن الكلمة المعاصرة هي الديمقراطية. غدا، من الممكن أن يكون شيئا آخر، شريطة أن تكون تحت غطاء (المساندة ؛ بأسف، يبين بأن الحكومة الديمقراطية، في الوقت الذي كنا نتحدث به قد سماها هو، بحكومة المساندة)، ما يحدد إمكانية الاعتراض . الاعتراض على المساندة هو ما لا تكون أبدا جاويا بشكل كامل ولا مسلما تاما.

نقاش كهذا ليس مخصصا لي فقط: هو نفسه الذي يقوله لطلاّبه الذين يأتون بأعداد كبيرة لاستشارته ككاتب عظيم . (يسألونني، يقول لي، ماذا عليهم أن يفعلوا من الآن فصاعدا. فأرد عليهم، أنه من الغباء أن يسألونني، أنا، ما العمل. فعليهم إيجاد الجواب بأنفسهم . إذا لحقوا بي، فهذا يعني أنهم لا يزالون سجناء الامتثالية جاويّة)

ألا يندم برام بأن اللغة الجاويّة، لغته الأم، قد تغيرت منذ وقت الاستقلال، ضمن الهم بوحدة وطنية، بواسطة (الاندونيسي) الذي تصاهر مع المالي ؟ لغة جاوة تموت ومعها يموت تراث ثقافي لا يطاله سوى الباحثين.

برام، على العكس فهو مغتبط لهذا. جبر نفسه دائما على أن يكتب بالأندونيسية، لكونها لغة المساواة، بينما لغة جاوة هي لغة مدرجة ؛ لا تتخاطب مع الآخر إلا حسب درجة طبقته التي يحتلها في المجتمع؛ اختفاء اللغة الجافية إذن يساهم، حسب رأي برام، على تطور المساواة في حضن المجتمع. لا يوجد عنده- ولا حتى شيوعية - الشيء الذي لا يعاتبه عليه أحد - بل الرجل الثائر. هل هذا جاوي، أو هو أندونيسي، أو مسلم ؟ من أين تملك شغفه بالفردية ؟ يقر بأنه في البدء، قراءة الروايات الغربية قد علمته الثورة ؛ سمحت له أن يفسر الصفات القمعية للنظام الطبقي، بما يتعلق بالجاوية، القومية، الحديث حول القيم الاسيوية أو حول قيم الإسلام . بعد النظرية أتت التجربة: قاده السجن على التفكير عن السبب الذي قاده إليه وحول مصير رفقائه في الحبس، كلهم ضحايا الجاوية.

هل لا يزال برام جاويا ؟ لا يهمه، يعترف، أن يكون الوحيد في جاوة من يفكر بنفسه؛ الأساسي هو أن يكون فردا عالميا قبل أن يكون جاوّيا أو مسلما، أو أي شيء آخر.

زوجة برام، التي نحتها الزمن كشجرة صنوبر قديمة، تقدم لنا شايا وحلوى، َصُعب علي تعريفها؛ في جاوة، لا حديث بدون شرب أو أكل. هل من الممكن أن تكون السيدة برام أكثر جاوّية من زوجها؟ هذا محتمل، ولكن، إذا وصفت ابتسامتها كابتسامة (غامضة)، سيلومني على وقوعي في فخ الاستشراق .

هذا الشاي الأخير كان متقاسما مع اللاأدري[28] (agnostique) الوحيد الذي يعترف بذلك في كل بحثي عند المؤمنين. ترى، هل خدعني الآخرون؟

نفكر بمسرح الظل في جاوة. برام يدعونا أن لا نخلط الشخصيات المبثوثة على الشاشة مع الذي يسيطر على الدمى من وراء الشاشة . الشاشة هي الإسلام؛ المسيطر وعالم دين أو مستبد ؛ المسلم حقيقي، مؤمن كان أم غير مؤمن، متحمس أو غير مبالٍ، هو غالبا الدمّية. هل يصلح النظر إلى الشاشة، الانتباه إلى المسّيطر، أو أن نصبح دمى؟

طوال رحلتنا، من الممكن أن تكون الحقيقة قد فلتت منا. الأكثر سهولة والأكثر خديعة هو تصديق محرك الدمى.

(21)نظرة فلسفية تقر بأن الجوهر يسبق الوجود، عكس الوجودية.

(22)الاستشراق، le seuil 1 9 9 6 l orient cree par l occident.

(23)مذهب التأليف أو التوفيق بين المذاهب المتعارضة.

(24)نوع من أنواع التنانير يلبسها أهل الملايو التقليدية.

(25)ساحة عامة كانت تنعقد فيها المجالس السياسية في المدن الاغريقية.

(26)نزعة تدعو الى اعادة النظر في اسس نظرية او دستور.

(27)نظرية سياسية تقول بالتعاون الطوعي ين الافراد أو الجماعات وأن الدولة أكبر أعداء الفرد ويجب إزالتها.

(28)مذهب اللأدريين القائل بإنكار قيمة العقل وقدرته على المعرفة.

الفصل الحادي عشر

نهاية الشعب اليهودي

حيثما وجدنا في العالم الإسلامي، ومهما كانت المسافة الجغرافية التي تفصلنا عن فلسطين، تُطرح القضية الفلسطينية، حتى لو أردنا تجنبها. بالتأكيد، عندما نبتعد أكثر عن العالم العربي، باتجاه بنغلاديش، جاكارتا أو افريقيا في الصحراء الجنوبية، يتحول وضع المسلمين من الالتزام إلى القلق، من الموقف إلى الخطابة ؛ فبعيدا عن موقد الصراع، النخبة وليس الشعب هي من تبدي انشغالها بالقضية. ولكن لا ننكر أنه، بالإضافة إلى القرآن، يعتبر المسلمون تملّكهم لفلسطين تملكاً جماعياً. جميعهم يشتركون في نفس التفسير للصراع في الأرض المقدسة، تفسيرا معاديا دوما للصهيونية، مع بعض الفروقات الطفيفة .

طوال عام 2 0 0 2، من بين محاوريّ، العديدين جدا، قليل منهم من عّبر بصدق حول هذا الموضوع؛ فأغلبهم يتبنون الموقف الذي يبدو لهم ملائماً أمام أوروبا. وبشكل عام، ينضمون إلى فرضية دولتين متجاورتين. بدون الدخول مطلقا، في تفاصيل هذا الحل المثالي. ولكن ألا يعشش الشيطان بالضبط في التفاصيل ؟. الوحيد الذي خرج عن القاعدة هو الفيلسوف المصري حسن حنفي. فهل لأنه صادق، أو لأن القهوة التي شربناها سويا تدعو إلى الثقة ؟ إذ إنني قبل هذا اللقاء، لم أسمع في حياتي ذكر الحل الأندلسي كمخرج ممكن لهذه الأزمة.

في الزمن الذي ساد فيه العرب على الأندلس- هذا العصر الذهبي في تاريخهم -كان اليهود يعيشون معهم في (وئام تام)، يقول حنفي. كان هؤلاء اليهود أقلية، ولكنهم محميون بمبادئ القرآن وبمودة الخلفاء. كانوا أحرارا في ممارسة التجارة أو الدراسة. هل عرفوا من ألفين عاما زمنا أكثر سعادة؟ . لماذا لا نعيد خلق هذا العصر الذهبي ؟، يقترح حنفي، فاليهود في العالم العربي سيبقون دائما أقلية.

الحل الأندلسي

هذا التمجيد للأندلس هو رؤية مشتركة بصورة غريبة بين اليهود الشرقيين والعرب؛ ولكنه مبني على الذكريات المنقولة أكثر مما هو مبني على التاريخ الحقيقي. فخلال سبعة قرون من سيادة العرب في الأندلس، كان اليهود في الواقع كما المسيحيون، ممسوكين بحزم من قبل أسيادهم المسلمين، معتنى بهم أو مستغلين حسب قرارات السلطة وضروراتها الاقتصادية. إذن مصير اليهود كان متعلقا بأهواء المستبد. وإذا كانت سجلات التاريخ، محتفظة ببضعة أسماء لليهود، في البلاد في القرن الحادي والثاني عشر، في غرناطة، فهي لم تسجل كتلة الضحايا المبادين في ظروف لم تكن مسماة بعد بـpogrom أي ذبح اليهود(29)، ولكن تشبهها آنفا. في نهاية القرن الثاني عشر، عصر اليهود الذهبي المزعوم في الأندلس كان قد انقضى ؛ ونفي مايمونيد يشهد على ذلك. مايمونيد هو فيلسوف رمزي للأندلس، لم يكتب أعماله الرئيسية في غرناطة بل في المغرب والقاهرة، حيث التجأ، ليهرب من الأسلامويين الأصوليين في ريفه الأصلي. بالاضافة إلى ذلك، عندما يعتمد حنفي على العصر الذهبي، فنحن نفترض بأن اعتماده يتعلق بمبدأ الأندلس أكثر مما يتعلق بالتاريخ الحقيقي، وهذا المبدأ هو: وضع الأقلية لليهود مع حقوق منعم بها عليهم من المسلمين. حل كان مطروحا من قبل بعض الرواد الصهاينة في نهاية القرن التاسع عشر، الذين تخيلوا وجود وطن يهودي في حضن الامبراطورية العثمانية.

في عصرنا، يبدو أن خلق وطن ثقافي لليهود في فلسطين تحت حماية (سلطان طيب)، أمر خيالي. فمن طرف لآخر، قد تراكمت أحقاد كثيرة. ومما يؤسف عليه أيضا أن القومية، الوطنية كايديولوجية، ، قد حلّت محل الامبراطورية المتعددة الأعراق، من النوع العثماني، من البوسنة إلى فلسطين. ولكن مهما كان مشروع حنفي فرضيا، فعلى الأقل له حسنة الصدق، ويتناقض بذلك مع الصمت الذي يصم في العالم العربي - الإسلامي ؛ الذي يعيش في الواقع، بانتظار اختفاء دولة اسرائيل.

غداً أو بعد أمد طويل، هل هذا مخرج معقول؟

الخطأ الصهيوني

(هل أنت يهودي؟)

خلال حياتي الطويلة كمثقف فرنسي محمي، ولد بعد المحرقة، لم يطرح علي هذا السؤال أبداً، سوى مرة واحدة، بطريقة عدائية. كان ذلك في فلسطين، في عام 2 0 0 0، على مدخل مدينة الخليل، التي كانت مسوّرة بحصار، تحت سيطرة الإسرائيليين حينا، وحينا آخر تحت سيطرة الفلسطنيين. حارس ذو جلد أسود، لم أخمّن انتماءه، سألني بالانكليزية فيما إذا كنت يهوديا. وأنت ؟ أجبته. فتدخل صديقي الفلسطيني المسيحي ليهدأ الوضع الذي غدا متأزماً. الجندي كان إسرائيليا من أصل إثيوبي: الفالاشا المعترف بهم كيهود، في الوقت الذي كان ينقص إسرائيل مهاجرين جدداً، لتعبئة الدرجات السفلية للأمة. فلم يكن الروس قد وصلوا بعد! لم يسألني الجندي عن ديني إلا ليحميني: فبدخولهم للقطاع الفلسطيني، يتعرض اليهود لخطر، كان يريد أن يحذرني منه حتى أعود على أعقابي. إذا كنت مسيحياً أو مسلماً، فأمني لا يعد تحت مسؤوليته، فلقد كان لدي الحق أن أقتل بإرادتي. ترددت. في ذلك اليوم، أعلنت أنني مسيحي: أليس هذا ما فعله أبي إذ أعلن أنه مسيحي عندما أتت الشرطة الفرنسية لتوقيفه في أجان عام 1 9 4 2 ؟ ولقد تظاهر أولئك حينها بتصديقه.

عبرت الحاجز العسكري الأول. وقبل أن أواجه الثاني، عند مدخل قبر إبراهيم، وجب عليّ من جديد، أن أحكم بين الديانات الثلاثة القادمة عن هذا الجد، الذي نعتبره كجد مشترك. للحظة، ملت إلى اختيار الإسلام الشيعي ؛ إلا أن صديقي الفلسطيني قد أقنعني أن لا أفعل. فعدت إذن إلى اليهودية، مستعيرا نفس الطريق المحفوظ لجنسي. في داخل الضريح، كلّ جيش يحمي أتباعه. ولكن هذه الدوامة كانت بلا نهاية: فبعد قليل، في مركز المدينة القديمة، حاولت زيارة نصب تذكاري مخصص لليهود المقتولين في الخليل خلال ثورة العرب سنة 1 9 3 0. فقطع عليّ المدخل حراس يهود في زي الأصوليين. بدون شك، لأنني لا أبدو يهوديا في عيونهم بما فيه الكفاية. هم، كان واضحا، بأنهم أمريكيون، وربما من بروكلين .

بعض الوقائع الصغيرة جدا قد تغيّر بشكل قاطع رؤيتنا للعالم. قبل الخليل، لم أتساءل أبداً حول دولة إسرائيل: فلا نستطيع التفكير بكل شيء. ومنذ الخليل، أصبحت لدي قناعة راسخة بقوة:و هي أن دولة أسرائيل خطأ تاريخي، وليس لليهود أي رسالة ألهية لخلق دولة. كأن يكون قدرنا تاريخيا أو ميتافيزيقيا، لا فرق، نحن لم نخلق لذلك. برأيي، إن الدولة الاسرائيلية تعلن نهاية الشعب اليهودي كأمة فريدة، لأنه لا يوجد العديد من الطرق للحكم ولا ليكون المرء جنديا: السياسي الإسرائيلي، أو الجندي الإسرائيلي لم يعودا سوى اسرائيليي دولة. ففي أي شيء، لا يزالون يهودا؟ . في عام 1 9 9 4، حاول كلود لانزمان أن يقنعنا، بفيلم مكرّس للجيش الاسرائيلي، tsahal (تساحال)، بأن هذا الجيش هو جيش أخلاقي؛ آنفا، لم يكن فيلمه مقنعاً في تلك الحقبة، وبعد ثمانية أعوام تبدو هذا الوثيقة أقل إقناعا أيضا. ليس خطأ تساحال: كيف له أن يهرب من منطق وضعه؟ غير ممكن.

فلتفهم كلماتي جيدا: لا ألوم الإسرائيليين لأنهم لم يعودوا يهودا، ولكن لا أستطيع القبول بأن يدّعوا بأنهم يمثلون كل القدر اليهودي. بالإضافة إلى أن، هذا الادعاء هو أكثر حداثة من دولة إسرائيل والصهيونية.

الصهاينة الأوائل، مثل تيدور هارزل أو بن غوريون، كانت لديهم النزاهة أن ينادوا بأيديولوجيات عصرهم، القومية والاشتراكية. وحيث أنهم لم يكونوا يهوداً يمارسون شعائر دينهم، فهم لم يذكروا اليهودية إلا كسبب ثانٍ. فلم تصبح إسرائيل دولة ذات صبغة يهودية إلا بعد حرب الستة أيام. إذ قرر الحكام الاسرائيليون في عام 1 9 6 7، أن يستفيدوا من Holocauste المحرقة اليهودية، ضد عداوة العالم العربي وعداوة الغربيين. كان هذا خيارا ايديولوجيا، عملية علاقات عامة، عودة وصولية لصهيونية قومية، بعد الصهيونية اليهودية. عملية وصفت بما فيه الكفاية من قبل المؤرخين الإسرائيليين، كالمؤرخ زيف ستيرنهيل أو توم سيغف لأنه كان ضروريا جدا تفصيل الحجج. فلنتذكر فقط فرضيتهم:

في بداية السبعينيات، علمت النخبة السياسية الإسرائيلية بفشل الصهيونية: فالعدد الأكبر من اليهود فضّل البقاء في المنفى. أمّا المهاجرون الذين لا يزالوا يصلون إلى اسرائيل فقد كانوا (غير متطوعين)، إما لأنهم كانوا مطرودين من العالم العربي، أو لأنهم أرادوا أن يغادروا الاتحاد السوفيتي. وحدها إسرائيل من يستقبلهم. للروس الذي أتوا، والذين لا يزالون موجودين فيها، ليست اسرائيل، بالنسبة لهم سوى الافتراض الأسوأ، قاعة الانتظار لأمريكا. إذن، لقد فشلت التجّمعات اليهودية في اسرائيل بالعدد وبالروح أو بالأفكار: إذ أصبحت إسرائيل وطنا لمواطنين غير متطوعين.

إن إسرائيل التي ُصنعت من قبل الصهاينة، لضمان أمن اليهود، أظهرت بأنها غير قادرة على تحقيق ذلك. فخلال الحرب العالمية الثانية، لم يملك الوطن القومي لليهود الوسائل لإنقاذ اليهود في أوروبا. في تحولها لدولة، تحول مواطنوها لاهداف. في حين كان على إسرائيل، أن تكون درع الأمان للشتات اليهودي (diaspora)، احتاجت إسرائيل إلى الشتات لتبقى على قيد الحياة. بينما الشتات اليهودي، من جهته لم يكن له أي حاجة لإسرائيل. بعد عام 1 9 6 7، في مواجهة الانتفاضات العامة في العالم العربي، أصبح أساسيا لبقاء اسرائيل أن تبدو ممثلة لكل اليهود، لإجبار من هم في الخارج على التضامن الكامل معها: فالخدعة مداهمة، وهي ليست رفيعة الشأن. إنها صهيونية، ولكنها ليست يهودية.

المنفى كقدر

هل قدر اليهود هو الدولة أم المنفى؟· أليس اليهودي الأصلي أصليا، ومنذ ألفين وخمسمائة عام، في الشتات فقط ؟ فبعد النفي إلى بابل، لم يعد اليهود أبدا لبيوتهم· هذا لأنهم لم يرغبوا بذلك· فهم مواطنو عصرهم، نادرا ما ينتمون لأمكنة معينة، مزودين بتاريخ طويل وبقليل من الجغرافيا، فلقد وجدوا دائما بعض الأسباب الجيدة لتأخير الرجوع: وكانت إسرائيل إما بعيدة جدا، أو فقيرة جدا، أو أكثر مما يريدون لكي لا يذهبوا إليها· اليهودي الأصلي هو الذي، منذ خمسة وعشرين قرنا، يقسم كل سنة، أنه سيكون في القدس، السنة القادمة، في الوقت الذي يتجنب فيه تنفيذ وعده· ولا سيما عندما لا شيء يمنعه عن ذلك! ما منع يهود الجزائر، بعد طردهم سنة 1962، من المجيء إلى إسرائيل ؟ لا شيء· ولكنهم فضلوا فرنسا· زيادة على أنهم أصبحوا، الصهاينة الأكثر تعصبا في المنفى! في الحاصل، معظم المواطنين الإسرائيليين هم مواطنو بالصدفة، هذا لأنهم لم يكن لهم خيار في وجهتهم ؛ أمّا هؤلاء الذين فضلوا اسرائيل على الولايات المتحدة وفرنسا فهم لا يمثلون مطلقا سوى أقلية صغيرة جدا· مما يدعو الإسرائيليين إلى الاعتدال في كل إدعاء بعالمية الصهيونية·

بالإضافة إلى ذلك، هو المنفى وليس اسرائيل، ما أنقذ اليهود: فهذا الشعب الصغير جدا في العدد، لم يعش سوى بفضل تشتته· لو لم نعش إلا في إسرائيل، لكننا قد انقرضنا، مثل الفينيقيين أو الحثيين· بينما في المنفى، تباد مجموعة هنا لتبعث للحياة هناك ؛ إن الذاكرة اليهودية لم تبق حية إلا بفضل التنقل· الرأي المعاكس، هو أنه مع المشي في منتصف الطريق، ننتهي بأن ندهس· كما لاحظ الروائي الاسرائيلي إبرام يشوا· فلقد استنتج بأن على اليهود العودة إلى إسرائيل لكي لا يدهسوا؛ وكان قد كتب ذلك في عام 1980؛ من ذلك الوقت، أصبحت أسرائيل نفسها مفرقا خطيرا·

إذا كان قدر اليهود هو حقا المنفى، فلن نندهش لكون اليهود لا يطاقون ؛ يكفي قراءة الإنجيل لكي نفهم، بأن الحضر يكرهون الرحّل· لأن الرحّل يدوسون على أعراف الحضر ؛ هكذا هي طبيعة الرّحل الجغرافية والثقافية· وعندما أصبحوا أسرائيليين، غّير اليهودي طبيعته، فأصبح من حينها غير محتمل للعرب، مضيفيه غير المتطوعين· إذا يجب تصور احتمال، وجود حل جيد لكون المرء يهوديا، غيرالتوقف عن أن يكون يهوديا ·

القدس، المملكة الزائلة

ما عدا حادثة الخليل، تأثرت قناعتي حول الأزمة الفلسطينية بمغامرة، ليست باعثة أكثر للطمأنينة، حدثت معي في جامعة بير زيت الفلسطينية. إن بير زيت، في رام الله، هي أحد الأماكن النادرة التي هي فلسطينية تماما؛ طلب مني أن ألقي فيها محاضرة حول العولمة. موضوع متداول في كل مكان ويوفّر ذكر اسرائيل. غير ان إسرائيل لا تهم الطلاب الفلسطينيين ؛ فالطلاب الذين عرفتهم في بير زيت لا يحلمون سوى بالهجرة إلى الولايات المتحدة، بدل الخمول في منطقة يائسة اقتصاديا. إن اللغة التي يتحدث بها الطلاب ومدرسيهم هي الانكليزية، وليست العربية. واسرائيل التي هي على خطوتين منهم، قلنا خطوتين لكي لا نقول على مرمى حجر، متجاهلة من قبلهم جميعا بشكل هائل. يوجد فعلا فرع للدراسات العبرية، ولكنه لم يزود أبداً بمدرسين ولا بطلاب. جميعهم يتصرفون وكأن إسرائيل موجودة على كوكب آخر أو غير موجودة على الإطلاق. الدولة الإسرائيلية، اليهودية ؟ لقد سمعوا عنها في التلفزيون، أو أنهم وجدوا أنفسهم في مواجهة الجنود الاسرائيليين. ِمن إسرائيل هم لا يعرفون سوى احتلالها لإراضيهم. لماذا عليهم أن يعرفوا أكثر من ذلك؟

جميعهم مقتنعون بأن إسرائيل ليست سوى دولة وقتية ؛ جميعهم يقارنونها بمملكة الفرنجة، في القدس التي دامت قرنا، منذ انشاءها من قبل الملك بودوان حتى استرجاع المدينة، من قبل صلاح الدين في 1187. علينا ملاحظة، أن القدس لم تصبح واحدة من الأمكنة الأكثر قداسة في الإسلام، إلا بمحاكاة المسيحيين واليهود، بعد طرد الصليبيين، ثم لأخذ موقف معارضة للصهيونية. هذه النسبية لا تلغي الحقيقة، الراسخة في الضمير العربي، بأنه لا يوجد نهاية لهذا الصراع، إذا لم يتم استرجاع القدس. النسبية نفسها تنطبق على الصهاينة، الذين يعتبرون غزو المدينة أمرا غير قابل للرجوع عنه، في حين أنهم عاشوا جيداً بدون القدس القديمة حتى عام 1967. ولكن، من غير المحتمل أن لا ينجح التاريخ أبدا على هدم ما عمله. فالأساطير غير صالحة للتفاوض.

إن اسرائيل، على غرار مملكة الفرنجة، حققت نصف طريقها. وإذا رجعنا إلى وقت أقدم، يعلمنا الإنجيل بأن أول دولة عبرية، موحدة من قبل داوود وسليمان، لم يتجاوز وجودها أيضا القرن. لهذا كان يبدو تعلم العبرية بلا جدوى لهؤلاء الطلاب الفلسطينيين .

في بير زيت، وهي جامعة علمانية، لم يعّبر أحد من الطلاب بفظاظة ما ؛ ولم يظهروا لي كشباب ينزع نحو وضع القنابل أو الاستشهاد. فاختفاء اسرائيل بالنسبة لهم هو نهاية لا مفر منها، مكتوبة في الحقائق، ويكفي انتظارها 0إن وجود اسرائيل نفسه لم يكن مقبولا ولن يقبل أبداً ضمنياً، كما يبدو لي، من قبل هؤلاء الذين سيغدون الموظفين الكبار لدولة فلسطينية مستقبلية. ولكن، هل قابلت مرة في الشرق الأدنى مفاوضاً عربياً واحداً، قد قبل ضمنيا الدولة الاسرائيلية ؟

الراغبون حقا بالاستماع إلى العرب يدركون، أن انتظار نهاية إسرائيل، فعّالاً كان أم تأملياً، فهو يعكس إيماناً عميقاً. قليل من يقول ذلك، خوفا من أن يعتبروا متطرفين ؛ إلا أنهم جميعا يؤمنون بهذا بدرجات مختلفة من التشوش. ففي مصر التي هي في سلام مع إسرائيل، يتساءل المعتدلون، مثال حسن حنفي، لأي سبب غامض يتمسك اليهود بمزقة الأرض غير المرحِّبة، في حين أن العالم

واسع، وإن العديد من الإسرائيليين، تحت جواز سفرهم الاسرائيلي، يحتفظون بجنسياتهم: فرنسية، أمريكية، أرجنتيينية، ألخ. كما نتساءل أيضا. إذا كانت الدولة الاسرائيلية مؤسسة لحماية اليهود من الاضطهاد، فمن الواضح أنهم، من الآن فصاعداً سيلاقون في أمريكا، في أوروبا أو في روسيا مخاطر أقل من إسرائيل: مما يلغي السبب الأول لوجود اسرائيل .

في الجزائر، يذبح الناس بعضهم البعض، يموتون من الجوع في السودان، وفي سوريا يمارس عليهم التعذيب، ويتفاقم الفقر في مصر، والباكستان تشتعل، ومع هذا تبقى فلسطين هي التي تشغل الفكر والشاشات. من مراكش إلى جاوة، تتمرغ الأمة الإسلامية في الخلاف الفلسطيني وكأن ليس عليها أن تواجه تحديات أكثر إلحاحاً، ولا تهديدات أكثر جدية من الصهيونية. لماذا كل هذا الحقد ؟ هل هو خطأ محطة ال CNN ونسختها العربية، محطة الجزيرة؟.

يبدو لي أن رفض إسرائيل، هو خارج عن الأزمة الفلسطينية وحتى عن إنشاء دولتها ؛ ألا يرجع الأصل نفسه للإسلام، بنفس الطريقة التي ولدت فيها مناهضة السامية الغربية في المسيحية ؟. فمصدر الرفض هو مصدر ديني قبل أن يكون مقاوماً للصهيونية.

في الواقع، كيف لمسلم قد قرأ القرآن ألا يشارك العرب بمناهضة الصهيونية- ومناهضة السامية (العرب أنفسهم ساميون، ولكن هذا لايهم) ؟. لقد عُلم من مصدر إلهي، بأن محمداً قدُطرد من قبل يهود المدينة، في ظروف مشابهة لطردهم للمسيح، من القدس، ستة قرون فيما قبل. ادعاء محمد بطرح نفسه كخليفة لموسى بدا أيضا غير مقبول كادعاء يسوع، لليهود الذين ينتظرون المنقذ بشرط أن لا يأتي. بهذه الطريقة أصبح محمد محمداً. كان قد أسس الأسلام مثلما أسس بولص المسيحية، كلاهما ابتدأ من سوء تفاهم مع اليهود. سوء التفاهم الذي تحّول، حسب القرآن، إلى مواجهة، عندما تحالفت القبائل اليهودية مع أعداء محمد الذي طرد بعضا من هذه القبائل، وأباد الأخرى. هذه هي نقطة الانطلاق التعيسة للعلاقة بين اليهود والمسلمين، بالأحرى النذيرة بالسوء! فيما بعد، الوضع الذي منحه المسلمون لليهود الذين لا يعتنقون الإسلام، ليس مميزاً حقا عن ذلك الذي منحهم إياه المسيحيون. حسب الكنيسة، على اليهود أن يكونوا ثابتين ومنتقصين لكونهم شعبا شاهدا ؛ وعند المسلمين، كانوا محبوسين في وضع شعب مصغر ومحمي. في الحالتين، عناد اليهود وحده ما جعلهم يرفضون هذين الوضعين، الشيء الذي لم يفكر به أحد.

للمسلم المُصِر على قراءة القرآن وتاريخ الإسلام، تفريق مناهضة الصهيونية ومناهضة السامية، وهو أمر غير سهل بالنسبة له. المسلمون بشكل عام معادون لإسرائيل، ولا يستطيعون التمييز بين اليهود الجيدين الذين يوجدون في (الدياسبورا) الشتات، والصهيوني السيّئ المقيم في فلسطين. الرؤية من بعيد، مثلا من الباكستان أو من سومطرة، الفصل من وجهة نظر سياسية- صحيحة، بين إسرائيلي مقبول، يعيش داخل حدود ما قبل عام 1967، والمستعمر غير المقبول، المستوطن في حدود ما بعد 1967، هو أمر غير مفهوم وأكثر إبهاما له. كيف نلوم المسلمين البعيدين لعدم فهمهم لكل الالتباسات، التي مرة توحّد اليهود، ومرة تفرقهم ؟. إن الخلط بين مناهضة الصهيونية ومناهضة السامية، لدى المسلمين، هو غير مقبول بقدر ما هو قابل للشرح.

احتاج المسيحيون لألفي سنة، وعملا مجدّا على أنفسهم، للانتصار على مناهضتهم للسامية ؛ لنفترض أن هذا العمل قد انتهى، وأنه لم يعد يوجد في العالم المسيحي، إلا بقايا مناهضة للسامية، بدون شرعية دينية أو ايديولوجية. وبما أنه يوجد نوع من الحق، في كراهية الاختلاف، مكتوب في

التراث الإنساني، فلن نستطيع إجبار هؤلاء المختلفين على حب اليهود. ولكن المسلمين لم يبدأوا أبداً، أي تأمل فكري مشابه لتأمل المسيحيين لعلاقتهم مع اليهودية، ويرجع ذلك، لكون أن المحرقة اليهودية الهولوكوست لا تثقل على ضمائرهم. إذ لا توجد أية حادثة تاريخية قادرة على زعزعة مناهضتهم للسامية .

في الإدراك الإسلامي، الدولة اليهودية إذا هي خلق غير مقبول. أ ليس رفضها واجب؟. يبقى علماء الدين في هذه النقطة صامتين بشكل غريب، في حين أنهم يظهرون فصحاء للغاية في مواضيع قليلة الشأن.

رفض الدولة الاسرائيلية، عند الغربيين المناهضين للصهيونية، ناتج من دوافع مختلفة تمام الاختلاف. يوجد اتجاه أول من مناهضي الصهيونية، مؤلف من يهود أو مسيحيين، يساهم في عادة قديمة قدم الصهيونية نفسها ؛ والذين ينادون به، ليسوا بمناهضين للسامية، لأن رغبتهم هي إنقاذ اليهود من ابتذالهم بدواعي المصلحة العليا. لقد تبنى اليهودي المناهض لليهودية، ماكسيم رودانسون، ممثلها الشجاع في فرنسا، منذ وقت طويل، مقولة الحاخام هيلّل مؤسس يهوديّة ما قبل الانجيل: ما لا يعجبك لنفسك، لا تفعله مع الآخر، وهذا هو كل القانون لذا يعتبر اليهود المناهضين للصهيونية كرودانسون، دولة اسرائيل، بسبب وجودها فقط، مساقة أن تفعل للآخرين ما لا يعجبنا أن نفعله لأنفسنا. وهذا يعني، من البديهي، أن المناهضة الإنسانية للصهيونية هذه، ليست في بحث عن قضية جيدة كبديل: من الأكيد، الاحتجاج على دولة اسرائيل لا يقود إلى تعظيم الفلسطينيين.

الانتقال من ضحية إلى أخرى هو ما يميز، لسوء الحظ، مناهضة للصهيونية ثانية أكثر شعبية، تلك التي تنضم إلى مناهضة السامية الكلاسيكية، وتتقاسم أحكامها المسبقة. كانت المناهضة للسامية في القرن التاسع عشر هي نفسها مناهضة الرأسمالية التي تطابق اليهودي مع المال، وريثها المعاصر والمعادي لإسرائيل، لأنها ترى فيها أمة رأسمالية وقريبة من أمريكا. في هذا الشكل من إضفاء المسحة الشيطانية، غدا إسرائيلي اليوم، يهودي البارحة، وحلّ العربي، محل البروليتاري، أي العامل الكادح. نلاحظ، أ نه يُجنَّد بالدرجة الأولى في صفوف اليسار المتطرف الفرنسي والألماني، مناهضو السامية الصامتون، اليوم كما سابقا، التي تضفي عليهم مناهضة الصهيونية واجهة شبه مشرفة.

الولاية الاميركية رقم 15

وصف ملك المغرب السابق الحسن الثاني، مناهضة الصهيونية، بأنها (مثيرة شهوة العالم العربي). الكثير من الحكام المسلمين، وخاصة في العالم العربي، يستخدمونها بإفراط، لكي يحولوا اهتمام شعبهم عن الطوارئ المحلية مما يسمح لهم بتجاهلها. تصوروا لو كانت الحكومة السورية محرومة من الأزمة الفلسطينية ! إنها تفقد كل الأسباب لاستمرار قمعها البوليسي، صرفها العسكري، وسوء التنمية.

يلزمنا أيضا القبول، بأن إسرائيل تخيف حقا العالم الإسلامي. ونحن في الغرب، لا نفهم ذلك بشكل جيد، مما يذكرنا بخطأ في الإدراك، مشابه لخطئنا في زمن الحرب الباردة مع الإتحاد السوفيتي. خطأ أميركا الكبير، كتب هنري كسينجر، كان وقتها في التقليل من اعتبار الخوف من الغربيين الذي كان يشعره السوفيتيون حقا. كنا نعرف نحن، انه لا يوجد أي سبب للاعتداء على الروس، ولكن هم كانوا يجهلون ذلك. نفس الشيء فيما يتعلق بالشرق الأوسط: فلا يوجد عند الاسرائيليين أي سبب للهجوم على البلاد العربية، ولكن الأمم المتاخمة هي غالبا مقتنعة بأن اليهود يريدون الحصول على اسرائيل الكبرى الوهمية. هذا الخوف العربي من إسرائيل، يمكن أن يفسر جزئيا، فشلَ تطور الدول المجاورة ؛ الضرورة العبثية، ولكن المحسوس بها، للحفاظ على مستوى عال من الإنفاق العسكري، ومراقبة بوليسية صارمة على الشعب تناسب المستبد أكثر مما تناسب الأمة، ولكنها تبدو شرعية، بسبب التهديد المزعوم الإسرائيلي. هذا الخوف، البعيد على الاختفاء مع الوقت، سينمو وسيزداد خطورة تحت تأثير تأمرك اسرائيل.

في سنوات الستينات، كان بالإمكان رؤية اسرائيل تقريبا، كدولة من دول الشرق الأدنى، فقط متطورة أكثر من غيرها ؛ أمّا في أيامنا الحاضرة، فلم يعد هناك شيء مشترك بينها وبين جيرانها. من وجهة نظرهم، اسرائيل ليست سوى الولاية الاميركية الواحدة والخمسين قد رست خطأ على شطآنهم. إدراك صحيح. ليس فقط، بسبب التحالف الذي بين الولايات المتحدة وإسرائيل ؛ بل بسبب أن اسرائيل قد تأمركت. الأخلاق، معايير السلوك، قواعد الانظمة السياسية، الإعلام هو أيضا أميركي فيها. واليهود المتطرفون (ultra orhodoxes) هم أيضا مصنوعين فيUSA ، ثم أتوا إلى إسرائيل: وهكذا، الحارات المتديّنة في القدس، هي أقرب إلى بروكلين، مدينة التماميين اليهود الاصوليين، من تل ابيب المدينة العلمانية. من بروكلين أتوا اللوبافيتش loubavitch الثقلاء إلى إسرائيل، التي ليست سكنا ثابتا لهم، بقدر ما هي أرض الرسالة. إذا لا يمكن أن نلوم العرب إذا مزجوا إسرائيل، مع الولايات المتحدة، الإسرائيليون واليهود، نيويورك وتل أبيب ؛ فهذا المزج مبني على ملاحظتهم للمجتمع الاسرائيلي. هل الأهمية الجديدة للجالية الروسية ستضفي بعض التعديلات على هذه الأمركة ؟ إنها لا تعارضها حيث إن الروس الاسرائيليين لا يريدون بأي ثمن أن يشابهوا جيرانهم العرب الذين يحتقروهم. لهؤلاء الروس، الصهاينة غصبا عنهم، المثال الأعلى هو أمريكي أيضا.

لا يبدو لنا، أن الصراع بين اسرائيل والعرب صراع جغرافي، بل صراع وجودي. إذا غداً، بفضل عدد من المعجزات، على هذه الأرض التي عرفت العديد منها، انسحب الاسرائيليون خلف حدود

1967، أشك بأن العرب سيتأقلمون مع هذه الدولة المتقلصة، وبأن الأرهاب سيختفي حتى من أجل ذلك· ؛ الأرهاب ليس موجهًا أو مركزاً على موضوع حدود والتفاوض عليها، بقدر ما هو مركز على الواقع الاسرائيلي كما أصبح الآن· في الحالة الراهنة للأزمة، فقط الحركات الفلسطينية الأكثر تشدداً أو الحكومات الأكثر تصلبا، مثل الحكومة العراقية وإيران، يعترفون برفضهم لإسرائيل ذاتها ؛ الحكومات الأخرى، من منظمة التحرير الفلسطينية OLP وصولاً إلى العربية السعودية، قد أعلنوا قبولها· ولكن قبولهم هذا هو من دواعي الدولة، التي من الممكن أن تتطور بالطريقة التي تتطور بها كل سياسة واقعية ترتبط بظروف متغيرة·

صدمة النهضة

لا نستطيع لوم العرب على أنهم لم ينبهوا الصهاينة: سنتين فقط، بعد أول اجتماع لهم في بال في 9 9 8 1، كتب المسؤولون الكبار العرب في القدس لتيودور هارتزل لكي يتخلى عن مشروعه: يوجد في العالم أراضٍ كثيرة خالية من الممكن أن تحضن أو تستقبل اليهود التعساء... نستحلفك باسم الله دع فلسطين في سلام، نستطيع أن نقرأ هذا في الرسالة المؤسسة لرفض العرب. في هذه المراسلات، يذكر العرب حركتهم الذاتية للنهضة الوطنية وجهدهم للتحديث؛ هؤلاء الموظفون الكبار هم أبناء رفاعة.

في نفس الوقت الذي كان هرتزل يفاوض فيه الحكومات الأوربية لكي يساندوا إنشاء الدولة اليهودية، معاصره الايراني، الأفغاني، يحوم في نفس الرواق باحثاً عن مساندة للقوميين العرب. نهضتان متزامنتان - عربية ويهودية - خلقتا لكي تتصادما.

قليل من المؤسسين للصهيونية من سمعوا عن هذه النهضة العربية: فالكاتب الروسي أشر غينسبر، المنافس لهيرتزل، عرف فيما بعد باسم مستعار -ahad ha am - واحد من الشعب -، والذي عاش في اسرائيل، على عكس غالبية الصهاينة الاوائل، قد لاحظ، وفضح منذ عام 1 9 8 1 الاعتداءات المستمرة ضد العرب. لقد اعتبرها حتمية (منذ اللحظة التي تعطي فيها السلطة لعبد قديم) - يهود الغيتو. يستخلص أحد هعام، لكي لا يؤذى العرب، لا يجب أن يكون الوطن اليهودي في اسرائيل مؤسسة دينية فقط. إنه الجد الروحي لكل اليهود العلمانيين المناهضين للصهيونية 0يأخذ البعض من محيط هيرتزل هذه التحذيرات بجدية، ويقترحون إيجاد وطن قومي غير فلسطين ؛ فذكرت أوغندا والارجنتين. إذن هؤلاء الرواد للصهيونية لا يعتبرون أن اليهود كما هم يملكون أي شرعية قديمة لإعادة احتلال فلسطين؛ لم يكونوا قد ابتدعوا بعد (حق العودة)، التي لا نعرف فيما إذا كان يسبق التاريخ المقدس أو الملحمة الاستعمارية.

ولكن معظم الصهاينة فضلوا أن لا يسمعوا رفض العرب هذا. نتيجة لنوع من العمى الوطني المقصود قرّر بعضهم أن فلسطين خالية من السكان؛ بعضهم الآخر، أكثر صدقا، برّرموقفه بذكر الفتح السابق للولايات المتحدة بواسطة الامريكيين، بدفع الهنود نحو الشرق. آخرون، كرماء أو رسل ؟، مثل بن غوريون، اعتقدوا بصدق أنهم سيحملون العلم إلى كل الشرق الأوسط، وبأن العرب سيستفيدون من ذلك. جاهلين أو محتقرين للعرب، أو ناظرين إليهم وكأنهم برابرة يجب عزلهم أو تمدينهم، فظهر الصهاينة في هذه الحالة، غربيين معاصرين أكثر من كونهم يهودا قدماء. سنكون، يكتب تيدور هارتزل في عام 5 9 8 1، الحراس المتقدمين للحضارة ضد البربرية.

إذاً منذ البدء، اشتركت اسرائيل، في الحركة الاستعمارية الأوربية الكبرى؛ لا يمكن الخلط بينهما بشكل كامل، ولكن لا يمكن، أن نلوم العرب المستَعمَرين إن لم يفهموا الاختلاف بين الصهيونية والاستعمار. منذ البداية، لم يقبل العرب أبدا الواقعة الإسرائيلية وكان هذا مستمرا بدون توقف، وقد حاربوها في كل الطرق الممكنة، من ضمنها الأكثر فظاظة. من الصعب أن نرى كيف لهم أن يقبلوها الآن بعد قرن من الصراع، بشكل أفضل من موقفهم لحظة بداية الصراع .

سلام ممكن وبعيد المنال

إذا كان التعايش الإسرائيلي والعربي غير وارد، فكيف يحدث أن الكلّ يتظاهر وكأنه يؤمن بهذا ؟ دون شك لأن من واجبنا الأخلاقي أن نؤمن، ومن واجب الوزراء أن يتظاهروا. التناقض الآخر لهذا الصراع هو أن الكل يعرف الحل الأمثل، ولكن لا أحد يعرف كيف الوصل إليه. الحل الدائم، والذي لا يوجد غيره، خُطط له منذ سنوات 1980 من قبل شمعون بيريز، الذي يفترض ليس فقط إنشاء دولة فلسطينية فحسب، بل إنشاء منطقة للتبادل- الحر على الأقل مع فلسطين والأردن، وإن كان ممكنا التوسيع إلى مصر، ولبنان ومع سورية. بدون هذا (الاتحاد) للشرق الأدنى، لا يمكن لأي من هذه الدول أن تتطور، وكل شروط العنف ستصبح أبدية. بالإضافة إلى أنه من المدهش، أن يولى النقاش حول إنشاء دولة فلسطينية، القليل من الاهتمام لقابلية استمراريتها الاقتصادية. صمت يوضّح لأي درجة الأسئلة الواقعية حول التعايش بين اليهود والعرب متجنَّبة. هذا الحل المرغوب القابل للاستمرار، يفترض مفاوضين مستعدين لأن يقابل إحداهم الآخر. ولكن، إن لم يكن هناك شيء جوهري في الصهيونية ما يمنع من الاعتراف بالواقع الفلسطيني، الواقع العربي، والواقع الإسلامي، فإنه من غير المضمون، من الناحية الفلسطينية، من الناحية العربية والناحية الإسلامية، أن يكون الواقع الاسرائيلي والواقع اليهودي (مهضوما). هذا الغياب للتوازن ليس صفة تاريخية، ولكنه متعلق بالتعالي. فالإسلام هو دين كوني له نزعة لكي يشمل الإنسانية كلها؛ أمّا اليهودية، فعلى العكس تماما، هي شهادة حصْرية تمنع نفسها عن التبشير.

ما قيمة معاهدة بين حضارتين لا يتواصلان فيما بينهما؟ بالإضافة إلى ضعف احتمال الاتفاق بسبب معاناة إسرائيل من الإفراط في الديمقراطية، التي تجعل حكوماتها غير ثابتة. هل يستحسن، باسم السلام، القضاء على هذه الديمقراطية ؟ من ناحية العرب، الحالة مقلوبة، فغياب الديمقراطية يُضعِف الارتباطات ؛ علاوة على سوء التفاهم المداهم، والتعالي بين اليهود والعرب، فالمستبدون العرب لا يملكون الشرعية التي تخولهم عقد معاهدة وتكريسها قانونيا وزمنيا - هذا ما يدفع بالضرورة إلى تصور احتمال اختفاء دولة اسرائيل قبل تمكن إزاحة العراقيل المتافيزيقية والسياسية التي تعيق إبرام اتفاق .

نهاية إسرائيل

بين اليهود والعرب، بعكس ما تدعو المشاهد إلى الاعتقاد، أي ضجيج الأسلحة، والتعليقات السائدة، فالأقوياء ليسوا هم من نظن، ولا الضعفاء هم من يقال عنهم ضعفاء. فكم تثقل تدابير اسرائيل الثأرية ذات دقة جراحية، كانت أم همجية وقاسية على الفلسطينيين الذين نصفهم كما نريد إما بالمقاومين أو بالارهابيين ؟. بأحسن الاحوال، تربح إسرائيل الوقت. على مستوى التاريخ، وليس حتى التاريخ الطويل، بل جيل واحد فقط، ماذا يمثل ثلاثة ملايين اسرائيلي أمام مائتي مليون عربي، لا يمثل الفلسطينيون منهم سوى الجناح النضالي، ومليار مسلم وراءهم؟ إذا أردنا أن نتأمل حول المنفى، فلنتذكر بأن تشرد اليهود قد أنقذهم، وأن تكثيفهم في مكان واحد- في يهودا أو في ألمانيا - كان أمرا قاضيا عليهم: هل ستكون إسرائيل الضربة القاضية للإسرائيليين ؟ يؤجل التفوق العسكري النهاية، ولكنه لا يكفي لإلغائها. يعرف الفلسطينيون ذلك، كما يعرف الوطن العربي ذلك أكثر ؛ في النهاية، سيغلب العدد والديموغرافية - هذا القانون الذي هو فوق كل إرادة - سينتصر على كل الاستراتيجيات والآمال الورعة بالسلام. وأي سلام ؟

هل نتخيل حقا أن الفلسطينيين والعالم العربي سيكتفون بدولة عصيّة محاصرة وغير قابلة للحياة؟ الدولة الفلسطينية هذه -كما هي مستملكة مبدئيا، ومن ضمنها لمعظم الاسرائيليين - بإمكانها أن تجسد الأمل لنخبة محلية في بحث عن اعتراف عالمي وأوضاع، ولكن في أي شيء سيجد الشعب الفلسطيني نفسه مصلحته ؟ من أي شيء سيعيش ؟ وفيما وراء القضية الفلسطينية، ألم تكن طموحات التغيرات التاريخية للعالم العربي -الإسلامي هي إعادة إنشاء مجتمع المؤمنين، إن لم تكن الإسلام بأكمله، على الأقل إسلام العالم العربي ؟ مثلما تمثل المستعمرات اليهودية مشكلة في هذا الحلم.؟، سيوجد دائما مناضلون للمطالبة بيوطوبيا الأمة ضد وجود اسرائيل ؛ في حلم العرب هذا، لن تكون اسرائيل شيئا آخر غير بنت غير شرعية للاستعمار الغربي.

منذ 11 سبتمبر، حلم البعض وكابوس البعض الآخر، قد غدا فرضية واقعية: تكفي قنبلة واحدة، كيمائية أو نووية، لكي تُمسح اسرائيل من على الخارطة. من الآن فصاعدا، لم يعد غير وارد أن يُرتَكب ضد تل ابيب اعتداء معادل للاعتداء ضد نيويورك: فالسابقة موجودة، والمتفجرات هي في تنقل حر، وعدد المرشحين للانتحار لا نهائي. قنبلة واحدة كافية لكي يختفي غالبية الاسرائيليين ؛ ألن يهرب الباقون باتجاه الولايات المتحدة، كندا، أوربا الشرقية، بدون الوصول إلى الإبادة التامة ؟ حينها لن نستطيع أن ننقذهم أو أن نهددهم. لن تستطيع أمريكا ولا أوربا أن تصد هؤلاء المليونين أو الثلاثة ملايين من المهاجرين ؛ في المكان نفسه، كما بعد استلاب القدس من قبل الرومان والعرب، لن يبقى سوى zelotes المتديّن(30). سيناريو كهذا هو سيناريو معقول؛ إنه لمن المحتمل أن البعض، مثل ابن لادن، قد خطط ذلك في عقله وبأن نيويورك، مدينة يهودية بالقدر التي هي تل ابيب، كانت بروفة عامة لهذه المحرقة الجديدة، ممكنة حتى لو لم تعلن ! ماذا سيقول المجتمع الدولي في هذه الحالة ؟ كما في المرات السابقة، سيندم .

العالم بدون يهود

لنتصور أنه، بعد قصف نهائي، ستختفي اسرائيل ؛ ولن يعود هناك اسرائيليون 0ترى هل يبقى هناك يهود؟ كتبنا، المنفى، هو الشرط التاريخي، الشبه طبيعي للشعب اليهودي: ألم يعش ألفين وخمسة مائة عام من الشتات diaspora؟ ولكن العالم قد تغير واليهود أيضا· في الولايات المتحدة، في أوربا، في روسيا، في الأرجنتين -الجماعات الأكبر، نسبة الزواج المختلط يقدر بين 05 و07% ؛ إذا كان الأطفال من أم يهودية يبقون يهودا بشكل تكنيكي، أطفال الرجال الذين ليسوا يهودا يتوقفون عن الانتماء إلى الشعب اليهودي 0ما هو أبعد من المعايير الحاخامية التي يحتج عليها اليهود الليبراليون، الواقع أن الزواج المختلط يحل الذاكرة، ويوقف الطقوس: تمييع يصيب أيضا، ولو ببطءٍ أكبر، الأزواج اليهود تماما·

إن اليهودية، التي هي في نفس الوقت ديانة، رسالة وثقافة، تحاول أن لاتكون ذلك فقط: فمن الآن وحتى جيلين، في المنفى كما في إسرائيل (إذا بقيت هذه الدولة على قيد الحياة)، لن تعود سوى ذكريات لهذه الثقافة - أي فولكلور· اليهود الأمريكيون الأكثر وعيا وقلقا من يهود أوروبا، ينشرون بكميات هائلة كتبا عن هذا (التبخر) للدياسبورا؛ نجد فيها كل الوصفات المتخيلة للحفاظ على اليهودية، إّما كديانة للمؤمنين، أو كثقافة للكفرة الذين، عند اليهود، هم الأغلبية· هذا الحل الاميركي هو حل مشوش ؛ البعض يطالب باعتناق اليهودية، آخرون يقترحون أندية لقاءات للعزّاب، بطريقة لكي يخلدوا المعرفة اليهودية أو يشجعون الزواج بين اليهود· ولكن، ولا أي تقنية تسويق من هذه تقنيات تستطيع أن تلغي الحقيقة الأساسية بالنسبة لليهود أنفسهم، هي أن اليهودية تنزلق بلا مبالاة من ذاكرة التاريخ· الكارثة الأخيرة لملحمة تعود لآلاف السنين، لن يبقى من اليهود، فيما بعد الاختفاء الممكن لإسرائيل والانحلال في المنفى، سوى شرذمة المتعصبين 0كاريكاتور ليهودية سلفية متخلفة لأوروبا الوسطى، حيث الزي والعادات يقومان مقام الذاكرة· إلى هذا القدر يتهيأ الأصوليون ؛ إذ يعتبرون أنفسهم كاليهود الأكمل والحقيقيين، وسيغتبطون لاختفاء كل (الفاترين) الذين يجدون في اليهودية شيئا أكبر من قطعة أرض ومجموعة·

هل نتخيل العالم بدون يهود؟ عندما ُسئل عن هذا الموضوع، جعلنا كلود ليفي- ستراوس نلاحظ أن الشعوب المختفية تملأ تاريخ الإنسانية، وأنه كان يلزم القليل لكي ينجح النازيون رهانهم بالإبادة· إذا اختفى اليهود، ماعدا بعض الفئات المحافظة، ماذا سيكونون قد أورثوا العالم ؟ الوحدانية، طبعا: هذا يعني المسيحية، ثم الإسلام· بدون يهود، بدون انجيل، لا يوجد مسيح، ولا محمد· طوال الأبدية القابلة للتقدير، ستعيش اليهودية إذن عند نفس الذين يتمنون التخلص منها ؛ سنقدر سخرية القدر·

بالإضافة إلى ذلك، أليست السخرية من الذات، هي ما يشكل الميراث الأكبر للثقافة اليهودية؟ تلك التي ولدت في المنفى· لأنه، مهما كان المكان الذي يقيمون فيه، ألقى اليهود دائما على العالم نظرة أبقاها على بعد حقيقي يضيء مزاجهم الميال للدعابة الذي لا يطاق والنظريات التي ولدت منه· إذا كان كل هذا العدد من اليهود قد فسروا العالم بشكل آخر من النظرة الأولى، من فرويد إلى ماركس، من شونبرغ إلى كندينسكي وليفي- شتراوس، ليس بسبب عبقرية خاصة، بل لأنهم كانوا

دائما يحتلون بالنسبة لهذا العالم هذه الحالة الملتوية. هذا الميلان أو هذا الاختلاف أدى لرؤية مختلفة، أو لإدراك حقيقة تحمل إلى ما هو أبعد من الحقيقة الحالية.

عالم بدون يهود هو عالم من الممكن تصوره ؛ ستحل فيه محل ذكريات اليهود، تفسيرات للعالم التي لم تكن ممكنة بدون قدرتهم على تحليلها. ربما عملهم قد انتهى والوقت قد حان لكي ينحلوا في الغرب؟ هذه هي التساؤلات، المتعالية للمؤمنين، الداهمة للآخرين، التي يجب أن تثيرها النهاية الممكنة لإسرائيل كأمة ونهاية الشتات (لدياسبورا) التي هي في طريقها للانحلال في حضن الزواج المختلط. بالمقابل، سيكون هناك مسلمون دوما.

أن تكون هذه الرؤية الابوكاليبسية لنهاية اليهود، مبالغا بها أو مبررة، وحده الله يعلم.

(29)حركة قامت بها السلطات القيصرية لاستئصال اليهود.

(30)تعبير أطلق على اليهودي المقاتل في سبيل دينه ووطنه.

الفصل الثاني عشر

مشكلتنا العربية

شبحٌ يُؤرّق أوروبا· ليس هو الشيوعية، كما كتب كارل ماركس في سنة 1848، وإنما انعدام الأمن؛ وفي كثير من الأحيان تلبس هذا الأخير ألوان الإسلام· فإما تفجيرات تُرْتَكَبُ باسم الإسلام، وإمّا مجرمون محسوبون على المسلمين· قوَانينُنَا تُحَرِّم تقسيم الفاعلين على أُسُسٍ إثنية أو دينية، حينها تأخذ التقديراتُ مكانَها في هذا الميدان من المعارف· لا أحد يستطيع نفي الوقائع ولا الخوف· إنّ الأوروبيين، وبِدَرَجَات تتعلق بالمكان الذي يعيشون فيه وبوضعيتهم الإجتماعية أكثر من قناعاتهم، يُحِسّون بأنهم موضِعُ اعتداء بطريقة حقيقية أو تخيليّة من قبل المسلمين القادمين من أفريقيا الشمالية أو من أفريقيا السوداء أو من البلقان· ما بين الواقع والخيال، تَسَبَّبُ لوفيغارو ماغازين، في سنة 1985 في فضيحة وطنية بنشرها على الغلاف تمثالا نصفيا لماريان يختفي خلف حجاب إسلامي· هذه الصورة، التي يمكنها، من الآن فصاعدا، أن تظهر على غلاف أسبوعية يسارية دون أن تثير الصدمة لدى أحد، رافَقَتْهَا، في تلك الفترة، إسقاطات ديموغرافية غريبة الأطوار تتحدث عن أغلبية مسلِمَة في فرنسا في سنة 2020· هذه الدراسةُ المُخاتِلَة كانت تجهل ارتفاع الولادات في كل الأوساط الاجتماعية والإثنية، والهجرات غير المسلمة واندماج المسلمين في المجتمع الفرنسيّ عبر الزواج المختلط أو التمثُّل· في سنة 1991، ستعود لوفيغارو-ماغازين إلى ارتكاب نفس الجُّرْم، وذلك بنشر نفس الصورة مع تعليق لفاليري جيسكار ديستان بعنوان: هجرة أم غزو؟ سَيَتِمُّ تكرارُ الخوف من الإسلاموية بنفس الحُجَج غير المبرَّرَة؛ ولكنّ العقول تَطَوّرتْ نحو مزيد من الغموض والالتباس، ولا أحد سيجد ما يقوله· لَقَدِ اكتسب الخيال جذوراً·

مسلمون علمانيون

الخطأ الفاحش هو اعتبارُ سَاكِنة لا تتَميَّزُ بشكل خاصّ بِدِينِها مُسلِمَةً. فـالعرب في فرنسا هم عرب وقبائليون، ولكنهم مُسلمون بدرجةٍ أَقَلّ. إن معظمَ المسلمين، والمسلمات بشكل أكبر، تَعَلْمَنُوا بشكلٍ سريع؛ إنهم مُهَدَّدون بالمثاقفة أكثر مما هم مُهَدَّدُون بالتمامية. إن العَدَدَ الكبيرَ، من أصول قبائلية، لا يتحدث اللغة العربية، أو أنها نَسِيَهَا. الكلُّ لا يقرأ القرآن، ويحتفظ من الإسلام بتقاليد احتفالية أكثر مما هو ممارسة دينية. الإسلام يذوب في المجتمع الفرنسيّ، حسب مصير يشبه مصير اليهودية الفرنسية، حيث إن معظم يهود فرنسا عاجزون عن قراءة العبريّة، ويهوديتهُم هي ثقافية أكثر ما هي دينيّة. ودون أن نَسْقُطَ في التناقُض، فإنه يبدو لي أن عدم تأقلم المسلمين الفرنسيين في مجتمعنا عائدٌ إلى فقدانهم للانتماء الإسلامي أكثر مما هو عائد إلى ترسُّخِهِمْ بالإسلام. وهذا الفقدان يترك فراغاً تملؤه بشكل سيّئ ثقافةُ الشوارع والضواحي.

إنّ إجراء مقارنة مع دول أوروبية أخرى يُتيح تمييزَ الحالة الفرنسية. وهكذا، فالمهاجرون المسلمون، في بريطانيا العظمى، يظلون في معظم الأحيان مُنَظَّمِين حول ديانتهم. وهؤلاء يتعلقون كثيراً بِأُصُولِهِم، من هنود وباكستانيين وبنغال، وهم أكثر تعلُّقاً بالتقاليد من المغاربيين. ومن جهة أخرى يتِمّ الاعترافُ بـالطوائف في بريطانيا العظمى وتنظيمها حسب هذا الاعتبار، بحقوقها التي تظل ثابتة. نفس الشيء في ألمانيا، حيث يتمّ الاعتراف بالطوائف الدينية وتقديم مساعدات مالية إليها، فالأتـراك أكثر ممارسة للشعائر الدينية من المغاربيين في فرنسا. أما في بلجيكا، فَيُحَاوِل المهاجرون، الذين هُمْ مغاربة في غالبيتهم، أن يَنْتَظِمُوا على قاعدة طائفية، بمدارسها ومساجدها؛ ولكن أليستْ محاكاة للمجتمع البلجيكيّ، المنقسم إلى طوائف لسانية وثقافية؟

يبدو أن المهاجرين في أوروبا، إما أنهم يَتَعَلْمَنُون وإما أنهم يزداون تديُّناً حسب مَصادِرهم وأصولهم، ولكن أيضاً تِبْعاً لإدارة الدّين في مجتمعات الاستقبال. ففي فرنسا يعتقد عالم الاجتماع برونو إتيان بأن عدد المُمارِسين للشعائر الإسلامية يصل بالكاد إلى 20 في المائة؛ إنَّ هذا الابتعادَ عن ممارسة الشّعائر يَجِدُ أيضا تفسيرَهُ، عندنا، بأصول المهاجرين، فهم يأتون من المغرب العربي، وبشكل خاصّ من الجزائر حيث تَبَخَّرَ فيها الإسلامُ، باستثناء الفترات التي يتمّ استغلاله لأسباب سياسيّة. وحتى أثناء الأعياد الكبرى، فإنّ الممارسة الدينية في فرنسا ضعيفةٌ، كما أن صوم رمضان تقوم به مجموعة قليلة. المساجد أو أماكن العبادة قليلة، ولكن المسلمين يُعبِّرون عن رضاهم.

هل يُطالِبُ المسلمون ببناء مساجد؟ يَسْتَنْتِج الكثيرُ من العُمْدات الذين يَتَوَاجَهُون، بِشَكل يوميّ، مع هؤلاء المسلمين، أن الأمر نادرٌ. ففي المساجد يُفَضِّلُ المهتمون المطالبة بأماكن دفن إسلاميّة، حتّى يتسنّى الاحتفاظُ بالموتى المسلمين في فرنسا، بل ويطالبون بشكل أكبر بملاعب وقاعات الموسيقى. كما أنّ فكرة مشروع تأسيس هيئة تمثيلية لمسلمي فرنسا نَبَعتْ من السلطات السياسية الباحثة عن مُحَاوَرين أكثر مما جاءتْ من مسلمين لا مُبَالين تجاه هذه المؤسسة. ولا يُطالِبُ العَرَبُ كذلك بِمَدارِس إسلامية كما يوجد لدى الكاثوليكيين واليهود، في الوقت الذي يسمح فيه القانون إنشاءَ هذا النوع من المدارس حسب عَقْد. إنّ المهاجرين، ذوي الأصول العربية، يفضلون تدريس أبنائهم في

مدارس الجمهوريّة، التي توجد لديها قابليّة للاندماج، وليس في مدارس إسلامية تُبعِدُهم بشكل أكبر مما هم عليه الآن. إنّ مُعظم المسلمين، تحديداً، لا يَنظُرون إلى أنفسهم على أنّهم مسلمون. ولكنّ الكثير من الفرنسيين لا يميّزون بين مَنْ هو عربيٌّ ومن هو مسلمٌ، نَاسِبِين إلى الإسلام عاداتٍ تتعلق بثقافة الأصول، أو بكلّ بساطة عادات وتقاليد فلاّحين فقراء مُقْتَلَعِي الجذور ومنقولين إلى المُدُن.

ولكن ليس فقط لأنّ مُهاجِراً أَوْ ابن مُهاجِر يتوقَّفُ عن أن يكون مسلماً حتّى يَتِمَّ الإسراعُ في عملية اندماجه، بالضرورة. فأنْ يكون المُهاجِرون مسلمين أم غير مسلمين، فإننا نُوَاجِهُ، في أوروبا، وبشكلٍ أخصّ في فرنسا، مُشْكِلاً عربيّاً إثنيّا أكثر مما هو دينيٌّ. الشَّعبُ يقولُ هذا، دونما تردّد، والعربُ يعترفون به ويَنْظُرون إلى أنفسهم على هذا الأساس. النُّخَب السياسية والإعلامية, وحدها، تُفَضِّل مصطلح مسلمين خشية اتهامها بالعنصرية. إنّ هذا التطهير للكلمات كان سيكون شرعيّاً لو أنه يَتَنَاسَبُ مع واقع اجتماعيّ؛ ولكن إذا كان العربُ يشيرون إلى أنفسهم كَعَرب، وإذا كانوا أقلَّ إسلاما أو ليسوا مسلمين على الإطلاق، فلماذا يتوجب علينا التحدث عن مشكل إسلامي بدل الحديث عن مشكل عربيّ؟

إنّ خيار المعجم ليس عبثاً، فيما يخصّ التأثيرَ على التصرّفات والسلوكات وفيما يخصّ فرضَ السياسات. إنّ تَفْرِيدَ مشكل إسلاميّ يقود إلى تفضيل حُلولٍ دينيّةٍ من قبيل تنظيم الديانات، وتشييد مساجد أو تكوين أئمّة؛ إنّ هذه الأفضليّة تسمح بالاعتقاد، بأنه بمجرد تشييد مَسَاجِد، وتكوين الأئمّة، وتنظيم المسلمين حول نموذج تمثيليّ، فإن المشكل سيختفي. ولكن إذا كانَ المُشكل عربيّاً، فإنّ العربَ لا يُحِسّون بأنهم معنيّون ولا مَسنودون بتكوين الأئمة، ولا بتشييد المساجد ولا بإنشاء مجلس تمثيلي إسلاميّ. إنّ أيَّ مُشْكِلٍ، إذا تمّ تعيينُهُ بِشكلٍ سيّئ، فإنه يُصبِحُ غيرَ قَابِل للحلّ، وهو ما ينطبق على حالة المشكل العربيّ. إنّ هذا غير المُسَمَّى يساهم في تعزيز الأشياء المثيرة للاشمئزاز، فالانحرافُ الفاشيُّ للجبهة الوطنية يمكن احتواؤهُ بشكلٍ أفضلَ لو أنّ الجمهوريين ينادون على العرب باسمهم.

خَطَأُ الخبراء

ما هو المُشكلُ؟ بعد استقرار أجيال عديدة في فرنسا، فإن العرب - والقبائليين الذين يمتلكون مصيرا مُشابِهاً- يَشْعُرُون بأنّهم ما زالوا، دائِماً، مُختَلِفِين عن باقي الفرنسيين، وليس من الأكيد أن هذا التميز في وارد الانطفاء؛ ولا شيء يتركُ الانطباعَ بأننا نستطيع التنبؤ بنجاح النموذج الفرنسي للاندماج، إذا ما تَرَكْنَا الوقت يفعلُ فِعْلَهُ. الزَّمَنُ يَمُرُّ وعدَمُ الاندماج يَدُومُ، وهو ما لا سابِقَ لهُ، إذا مَا استندنا إلى موجات هجرة سابقة.

لقد أكَّدَ لنا علماءُ اجتماع الهجرة، منذ فترة طويلة، بأنه يكفي التزام الصبر. والعديدُ من المؤلَّفات التي ظهرت في سنوات الثمانينات ذَكَّرَتْنَا بأنّ كُلَّ المُهاجِرين في فرنسا، أَحَسُّوا، دائماً، بأنّهم مختلفون، وبأنّهم أحسُّوا، بشكل دائم، بأنهم على هذه الحالة، وبأنّه تمّ استقبالُهُم، دائما، بشكل سيّئ، سواء كانوا بلجيكيين في القرن التاسع عشر، أم بولونيين، إيطاليين، برتغاليين أم يهوداً في القرن العشرين. وبأنّ النموذجَ الفرنسي كشف، دائما، عن اشتغاله بعد مرور جِيلَيْن؛ ويفترض أنّ هذا النموذج سيشتغل، كذلك، مع العرب. إن المُدافِعِين المُتحمِّسِين عن النموذج الفرنسي يُذَكِّرُونَنَا، بكثير من الغبطة، بأنّ الإيطاليين تَعرَّضُوا، في بداية القرن العشرين، لاعتداءات، أكثر مِمَّا تَعَرَّضَ له العَرَبُ في نهاية القرن العشرين. في بداية الهجرة الإيطالية، كان الفرنسيون الأصليون يرون أن سحناتهم متجهّمة وأن طبخَهُم المُعتمِد على زيت الزّيتون كثيرُ العَبَق، بالرغم من كونهم أوروبيين وكاثوليكيين. بَعْدَ مُرور جِيلَيْن، أَلَمْ تنْقَشِعْ هذه الكليشيهات المُعادِية للإيطاليّين، والتي لَاحَقَت الإسبانيين والبرتغاليين والبولونيين؟ وإذا ما ارتكزْنَا على أحكام علماء الاجتماع فإنّ اندماجَ العَرَب يجب أن يكونَ أسرَعَ من اندماج الإيطاليين أو البولونيين، ما دام أغلبيَّتَهُم قادمين من مستعمرات فرنسية، ويتحدثون اللغة الفرنسية؛ وكان بالإمكان أن تكون صدمةُ الحضارات أقلَّ.

هل الدينُ الإسلاميُّ هو العقبَةُ؟ كان بانكلوس Pangloss سيُجِيبُ، إلى حدود فترة قريبة، بأن اليهوديةَ المعروف عنها بأنها غير قابلة للتَمَثُّل، لم تَحْظُرْ اندماج اليهود، كما أن البوذية لم تمنع اندماج الفييتناميين، وبأن الإسلام في فرنسا سيَفْقِدُ، بالضرورة، من قَسَاوَتِهِ. وحول هذه النقطة، يبدو لنا، نحن أيضاً، أن الدينَ لا يكبح اندماجَ العرب. فهل ثقافَتُهُم هي التي تقوم بهذا الكبح؟

إن ثقافة العرب في فرنسا تَدِينُ إلى كون العرب مُهاجِرين في فرنسا أكثرَ ما تَدِين إلى ثقافة عربيّة ذَوَّبَها المنفى، فثقافَتُهُم الخاصّة بهم هي بِنَاءٌ واختراعٌ لِتَقليدٍ. حين يعود العرب الفرنسيون إلى المغرب العربيّ، يكتشفون أن لا شيء يجمعُهُم مع باقي عائلاتهم الذين ظَلُّوا عرباً في بلدانهم الأصليّة. إنّ ثقافة الجيل الثاني، العربية-الفرنسية، ما هي عربية ولا فرنسية؛ إنّه تجديدٌ يتوَسَّطُ ما بين المهاجر العربيّ من الجيل الأول، ابن المهاجر من الجيل الثاني والثالث وما بين الفرنسيين الذين يُوصَفون بأنهم أصليون، وهم أنفسهم مُنحَدِرون، في معظم الأحيان، من هجرة أخرى قديمة أو حديثة. إنّ ثقافة الجيل الثاني، لا يوجد مُقابِلٌ لها لدى جاليات أخرى من المهاجرين؛ فالإيطاليون واليهود والبولونيون لم يُبْدِعوا في فرنسا ثقافةً إثنو- فرنسية. وحدهم العربُ مَنْ قاموا بِهَذا. هل لأنّهم عربٌ، أم لأنهم مسلمون؟ يبدو لنا بأنّ هذه الثقافة للجيل الثاني ناتِجَةٌ عن التاريخ أكثرَ مما هي ناتجة عن الجغرافيا أو من الدّيانة الأصليّة. إنَّ الجيل الثّاني مُتفَرِّدُون لأنهم يُحِسّون بأنّ

وُصُولَهُمْ جاء في ظروف سيئة، من الناحية التاريخية. فَلَحظةَ وُصُولِهِمْ إلى فرنسا تصَادَفَتْ مع مجتمع مختلف عن المجتمع الذي استقبل موجات الهجرة السابقة، بشكل أفضل. العربُ والمسلمون، الجيل الثاني هم أبناءُ زمنهم، مثلما الفرنسيون الآخَرون أبناءُ زمنهم؛ هذه الأزمنةُ جَعَلَتْ حياةَ العرب في فرنسا صعبةً، واندِمَاجَهُم التلقائيّ حسب النموذج الكلاسيكيّ صعبا جدا.

نموذجُ الاندماج المُكَسَّرُ

المُهاجِرون الذين دخلوا بعد سنوات الستّينات إلى فرنسا، التي لم تَعُدْ فرنسا الخالدة، ولكن إلى بلد جديد، صنعَتْه الأزمنة الحديثةُ. سَأُعَزِّزُ هذا الاقتراح بِنَادِرَة عائلية بَدَتْ لي، دائماً، دالّةً.

حِينَ وَصَلَ وَالِدَايَ إلى فرنسا في صيف سنة 1933، هَارِبَيْن من ألمانيا النازية، افتتحا مَتْجَرَ ملابس في مدينة صغيرة في الضاحيّة الباريسيّة. ولم يكونا يتحدّثان كلمة فرنسيّة واحدةً. وعلى الكونطوار كان يوجد مُعْجَمٌ فرنسيٌّ ألمانيٌّ (في الوقت الذي كان فيه والداي يتحدّثان اليّدّية yiddish بدل اللغة الألمانية، ولكنه لم يَكُنْ يوجد معجم فرنسي-يدّيّ). فكان الزّبناءُ يشرحون ما يرغبون فيه عن طريق هذا القاموس. وكان والداي يجيبان بنفس الطريقة.

لِنَنْقُلْ هذه الحادثة إلى سنوات الألفية الثانية. سيصبح الأمرُ غيرَ واقعيٍّ. فَهَلْ أصْبَحَ المُهاجرون أكثرَ عدداً، أمْ أن الفرنسيين أصبحوا أَقَلَّ تَسَامُحاً؟ لقد كان منطقيا أن وَالِدَيَّ في سنوات الثلاثينات، لا يستطيعان أن يَأْمُلاَ في مساعدة عمومية أو سكن اجتماعي. ما كانا يستطيعان أن يَنْدَمِجَا إلاّ من خلال العمل الشاقّ أكثر من الفرنسيين الأصليين؛ وهو ما كانا يَعْتَبِرَانِهِ شرعيّاً. وبالنسبة لأبنائِهِمَا فإنهم لا يَرَوْن مِنْ طريق نحو الإندماج إلاّ عبر إظهار ضرارة في المدرسة أكثر من باقي الفرنسيين. وهو أيضا ما كان ينتظره منّا أساتِذَتُنَا؛وما كان لِيَخْطُر على بالي أن أَنْتَقِدَ هذا العقدَ الإجتماعيّ. لقد كان الفرنسيون يمارسون، إذاً، عُنصريّةً عاديةً، وإطلاقُ نُعُوتٍ من نوع يهوديّ قَذِر، وإيطاليّ قَذِرٌ في ساحة المَدْرَسَة كان من طبع طقوس الإندماج؛ ولا أحد كان يَشْعُرُ بالصدمة. في مدرستي الابتدائية، في سنوات الأربعينات، لم يَكُن التلاميذ المنحدرون من منطقة بروطانيا بأحسن حالاً من اليهود؛ وهُمْ أيضا كانوا مُهاجِرين -من الداخل- في طريق الاندماج. إننا لا نتحَسَّر على هذه الفرنسا التي كانت مُستَبِدَّةً، فقيرة وحقيرة؛ إننا نستنتج، فقط، أنها لم تكن نفس فرنسا، اليومَ.

إنّ مؤرِّخي الهجرة، وخصوصاً إذا كانوا إشتراكيين أو شيوعيين- يُشيرون إلى دور الاندماج الذي لعبَتْهُ النقابات وأحزابُ اليسار قبل سنوات الستينات؛ إن ضعف أو اختفاء هذه المُنظَّمَات يُمكِنُ أن يُفَسِّر صُعوبَة إدْماج هؤلاء القادمين الجُدُد، كما حدث في الأمس القريب. بالتأكيد، ولكن داخل ما كنّا نُسمّيهِ بالنموذج الجمهوريّ، فإنّ المدرسَةَ كانت هي المركز الحقيقيّ لترتيبات الإندماج. وأكثر من ترتيبات الكونفدراليّة العامة للشغل CGT أو جيش المُجَنَّدين-هذه البؤرة في الماضي - فإنَّ تَفَكُّكَ المدرسة هو العامل المُهيمِن للتفكّك الذي يفعل فِعْلَه في المجتمع الفرنسي في الظروف الحالية. إنّها مدرسةٌ تعرَّضتْ لِعدم الاستقرار بِسَبَب عدد الأطفال المُهَاجِرين وكذلك بِسَبب تسريح كثير من المُدَرّسِين. فلم يَعُدْ هؤلاء الأَخِيرون مُقْتَنِعِين بأنه من اللاّئق تدريسُ أخلاقنا أو نظامنا، وبدرجة أقلّ أسلافنا، لأطفال قادمين من عوالم أخرى؛ إن احترام الاختلافات ينتصر على كلّ مِعيارٍ مطلق وكل قاعدة جماعية. إنّ ما هو جماعيّ ليس إلاّ مجموعة من اختلافات محمودة. إنّها نية شريفةٌ، ولكنها لا تستطيع الذهاب إلى نهاية منطقها، فإما أن تَظَلَّ المدرسة متعددة الأشكال، وإما أن تصبح مُتَعَدِّدَة الثّقافات.

غير أن المدرسةَ في فرنسا سقطت بين نَموذَجَيْن. المَدْرَسة الجمهورية؟ فبعض الدروس في التكوين المدنيّ، لا يُمكن أن تعوّضها. إنّ التعددية الثقافية الأصيلة، المُؤَسَّسَة على المعرفة الحقيقية وليس على احترام غامض، ليس واضحا بشكل جيد. إن هذه التعددية تستلزم تعليما لِكُلّ فردٍ إن لم يكن في لغته، فعلى الأقل في ثقافته؛ غير أنّ العرب اليافعين لا يتلقون أيّ ثقافة عربية- لا قبائلية ولا غيرها- في المدرسة. بسبب خطأِ خِيَارٍ يتموقع ما بين النموذج الفرنسي، المسمى جمهوريّا، والنموذج المتعدد-الثقافيّ، والذي يُطلَقُ عليه اختصاراً الأمريكي، فالمدرسةُ الفرنسية سقطت في اللاشيء. إن النموذج الإمريكي، حتى وإن كان يعطي مكانا حقيقيا لثقافات مختلفة، فإنه لا يمنحُ أخلاقا جماعيةً ووطنية وجمهورية آلِهانية صلبة. أما عندنا، فالتكوين المدنيّ أو تعليم الفعل الدينيّ، الذي يُقَدَّمُ على هامش البرامج الدراسيّة، ليست سوى ذرائع، في اللحظة التي لا يُؤمِنُ بها المُدَرِّسون قطّ، وفي اللحظة التي لا يتمّ فيها رصدُ تفكير يتوجبّ أن يكون شاملاً، لباقي البرامج وخصوصاً التاريخ والأدب. إنّ ضحايا هذا اللا-اختيار الفرنسيّ هُم أطفالُ العائلات المتواضعة، وفي الغالبية هم من العرب، الذين لا يستطيعون تعويضَ عجز المدرسة، لا بواسطة دروس خصوصيّة، ولا بواسطة شبكات عائلية. إنّ الجيل الثاني غير المُسَلَّح بشكل جيّد من أجل مواجهة الحياة - وهو يُشَكِّل الأغلبية بين هذه الشبيبة التي تتعرّض للمثاقفة-، يتقدم إلى سوق العمل، ولكنه لا يجد الشغل، وبدرجة أخصّ لا يُوجَد شُغْلٌ مِنْ أجله.

جريمة سُحْنَة، جريمة عنوان

إنّ أفراد الجيل الثاني عليهم أن يواجهوا، في سوق العمل، عَقَبَتَيْن: جُنحة السُّحنة وجنحة العنوان؛ فالمُشَغِّلُ، أوليّاً، يظل مترددا أمام هذا الشابّ الذي لا يتحدث لغتَنَا، كما يجب، ولا يملك المظهر اللائق، ولا يسكن في المكان الجيد، وهو في معظم الأحيان لا تكوين لديه. إنّ تصرُّفَ المُشَغِّل تُمليهِ أسبابٌ موضوعيةٌ لا تتعلق، بالضرورة، بالعنصريّة، ولكن بالحساب الاقتصاديّ. فإذا بدا لهذا الأخير أنّ ضَرَرَ تشغيل مُرَشَّح يمكن أن يحدث مخاطر (يمكنه مثلاً أن يُساهِم في إبعاد الزّبناء) يمكن أن تُعَوِّضَهُ فوائد اقتصادية يمكن له أن يجنيها، فإنه يَتَجَاوَزُ الاعتراضات الأولى. في وضعية مشتركة للبطالة المستمرّة، فإنّ حظوظ الجيل الثاني يتمُّ فهرسَتُها على المُرَتَّبَات؛ فإذا كانت هذه المرتبات هزيلةً، فإن المُشَغِّل لا يتردد كثيراً في تشغيل أبناء الجيل الثاني. وحين ترتفع المُرَتَّبَاتُ، فحينها يقوم المُشَغِّلُ بترجيح المَخاطِر الاقتصادية. وهكذا فإن كل زيادة في مُرَتَّبات الحدّ الأدنى القانونية تلعب ضدّ المرشَّحين الأكثر ضعفاً، أي تلعب ضدّ الجيل الثاني؛ هؤلاء هم الضحايا الأوائل للبطالة ولحماية الوظائف المنجزة، ولِمُرَتَّبات الحدّ الأدنى القانونية. إننا نعترضُ، ولكنّ الاقتصاد ليس تخصُّصاً أو مادّة أخلاقية.

إن هذه القواعد لسوق الشغل تمّ تحليلُهَا في الولايات المتحدة بشكل أكثر صرامة من فرنسا. وهي لعبت، خلال فترة طويلة، ضدّ السود. إنّ الأفرو-أمريكيين، هؤلاء الآتون من الخارج outsiders إلى سوق العمل إلى حدود سنوات السبعينات، تمّ عزلُهُم عن طريق حماية السوق التي يستفيد منها الدواخل insiders. ولكن في الولايات المتحدة، وخلافا لما يحدث في فرنسا، فإنّ هذا العزل، وابتداء من سنوات السبعينات، تمّ تعويضُهُ عبر مُعَامَلَة تمييزية مُنِحَتْ للأقليات، وخصوصا للسود. أما في فرنسا، فإن أبناء الجيل الثاني يظلّون من الدخلاء، ولكن دونما تعويض. إنّهم بسبب إزاحتهم من سوق العمل من أجل أسباب يمكن لقانون جيّد أن يعتَبِرَها عنصرية، ينقلبون ضدّ المجتمع، وهكذا يبدأون في تشكيل ثقافة حقد وضغينة. ويشكل الاقتصاد الموازي جزءاً من النتائج، فالجيل الثاني موجودٌ بكثرة في شبكات بيع المُخَدِّرات بعد أن أُزِيحَ من الاقتصاد القانوني. وكونهم يسكنون في، معظم الأحيان في مناطق اللا-قانون يقوم بتسريع هذا الهروب، بعيدا عن المجتمع المركزيّ. إنّ شباب الجيل الثاني، وهم مأخوذون باقتصاد مُوازٍ وثقافة بديلة، يُشَيِّدون مجتمعاً آخَر يَقْذِفُ بالمدرسة والشغل إلى الهامش.

النماذج الجديدة: كرة القدم والتلفزيون

إنّ نماذج الاندماج القديمة تكسَرَّت إذاً، فهل تظهر نماذج جديدةٌ، يمكن أن تملأ نفسَ الوظيفة؟ كرة القدم والتلفزيون. ولكن، ليس من الواضح أنهما يساعدان على الاندماج. بل إنه من الراجح، أكثر، أنهما معاً يساعدان على التفكيك.

لنتأمل كرة القدم. يُفْتَرَض أنها تُذيب الثقافات عبر المجهود المُشتَرَك وعبر تَقَاسُم الطموحات. ولكننا إذا ما قمنا بارتياد نوادي كرة القدم، كما هي موجودة حقيقة وليس كما هي موجودة في مخيلة علماء الاجتماع، فإننا نستنتج أنّ النوادي المحلية- ليست تلك التي تلعب تحت عدسات التلفزيون- هي في غالبيتها مُكَوَّنَةٌ من أطفال قادمين من الهجرة العربية أو الأفريقية. إن كرة القدم تساعد على الاندماج، ولكن على مستوى بيتِ دَرَج لنفس الحيّ في مواجهة بيتِ دَرَج حيٍّ مُجَاور. إذا كنّا نأخذ بعين الاعتبار الفرق ذات المكانة المرموقة، مثل الفريق الوطني الفرنسي، فَهُو، حتماً، متعددُ الإثنيات؛ وهو ما أُشِيرَ له بكثير من التنافس أثناء الفوز بكأس العالم سنة 1998 - وبدرجة أقلّ بعد فشل سنة 2002. ولكن في أيّ شيء ساهم الطباعُ المتعدد الإثنيات في الاندماج الوطني؟ إنّ الفرنسيين الذين عبروا عن بهجتهم بفوز 1998 كانت تُحَرِّكُهُمْ نزوعات قوميّة كلاسيكية بَلْوَرَتْها كرة القدم في البلد بأسره. إنّ الاندماج لم يكن إلاّ عامِلا إضافيا أو ثانويا لهذا الابتهاج الجماعيّ، بالرغم من أنّ عقولا طيبة قَوَّلَت الجماهيرَ أكثر مما كانت تصرخُ بِهِ حقيقةً.

إنّ إصباغ المثالية على أبطال جدد قادمين من كرة القدم، ومن أصول عربية، هَلْ سَاهَمَ في اندماج العرب؟ دون أن نبحث عن المفارقة، بأي ثمن، فنحن نقوم بتقديم نتيجة معاكسة. إنّ الأطفال العربَ يشترون كرات - بالنسبة للذين يقضون نهاراتهم في لعب كرة القدم- ويتماهون مع زين الدين زيدان، أي التماهي مع نجاح استثنائيّ لن يَحْصُلَ عليه أحدٌ أبداً. في أي شيء يمكن اعتبارُ التماهي مع بطل عصيّ عن الوصول في هو حدّ ذاته عامِلُ اندماج؟ إنه يمكن أن يصبح، وبشكل مُؤَكَّد، عامِلاً للتّفكيك، مُتَوَلِّداً من الخيبة ومن الكراهية. بالإضافة إلى أنّ البطل الرياضيّ يخلُقُ نموذجاً للمُنَافَسَة مبنيّاً على الشجاعة الجسدية، والمؤهّلات الفطرية، وليس على العمل أو على التربية. إنّنا نُجَازِفُ بسجن ابن الجيل الثّاني في الاقتناع بأنه يمكن النجاحُ عبر الكَفَاءَات الجسدية الفطرية أكثر مما يتأتّى هذا النجاح من خلال المدرسة والعمل.

بطَريقة مُشَابِهَة، وفي نَظَر غَيْر الجِيل الثاني وغير السُّود، فإنّ نجاح الرياضيّ كما نجاح الفنّان يضع فخاخا أمام العربي والأسود في مسارات اجتماعيّة جماليّة-جسديّة؛ الأفكار المُسْبَقَةُ تَجِد هنا دعامة لها. هؤلاء الناس يعنون بشكل جيد ويجرون أسرع منّا. إن التمييزَ الإستيتيقي-الجسديّ ثابتٌ في كل مجتمع متردد في منح مكانٍ مُسَاوٍ للمُهَاجِرين؛ فَنَجَاح السود الاجتماعي، في الولايات المتحدة، وإلى فترة حديثة، لم يكن مسموحاً لدى الرأي العام الأبيض إلاّ في الرياضة والموسيقى والمسرح- أدوار جسدية ينطبق نفس الشيء على اليابان، حيث لا يمكن قبول المهاجرين الكوريين إلاّ كمُغَنّين ورياضيين بِمُوجِب تَقَاسُم مسكوت عنه بين طبيعة كوريّة وثقافة يابانية.

إنّ كرة القدم تحتل، لدينا، دوراً غامضا حين تؤكِّدُ، بشكل ضمنيّ، التقاسم بين البربريّ الجسديّ والطبيعيّ، الذي كان إيطاليا أو إسبانيا، البارحة، والعربي، اليومَ، المختلف عن الفرنسي ثقافة إنّ هذا الطابَع التفكيكي لكرة القدم ظهر، مُسبِّباً مفاجأة الجميع، في سنة 2 0 0 1 أثناء مباراة شهيرة بين فرقتي فرنسا والجزائر، حيث قام متفرّجون فرنسيون من أصول عربية، ومُشَجِّعين للفريق الجزائريّ، بالتصفير على عزف النشيد الوطني الفرنسيّ. لم يكن الأمر مُفاجِئاً أبداً، فكرة القدم من خلال مُنادَاتِهَا على الغريزة البدائية، تبعثُ بالمتفرّج إلى جُذُورِهِ الطبيعيّة أكثر مما تبعثه إلى مُوَاطِنِيَّتِهِ الثقافية، التي يعيشها على أساس نظريّ. لو أنّ هؤلاء المُشَجِّعين ساندوا الفريق الفرنسيّ، فإنه كان سيكون علامةً على أن فرنسا هَضَمت مُشْكِلَهَا العربي؛ ولكن ما لم يَتِمَّ تسميتُهُ يَظَلُّ عسير الهضم.

هل يُقَدّم التلفزيون حلاً حيثُ فشلت كرةُ القدم والمَدْرَسَةُ والعَمَلُ؟ ألاَ يُمكِن أن يكون الفرنسيون قد اندمجوا بفضل التلفزيون؟ ولكن، في نهاية جيل من استهلاكٍ مُكَثَّف، فإن النتيجة عكسُ النتيجة التي كان يتمنّاها أصحاب النموذج الجمهوريّ: فاللغةُ الفرنسيّةُ ليست مُوَحَّدَة، وكذلك التصرفات والسلوكات. الجيل الثاني في غالبيته لاَ يتمَاهَى، بشكل أفضل، مع التيار المركزيّ للمجتمع الفرنسيّ بمجرد أنه يُشاهِدُ التلفزيون. وفي المقابل، نكتشف في التيار المركزيّ تبنّي لَهْجَاتٍ وتَصَرُّفَات مُستَعَارة من ثقافة الجيل الثاني، أو تبنيّ الجيل الثاني وغير الجيل الثاني لكلمات وعادات قادمة من السود الأمريكيين قامت المسلسلاتُ الأمريكية بإصباغ الكمال المِثاليّ عليها. هذه التلفزة وضعتْ في نفس مستوى الجدارة بالاحترام كلَّ الثقافات، كلَّ اللغات، كلَّ التصرُّفات، فهي بدعوى التسامح تقوم، وأبعدَ من تعددية ثقافية للمعرفة، بِنَشْر النسبويّة الثقافية كأخلاق وسَنَن لِحُسْن السيرة. إنّ هذه النسبوية أصبحت، بالنسبة للقنوات التلفزية العمومية والخاصّة، ميثاقاً معروفاً لآداب المهنة، بشكل خاصّ، في برامج الاستعراضات المسرحية الحيّة reality-shows. من المؤكد أنّ هذا التسامُحَ مُثيرٌ للتَّعَاطُف، ولكنه، في الأفعال، يُشَرِّعُ الهامشيين في اختلافهم، بما في ذلك العنف. على مقاس التلفزيون، حيثُ لا يوجد أيّ معيار يُمْكِنُ الدّفاع عنه على أنه مركزيٌّ، فَنَموذَجُ الإندماج الكلاسيكيّ عبر الإصطفاف خلف تصرّفات اجتماعية مُعتَرَف بها على أنها مُهيْمِنَة أو وطنية، اختفى.

في هذا المشهد المُسَمَّى السمعيّ البصريّ، فإن المعاملة المُتَفَرِّدَة المُخَصَّصَة لـالعرب على اعتبارهم صِنْفاً نوعيّاً لا يمكن إلاّ أن تُعزِّزَهُمْ، بشكل جماعيّ، في رفضهم للاندماج الفرديّ؛ الجيل الثاني لا يَظْهَرُ أبداً في وضعيّات عادية. لاَ يَظهر، إلاّ نادراً، كَمُوَاطِن أو كصحفيّ. وفي المقابل، هو يلعب دورَهُ كَجِيلٍ ثانٍ، إمّا كَرِياضيّ أم كَمُغنّي أو كمُمَثِّل (من الأفضل ككوميديّ ساخر)، أو كسَاكِن من سكان الضواحي. ولنْ نَنْدَهِشَ إذا انتهى الأمرُ بِمُمَثِّلي الجيل الثاني الحقيقيين إلى أنْ يُشبِهُوا صُوَرَهُمْ التي تمّ إسقاطُهَا عليهم. إن الصورة التي يَتِمُّ تقديمُها عن العالَم العربيّ الخارجيّ تُساعِد على التفكيك أكثر فأكثر؛ فهذه الأُمَمُ لا تَظْهَر إلاّ في صراع مع الغرب أو ضحية لمختلف أنواع العنف الجماعي. فسواءً تَعَلَّقَ الأمْرُ بالساحة الوطنية أو الساحة الدولية، فإننا نبحث، عبثاً، في التلفزيون عن عَرَب يمكن تقديمهُمْ باعتبارهم أفرادا؛ إنهم لا يظهرون إلاّ باعتبارهم أعضاء لجماعة الجيل الثاني أو لجماعة إسلامية. إنّ أُمَّتَنَا أصبحتْ شيزوفرينيةً، لكون الخطاب السياسيّ المُهَيْمِن هو التَمَثُّل، ولكون تعددية ثقافية مُشَوّشَة تُهَيْمِنُ في الوقائع.

التميز الذي تُمَوّنُهُ الدولة

في تاريخ الهجرة، يتجمَّعُ المُهاجرون، دائما، في مرحلة أولى قبل أن يتفرّقوا على التراب الوطني، علامة على اندماج ناجح. إنّ هذا التَجَمُّعَ الجغرافيّ الأصليّ يَنْجُمُ عن إرادة إجتماعية كما عن إكراهات إقتصادية. يُضْفِي شعورا بالأمن ويُتِيحُ التآزُرَ بين الواصلين الجدد. هؤلاء الأخيرون لا يملكون إلاّ حلاّ واحدا وهو التوَجُّهُ نحو الأحياء الرخيصة. بعد جِيلَيْن أو ثلاثة أجيال، يَظَلُّ العربُ مُتَجَمِّعِين في أحياء، وهو ما يُشَكِّلُ سابقةً. فَهَلْ هُو مِنْ فِعْل العَرَب، أم أنَّ طَرَفاً ثالثاً لا يُرِيدُهُمْ أنْ يَتَحَرَّكوا؟ ألا يمكن أن يكونَ نتيجةً شاذّةً لسياساتٍ كُنَّا نَعْتَبِرُها لا إراديّة؟ ومع الأسف فهذا التفسيرُ الأخيرُ هو الأكثرُ إقناعا.

إنّ العَرَب هم، في الواقع، ضحايا لا إراديّون لسياسة ذات إيحاء سخيّ، وذات نتائج كارثيّة، نُسَمِّيها سَكَن إجتماعيّ إن السلطات العمومية، على المستوى الوَطَني والمحليّ، أنشأتْ سكناً بِوَتيرَتَيْن مُختلِفَتَيْن، وهي بدل أنْ تُساعِد الفرنسيين من كلّ الشرائح أن يندمجوا، تقومُ بتوزيع السُكّان في هذا البلد إلى مستوَيَيْن، منْقَسِمَيْن حَسَبَ سَكَنِهِمْ أمْ لا في سَكَن اجتماعيّ؛ إنّ الأحياء أصبحت، وبشكل طبيعيّ، مَسَاكِنَ لثقافة مُضَادَّة لممثلي الجيل الثاني، كما أصبحتْ أمَاكِنَ لاقتصاد مُوَازٍ. إنّ هذا شيءٌ معروفٌ، ولكنه مستمرٌّ. كيف يمكننا، في الحقيقة، أن نَتَهَجَّمَ على السكن الاجتماعيّ، وهما كلمتان نبيلتان بقدر ما هما عادلتان؟

ولو أنّ السكن الاجتماعيّ يتسبَّبُ في الحقد ويَحُولُ دون الاندماج. وبما أنّ هذه الأحياءَ لا إنسانيّةٌ، فإنه يُعْتَقَدُ أنه من اللّياقة تجهيزُها بِوَسائل التّرفيه؛ وعلى العموم كرة القَدَم، أو الموسيقى، كل الأنشطة الطبيعيّة وغير الثقافية التي تُؤَبِّدُ كليشي العربيّ المنذور للرقص ولِنَقْرِ كرة القدم. وعلى الرغم من أنّ هذه المُبَادَرَات العمومية غيرُ مُنْتِجَة، فإن هذا لم يَمْنَع المُنْتَخَبِين المحليين والوطنيين، من اليمين ومن اليسار، من تِكْرَارِهَا منذ عشرين سنة، دون استعراض لنتائجها الكارثيّة، أبداً.

ولتغيير الاتّجاه، يليق بنا أن ننصت، بشكلٍ جيّد، إلى العربِ أنفُسِهِمْ، ليس من يسكنون الأحياء، ولكنْ مَنْ يَهْرُبُون منها، مُزِيلُو الصَّدأ (مُزِيلُ الصَّدأ هو منْ يَرْفُض أن يصدأ في عين المكان). ومن خلال تحقيق لدى هؤلاء المُزِيلِين للصَّدَأ، اللاّمرئيين في وسائل الإعلام (الميديا)، قام به عالم الاجتماع عزوز بَكَّاك Azouz Begag، يَسْتَنْتِجُ بأنّه من أجل الإندماج في المجتمع الفرنسيّ، فَمِن المُحَتَّم مغادرةُ الحيّ. يكتبُ عزوز أنّ الحيّ والسكن الاجتماعيّ يُضيفَان جُنْحة العنوانِ وجُنْحَة السُّحْنة؛ الحيُّ يصنَعُ العربيّ في نظرات الآخَرين ولكِنْ، أيضاً، في النَّظَر الذي يَحْمِلُه مُمَثِّلُو الجيل الثاني عن أنفسهم. وبِمَا أنَّهُم لم يعودوا مَغَاربيّين وليسوا فرنسين بشكل كامل، فإنّهُمْ ينتَمُون لأحيائهم. إنّ مُغادرَةَ الحيّ من أجل الوُلُوج في العالَم، أي إلى فرنسا، يُعَادِلُ خيانة القبيلة؛ إنّ إزَالَةَ الصّدأ يستلزمُ شجاعةً جسديّةً وأخلاقية. إذا لمْ نُغَادِرْ الحيَّ، فإننا نَظَلُّ، بالتأكيد، صَدِئِين، ولكنْ نَظَلّ في الحيّ جميعاً. جميعاً ولكن دون أن نصبح فرداً كامِلاً. إنّ من يبقى في الحيّ، ليس له وُجُودٌ من خلال نفسه؛ وَحْدَهُ، يخافُ العالَم، ولهذا السبب لا نلتقي به إلاّ في عصابة. إنّ إزَالَة الصدأ، على النقيض، هو التَحَوُّل إلى فرد، إلى شخص، إلى مواطن. فهلْ إزالةُ الصدأ أفضل من البقاء في حضن قبيلة؟ هذا يتعلّق بخيار شخصيّ، لكنْ بِشَرط امتلاك الخيار. إنَّ سِيَاسة السكن الاجتماعي

والسياسة المُسَمَّاةُ سياسة المدينة تكبحُ حرية الخيار التي تُصبِحُ عَصِيَّة بالنسبة لأكبر عدد؛ ووحدَهُم الأبطالُ من يمتلكون القوة الروحيّة الضروريّة لـإزالة الصدأ

إنّ اختزال المشكل العربيّ يستوجب أن إزالة الصدأ هذه لا تتَطَلَّب البطولة. وهذا يمرُّ عبر إزالة الأحياء وليس تحسينها. من خلال نهايةِ السكن الاجتماعيّ وإزالة السياسات التي يُطلَقُ عليها سياسات المدينة، التي تساهم جميعها في وضع العرب في غيتووات إن التضامُنَ الاجتماعيّ، الذي لا نُشَكِّك في مشروعيّته، يجب أن تَمُرَّ عبر طرق أخرى، وأن يُفَضِّل الفردَ بدل الجماعة؛ إنّ هذه العقلية قادتنا، مع كثير من الاقتصاديين، إلى اقتراح إقرار عائد الحدّ الأدنى العامّ (RMU) الذي يمنح لكلّ فرد كَرَامَةً متساوية، مستقلّة عن المكان الذي يسكن فيه وعن النشاط الذي يُمارِسُه.

هل النموذج الأمريكي مرغوبٌ فيه؟

تمّ تقديم الولايات المتحدة في فرنسا، ولفترة طويلة، على أنها مثالٌ يُخالِفُ القاعدة. فنموذَجُنا الجمهوريّ للاندماج، والذي لا يعترف إلاّ بالمُواطِنين، مُتَفَوِّقٌ على النموذج الأمريكي للطوائف، التي تتعرّض في معظم الأحيان للتمييز. فالمصيرُ المؤلِمُ للسود يُوَضّح هذا التفوّق المزعوم للنموذج الفرنسي. ومن الآن فصاعدا، فإن فرنسا هي التي تلتقي، فيه، طوائفُ تعرّضت للتمييز، بينما في الولايات المتحدة، إذا كان مصيرُ السّود ما زال غيرَ مُسَاوٍ لمصير البيض، فقد بدأ تقاربٌ حقيقيٌّ منذ جيل واحد.

هل يمكننا أن نتعلّم من الولايات المتحدة؟ كيف يمكن وصفُ السياسة الأمريكية تجاه الأقليّات، خصوصاً تجاه السود الذين يتماهى معهم مُمَثِّلو الجيل الثاني، عندنا، عن طواعية؟ توجد ثلاثة مبادئ تُمَيِّزُ الولايات المتحدة: الاعتراف بكل الثقافات، أو التعددية الثقافية؛ أفضلية مبنية على الإراديّة، أو العمل التأكيدي affirmative action بالنسبة للأقليات غير المحظوظة؛ والدرجة الصّفر للتسامح.

التعددية الثقافية؟ في الوقت الذي لا يُحدّد فيه هذا المصطلح إلاّ كرامة متساوية للاختلافات، فإنّ المُحافِظين، لدينا، من اليمين كما من اليسار، يُلَوّحون بالخَطَر الضارّ لنسبويّة القيم الروحية، وبتفكك الجمهورية تحت ضربات نزوع طائفيّ إثني ودينيّ وجنسيّ. يُواجِهوننا بالقول إنّه في الولايات المتحدة، وباسم التعددية الثقافية، ذهب بعضُ المُتَشَدِّدِين إلى حدّ نفي تفوق العلوم الغربية على التفكير السحريّ؛ ولكنّ هذا الشَّطَطَ يُشَكّلُ لحظة مُؤَقَّتَة في مجهودِ اعترافٍ بالثقافات كان لِحَدّ الساعة مُتَجَاهَلاً ومُحْتَقَراً. إنّ التعددية الثقافية تصبح، في مرحلة نُضْجِهَا، مجهود معرفةٍ متعددة، تَهجيناً خلاّقاً للحضارات؛ إنّ من الدّلالة، بمكان أن نتحدّث، في الولايات المتحدة، من الآن فصاعدا، بشكل أقلّ عن التعددية الثقافية، ونتحدث أكثر فأكثر عن التنوّع، وهو مصطلحٌ أقلّ إثارة للجدل، وهو نهاية مُهذَّبَةٌ لصراع طويل. في فرنسا يبحث بعض زعماء حركات الطوائف في تحمُّس اختلافهم عن بديل للمواطَنيّة ذات التقليد الجمهوريّ، ولكنّ مطالِبَهُم تَتَطَبَّع بطبعِ بحثٍ عن السلطة من قبل المعنيين أكثر مما هي تعبئة لطوائفهم؛ إن الأقليات، عندنا، تتطلع قبل كلّ شيء إلى المواطنيّة. إن التعددية الثقافية يمكن أن تَصُبَّ، إذاً، في الطائفية السياسيّة أو في نسبوية شنيعة؛ ولكنها، من الناحية الجوهرية، دعوةٌ إلى الاعتراف بالآخَر واحترامه، إنه بدايةُ ديموقراطيةٍ ثقافية.

في هذه الديموقراطية الثقافية، وباسم التنوع المُطَبَّق، يليقُ تدريسُ الحضارة العربية للعَرب المتثاقفين كما للأوروبيين غير العرب؛ سَيَجِدُ العربُ فيها كرامة مبنيةً على المعرفة، والأوروبيون سيُصبِحون أقلَّ تفضُّلاً. والعلاقات بين الأوروبيين والعرب ستكون بمنجىً عن احتقار البعض وعن كراهية البعض الآخَر.

العمل التأكيدي؟ يمكن التطرق إليه ليس كنموذج للنَّسخ، ولكنْ كَمَصْدَر للتفكير والتأمل. لِنُذَكِّر أن الأمريكيين، في سنوات الستينات، استنتجوا أنّ تساوي الحظوظ، التي يضمنها القانون، لم تَقُد، في الواقع، السُّودَ إلى تساوي النتائج. فبَدَل التساؤل عن أسباب هذا التأخر، وهو موضوع سجالات لا تنضبُ، فإن السلطات العمومية أرستْ مُعالَجَة تفضيليّة ذهبت إلى حدّ فرض حِصَص مُخَصَّصَة

للأقليات الأقلّ حظّا في المدارس والجامعات والإدارة؛ إنّ هذا التفضيل يخون، في الانطلاق، مبدأ المساواة من أجل خلق مساواة في الوصول، وهي مُقَارَبَةٌ إمبريقية (تجريبية) لا تَتَضَايَقُ من الاعتبارات الفلسفية. مهما كانت العيوب والشوائب، بله ضرر هذا التفضيل، فلا شكّ في أنها أنقذتْ الولايات المتحدة من حرب الأعراق. لقد وُلِدَتْ نُخبَةٌ سوداءُ من هذه السياسية. هذه النخبة تَمَاهَتْ مع الديموقراطيّة الأمريكية، وتَخَلَّت عن إغراء العنف، الذي كان حقيقيّاً، وأصبحت هذه النخبةُ نموذجاً لِكُلّ السّود الأمريكيين.

هل يُمكِنُ أن نَسْتَلْهِمَهَا في فرنسا؟

من غير المُرَجَّح أن يكون مفهومُ التفضيلات كما هي مُطَبَّقَةٌ في الولايات المتحدة مقبولاً من طرف الفرنسيين، ما دام أنه مُخالِفٌ لِعَاداتنا. كما أنه لا يمكننا كذلك، تشبيه وضعية مُمَثِّلِي الجيل الثاني، بشكل كامل، بوضعية السود الأمريكان، الذي يحملون في ذاكرتهم العبوديّة وعنصريّة لا يُمكِنُ مُقارنَتُها بما تعرّض له العربُ. بمجرّد قبول هذه الاختلافات، فسيكون من النافع استلهامُ العمل التأكيدي الأمريكيّ من أجل تطبيقه دون التصريح به، ولا مُخَالَفَة مُحَرَّمَاتِنَا (طابوهاتنا) المُسَاوَاتِية. إنّ كثيرا من المُقَاوَلات الفرنسيّة تقوم بهذا، فهي تعتقد أن من واجبها تَفضيلُ العرب من أجل تفكيك العنف في الأحياء التي توجد بها- وهي وضعية سائدةٌ لدى مقاولات النَّقْل العموميّ. وبنفس العقلية، فإنه من المُسْتَعْجَل أن تقومَ الشرطة بِتَشغيل عدد كبير من ممثلي الجيل الثاني تحت هاجس الفعاليّة والتمثيليّة. لقد تمّت البرهنةُ، في الولايات المتحدة، على أن الصراعات بين الشرطة والشباب السود خفّتْ مُباشَرَةً بعد ولوج السود في الشرطة. إن وسائل الإعلام، لدينا، سَتُشَرّفُ نفسَهَا إذا ما أبرزتْ أفراداً من ممثلي الجيل الثاني في وضعيات غير طباعيّة نمطيّة. وأخيراً فمن واجب الأحزاب السياسيّة أن تتحرك، بصفة حقيقية، ضدّ الإقصاء من خلال وضع ممثلين عن الجيل الثاني في وضعيات قابلة للانتخاب، على المستوى المحليّ والوطنيّ، وليس فقط من أجل الظهور في الأحياء. إن الأحزاب السياسيّة التي تُدِينُ العنفَ ولكنها لا تتحرك من أجل تفكيكه من خلال إدماج ممثلي الجيل الثاني في الحياة العمومية، هي إمّا مُنافِقَةٌ أو مُطلِّعَة بشكل سيّئ.

إنّ المفهومَ الأمريكيّ لدرجة الصفر في التسامح يمكن وضعُهُ على السكّة، إذا ما تمّ تجميع شروط اندماج نشيط وليس سلبيا. وسيكون، في الواقع، من غير المقبول ردع كل جُنْحَة، مهما كانت أهميتها-مبدأ درجة الصّفر في التسامح-، قبل أن يحصل ممثلو الجيل الثاني على الإمكانيّة المحسوسة للاندماج في المجتمع الفرنسيّ. إنّ ما ينطبق، هنا، على الجيل الثاني، ينطبق على كُلّ أقليّة تُعانِي من إبعاد مُماثِلٍ.

أئمّة فرنسيون

إذا كنّا، إلى حدّ الآن، منحنا دوراً رَاجِحاً للديانة الإسلامية، فلأنّ ممثّلي الجيل الثاني تلقوا بِشَكل مُباشِرٍ آثار المجتمع الفرنسي، إحدى المجتمعات الأكثر علمانية، بله الأكثر لا أدرية في العالَم·

لو كان الإسلامُ مجرَّد إيمان، ما كنا لنستطيع أن نَقِيس، بسهولة، حِدَّتَهُ لدى ممثلي الجيل الثاني، ولكن الإسلامَ هو في نفس إيمان ومُمارَسَة· إننا نعرف كم هي ضعيفة هذه الأخيرة(الممارسة) عندهم؛ ومن الواضح أنّ ممثلي الجيل الثاني قايَضوا الرؤية الإسلامية للعالَم مقابل القيم المادية للغرب؛ إنهم يُحِسّون بالغضب الشديد، لأنهم لا يستطيعون تحقيق هذه القيم· إنَّهم لا يَقومون بالتّبشير الدينيّ ولا يطالبوننا بالتخلي عن حضارَتِنَا من أجل مقاسمتهم حضارتهم· إنّ سلوكاتهم هي على النقيض من تصرّفات المُناضِلين الإسلامويين·

إنّ هذه العلمنة للمجتمع، التي تفعل فعلها في المسلمين، تطمس المَعَالِم الأخلاقية الخاصّة بالإسلام؛ إننا حين نُواجِهُ أعمالاً مُخِلَّة بالآداب لدى الجيل الثاني، فإننا نتمنى لو أنهم كانوا متعلقين أكثرَ بالإسلام! الدليل على وجود بنيان أخلاقيّ عبر الإسلام حمله إلى فرنسا مهاجرون سينغاليون ينتمون إلى زوايا دينية مثل الزاوية المُريدِيَّة· فالمُريديون، في السّنغال أو في فرنسا، يحترمون، بشكل صارم، مبَادِئَ الإسلام وكذلك أخلاقيّة العمل الخاصّة بهذا المذهب الدينيّ· وبعيدا عن عزلهم في المجتمع الفرنسيّ، فإنّ هذا النظامَ يسمح لهم بأن يحسوا بالاطمئنان، وأن يكونوا أَقَلَّ مطلبيّة وأقلّ ميلاً إلى مخالفة الآداب· في هذه الحالة الخاصّة، تساهم التعددية الثقافية في الإندماج في فرنسا· إنّ الاختلاط الثقافيّ يُسَهِّلُ الاستقبال من طرف السكان المحليين الذين يحترمون الاختلاف في اللحظة التي يكون فيها أَصِيلاً·

في المقابل، إنّ الغياب الروحي، لدى العرب، يستدعي مبشرين وَوَاعِظين مُتطرّفين· يأتون، على وجه السرعة، من العالم العربي، ويَعتَبِرون فرنسا أرض تبشير· إنّ الإسلام الذي ينشرونه في أمَاكِن الصلاة ليس هو الخطاب الرقيق لدى المتصوفة، ولا تقديس الأولياء· إنّ هؤلاء الوُعَّاظ في الضواحي يقترحون في معظم الأحيان، لِسَاكِنَة مُقْتَلَعَة الجذور، النسخة الأكثر عداءً للحضارة الغربية· يُقَدِّم آخَرون، وهذا صحيحٌ، إسلاماً يشبه وصْفةَ سعادةٍ، نسخة من العصر الجديد New age، مستوحى من الإنْجيليّين أكثر مما هو مستوحى من القرآن· إننا لا نستطيع منعَ هؤلاء التبشيريين من نشر إيمانهم، ولكن من الأفضل أن نَقْتَرِحَ، أيضاً، على العَرَب المحرومين، إسلاماً فرنسا وَفِيّا للقرآن، ولكنه منغمِسٌ في التجربة التي يعيشها ممثّلو الجيل الثاني· يقوم بعضُ المُفتِين بالعمل على هذا، ولكنهم يعانون من عزلة· ومن أجل مُضَاعَفَة عددهم، قام جاك بيرك Jacques Berque، في سنة 1 9 9 0، باقتراح بناء جامعة إسلامية في ستراسبورغ مستفيدا من كون منطقة الألزاس لا تُطَبِّقُ قانون الفصل بين الكنيسة والدولة· وهو مشروعٌ رَاوَدَ الكثيرين، في كثير من الأحيان، وخصوصا جاك شيراك Jacques Chirac، ولكن دون نتيجة ملموسة· هل لأنّ الكنيسةَ الكاثوليكية تُعارِض هذا؟ إنّ هذه الجامعة كانت ستقوم بتكوين أئمّة فرنسيين وهو ما كان سيُجَنِّب اللجوء إلى إحضار أئمة من العالَمَيْن العربي أو الهنديّ، وهم ليسوا مستنيرين في معظمهم· وكانت هذه الجامعة ستستطيع تربية المُخْتَصّين بالإسلام الذين نحتاجهم، والقادرين على

مواجهة الإسلامويين على أرضية اللاّهوت؛ هؤلاء، في فرنسا أم خارجها، يستفيدون، في الواقع، من جهل المسلمين بدينهم. ومن أجل هذا الغرض، يقترح محمد أركون Mohammed Arkoun فتح مدرسة للدراسات الإسلامية في باريس؛ ولكنه لقي نفسَ التَّجَاهُل الذي لقيه جاك بيرك. وفي الحقيقة، فإنه انطلاقاً من فرنسا، يمكن أن يُشِعَّ إسلامُ تَقَدُّم، مثل الإسلام الذي اقترحه جاك بيرك في ترجمته لمعاني القرآن. وهو نفسه كان يحلو له أن يُعرِّفَ نفسه كـأُصُوليّ قريب من المصادر. وهو ما كان يُتيح له أن يَهْزِمَ، في مجادلاته، الإسلامويين المُفْتَقِرين إلى الاستشهادات. ولكن مَنْ يستطيع، اليومَ، أن يَهْزِم الإسلاميين على أرضهم؟ لا أحد في فرنسا. وقد كان جاك بيرك قد اقترح أن تُوضَعَ على زخرف مَدْخَل الكلية الإسلامية في ستراسبورغ، الآيةُ القرآنية التي تقول: لا إكراه في الدين

إنّ تكوين الأئمة والمتخصصين في الإسلام هو أكثر نفعاً من المحاولات المتكرّرة لتشييد سلطات تمثيلية لِمُسلِمِي فرنسا. فَكُلُّ شيء في علم اللاهوت في الإسلام وتاريخه وتنوُّعِه، يَتَعَارَضُ مع مثل هذه السلطات. وإذا كان يتوجب وجودُ واحدةٍ معترف بها من السلطات العمومية، فإنها ستُكَرِّسُ كلَّ طاقَتِهَا لتبرير تمثيليَّتِهَا ولا شيء آخر. كما أن الأمر غريبٌ أن تكون مرتبطةً بوزارة الداخلية، كما لو أنّ الإسلام المنظَّمَ يجب عليه أن يساهم في فرض النظام. بدل هذا الوهم الذي يُشكِّلُه هذا المَجْمَع المحمدي (الإسلامي)، يمكننا، عند اللزوم، الانضمام إلى شورى، وهو مجلس من حكماء محدودي العدد، يتم اختيارُهُم وفق معارفهم وليس وفق تمثيليتهم. هذه المؤسسة الدالّة تستقي المعارف من التقاليد الإسلامية، كما تقوم لجان الحكماء في ممارستنا الجمهورية. وستكون أَقَلَّ تعرّضا للانتقاد من مجلس تمثيليّ بعيد عن النقد.

إذا كنا نريد مسلمين لهم تمثيلية، فمن الأفضل أن يكونوا يمثلون مسلمين مواطنين بدل مسلمين مؤمنين؛ إنّ كُلَّ عمدة مسلم أو كل نائب برلماني مسلم سيكون ضرورياً لاندماج المسلمين في المجتمع أكثر من أي مَجْمَع من الأئمّة. فلْنُحيّي ولوج رجل وامرأة من أُصُول عربيّة في سنة 2 0 0 2، لأوّل مرّة، إلى الحكومة؛ ولنتأَسَّفْ، مع ذلك، من كون الوزير الأوّل لم يعهد إلى هذه الأخيرة إلاّ بمسؤولية متواضعة. هذا لا يمنع من أنّ اليمين الليبيراليّ تجرأ على هذا، في الوقت الذي لم يَقُم بهِ اليسارُ أبداً.

خاتمة

مصائر متقاطعة

من الصعب، وأحياناً من المُؤلم، على المرء، في زمننا، الذي ليس هو بالعصر الذهبيّ للإسلام، أن يكون مُسلماً.

إبراهيم مسجونٌ في القاهرة، لقد تمّ إيقافُهُ في إحدى مُدَاهمات الشرطة، لأنّ لحيته طالتْ مما جعل الشرطة ترتاب في كونه من المتعاطفين الإسلامويين.

في سهل سوس، بجنوب المغرب، يتأَمَّلُ حسن موت بستان الخُضَر، فالآبارُ جَفَّتْ من قيام قريب من المَلِك بتحويل مجرى الماء نحو بساتينه من البرتقال. فهل يتوجّب عليه أن يُهاجِر إلى أوروبا؟

محمد، حاصل على دبلوم الباكلوريا وعاطل عن العمل في الجزائر العاصمة، يَتَسَاءَلُ لماذا يُسانِدُ الفرنسيون الديكتاتورية العسكرية التي تُهَدِّمُ الشعب.

أحمت، صحافيّ من إسطنبول، يأمل من أوروبا قبول بلده في الاتحاد الأوروبي؛ ولكن ها هي أوروبا تُهَدِّد بإغلاق حدودها في وجه تركيا، التي تعتبرها مسلمةً بشكل مُبَالَغ فيه، كي تكون أوروبيةً بشكلٍ حقيقيّ.

في الرياض، بدرية تعيش وحيدةً؛ زوجها يبحث، عبثاً، عن وظيفة ثانية تُتيحُ له إعالة أبنائهما الخمسة. العربية السعودية بدأتْ تعرف الفقر.

في جامعة القدس في مدينة القدس، تَتَعَلَّم ريم اللغة الإنجليزية على أمل مغادرة فلسطين للالتحاق بإخوانها الذين هاجروا إلى كندا؛ إنها تُعارِضُ الأطفال الذين يقومون برشق الإسرائيليين بالحجارة، خوفاً من أن يقوم هؤلاء بإيقاف الدروس.

في طهران، غولي رسّامةٌ. إنّ فكرة ارتداء الشادور من أجل الخروج من البيت، يجعلها تقبع في منزلها منذ شهور. لقد انتظرتْ طويلا من نظام آيات الله أن يُغادروا السلطة. لقد فقدت الأمل.

في إحدى ثانويات لاهور، لا تعرف عائشة لماذا يُفْرَضُ عليها أن تدرُسَ شعر إقبال باللغة الإنجليزية، في الوقت الذي كتب فيه بِلُغَة الأوردو. من شدة معاناتها من العيش في عَالَم تُسَطِّرُ فيه القوانين بعيداً، فهي تكره الغرب وتكره حكومتَها التي يُسانِدُها الغربُ.

في مدينة الكويت، يعيش كافي، منذ سنة 1991، في انتظار العثور على أخيه الذي اعتقله الجنود العراقيون؛ ليست لديه أخبار، ولكنه يتمنى أن يراه من جديد بعد سقوط صدام حسين.

في دكّا، يدفع أكبر سائق دراجة مدفوعة مدخوله الهزيل مقابل دراسة ابنه في إحدى المدارس. إذا كانت معه البركة، فإنّ ابنه طالب سيصبح من رجال الدين؛ وإلاّ سيصبح تاجر مخدرات، أو إرهابيا، أو الاثنين معاً.

سعيدة، عاملة في مقاولة للإعلاميات في كوالا لامبور، لا تفهم لماذا يُرغِمُها إخوانُهَا على ارتداء اللفاع الإسلاميّ؛ إنها تُفَضّل وضع خاتم في أنفها وأذنيها.

عبد الله الذي تَظَاهَر مع رفاقه في جاكارتا من أجل إسقاط الديكتاتورية العسكريّة، مصابٌ بالخيبة. فالشرطة تظلّ عشوائية، والجيشُ يُهَيّئ عودته إلى السلطة.

في بوبيني، بالضاحية الباريسية، لا يعثُر فاضل على شُغل؛ فهو، من دون شكّ، لا يملك لا السحنة الجميلة ولا العنوان الجيد؛ في النهار يلعب كرة القدم في انتظار مغامرات الليل...

إننا نستطيع مُضاعَفَة بورتريهات شخصيات أنهَكَهَا الفقرُ والاستبدادُ والاستلاب وزوال الوهم. إن الخبرَ أصبحَ مُعَوْلَماً، وهكذا فهم يَرَوْن التناقض بين الإسلام، الذي تمّ تلقينه لهم على أساس أنه كامِلٌ، وبين وَاقِعٍ لا يُشبِهُهُ البتّة. كيف لا يُؤْخَذون بروح التمرّد؟ ولكنْ ضدَّ مَنْ؟

من هو، تحديداً، عدوُّ الإسلام: الغربُ، أم المستبدّون المسلمون؟ والمستقبلُ، هل ينتمي للانطواء في التمامية أم في انفتاح الإسلام على الحداثة؟ المسلمون يتردّدون. إنهم ليسوا الوحيدين: فَالمجتمعات الغربية، بِدَرَجة أقلّ، تترنَّحُ بين مُؤَيّدي مجتمع مفتوح وبين مَنْ يريد الطائفيّة.

التمامية؟ إننا نرى أنها تقود إلى الحرب، ليس بين الحضارات، كما نسمع من يبالغ في الإدّعاء، ولكن إلى حرب بين الإسلامويين والمسلمين. أحيانا يكون الغربيون ضحايا هذه الحرب التي بدأت، ولكنهم لا يُشَكِّلون الهدفَ الرئيسيّ: لأنّ الرّهَان الحقيقيَّ هو الإستيلاء على السلطة في الدول الإسلامية. الفصل مُصالحَةُ الإسلام مع الحداثة؟ لقد استنتج رفاعة، منذ ما يقرب من قرنين بأنّ العلوم الغربية لا تَتَنَاقَضُ مع العقل الشرقيّ؛ ما زال تقدّميون وليبيراليون مسلمون يواصلون بحثَهُ. إنهم يوجدون في كل مكان في المجتمعات الإسلامية، ولكنَّنَا لا نُعِيرُهُمْ انتباها. إنّ أبناء رفاعة هؤلاء، يُسَمُّون نوال السعداوي، مناضلة نسوانية في القاهرة؛ نور فيرجين الذي يُلَقّن العقل النقدي لطلبة اسطنبول؛ أكبر غاندجي، صحافيّ ديموقراطي معتقل في طهران؛ أحمد أبو دهمان كاتب سعوديّ، منفي في باريس؛ في جاكارتا، نورشوليش مجيد عالم تربية مسلم متنوّر؛ منصور حسن مناضل محارب للفساد في دكّا؛ أحمد بشارة، مناضل ليبيراليّ في الكويت؛ في نيويورك، كنعان مكية الذي يكتب دستورا للعراق المُحَرَّر؛ في باريس، محمد أركون، الذي يقتَرِحُ تأسيس مدرسة دراسات إسلامية لمواجهة الإسلامويين والمصابين بالخوف المَرَضيّ من الإسلام بمعرفة حقيقية للإسلام.

وكل الذين أسحب أسماءهم كي لا أعرض حياتَهُم للخطر.

إنّ مصير أبناء رفاعة رَهِينٌ بِتَضَامُنِنَا؛ وإنّ أمْنَنَا رهينٌ بِمَصِيرهِمْ.

بولوني ديسمبر 2 0 0 3

مصادر ومراجع

هذا الكتاب هو في الأساس نتيجة لبحوث في البلاد المعنية، أجريت بين أيلول عام 2001 و تشرين الثاني 2002· بعض العناصر هي نتيجة ذكريات قديمة، ترجع في حالة إيران، المغرب وإسرائيل إلى سنوات السيتينات ؛ ولمصر وجاوة في سنوات السبعينات، وإلى الثمانينات فيما يخص الكويت·

الأعمال المختارة خدمت لتثبيت، وتدقيق وتكميل المعلومات المحصودة بالقرب من عدة مئات من المحاورين المنتميين إلى طبقات المجتمع وإلى كل الميول الإسلامية· عدد كبير منهم سيشكرني لعدم ذكري لهم ؛ أما الباقون فسيسامحونني لتعدادي الشاسع للمراجع للقراءة· كتبت الأسماء الشخصية في اللغة الفرنسية حسب الإملاء الاقرب والصالح لتسهيله على القارئ

تعليق: أشكر الكاتب محمد مزديوي للمراجعة التي قدمها لبعض الفصول· المترجمة مرام المصري لو رانسي 2002/8/3·

LES ENFANTS DE RIFAA

أبناء رفاعة الطهطاوي

مسلمون وحداثيّون

